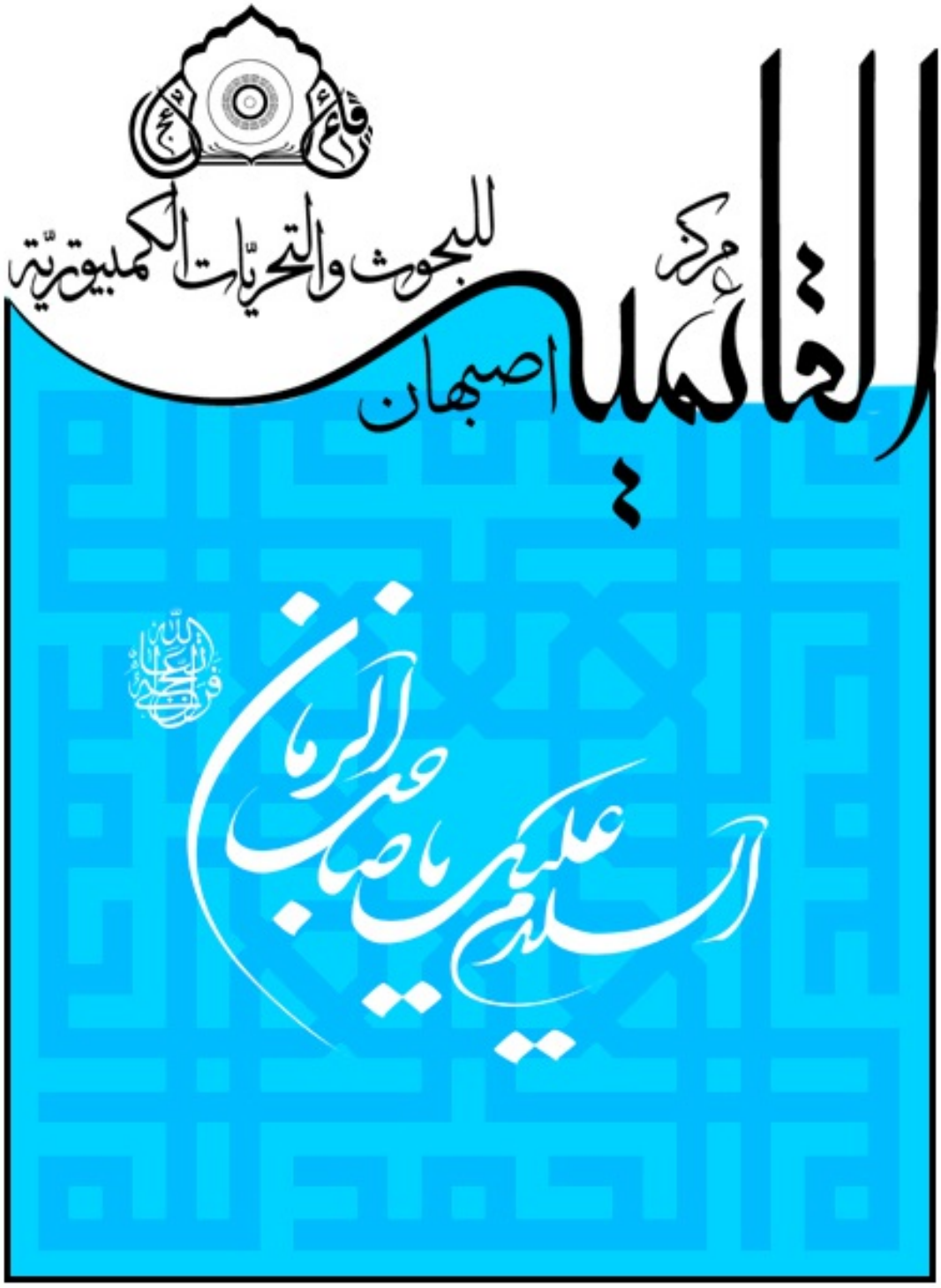


www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

# نفح الطيب

## من غصن الأندلس الرطيب

وذكر قاضي عياض ابن عبد الله

للشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني

المجلد الثامن

تحقيق

يوسف الشيخ محمد البقاعي

إشراف

مكتب البحوث والدراسات

في

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

# نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

كاتب:

مقرى، احمد بن محمد

نشرت فى الطباعة:

دارالفكر

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

# الفهرس

الفهرس ----- ۵
نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب المجلد ۸ ----- ۱۱
اشارة ----- ۱۱
[تتمة القسم الثانی] ----- ۱۱
[صلة الباب الخامس من القسم الثانی فی إیراد جملة من نثر لسان الدین] ----- ۱۱
اشارة ----- ۱۱
[خطبة کتاب فی المحبة للسان الدین] ----- ۱۱
خطبة الأعراس، و توطئة الغراس، و تنحصر فی جملتین: ----- ۱۸
[خاتمة خطبة کتاب المحبة] ----- ۲۱
[من کلام لسان الدین فی عدد فرق الاعتزال] ----- ۲۵
[موعظة من إنشاء لسان الدین] ----- ۲۹
[من إنشاء لسان الدین یخاطب طالب موعظة] ----- ۳۳
[رسالة منه إلی شیخ الموحدین بتونس] ----- ۳۸
[خطبة له یبشر فیها بالفتح] ----- ۴۰
[خطابه إلی سلطان فاس] ----- ۴۱
[من إنشائه علی لسان ابن سلطانه] ----- ۴۲
[ظهیر من إنشائه بتولیة ابن سلطانه مشیخة الغزاة] ----- ۴۳
[ظهیر من إنشائه فی تقلید الأمیر سعد] ----- ۴۵
[من إنشائه إلی سلطانه و قد عاد لملکه] ----- ۴۶
[و من إنشائه ما خاطب به عبد اللّه التونسی] ----- ۴۷
[من إنشائه علی لسان سلطانه إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم] ----- ۴۸
[خطبة للمقری علی منوال لسان الدین] ----- ۶۰
[من کلام لسان الدین یخاطب السلطان أبا زیان] ----- ۶۰

[من كلامه يخاطب شيخ الدولة يحيى بن رحو] ----- ۶۳
[من كلامه يخاطب شيخه ابن مرزوق فى شفاعة] ----- ۶۳
[من كلامه يخاطب أبا زيد بن خلدون الرئيس] ----- ۶۴
[من رسالة له كتب بها إلى الفقيه أبى زكريا بن خلدون لما ولى الكتابة عند أبى حمو سلطان تلمسان] ----- ۶۷
[من مخاطباته ما كتب به إلى صاحبه العلامة أبى القاسم بن رضوان] ----- ۶۹
[من كلامه يخاطب شيخ العرب المبارک بن إبراهيم] ----- ۶۹
[من كلامه يخاطب شيخه أبا عبد اللّه بن مرزوق] ----- ۷۰
[من إنشائه ظهير كتابه على لسان سلطانه لأحد الفقهاء و قد ولاه استكشاف أحوال الرعية] ----- ۷۱
[من إنشائه عند قبر السلطان أبى الحسن المدينى و قد لجأ إلى ولده] ----- ۷۲
[من إنشائه يخاطب الوزير المتغلب على بلاد المغرب] ----- ۷۳
[من إنشائه أيضا إلى وزير المغرب على أثر الفتح الذى تكيف له] ----- ۷۴
[من إنشائه إلى وزير المغرب بسلا] ----- ۷۵
[من إنشائه معزيا الرئيس عامر بن محمد الهنتانى] ----- ۷۶
[من إنشائه يخاطب الرئيس عامر بن محمد الهنتانى] ----- ۷۷
[من إنشائه يخاطب شيخ الدولة و قد أبل من مرضه] ----- ۷۷
[من إنشائه يخاطب شيخه ابن مرزوق جوابا عن كتاب منه] ----- ۷۸
[من إنشائه جواب عن كتاب ورد إليه من الفقيه الكاتب ابن الثغرى على لسان سلطان تلمسان] ----- ۸۲
[من إنشائه فى السياسة، قصة عن الرشيد] ----- ۸۴
[نماذج قصار من نثر لسان الدين فى علية أهل زمانه و فى وصف بعض البلدان] ----- ۹۰
[وصف بسطة للقلصادى و لابن مرزوق] ----- ۹۱
[من إنشاء لسان الدين ما خاطب به السلطان على لسان جدته] ----- ۹۱
[من شعر لسان الدين فى مدح الرسول صلّى اللّه عليه و سلم] ----- ۹۲
[قصيدة له فى يوم ميلاد الرسول صلّى اللّه عليه و سلم عام ۷۶۲] ----- ۹۳
[من نظم لسان الدين يخاطب السلطان أبا عنان على أثر انصرافه من بابه] ----- ۹۶

[قصیدة له یهنئ بها السلطان و قد أعذر أولاده] ----- ۹۹
[من نظمه عن کتاب أبیات الأبیات و الکتاب المسمی: الصیب و الجهام] ----- ۱۰۲
[من شعره یتشوق إلی قصر بادیس] ----- ۱۰۹
[من لامیته المسماة، المنح الغریب فی الفتح القریب، التی خاطب بها سلطانه حین عاد لملکه من المغرب] ----- ۱۱۰
[من نظمه یخاطب عبد الواحد بن زکریا ابن سلطان إفریقیة] ----- ۱۱۲
[من نظمه ما کتب علی مدرسة بناها السلطان أبو الحجاج و إجازة بینه و بین ابن الحجاج و قد مرا ببعض مسالک غرناطة] ----- ۱۱۲
[من نظمه فی توریة طبیة، و یخاطب ابن مرزوق، و یخاطب أحد الشرفاء] ----- ۱۱۳
[من نظمه: و قد مر بدار أحد الأغنیاء، و فی الشیخ ابن بطان] ----- ۱۱۴
[و من نظمه عند ما انتابه برغوث و یخاطب ابن حسون فی صدر رسالة] ----- ۱۱۴
[من نظمه فی عثمان بن یحیی و من نظمه و قد وقف علی مراکش من نظمه یخاطب أحمد بن یوسف] ----- ۱۱۵
[و من نظمه نماذج صغار شتی] ----- ۱۱۶
[ترجمة العارف بالله أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر، الأندلسی، نزیل سلا] ----- ۱۱۸
[رجع إلی نظم لسان الدین: مداعباته و من شعره عند ما وقف علی قبر المعتمد بالله فی مدینة أغمات] ----- ۱۲۰
[من نظمه: یخاطب ضریح السلطان أبا الحسن بشالة لاستنهاض عزیمته فی قضاء غرضه] ----- ۱۲۰
[من نظمه: یخاطب السلطان أبی الحجاج و فی التوریة] ----- ۱۲۲
[من نظمه فی التوریة و التجنیس] ----- ۱۲۲
[من نظمه: یهنئ سلطان تلمسان أبا حم] ----- ۱۲۳
[بین أبی عبد اللّه بن جزی و بعض أهل فاس] ----- ۱۲۴
[قصیدة لأبی زکریا یحیی بن خلدون یحذو فیها حذو لسان الدین] ----- ۱۲۹
[حدیث عن احتفال السلطان أبی حمو بالمولد النبوی الشریف] ----- ۱۳۱
[مقطوعات لأبی زکریا یحیی بن خلدون] ----- ۱۳۲
[حدیث عن الموشحات و الأزجال: نشأتها، تدرجها، أنواعها] ----- ۱۳۳
[من اشتهر من الوشاحین] ----- ۱۳۴
[موشحة ابن سهل التی عارضها لسان الدین و موشحة لسان الدین التی یعارض بها ابن سهل] ----- ۱۳۶

[استحداث العامة فن الزجل] ----- ۱۳۸
[ترجمة أبی بکر بن باجة آخر فلاسفة الإسلام ببلاد الأندلس (ابن الصائغ)] ----- ۱۴۰
[ترجمة أبی بکر بن باجة آخر فلاسفة الإسلام ببلاد الأندلس (ابن الصائغ)] ----- ۱۴۴
[من نظم ابن باجة الصائغ الفیلسوف] ----- ۱۴۵
[ترجمة الفتح بن خاقان و فیها ذکر سبب العداوة التی کانت بینه و بین ابن باجة] ----- ۱۴۵
[من نثر الفتح بن خاقان] ----- ۱۴۶
[ترجمة الفتح بن خاقان عن المغرب و من شعره] ----- ۱۴۷
[من بدیع إنشاء ابن خاقان] ----- ۱۴۹
[من ترجمة أبی بکر الزبیدی اللغوی] ----- ۱۵۰
[من ترجمة أبی مروان عبد اللّه بن المعتصم بن صمادح] ----- ۱۵۱
[من ترجمة أبی یحیی بن المعتصم، رفیع الدولة ابن صمادح] ----- ۱۵۲
[من ترجمة الوزیر أبی الولید بن حزم] ----- ۱۵۳
[من ترجمة أبی بکر الغسانی و أبی عامر بن عقال] ----- ۱۵۴
[من ترجمة أبی مروان الطبنی] ----- ۱۵۵
[من ترجمة الفقیه أبی عمر أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفرید] ----- ۱۵۵
[من ترجمة أبی القاسم المنیشی] ----- ۱۵۷
[من ترجمة أبی الحسن البرقی] ----- ۱۵۸
[من ترجمة أبی الحسن علی بن جودی] ----- ۱۵۹
[نماذج من شعر الفتح بن خاقان] ----- ۱۶۱
[نماذج من نثر الفتح بن خاقان] ----- ۱۶۱
[نماذج من نثر الفتح بن خاقان] ----- ۱۶۲
[بعض أهل المغرب یعارض موشحة ابن سهل] ----- ۱۶۳
[موشحة للسان الدین بن الخطیب] ----- ۱۶۵
[لسان الدین یؤلف کتاب: جیش التوشیح، ثم یذیل علیه وزیر القلم بالمغرب عبد العزیز القشتالی و موشحة أبی العقاد] ----- ۱۶۶

[موشحة لبعض أهل مراكش] ----- ۱۶۷
[موشحة للسلطان منصور و مقطوعات أخرى من نظمه] ----- ۱۶۸
[موشحة بعض أذكياء الأصحاب فى مديح المقرى] ----- ۱۷۳
[من موشحات لسان الدين] ----- ۱۷۵
[موشحة لعثمان الملطى فى مدح القاضى الفاضل] ----- ۱۷۷
[موشحة للشهاب العزازى] ----- ۱۷۷
[موشحة الموصلى التى عارضها الشهاب العزازى] ----- ۱۸۰
[الباب السادس من القسم الثانى من الكتاب فى مصنفات لسان الدين] ----- ۱۸۲
[لسان الدين يذكر مؤلفاته فى الترجمة التى عقدها لنفسه فى الإحاطة] ----- ۱۸۲
[استدراک للمؤلف بذكر مؤلفات لسان الدين بعد كتابته ترجمته و ابن الأحمر يتحدث عن مصنفات لسان الدين] ----- ۱۸۳
[حديث عن روضة التعريف، أحد مؤلفات لسان الدين و بقية مؤلفاته] ----- ۱۸۳
[حديث عن كتاب الإحاطة أحد تآليفه، و مختصره: مركز الإحاطة فى أدباء غرناطة، للبدر اليشتكى] ----- ۱۸۴
[حجة سلطانية بوقف كتاب الإحاطة] ----- ۱۸۴
[لسان الدين يقف نسخة من كتاب الإحاطة بخانقاه سعيد السعداء بمصر] ----- ۱۸۵
[المؤلف يرى خطوط جماعة من العلماء على نسخة الإحاطة بمصر] ----- ۱۸۶
[ابن الأحمر يبين أصول ابن الخطيب فى كتابه الإحاطة] ----- ۱۸۷
[ترجمة أبى إسحاق إبراهيم بن عبد اللّه بن الحاج الغرناطى (عن الإحاطة)] ----- ۱۸۷
[قصيدة لمحمد بن الثغرى يمدح فيها أبا حمو سلطان تلمسان] ----- ۱۹۴
[قصيدة أبى المكارم قنديل ابن صاحب المقدمة الآجرومية فى فاس] ----- ۱۹۶
[قصيدة أخرى للثغرى يمدح تلمسان و سلطانها] ----- ۱۹۷
[القاضى المزدغى يمدح فاس، و لسان الدين يمدح تلمسان] ----- ۲۰۰
[لأبى عبد اللّه التلاليسى فى تلمسان] ----- ۲۰۰
[قصيدة ابن خميس فى مدح تلمسان] ----- ۲۰۱
[حديث عن تلمسان لأبى زكريا يحيى بن خلدون فى كتابه: بغية الرواد فى أخبار بنى عبد الواد، و أيام أبى حمو الشامخة الأطواد] ----- ۲۰۳

[وصف لسان الدين لمدينة تلمسان] ----- ۲۰۳

[المقرى مؤلف الكتاب يتحدث عن تقلباته فى البلاد و تواريخها و ترجمة أبى مدين] ----- ۲۰۴

فهرس الرسائل و الخطب و الظهائر للجزء الثامن من كتاب نفح الطيب ----- ۲۰۸

فهرس موضوعات الجزء الثامن من كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى ----- ۲۰۹

صلة الباب الخامس من القسم الثانى ----- ۲۰۹

الباب السادس من القسم الثانى من الكتاب ----- ۲۱۲

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ----- ۲۱۳

# نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب المجلد ۸

## اشارة

نام كتاب: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

نويسنده: مقرى، احمد بن محمد

تاريخ وفات مؤلف: ۱۰۴۱ ه. ق

محقق / مصحح: بقاعى، يوسف

موضوع: جغرافياى شهرها

زبان: عربى

تعداد جلد: ۱۰

ناشر: دار الفكر

مكان چاپ: بيروت

سال چاپ: ۱۴۱۹ ه. ق

## [تتمة القسم الثانى]

## [صلة الباب الخامس من القسم الثانى فى إيراد جملة من نثر لسان الدين]

### اشارة

الباب الخامس

### [خطبة كتاب فى المحبة للسان الدين]

و من نثر لسان الدين رحمه اللّه تعالى خطبة كتاب فى المحبة الذى ما ألف فى فنّه أجمع منه، و لنوردها فإنّ فيها دلالة على فضله و عظم قدر الكتاب، و هى: «اللهمّ طيّب بريحان ذكرك أنفاس أنفسنا الناشقة، و علّل بجريال حبّك جوانح أرواحنا العاشقة، و سدّد إلى أهداف معرفتك نبال نبلنا الراشقة، و استخدم فى تدوين حمدك شبا أقلامنا الماشقة، و دلّ على حضرة قدسك خطرات خواطرنا الذائقة، و أبن لنا سبل السعادة التى جعلت فيها الكمال الأخير لهذه الأنفس الناطقة، و اصرفنا عند سلوكها عن القواطع العائقة، حتى نأمن مخاوف أجبالها الشاهقة، و أحزابها المنافقة، و أوهامها الطارقة، و برازخها الغاسقة، فلا تسرق بضائعنا العوائد السارية السارقة، و لا تحجبنا عنك العوارض الجسمية اللاحقة، و لا الأنوار المغلظة البارقة، و لا العقول المفارقة، يا من له الحكمة البالغة و العناية السابقة، و صلّ على عبدك و رسولك محمد درّة عقود أحبابك المتناسقة، و جالب بضائع توحيدك النافقة، المؤيد بالبراهين الساطعة و المعجزات الخارقة، ما أطلعت أفلاك الأدواح زهر أزهارها الرائقة، وحدت قطار السحائب حداة رعودها السائقة، و جمعت ريح الصّبا بين قدود أغصانها المتعانقة.

«أمّا بعد، فإنه لمّا ورد على هذه البلاد الأندلسية المحروسة بحدود سيوف اللّه حدودها، الصادقة بنصر اللّه للفئة القليلة على الفئة الكثيرة وعودها، و صل اللّه تعالى عوائد صنعه الجميل لديها، و أبقاها دار إيمان إلى أن يرث اللّه تعالى الأرض و من عليها- «ديوان الصبابة» - و هو الموضوع الذى اشتمل من أبطال العشّاق على الكثير، و استوعب من أقوالهم الحديثة و القديمة كلّ نظيم و نثير، و

أسدى فى غزل غزله و ألحم، و دلّ على مصارع شهدائهم من وقف

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۴

و ترحّم، فصدّق الخبر المخبر، و طمت اللوّعة التى لا تعبر، و تأرّج من مسراه المسك و العنبر، و قالت العشّاق عند طلوع قمره: اللّه أكبر: [السريع]

مررت بالعشّاق قد كبّروا و كان بالقرب صبىّ كريم

فقلت: ما بالهم؟ قال لى ألقى للحبّ كتاب كريم

و لا غرو أن أقام بهذه الآفاق، أسواق الأشواق، و زاحم الزفرات فى مسالك الأطواق، و أسال جواهر المدامع من بين أطباق تلك الحقاق، و فتك نسيمها الضعيف العهد و الميثاق بالنفوس الرقاق: [المجتث]

جنى النسيم علينا و ما تبيّنت عذره

إذ صيّر الخلق نجدا و الأرض أبناء عذره

فوقع للحجة المصرية التسليم، و قالت ألسنة الأقلام معربة عن ألسنة الأقاليم:

سلّمت لمصر فى الهوى من بلد يهديه هواؤه لدى استنشاقه

من ينكر دعواى فقل عنّى له تكفى امرأة العزيز من عشّاقه

فغمر المحافل و المجالس، و استجلس الراكب و استركب الجالس، يدعو الأدب إلى مأدبته فلا يتوقّف، و يلقى عصا سحره المصرى فتتلقّف، ما شئت من ترتيب غريب، و تطريب من بنان أريب، يشير إلى الشعر فتنقاد إليه عيونه، و يصيح بالأدب الشريد فتلبّيه فنونه، و أنهى خبره للعلوم المقدّسة، و مدارك العزّ الموطّدة المؤسّسة، سما به الجدّ صعدا إلى المجلس السلطانى مقرّ الكمال، و مطمح الأبصار و الآمال، حيث رفارف العزّ قد انسدلت، و موازين القسط قد عدلت، و فصول الفضل قد اعتدلت، و ورق أوراق المحامد قد هدلت، مجلس السلطان المجاهد، الفاتح الماهد، المتحلّى فى ريعان العمر الجديد، و الملك السعيد، بحلى القانت الزاهد، شمس أفق الملّة، و فخر الخلفاء الجلّة، بدر هالات السروج المجاهدة، أسد الأبطال البارزة إلى حومة الهياج الناهدة، معشى الأبصار المشاهدة، مظهر رضا اللّه تعالى عن هذه الأمة الغريبة عن الأنصار و الأقطار، من وراء أمواج البحر الزخار، باختياره لها و اعتيامه، و ملبسها برود اليمن و الأمان ببركة أيامه، و من أطلع اللّه تعالى أنوار الجمال من أفق جبينه، و أنشأ أمطار السماح من غمام يمينه، و أجرى فى الأرض المثل السائر بحلمه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۵

و بسالته و دينه، أمين اللّه تعالى على عهدة الإسلام بهذا القطر و ابن أمينه و ابن أمينه، فخر الأقطار و الأمصار، و مطمح الأيدى و ملمح الأبصار، و سلالة سعد بن عبادة سيد الأنصار، و من لو نطق الدين الحنيفى لحيّاه و فدّاه، أو تمثّل الكمال صورة ما تعدّاه، مولانا السلطان الإمام العالم العامل المجاهد أمير المسلمين أبو عبد اللّه ابن مولانا أمير المسلمين أبى الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر الأنصارى الخزرجى، جعل اللّه تعالى ثغر الثغر مبتسما عن شنب نصره! و الفتح المبين مذخورا لعصره! كما قصر آداب الدين و الدنيا على مقاصير قصره! و سوّغه من أشتات مواهب الكمال ما تعجز الألسن عن حصره! و لا زالت أفنان أقلامه تتحف الأقاليم بجنىّ فنون هصره! فخصّته عين استحسانه أبقاه اللّه تعالى بلحظة لحظ، و ما يلقّاها إلّا ذو حظّ، و صدرت إلىّ منه الإشارة الكريمة بالإملاء فى فنّه، و المنادمة على بنت دنّه، و حسب الشحم من ذى ورم و اللّه سبحانه يجعلنى عند ظنّه، و متى قورن المثرى بالمترب، أو وزن المشرق بالمغرب؟ شتّان بين من تجلى الشمس منه فوق منصتها، و بين من يشرق أفقه الغربى لابتلاع قرصتها، لكنى امتثلت، ورشت و نثلت، و مكرها لا بطلا مثلت، و كيف يتفرّغ للتأليف، و يتفرع للوفاء بهذا التكليف، من حمل الدنيا فى سنّ الكهولة على كاهله، و ركض طرف الهوى بين معارفه و مجاهله، و اشترى السهر بالنوم، و استنفد سواد الليل و بياض اليوم،

فى بعث يجهز، و فرصة تنهز، و ثغر للدين يسدّ، و أزر للملك يشدّ، و قصّة ترفع، و وساطة تنفع، و عدل يحرص على بذله، و هوى يجهد فى عذله، و كريم قوم ينصف من نذله، و دين تزاح الشوائب عن سبله، و سياسة تشهد للسلطان بنبله و إصابة نبله، ما بين سيف و قلم، و راحة و ألم، و حرب و سلم، و نشر علم أو علم، و جيش يعرض، و عطاء يفرض، و قرض حسن للّه تعالى يقرض، فى وطن توافر العدوّ على حصره، و دار به دور السوار على خصره، و ملك قصر الصبر و التوكّل على قصره، و عدد نسبته

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ۶

من العدد العظيم الطاقة، الشديد الإضاقة، نسبة الشعرة من جلد الناقة، و بالله نستدفع المكروه، و إليه نمدّ الأيدى و نصرف الوجوه، و سألت منه- أيّده اللّه تعالى!- القنوع بما يسّره الوقت، ممّا لا يناله المقت، و الذهاب بهذا الغرض لما يليق بالترب و السّنّ، و يؤمن من اعتراض الإنس و الجنّ، و ما كنت ممّن آثر على الجدّ الهزل، و اعتاض من الغزل الرقيق الغزل بشيمة الجزل، و لا آنف من ذكر الهوى بعد أن خضت غماره، و اجتنيت ثماره، و أقمت مناسكه و رميت جماره، و ما أبرّئ نفسى إنّ النفس لأمّارة، فالهوى أوّل تميمة قلّدتنى الداية، و الترب التى عرفتها فى البداية، و أنا الذى عن عروته نبت، و بعثت إلى الرصافة لأرقّ فذبت، إلى أن تبيّن الرشد من الغى، و صار النشر إلى الطى، و تصايح ولدان الحىّ، كذلك كنتم من قبل فمنّ اللّه عليكم كما منّ علىّ: [الطويل]

جزى اللّه عنى زاجر الشيب خير ما جزى ناصحا فازت يداه بخيره

ألفت طريق الحبّ حتى إذا انتهى تعوّضت حبّ اللّه عن حبّ غيره

حال السواد بحال الفؤاد، و صوّح المرعى فانقطعت الرّوّاد، و نهانى ازورار خيال الزوراء، و التفات عاذل الشيب عن المقلة الحوراء، و كيف الأمان، و قد طلع منه النذير العريان، يدلّ على الخبر بخبره، و ينذر بهاذم اللّذّات على أثره، و للّه درّ القائل: [المتقارب]

دعتنى عيناك نحو الصّبا دعاء يردّد فى كلّ ساعه

فلو لا، و حقّك، عذر المشيب لقلت لعينيك: سمعا و طاعه

و لو لا أن طيف هذا الكتاب الوارد طرق مضاجعى و قد كاد يبدو الحاجب، و يضيع من الفرض الواجب، و يعجب من نوم الغفلة العاجب، لجريت معه فى ميدانه، و عقدت بنانى ببنانه، و تركت شانى و إن رغم الشانى لشانه، و قلت معتذرا عن التهويم فى بعض أحيانه: [الكامل]

أهلا بطيفك زائرا أو عائدا تفديك نفسى غائبا أو شاهدا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٧

يا من على طيف الخيال أحالنى أتظنّ جفنى مثل جفنك راقدا

ما نمت، لكنّ الخيال يلمّ بى فيجلّه طرفى فيطرق ساجدا

و من العصمة أن لا تجد، هلّا قبل المشيب، و مع الزمن القشيب، و قبل أن تمخض القربة، و تبنى الخانقاه و التربة، و تونس بالله الغربة، و على ذلك فقد أثر، وباء قلبى المعثر، اللهمّ لا أكثر: [الكامل]

و بدا له من بعد ما اندمل الهوى برق تألّق موهنا لمعانه

يبدو كحاشية الرداء و دونه صعب الذرا متمنّع أركانه

فبدا لينظر كيف لاح، فلم يطق نظرا إليه ورددت أشجانه

فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه و الماء ما سمحت به أجفانه

و جعلت الإملاء على حمل مؤازرته أيّده اللّه تعالى علاوة، و بعد الفراغ من ألوان ذلك الخوان حلاوة، و قلت أخاطب مؤلّف كتاب «الصبابة» بما يعتمده جانب إنصافه، و يغطى على نقصى إن وقع فيه كمال أوصافه: [الكامل]

يا من أدار من الصبابة بيننا قدحا ينمّ المسك من ريّاه

و أتى بريحان الحديث فكلّما سمح النديم براحه حيّاه

أنا لا أهيم بذكر من قتل الهوى لكن أهيم بذكر من أحياه

و عنّ لى أن أذهب بهذا الحبّ المذهب المتأدى إلى البقاء، الموصّل إلى ذروة السعادة فى معارج الارتقاء، الذى غايته نعيم لا ينقضى أمده، و لا ينفد مدده، و لا يفصل وصله، و لا يفارق الفرع أصله، حبّ اللّه المبلغ إلى قربه، المستدعى لرضاه و حبّه، المؤثر بالنظر إلى وجهه، و يا لها من غاية، الملقى رحل المتّصف به بعد قطع بحار الفناء على ساحل الولاية.

«و كنت وقفت من الكتب المؤلفة فى المحبة على جملة منها كتاب يشهده العوام، و يستخفّه الهوام، و رسالة ابن واصل رسالة مهذارة، تطفو من دارة إلى دارة، فى مطاردة هرّ و فارة، و كتاب ابن الدباغ القيروانىّ كتاب مفرقع، و وجه المقصود منه متبرقع، و كتاب ابن خلصون و هو أعدلها لو لا- بداوة تسم الخرطوم، و تناسب الجمل المخطوم، فكنت بما ذكر لا أقنع، و أقول ما أصنع، فاللّه يعطى و يمنع: [مجزوء الخفيف]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۸

قلت للساخر الذى رفع الأنف و اعتلى

أنت لم تأمن الهوى لا تعيّر فتبتلى

شعر: [الكامل]

و عذلت أهل العشق حتى ذقته فعجبت كيف يموت من لا يعشق

و من المنقول: لا تظهر الشماتة بأخيك، فيعافيه اللّه و يبتليك: [الوافر]

بلانى الحبّ فيك بما بلانى فشانى أن تفيض غروب شانى

أجل بلانى بالغرض الذى هو من القلوب سرّ أسرارها، و من أفنان الأذهان بمنزلة أزهارها، و من الموجودات و أطوارها قطب مدارها؛ ليكون كتابى هذا المقدم على المأزق المهلك، المتشبّع بما لا يملك، و أن يقنع الاتّصاف، فعسى أن يشفع الإنصاف، و الاقتراف، يدرؤه الاعتراف، أنا عند المنكسرة قلوبهم، و لا تجود يد، إلّا بما تجد، و كل ينفق ممّا آتاه اللّه: [البسيط]

و ابن اللّبون إذا ما لزّ فى قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس

و عسى الذى أنطق شوقا، أن ينطق ذوقا، و الذى حرّك سفلا أن يحرّك فوقا، و الذى يسّره مقالا، أن يكفيه حالا: [البسيط]

فأول الغيث طلّ ثم ينسكب

[الوافر]

الحرب أول ما تكون لجاجة

[الوافر]

و إنّ الحرب أولها الكلام

نحمد اللّه سبحانه على الكلف بهذه الطريقة وَ ما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ [سورة فصلت، الآية: ۳۵] و للأرض نصيب من كأس الكريم: [الطويل]

أليس قليلا نظرة إن نظرتها إليك؟ و كلّا ليس منك قليل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۹

[الخفيف]

فاتنى أن أرى الديار بطرفى فلعلّى أرى الديار بسمعى

و على ذلك فذهبت فى ترتيبه أغرب المذاهب، و قرعت فى التماس الإعانة باب الجواد الواهب، و أطلعت فصوله فى ليل طلوع نجوم

الغياهب، و عرضت كتائب العزيمة عرضا، و أقرضت اللّه قرضا، و جعلته شجرة و أرضا، فالشجرة المحبّة مناسبة و تشبيها، و إشارة لما ورد فى الكتب المنزلة و تنبيها، و الأرض النّفوس التى تغرس فيها، و الأغصان أقسامها التى تستوفيها، و الأوراق حكاياتها التى تحكيها، و أزهارها أشعارها التى تحييها، و الوصول إلى اللّه تعالى ثمرتها التى نذّخرها بفضل اللّه و نقتنيها، شجرة لعمر اللّه يانعة، و على الزعازع متمانعة، ظلّها ظليل، و الطرف عن مداها كليل، و الفائز بجناها قليل، رست فى التخوم، و سمت إلى النجوم، و تنزّهت عن أعراض الجسوم، و الرياح الحسوم، و سقيت بالعلوم، و غذيت بالفهوم، و حملت كمائمها بالزهر المكتوم، و وفيت ثمرتها بالغرض المروم، فاز من استأثر بجناها، و تعنّى من عنى بلفظها دون معناها، فمن استصبح بدهنها استضاء بسناها، ما أبعدها و ما أدناها، عينا ملأت الأكفّ بغناها، كم بين أوراقها من قلب مقلّب، و فى هوائها من هوى مغلّب، و كم بين أفنانها من صادح، و كم فى التماس سقيطها من كادح، و كم دونها من خطب فادح، و لأربابها من هاج و مادح، تنوّعت أسماؤها، و لم تتنوّع أرضها و لا سماؤها، فسميت نخلة تهزّ و تجنى، و زيتونة مباركة يستصبح بزيتها الأسنى، و سدرة إليها ينتهى المعنى، أصلها للوجود أصل، و ليس لها كالشجر جنس و لا فصل، و تربتها روح و نفس و عقل، و شرفها يعضّده بديهة و نقل، يحطّ الهائمون بفنائها، و يصعد السالكون حول بنائها، تخترق السبع الطباق ببراقها، و تمحى ظلم الحس بنور إشراقها، فسبحان الذى جعلها قطب الأفلاك، و مدافن الأضواء و الأحلاك، و مغرّد طيور الأملاك، و سبب انتظام هذه الأسلاك، لم يحلّ فيها طريد بعيد، و لا اتّصف بصفاتها إلّا سعيد، و لا اعتلق بأوجها هاو فى حضيض، و لا بمحض برهانها مختبط فى شرك نقيض، و لا تعرّض لشيم بوارقها متّسم بسمة بغيض، الحمد للّه الذى هدانا لهذا و ما كنّا لنهتدى لو لا أن هدانا اللّه، و منه نستزيد الاستغراق فى بحارها،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۰

و الاستنشاق لنواسم أسحارها، و الاستدلال بذرى أفنانها عليه، و الوصول بسبب ذلك إليه، إنه ولى ذلك سبحانه، فطاب لعمرى المنبت و النابت، و سما الفرع الباسق ورسا الأصل الثابت، و فاءت الأفنان، و زخرفت الجنان، و تعدّدت الأوراق و الزهرات و الأغصان، و لم أترك فننا إلّا جمعت بينه و بين مناسبه، و لا فرعا إلىّ ضممته إلّا ما يليق به، و استكثرت من الشعر لكونه من الشجرة بمنزلة النسيم الذى يحرّك عذبات أفنانها، و يؤدى إلى الأنوف روائح بستانها، و هو المزمار الذى ينفخ الشوق فى يراعته، و العزيمة التى تنطق مجنون الوجد من ساعته، و سلعة ألسن العشّاق، و ترجمان ضمير الأشواق، و مجلى صور المعانى الرقاق، و مكامن قنائص الأذواق، به عبّر الواجدون عن وجدهم، و مشى المحبّون إلى قصدهم، و هو رسول الاستلطاف، و منزل الألطاف، اشتمل على الوزن المطرب، و الجمال المعجب المغرب، و كان للأوطان مركبا، و لانفعال النفوس سببا، فلا شىء أنسب منه للحديث فى المحبة، و لا أقرب للنفوس الصّيّبة، و اجتلبت الكثير من الحكايات و هى نوافل فروض الحقائق، و وسائل مجالس الرقائق، و مراوح النفوس من كدّ الأفكار، و إحماض مسارح الأخبار، و حظّ جارحة السمع من منح الاعتبار، و بعض الجواذب لنفوس المحبين، و البواعث لهمم السالكين، و حجّتها واضحة بقوله تعالى: وَ كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ [سورة هود، الآية: ۱۲۰] فى القرآن المبين، و نقلت شواهد من الحديث و الخبر تجرى صحاحها مجرى الزكاة من الأموال، و الخواطر من الأحوال، و يجرى ما سواها من غير الصحيح مجرى الأمثال، ليكون هذا الكتاب لعموم خبره، مسرحا للفاره و غيره، و يجد كلّ ميدانا لسيره، و ملتقطا لطيره، و محكّا لغيره، فمن فاق كلف بأصوله، و من قصر قنع بفصوله، و من وصل حمد اللّه تعالى على وصوله، و سميته «روضة التعريف، بالحب الشريف» و يحتوى على أرض زكيّة، و شجرات فلكيّة، و ثمرات ملكيّة، و عيون غير بكيّة.

«و الحبّ حياة النفوس الموات، و علّة امتزاج المركبات، و سبب ازدواج الحيوان و النبات، و سرّ قوله عزّ و جلّ أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ [سورة الأنعام، الآية: ۱۲۲] ليس كالحب الذى دوّن فيه المدوّنون، و لعبت

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۱

بكرة أقباسه صوالج الجنون، و قاد الهوى أهله بحبل الهون، و ساقت فيه المنى للمنون، حين نظرت النفوس من سفلى الجنبتين، و رضيت الأثر عن العين، و باعت الحقّ بالمين، و لم يحصل إلّا على خفّى حنين، وا رحمتا لعشاق الصور، و سبّاق ملاعب الهوى و الهور، لقد كلفوا بالزخارف الحائنة الحائلة، و المحاسن الزائفة الزائلة، و سلع الجبانة، و بضائع الإهانة، أزمان التمتّع بهم قصيرة، و الأنكاد عليهم مغيرة، فتراهم ما بين طعين بعامل قدّ، و مضرّج بدم خدّ، و أسير ثغر قد أعوز فداؤه، و سقيم طرف قد أعضل داؤه، و ما شئت من ليل يسهر، و نداء به يجهر، و جيوب تشقّ، و بصائر تخطف أبصارها إذا لمع البرق، و نواسم تحمل التحيّات، و خلع أيك تتلقّى بخلع الأريحيات، و ربما اشتدّ الختل، و أصابت النّبل فكان الخبل، قلوب اشتغلت عن اللّه فشغلها اللّه بغيره، وهب الحبّ الجسمانى لا يبعث عليه شهوة بهيمية، و لا تدعو إليه قوّة وهمية، أليست الداعية مرتفعة، و الباعثة منقطعة، و صورة الحسن دائرة، و أجزاؤه المتناظمة متناثرة؟ أليس الجراب العنصرى عائدا إلى أصله؟ أليس الجنس مفارقا لفصله؟ و للّه درّ على رضى اللّه تعالى عنه، و قد نظر إلى قدح الماء و قد أراد أن يشرب، و عن الاعتبار أعرب، فقال: كم فيك من خدّ أسيل، و طرف كحيل؟ فأوّاه مكررة مردّدة، و والهفاه معادة مجدّدة، على قلب أصبح يقلّب كفّيه على ما أنفق فيها و هى خاوية على عروشها، وَ يَقُولُ يا لَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَداً [سورة الكهف، الآية: ۴۲] و حسبنا مرارة الفراق ذلّا، و فقد النقد قلّا، و الغفلة عن اللّه شقاء محتوما، و الكآبة على الفائت شوما: [الخفيف]

صدّنى عن حلاوة التشييع اتّقائى مرارة التوديع

لم يقم أنس ذا بوحشة هذا فرأيت الصواب ترك الجميع

و إن كانت الشهوة فأخسس بها داعية، و إلى الفضيحة ساعية، حسبك من حمار يعلن بنداء المحبّة نهاقه، و يقذفه على السباق اهتياجه إلى السّفاد و اشتياقه، أسير خبال، و صريع مبال، أولى له ثم أولى لو تأمّل محاسن الجسوم ما أكذب رائدها المطرى، و أخبث زخرفها المغرى، و أقصر مدة استمتاعها، و أكثر المساعى تحت قناعها: [الطويل]

على وجه ميّ مسحة من ملاحة و تحت الثياب العار لو كان باديا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۲

ما ثمّ إلّا أنفاس تركد و تخبث، و علل تنشأ و تحدث، و زخارف حسن تعاهد ثم تنكث، و تركيب يطلبه التحليل بدينه، و يأخذ أثره بعد عينه، و أنس يفقد، و اجتماع كأن لم يعقد، و فراق إن لم يكن فكأن قد: [الطويل]

و من سرّه أن لا يرى ما يسوءه فلا يتّخذ شيئا يخاف له فقدا

[البسيط]

منغّص العيش لا يأوى إلى دعة من كان ذا بلد أو كان ذا ولد

و الساكن النفس من لم ترض همّته سكنى مكان و لم يسكن إلى أحد

و قلت و قد مات سكن عزيز علىّ أيام التغرّب بسلا عظم جزعى عليه: [السريع]

يا قلب، كم هذا الجوى و الخفوت ذماءك استبق لئلّا يفوت

فقال لا حول و لا قول لى قد كان ما كان فحسبى السكوت

فارقنى الرشد و فارقته لمّا تعشّقت بشيء يموت

و الزمان لا يعتبر، و حاصله خبر، و الحازم من نظر فى العواقب، نظر المراقب، و عرف الإضاعة، و لم يجعل الحلم بضاعة، إنما الحبّ الحقيقى حبّ يصعدك و يرقيك، و يخلّدك و يبقيك، و يطعمك و يسقيك، و يخلصك إلى فئة السعادة ممن يشقيك، و يجعل لك السكون روضا، و مشرب الحقّ حوضا، و يجنيك زهر المنى، و يغنيك عن أهل الفقر و الغنى، و يخضع التيجان لنعلك، و يجعل الكون متصرّف فعلك، ليس إلّا الحب، ثم الوصل و القرب، ثم الشهود، ثم البقاء بعد ما اضمحلّ الوجود، فشفيت الآلام، و سقط

الملاـم، و ذهبت الأضـغاث و الأحلاـم، و اختصـر الكلاـم، و محيت الرسوم و خفيت الأعلاـم، و لمن الملـك اليوم و السـلام، فالحـذر الحذر أن يعجل النفس سـيرها، و يفارق القفص طيرها، و هى بالعرض الفانى متثبطة، و بناى الثقيل مرتبطة، و بصحبة الفانى مغتبطة أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِى جَنْبِ اللَّهِ وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (۵۶) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِى لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (۵۷) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [سورة الزمر، الآية: ۵۶، ۵۸] و فى ذلك قلت: [الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۳

أعشّاق غير الواحد الأحد الباقى جنونكم و اللّه أعيا على الراقى

جننتم بما يفنى و تبقى مضاضة تعذّب بين البين مهجة مشتاق

و تربط بالأجسام نفسا حياتها مباينة الأجسام بالجوهر الراقى

فلا هى فازت بالذى علقت به و لا رأس مال كان ينفعها باقى

فراق و قسر و انقطاع و ظلمة قنى البعد من نيل السعادة يا واقى

كأنى بها من بعد ما كشف الغطا صريعة أحزان لديغة أشواق

تقلّب كفّيها بخيط موصّل رشيقة قدّ دون سبعة أطباق

فلا تطعموها السمّ فى الشهد ضلّة فذلك سمّ لا يداوى بدرياق

بما اكتسبت تسعى إلى مستقرّها فإما بوقر محسب أو بإملاق

و ليس لها بعد التفرّق حيلة سوى ندم يذرى مدامع آماق

و لو كان مرمى الحزن منها إلى مدى لهان الأسى ما بين وخد و إعناق

فجدّوا فإنّ الأمر جدّ، و شمّروا بفضل ارتياض أو بإصلاح أخلاق

و لا تطلقوا فى الحسّ ثنى عنانها و شيموا بها للحقّ لمحة إشراق

و دسّوا لها المعنى رويدا و أيقظوا بصيرتها من بعد نوم و إغراق

و مهما أفاقت فافتحوا لاعتبارها مصاريع أبواب و أقفال أغلاق

و عاقبة الفانى اشرحوا و تلطّفوا بأخلاقها المرضى تلطّف إشفاق

فإن سكرت و استشرفت عند سكرها لماهيّة المسقى و معرفة الساقى

أطيلوا على روض الجمال خطورها إلى أن يقوم الوجد فيها على ساق

و خلّوا لهيب الشوق يطوى بها الفلا إلى الوجد فى مسرى رموز و أذواق

فما هو إلّا أن تحطّ رحالها بمثوى التجلّى و الشهود بإطلاق

و تفنى إذا ما شاهدت عن شهودها و قد فنى الفانى و قد بقى الباقى

هنالك تلقى العيش تضفو ظلاله و تنعم من عين الحياة برقراق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۴

و ما قسم الأرزاق إلّا عجيبة فلا تطرد السّؤّال يا خير رزّاق

و قـد أخـذ الكلام فى هـذا الافتتاح حدّه، و بلغ النهر مدّه، فلآخذ أثر هذا الذى سـردت، فى تقرير ما أردت، و ما توفيقى إلّا باللّه، عليه توكّلت، و إليه أنيب، فنقول: ينقسم هـذا الموضوع إلى أرض، و شـجر غضّ، و كـلّ منهـا ميسور جـدة، و فنّ على حـدة، ما شئت من مرأى و مسـتمع، فمن شاء أفرد و من شاء جمع، فلنبدأ بالأرض و الفلاحة، و التكسير و المساحة، و تعيين حدود تلك الساحة، ثم نأتى بالشجرة التى نؤمل جناها، و ننظر إناها، و نجعل الزاد المبلغ معناها، قل بفضل اللّه و برحمته فبذلك فليفرحوا هو خير ممّا يجمعون.

برنامج هذا الكتاب الذى يحصر الأجناس و الفصول، و يردّ الفروع إلى الأصول، و يسر الباحث عن مسائله بسبب الوصول، بحول اللّه و قوّته:

### خطبة الأعراس، و توطئة الغراس، و تنحصر فى جملتين:

الجملة الأولى: فى صفة الأرض و أجزائها، و جعل الاختيار بإزائها، و فيها رتب:

الرتبة الأولى- رتبة الأطباق المفروضة، و الاعتبارات المعروضة، و فيه مقدمة و أطباق:

المقدمة فى تعيين الأرض المذكورة. الطبق الأوّل: طبق القلب. الطبق الثانى: طبق الروح.

الطبق الثالث: طبق النفس. الطبق الرابع: طبق العقل.

الرتبة الثانية- رتبة العروق الباطنة، و الشعب الكامنة، و فيها فصول: الفصل الأول: فى العروق المعدنية. الفصل الثانى: فى المقررات العينية. الفصل الثالث: فى المدبرات البدنية.

الفصل الرابع: فى البحوث البرهانية.

الجملة الثانية: فى صفة الفلاحة و العمل، المتكفل فيها بنيل الأمل، و فيها اختيارات:

الاختيار الأول: فيما يصلح للاعتمار من هذه الأرض، و فيه فصول: الفصل الأول: فى أرض النفس المطمئنة. الفصل الثانى: فى أرض النفس الأمّارة. الفصل الثالث: فى أرض النفس اللّوّامة.

الاختيار الثانى: فى محركات العزيمة، لاعتمار هذه الأرض الكريمة، و فيه فصول: فى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٥

الفصل الأول: فى الجذب و ما يتّصل بذلك. الفصل الثانى: فى الوعظ المثمر لليقظة. الفصل الثالث: فى ذمّ الكسل.

الاختيار الثالث: يشتمل على جلب الماء لسقى هذه الأرض من عين العلم فى جدولى العقل المحرر و النقل المقرّر، و فيه مقدمة فى فضل العلم و تعدّد أجناسه، و فصول: الفصل الأول: فى جدول العقل. الفصل الثانى: فى جدول النقل، الفصل الثالث: فى مقدار الماء المجلوب، للفلح المطلوب. الفصل الرابع: فى غبار التكوين، و سبب التلوين.

الاختيار الرابع: فى الحرث، و إخراج لبن هذه الفلاحة من بين الدم و الفرث، و فيه أقسام: أوّلها: القليب الأول. ثانيها القليب الثانى الذى عليه المعوّل. ثالثها: فى سكة الازدراع و التعمير، و هو مظنة التثمير.

الاختيار الخامس: فى تنظيف الأرض المعتمرة من الأرض الخبيثة، و الجدر المعترضة و الشعب المذمومة، و فيه فصول: الفصل الأول: فى إزالة شكوك تسبق إلى المعتقد غالبا.

الفصل الثانى: فى قلع الشجر الذى يضر بهذه الأرض و يعاديها بالطبع.

الاختيار السادس: فى أمور ضرورية تلزم لهذه الفلاحة، و فيه فصول: الفصل الأول: فى أمراض يشرع فى علاجها، ممّا يرجع لطبع الأرض و مزاجها. الفصل الثانى: فى اختبار أنواعها و أجزائها. الفصل الثالث: فى أقوال تليق بأفحاص الفلاح و إصحاره، عند ملاحظة عجائب الكون و آثاره. الفصل الرابع: فى الوقت المختار لغراسة الأسباب، فى الحبّ اللباب، و تنحصر فى مقدمة علمية، و جرثومة جرمية: المقدمة العلمية فى ترتيب المحبة و المعرفة، الجرثومة الجرمية تنقسم إلى بيان يعطى الصورة، و يشرح الضرورة، و إلى بطن و ظهر، و سرّ و جهر، و باسط، و برزخ واسط، فالباطن الشرع و النقل، و ينقسم إلى أصول: الأصل الأول: الكلام فى النبوة من حيث النقل. و الأصل الثانى: فى الإيمان و الاعتبار العامى. الأصل الثالث: فيما يتبع ذلك من اليقظة و التوبة فى حقّ غير المحتاج إلى ذلك. الأصل الرابع: فى تقرير العناية و التوفيق فى حقّ غير المحتاج إلى ذلك. الأصل الخامس: فى الموعظة و السماع من حيث تهذيب الجميع، و الظاهر الطبع و العقل، و ينقسم إلى أصول: الأصل الأول: جزء الفلسفة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۶

العلمى و العملى. الأصل الثانى: سلامة الفطرة فى حقّ المستغنى عن ذلك. الأصل الثالث:

فى معرفة الجمال و الكمال. الأصل الرابع: فى الاعتبار الخاصى. الأصل الخامس: السلوك بالفكر. الأصل السادس: فى التشبيه بالمبدإ الأول، باسط الذكر الباسط، و البرزخ الواسط، الصاعد من التخوم، إلى النجوم، و هو من أخصّ الأشياء بباطن الشجرة، و أصولها المعتبرة، و يشتمل على مقدمة و ثلاثة أصول: الأصل الأول: الأدعية و الأذكار، و له عشر شعب. الأصل الثانى: أصل الأسماء، و هى أصول الأرض و السماء، و له تسع و تسعون شعبة. الأصل الثالث:

أصل السّيمياء، و هو الذى عفن بعضه و بقى الانتفاع ببعضه. العمود المشتمل على القشر و العود، و الجنى الموعود، ينقسم قسمين: قشر، و خشب، و در مخشلب، و القشر ظاهر يكسر و يحذو، و باطن ينمى و يغذو، فظاهره الذى يكسر و يحذو يتضمّن الكلام فى المحبة و أقسامها من حيث اللسان، لا من حيث نوع الإنسان، و باطنه الذى ينمى و يغذو يتضمّن الثناء على المحبة طبعا و عقلا، و شرعا و نقلا. الخشب الذى يتّخذ منه النشب ينقسم إلى أقسام:

القسم الأول: فى الحدود و المعرفات، و الأسماء الدالة عليها و الصفات. القسم الثانى: معقول معناها، المتجلّى فيه نور سناها. القسم الثالث: ارتباطها بالمقامات، و اختصاصها فيها بالكرامات. القسم الرابع: تبيين ضروريتها، و إيضاح مزيتها. الفرع الصاعد فى الهواء، على خطّ الاستواء، من رأس العمود القائم، إلى منتهى الوجود الدائم، و يشتمل على قشر لطيف، و جرم شريف. القشر: الحدود للمعرفة و الرسوم، و خواصّ العارف الذى هو المعروف بها و الموسوم، و ينقسم إلى فصول: الفصل الأول: فى حدود المعرفة و رسومها و ما قيل فيها.

الفصل الثانى: فى أوصاف العارف. الفصل الثالث: فى تفضيل العارف. الفصل الرابع: فى علوم العارف. و الجرم الشريف، من الفرع المنيف، ينقسم إلى ظاهر، و باطن، و قلب.

فالظاهر ينقسم إلى أقسام: الكلام فى الأخلاق و منشئها و طباعها بحسب القوى النفسانية و إفراطها و تفريطها و اعتدالها و علاجها، و فيه المجاهدات. و الباطن يتضمّن الكلام فى أنّ النظر إلى وجه اللّه تعالى هو السعادة الكبرى بكل نظر و اعتبار. و القلب قلب الغصن يتضمّن الرياضة و السلوك على المقامات كلّها، و يتفرّع منه عشرة غصون: الغصن الأول: غصن فروع البدايات. الغصن الثانى: غصن فروع الأبواب. الغصن الثالث: غصن فروع المعاملات.

الغصن الرابع: غصن فروع الأخلاق. الغصن الخامس: غصن فروع الأصول. الغصن السادس: غصن فروع الأدوية. الغصن السابع: غصن فروع الأحوال. الغصن الثامن: غصن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۷

فروع الولايات. الغصن التاسع: غصن فروع الحقائق. الغصن العاشر: غصن فروع النهايات، و لكل فروع أوراق، و يلحق به صورة السلوك بالذكر حتى يتأتى الوصول، و على المقصود الحصول، و الكلام على زهرات الطوالع و اللوائح و البواده و الواردات، و نختم بالجنى، المقترن بنيل المنى، و هى الولاية.

تفرع ضخام الغصون، من شجرة السرّ المصون، و هى: غصن المحبوبات و أقسامها، و تنقسم إلى أربعة أفنان: الفن الأول: فرع الرب المحبوب. الفن الثانى: فن العبد المحبوب.

الفن الثالث: فن الدنيا المحبوبة. الفن الرابع: فن الآخرة المحبوبة. غصن المحبين، و أصنافهم المرتبين، ينقسم إلى مقدمة بيان، و ستة أفنان: الفن الأول: فى رأى الفلاسفة الأقدمين. الفن الثانى: فى رأى أهل الأنوار و الإشراقيين. الفن الثالث: فى رأى الحكماء الإسلاميين. الفن الرابع: فى رأى المكملين بزعمهم المتممين. الفن الخامس: فى أهل الوحدة المطلقة من المتوغلين. الفن السادس: فى الصوفية سادة المسلمين.

غصن علامات المحبة، و شواهد النفوس الصّبّة، و ينقسم إلى ثلاثة أفنان: الفن الأول:

فيما يرجع إلى حقوق المحبوب. الفن الثانى: فيما يرجع إلى باطن المحبّ. الفن الثالث: فيما يرجع إلى ظاهره.

غصن اختيار المحبين فى ميدان جهادهم، و تباين أحوال أفرادهم، و هو ثلاثة أفنان: الفن الأول: فن المجاهد الصريح. الفن الثانى: فن المنبت الجريح. الفن الثالث: فن الصريع الطريح.

جوائح الشجرة، و مضار فلاحتها المعتبرة، و ينقسم إلى جوائح من نسبتها، بالنظر إلى مائها و تربتها، و إلى ما هو راجع إلى الخواطر- و هى على عدد الرياح- و إلى ما سببه غفلة الفلّاح، عذر الطائر الصادح، على فرض القادح، وجود الهاجى و المادح.

صورة الشجرة ذات الحسن الباهر، و الجنى و الأزاهر، و آثارها للحسن الظاهر، بفضل المريد القاهر، لا إله إلّا هو سبحانه له الحمد، انتهت الخطبة التى تدلّ على ما وراءها.

و قال رحمه اللّه تعالى فى آخر هذا الكتاب ما نصّه: و نختم الكلام فى هذه الشجرة و الاستدلال على شرف هذه الفلاحة الضمنية بهذه الأبيات: [الوافر]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۸

فلاحتنا لها القدح المعلّى و سرحتنا الضمينة للنجاح

أ لست ترى منادى الخمس نادى بمختلف الجهات أو النواحى

يردّد فى الأذان لكلّ واع على الآذان حىّ على الفلاح

و هذا طائر على الشجرة صادح، و لا حق كادح، و معتذر إن قدح قادح، و تعارض هاج و مادح. قال المؤلف: و لا بدّ لنا من درىّ على صادح هذه الأفنان، و شاد يهيج أشجان الجنان، و يثير شجو الرأفة و الحنان، و يبين مجال الضرورة لذوى الاتّصاف، بكرم الأوصاف، و الناظرين إلى الهنات بعيون الإنصاف، فيرحم من قد كان شره النّقد، و يعذر من تشوّق لاستضعاف هذا القصد، و الأعذار التى تقرر عنّا هذا الطائر عديدة، و مبدئة فى الصدق معيدة، و قريبة من الحقّ لا بعيدة، فمنها أنّ هذا الفرض، اليوم بأكثر الأرض، ميدان عدم فيه و لا حول و لا قوّة إلّا بالله من بخيل كما يحبّ جوادا، و نفير لا يجيبه إلّا من يكثر سوادا، قد طمست الأعلام، و سقط الحمد و الملام، و ما لجرح بميت إيلام، فمدلول هذا الفن بهذه التخوم عنقاء مغرب، و إكسير يحدث عنه غير واصل و لا مجرّب، إنما يرجع فيه إلى كتب مقفلة، و أغراض مغفلة، و ما عسى أن يعوّل المسكين مثلى على قاصر إدراكه، مع اقتسام باله و اشتراكه؟ قصّر العلم و العمل، فاختلط المرعىّ و الهمل، و أخفق المسعى و خاب الأمل، و منها شواغل الدنيا التى اختطفت من المكاتب، و موّهت بالمراتب، و لقّبت بالوزير و الكاتب، و أقامت العبد الذى لا يملك شيئا مقام العاتب، و من كان بهذه المثابة و إن عدّ يقظا حازما، و نحريرا عالما، فإنما هو غريق، وتائه لا يبدو له طريق، و لا ينساغ له ريق، و لا يطفأ ببرد اليقين منه حريق، و لا يربع عليه من قصاد اللّه تعالى فريق، و نستغفر اللّه! فالذى ألهم لهذه العيوب، يتكفّل بإصلاح القلوب، و مكاشفة الغيوب، و إن كانت النفوس للحقّ جاحدة، فما أمرى إلّا واحدة: [الكامل]

لا تعجبنّ لطالب نال العلا كهلا و أخفض فى الزمان الأوّل

فالخمر تحكم فى العقول مسنّة و تداس أوّل عصرها بالأرجل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۹

و منها الاشتغال بالهذر، عن العلم و النظر، و منذ أزمان عديدة، و مدد مديدة، فلم يبق ممّا حصّل، و إليه ممّا فى الزمان القديم توصّل، إلّا رسم بلقع، و سمل ما له مرقّع، و منها أننى لم أنتدب إلى هذا الوظيف الذى قلّ من يتعاطاه، و يثير قطاه، و يقتعد مطاه، من تلقاء نفس جاهلة ببعد مداه، و مطل جداه، و مطالبة مدعيه بما كسبت منه يداه، فلا يتجاوز طوره و لا يتعدّاه، و إن طالب الحقّ من شرط وصوله، سلب فصوله، و حالة موته، و انقطاع حسّه فضلا عن صوته، لكنى خضت على عدم السباحة غمرا، و امتثلت مع سقوط

الاستطاعة أمرا، و جئت بما في وسعي انقيادا و امتثالا و مثلت مثالا فضرورتي بفضل اللّه تعالى مشروحة، و الدعوى من كتفى مطروحة، و على ذلك فقد علم الذى يعلم الأسرار، و يقرّب الأبرار، و يقيل العثار، و يقبل الأعذار، أنّ مدة الاشتغال به لم تجاوز شهرين اثنين، بين كتب و كتم، و ابتداء و ختم، مع ما يتخلّل الزمان من حمل لو رمى به رضوى لتدعدع، أو أنزل على ثبير لخشع من خشية اللّه تعالى و تصدّع: مداراة عدو قد تكالب على الإسلام، و سياسة سواد صم عن الملام، و تعدّى حدود النّهى و الأحلام، و ارتقاب هجوم جيش الآجال و راية الشّيب من الأعلام، و قد أنذر بالفجر انقشاع الظلام، و كاد يصعد الخطيب فينقطع الكلام، جعلت لنقله حصة من جنح الظلام الغاسق، و الليل الواسق، و عاطيت حميّاه نديم الغارق، و تعرّضت لاقتناص خياله الطارق، و سرقته من أيدى الشواغل، و الليل معين السارق، و لم يعمل فيه عبد القيس نظرا معادا، و لا أنجز من تصحيحه علم اللّه تعالى ميعادا، إنما هو كراس يفرغ من تسويده رجراج الحبر، مختلط الترب بالتبر، فيدفع ملوم الماسخ، إلى يد الناسخ، و كلفة المتثاقل، إلى كفّ الناقل، و تقذف صحيفته من الزبرة إلى الصاقل، إذ كان الآمر- أيّده اللّه تعالى و نفعه- حريصا على تعجيل المعارضة، و متحرّيا سبيل الشرع فى هذه المصارفة و المقارضة، و الجفن المشرق يعلن بالتبريح، و ينتظر مساعدة الريح، فمن وقف عليه من فاضل أنار الصله بصيرته، و جبل على الإنصاف سيرته، أو من كان من أهل اللّه الذى يعلم أن ما سوى اللّه تعالى ظلّ و فيء، و يتحقّق معنى قوله: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ [سورة آل عمران، الآية: ۱۲۸]،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸ ص: ۲۰

فقد أوجب الإنصاف أن يمحو اقترافى باعترافى، و يغطى أوصافى بإنصافى، و الرحماء يرحمهم الرحمن، و قد عذر القنبرة سليمان، و مع الاستسلام الأمان، و لا حول و لا قوة إلّا بالله. و لا بأس أن نعرّض بتلك الأحونة الخصيبة المثوى و المروج، و الجمل و الفرّوج، و فى السماء البروج، و فى الأرض الفروج، و الأعرج يستندر منه العروج، و نمدّ الأيدى المستعملة فى التقصير، إلى الولى النصير و الناقد البصير. اللهمّ استر بستركك فضائحنا المخلّفة، و قبائحنا المجمعة المؤلّفة، فهو كلّه تحويم حول حماك، و دندنة يا كريم بباب رحماك، و زند أنت قدحته، و تألّق بارق أنت ألحته، فصل السبب يا واصل الأسباب، و اجعلنا ممّن تذكّر فنفعته الذكرى و ما يتذكّر إلّا أولو الألباب، اللهمّ أطلع نفوسنا الحائرة على عين الخبر، و اجذبها إلى المؤثر بزمام الأثر، اللهمّ اجبر الضالة المثقلة الظهر، و ارفع عنها ملكة القهر، و حيطة الدهر، و السفر من بلد السرّ إلى بلد الجهر، اللهمّ أعلق بعروة الحقّ أيدينا الخابطة، و أظفر بعدوّ الهوى عزائمنا المرابطة، اللهمّ أوصل سببنا بسببك، و احملنا إليك بك، لا إله إلّا أنت، و صلّ على عبدك و نبيّك محمد خاتم النبيّين و المرسلين و آله و الصحابة أجمعين»؛ انتهى.

## [خاتمة خطبة كتاب المحبة]

و قال- رحمه اللّه تعالى!- آخر بعض تراجم هذا الكتاب ما صورته: خاتمة تشتمل على إشارات، و تختال من الحقّ فى شارات، قال بعض من يطأ بمطيّة السلوك، حمى الملوك، و ينقض زوايا الغيوب، عن المطلوب، ببصر بصائر القلوب: شهدت أصناف المحبين و العشّاق، على اختلاف البلاد و تباين الآفاق، لا أدرى أفال كشفا و شهودا، أو فرضا و وجودا، أو يقظة أو هجودا، و قد ركضوا مطايا الأشواق، و ضربوا آباطها بعصىّ المشارب و الأذواق، و تزوّدوا أزواد الحقائق، و ودعوا أحباب العوائد و العلائق، و تساهلوا فى المحبوب اعتراض العوائق، و تفاضلوا فى اختيار الجوادّ و اقتحام المضايق، و الطرق إلى اللّه تعالى عدد أنفاس الخلائق، فمن خابط عشواء، و مسقط أهواء، يقول: [السريع]

يا ليت أنى أوقد النارا فإنّ من يهواك قد حارا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸ ص: ۲۱

فيجيبه الصدى: [الوافر]

و من طلب الوصول لدار ليلى بغير طريقها وقع الضلال

و مثبت بحيث لا يبدو علم، و لا يقتصّ خفّ و لا قدم، فى مفازة وجود من حلّها عدم، و هو يصيح: [الكامل]

بأبى و أمى و الذى ملكت يدى أفدى الذى يهدى الطريق اللاحبا

ثم يقول: [الكامل]

و لقد سريت إليك لكن حين لم يكن الدليل أجلّ قصد السالك

و من طاو نفد زاده، و فرغ مزاده، قد استسلم، و عجز أن يتكلّم، و لسان حاله ينشد:

[الطويل]

إذا أنت لم تزرع و أبصرت حاصدا ندمت على التفريط فى زمن البذر

و راكض يقطع الـدوّ، و يعزف فى الجوّ، يثبت الأعلام الخافيـة، و يقصد الموارد الصافية و الظلال الضافية، حاديه أمله، و دليله علمه، و الراحلة عمله، ينشد بأعلى صوته:

[الكامل]

قرب اللقاء فكيف لا ترتاح للقاء سكان الحمى الأرواح

و مرافق يركض البريد، و يصحب التفريد، بلغ الطّيّة، و أناخ المطيّة، قبل وصول الرفقة البطيّة: [الطويل]

سرى سلخ شهر فى فواق حلوبة فللّه ما أنأى سراه و ما أدنى

لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً [سورة الكهف، الآية: ١٨].

و قلت: [الكامل]

نهضوا و قد جنّ الدّجى و تخالفت سبل الرّدى فمسدّدون و ضلّل

سلنى عن المنبتّ حين تقطّعت أسبابه تيها و لا من يسأل

قوم سطت بهم السباع، و فرقة عطشوا، و أين من الظماء المنهل



لفح الهجير وجوههم بسعيره فتهافتوا ببلالة و تعلّلوا

و جماعة ركبوا المفاوز دائما عثروا على أثر فشطّ المنزل

و ركائب جعلوا الدليل أمامهم و سروا ففازوا بالذى قد أمّلوا

و الليل متلفة، و مدرجة الهوى لا يستقلّ بها المطىّ الذلّل

و الواصلون هم القليل و كيف لا قفر و مسبعة و ليل أليل

يا رحمة للعاشقين تقحّموا خطر النوى و على الشدائد عوّلوا

طارت بهم أشواقهم فعقولهم معقولة عن شأنها لا تعقل

عذرا لكم يا أهل عذرة شأنكم سلّمت فيه لكم فقولوا و افعلوا

حتى إذا خرجوا إلى قضاء القدر المشترك، و أفلت من أفلت من الشّرك، و سلم من قتيل المعترك، و أشرفوا بركاب الآمال، على ثنية الجمال، زعقوا بإزاء الباب، و نادوا من وراء الحجاب: [الكامل]

كلّ كنى عن شوقه بلغاته و لربما أبكى الفصيح الأعجم

و أوصلوا رقاع شكواهم، بسرائر هواهم، و برزوا صفّا، و استظهروا بشفعائهم التى ظنّوا أنها لا تخفى ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى [سورة الزمر، الآية: ٣] و قد تعينت الأوصاف و تميّزت، و انتبذت الأصناف و تحيّزت، و العشّاق نجت و سلمت، مذ علمت، منهم

الصفوة و المجان، و الحرافيش و البهلوان، ممّن يعوّل على ذراعه، و ملاكمته و صراعه، و طول باعه، و صلابة طباعه، و سلاطة لسانه، و امتزاج إساءته بإحسانه، شأنه البحث عن المحبوب، مع الشروق و الغروب، و التوصل إلى وصله المطلوب، بالحركة الشريفة و اللفظ الخلوب، و من اتّسم بإذاعة الأسرار، و صحبة الشرار، و اللسان المهذار، حسب من الأغيار، و منهم بذاة، ليس لهم إلّا المنادمة أداة، تعذّر عليهم تميّز المحبوب فغلطوا، و عكفوا على تنزيهه فأفرطوا: [الخفيف]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۳

ربما ضرّ عاشق معشوقا و من البرّ ما يكون عقوقا

و غلبت على سجيّتهم السلامة، و لم تنلهم لعدم الموصّل و المعرّف الملامة، و ليس للقبول عليهم علامة، و منهم من شعاره الحشمة، و لزيمه العفاف و العصمة، أولو الحياء و الوقار، و الكتم للأسرار، و مخالطة الأبرار، و التوسّل إلى المحبوب بالافتقار، و صفاء الضمائر من الأكدار، لا تختلجهم الشواغل، و لا يطرق شرابهم الواغل، أغنتهم الشواهد عن الدعوى، و أصمّهم الرضا عن الشكوى، و تقسّمت معاملاتهم الآداب، و صحّ منهم إلى مراتب المراقبة الانتداب، و الناقد بصير، و كلام النيّات قصير، و منهم المغلوب الحال، المحمول من فوق الرحال، رقص و شطح، و سكر فافتضح، فهو بلخ الرفقة، و ملوع الحرقة، دعنى و عبدى بلخ، فإنه يضحكنى سبع مرات فى اليوم، و منه من لم يأخذه نعت، و لا- تعين له فوق و لا- تحت، و لا- حمد و لا- مقت، و لا- حين و لا- وقت، لو نطق قال: أنا المعدوم الموجود، و الشاهد المشهود أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ [سورة هود، الآية: ۹۵]: [الطويل]

قضى وصلها لى، و ابتلاكم بحبّها و هل يأخذ الإنسان غير نصيبه

و لم يكن إلّا أن خرجت الرقاع، و فضّلت البقاع وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ [سورة آل عمران، الآية: ۲۵].

فكان فى رقعة طائفة: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ [سورة الشورى، الآية: ۵۱] قلّدتم العقل و له طور، و رأيتم الحركات لا يتناهى لها دور، و عالم الجزئيات لا يسبر له غور، و حور المعاد فى بعض الفروض لا يكون له كور، و يا شرّ ما أصبحتم فى المعاد الأول تعتقدونه، أن جعلتم التصرّف فى عالم الملك لمن دونه، قفوا مكانكم، و لوموا أنفسكم و دعوا شأنكم.

و كان فى أخرى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً [سورة الحديد، الآية: ۱۳] أساطين الحكمة المشرقية، و فراش الأنوار الحقيقية، دعونا من استكثار الأنوار،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۴

و احتشاد الأطوار، الحقّ نور إرشاد لا يطيق حسن ذاته، إلّا من ركب ظهر شتاته، فارفعوا الكلف، و اذكروا مجرى من تقدّم و سلف.

و كان فى أخرى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ [سورة الأنعام، الآية: ۹۱] لم تتركوا البراهين على أصلها، و لا ناسبتم جنس هذه الموضوعات بفصلها، و آثرتم شغبا طويلا، و أوسعتم المتشابه تأويلا، و لم تعتمدوا من العقل دليلا، و لا وقفتم فى مجازات العقول قليلا، و هوّلتم باصطلاح غيركم تهويلا، و ادّعيتم الشهود و لم يجعل اللّه تعالى فى الاحتجاج به إلّا للأنبياء سبيلا، و بنيتم الحقائق على قياس و نظر، من غير عين للعقل و النقل و لا أثر: [الخفيف]

ربّ خلّ أدار فىّ اعتقادا لم أكن قبله عرفت بفنّه

حكمت نفسه على علم غيبى جعل اللّه باطنى عند ظنّه

و عسى أن تكونوا ممّن أخطأ فى اجتهاده فأثيب، و استغفر فسمع لا تَثْرِيبَ [سورة يوسف، الآية: ۹۲]، فثمرتكم صحيحة، و المقاصد من التبعة مريحة، إذا كانت صريحة، و لو لا الافتيات، لوضحت فى ميدان السبق لكم الشّيات، لكن شأنكم الهذيان، و قلبت منكم بضعفائكم من المتأخرين الأعيان، كابن قسىّ و ابن برجان، فتبرؤوا من أتباعكم المطيفة، و أحزابكم المخيفة، و أخلصوا فعل الأنصار يوم قتال بنى حنيفة، و حيّذا الحكم المقتدى، و من يهد اللّه فهو المهتدى، و اكبحوا الألسن عن طلاقتها و ذلاقتها، و لا تكلّفوا العقول

فوق طاقتها، فلا بدّ من توقيف و تسليم، و فوق كل ذى علم عليم، و إذا محيتم فأثبتوا، أو نطق الناس فاسكتوا، و لا ترضوا أن تكبتوا مع الذين كبتوا، و لكم الحظّ السنى، و الوصل الهنى.

و كان فى أخرى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ [سورة الأنبياء، الآية: ۱۶] ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِ [سورة الدخان، الآية: ۳۹] ذهب بوجودكم العدم، و ابتلع حدوثكم القدم، و رضيتم بالإشراف، فى الاستشراف، و التوغّل لزيم الانحراف، من جعل الحسّ و هما، فقد كابر العيان ظلما، و العقل الذى غلّطكم هو آلة حكمكم، و أداة علمكم، و العوالم أوثق من أن تكون تمويه راقش، و الوجود المطلق أبسط من أن يصير أبا براقش ثم ما لكم و التبجّح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۵

و التشبّع، و التعقّب و التتبع، و لم يغن العراك، و وقع فى ثمرتكم الاشتراك، فالفيلسوف يتّحد بالعلّة القريبة من الخلق، ثم يتلاشى فى ذات الحقّ، و الحكيم يجوز إلى عين الحقّ رتبة الفناء المطلق، و المتشرّع قد عضده و نصره، «كنت سمعه و بصره»، و إن كان معظم القول الهذر، ففيكم بعد نظر.

و كان فى أخرى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ [سورة العنكبوت، الآية: ۶۹] أنتم الأحباب، و لكم يفتح من الجنان الأبواب، ركبتم ظهور الأعمال، و ركب غيركم ظهور الآمال، و فزتم بسحب الأذيال، و من دونكم يحرك مناكب الخيال، فبدايتكم الأساس الوثيق، الذى يبنى عليه التحقيق، و نهايتكم إليها ينتهى الطريق، و بها يحطّ فريق اللّه تعالى و نعم الفريق، أولكم المقرب المدرّب، و أوسطكم الفرد المعرب، و آخركم الولى المقرب، حضرتم بذكر محبوبكم حتى غبتم، فهنيئا لكم طبتم، حواسّ مسدودة، و خيوط أفكار كلّها ممدودة، و مشاهد مشهودة، و مغلطات تتجاوز حرّاسها، و قواطع معترضة بحلّ مراسها، إلى أن لا توجد تقيّة، و لا تبقى بقيّة، عند تجلى المعالم الخفيّة؛ لو اشتمل العلم على عملكم، لكان الكلّ من هملكم، بحيث تتعيّن المراتب و تتميّز، و تتفرق المشارب و تتحيّز، فلا يعترض قاطع إلّا و قد علم شأنه، و تعين وقته و مكانه، و لا تمثل غاية إلّا و درجها محدودة، و مراحلها معدودة، و مشاهدها قبل دخول الطريق مشهودة، فهناك تطوى المراحل، و يلوح فى اللّمحة القريبة الساحل، و يأمن طول الطريق الواصل.

و كان فى رقعة المحبين الذين قربوا قبل هذا اليوم و أدخلوا، من بعد ما تخيّروا للاصطفاء و انتخلوا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ (۳۳) ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [سورة آل عمران، الآية: ۳۳، ۳۴] أنتم الأحباب، و لباب اللّباب، و بواسطتكم اتصلت بين النفوس و بين الحقّ الأسباب، لولاكم لم يفتح الباب، فلا يصل إلّا من أوصلتم، و لا يحجب إلّا من قطعتم و فصلتم، أنتم الرعاة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۶

و الخلق الهمل، و أنتم الدعاة لمن يريد نيل الأمل، مهّدت لكم سرر القرب تمهيدا، و بعثتم إلى الناس ليوحّدوا اللّه توحيدا و لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً [سورة البقرة: الآية: ۱۴۳] فطوبى لمن أصاخ منكم إلى ندا، و استضاء بنور هدى، صلوات اللّه عليكم أبدا، أنتم أولو الأولوية المعقودة، و العساكر المحشورة المحشودة، و رؤساء أهل المحبّة، و أدلّاء مبتغى الوسيلة و القربة، و مسالككم قد بيّنتها الصحف المنزلة، و الملائكة المرسلة، و دخلت على العذارى خدورها، و عمت السماء بدورها، و أغنت عن تقرير نحلها المكاتب المائجة بالصبيان، و السنن المعقودة لها حلق التبيان، و القواعد المفترضة على الأعيان، و الخزائن المرصوصة بعلوم الأديان الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً [سورة المائدة، الآية: ۳] و قيل لأتباعهم من الجمهور، و أقطاب فلكهم المشهور: على قدر أتباعكم، مناقل أبواعكم، و بحسب اقتدائكم، يكون سماع ندائكم، و المهاد لمن وثره، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ [سورة الزلزلة، الآية: ۷]، و تأخيركم فى التوقيع هو التقديم، و «ساقى القوم آخرهم شربا» مثل قديم؛ قال المخبر: فرأيت وجوههم قد تهلّلت، و نواسم المسرّات نحوهم قد أقبلت.

و من سواهم من خالص و زائف، بين راج و خائف، و سمعت أنّ طائفة استدعيت بحثّ حفيّ، و أدخلت من باب خفيّ، قيل لهم: هم أصحاب الخبر المكتوم، و أرباب المقام غير المعلوم، جعلنا اللّه تعالى منهم برحمته!: [الوافر]

و لو لا الحبّ ما قطعوا الفيافى و لو لا الحبّ ما قطعوا البحارا

فدعهم و الذى ركبوا إليه و بحثا عن خلاصك و اختبارا

فلا تشغل بحبّ ديار ليلى و لكن حبّ من سكن الديارا

و قال قبل هذه الخاتمة بعد كلام كثير ما نصّه: و قد أتينا على ما شرطنا من تقرير ما أمكن من هذه الآراء، و هم ما بين سابق للخيرات و مقتصد و ظالم لنفسه، و مع ذلك محبّون، و على آثار الحبيب مكبّون، ما كلّ طريق توصّل، و لا كل تجارة على الربح تحصّل، و من العشّاق مهجور و مطرود، و موصل و موعود، و مغبوط و محسود، و محروم و مجدود، و مرحوم و مردود: [الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۷

يا غايتى، و لكلّ شىء غاية، و الحبّ فيه تأخّر و تقدّم

قل لى بأىّ وسيلة يحظى بما يرجوه غيرى من رضاك و أحرم

## [من كلام لسان الدين فى عدد فرق الاعتزال]

ورقة: و لكلّ دائرة مفروضة، و هالة حول قمر الحقّ معروضة، تعود الخطوط من محيطها المسدّد، إلى مركزها المحدّد، فالفيلسوف يروم التشبّث بالعلّة الأولى، و يعنى بها ذات الحقّ، أو أن يتّحد بالثانية، و هى مرآة وجه الحقّ، و الإشراقىّ يروم التّجوهر بنور الأنوار المعبّر عنه بالحقّ، و الاتّصال به إمّا بواسطة من الحقّ أو بغير واسطة من الحقّ؛ و الحكيم أن يؤديه فكره إلى الحقّ، ثم يفنى فى الحقّ، ثم يبقى بالحقّ، و المتشرّع أن يجنّ فى جنة الحقّ، و يحصل على جوار الحقّ، و ينظر إلى جوار الحقّ؛ و صاحب الوحدة المطلقة أن يكون المتفرّق عين الحقّ، فسبحان الحقّ، المعبود بالحقّ، الموجد الجمع فى الفرق! لا إله إلّا هو. وزيد فى هذا المحض الذى كثر فى قربه الدّعداع، و طال على الرءوس منه الصّداع، ما تفرّد له المقالة المختصرة، و العناية الميسّرة، بحول من لا حول و لا قوّة إلّا به. انتهى.

و قال رحمه اللّه تعالى فى عدّ ما عدد من فرق الاعتزال ما نصّه: [الكامل]

و الحبّ حرّكهم لكلّ جدال و الحبّ أقحمهم على الأهوال

و الحبّ قاطع بينهم و أضلّهم عن نيل ما راموه كلّ ضلال

و الحبّ أنشأ فيهم عصبية بالقيل أضرم نارها و القال

و إنما استكثرنا من ذكرهم عبرة لمن تأمّل حركات هذا الفراش المختلف الآراء عن ذبال الحقّ، يبتغون إليه الوسيلة، قوم بالطاعة، و قوم بالمعصية، و ما منهم إلّا مدّع فى المحبّة، متهالك، حريص على السعادة بزعمه وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ عامِلَةٌ ناصِبَةٌ [سورة الغاشية، الآية: ۲ و ۳] ممّن قصد الحقّ فأخطأه، و أراد الصواب فضلّ عنه، و اشتهر بالحكمة بعد فى الملّة الإسلامية جماعة بالمشرق و الأندلس، فمن المشارقة: أبو الفرج، و يعقوب الكندى،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۸

و حنين بن إسحاق، و ثابت بن قرّة، فكان عندهم مباشرتها من حيث الترجمة و المزاولة، إلى أن قال: و من أهل الأندلس: محمد بن مسعدة السرقسطى، و أحمد بن طاهر الطّرطوشى، و يحيى بن عمران القرطبى، و طفيل بن عاصم، و كليب بن همام البياسى، و الحسن بن حرب الدانى، و ابن مسرّة، و مسلمة المجريطى، و أبو بكر بن الصائغ، و أبو بكر بن طفيل، و أبو الوليد بن رشد، و كل هؤلاء من المتقدّمين و المتأخرين محب عاشق مستهلك، قال الشاعر:

[مجزوء الكامل]

و علىّ أن أسعى و لى س علىّ إدراك النجاح

[المتقارب]

حيارى يميد بهم شجوهم كأنهم ارتضعوا الخندريسا

[الطويل]

إذا لم يكن عون من اللّه للفتى أتته الرزايا من وجوه الفوائد

وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ (۱۱۸) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ [سورة هود، الآية: ۱۱۸، ۱۱۹] فَرِيقاً هَدى وَ فَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ [سورة الأعراف، الآية: ۳۰] قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ [سورة الأنعام، الآية: ۱۱] قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ [سورة الأنعام، الآية: ۱۴۹] و الخلق قد مدّوا أبصارهم و آمالهم، و تحرّكوا طوعا و كرها يغشون إلى نور اللّه تعالى، فمن أعمى أصمّ لا يسمع و لا يبصر، و أعمى فقط يجتزئ عن العيان بالمخبر، و أحول يبصر الشيء شيئين، و الواحد اثنين، كما قال الشاعر: [الكامل]

أحوى الجفون له رقيب أحول الشيء فى إدراكه شيئان

فيلوح فى عينىّ منه واحد و يلوح فى عينيه منه اثنان

يا ليته ترك الذى أنا مبصر و هو المخيّر فى الحبيب الثانى

و ضعيف لا يبصر من بعيد، و أجهر لا يبصر من قريب، و أعشى تكثر فى عينيه الأشعة، و ربما تندر، و زرقاء اليمامة: [مجزوء الكامل]

سبحان من قسم الحظو ظ فلا عتاب و لا ملامه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۹

أعمى و أعشى، ثم ذو بصر، و زرقاء اليمامه

لو لا استقامة من هدا ه لما تبيّنت العلامه

و مجاور الغرر المخى ف له البشارة بالسلامه

أقام سبحانه الحجّة، و فرّق بين الأمر و الإرادة، و أعطى الكفاية من القدرة فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ [سورة الحديد، الآية: ۲۶] اقتصرنا من هذا البحر على نقطة، و من هذا الودق على قطرة: [البسيط]

و من يسدّ طريق العارض الهطل

[الكامل]

عدّ الحصى و القطر ليس يرام

و ذكرنا الرسل و الأنبياء و الأتباع ذكرا من غير تبويب و لا تعيين، لشياع آرائهم، و العلم بمقاصد مللهم، و أغراض دعواتهم، من توحيد اللّه تعالى و تنزيهه و صفاته و أسمائه، و كيف يحشر الناس ليوم لا ريب فيه وَ لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ [سورة الجاثية، الآية: ۲۲] و تعليم طرق النجاة، و إيضاح سبيل اللّه تعالى، و التحذير من الغفلة عمّن إليه الرّجعى، و له الآخرة و الأولى، و التخويف من كلّ ما يقطع عنه، و الترغيب فيما يوصّل إليه، و شأن الرياضة و التدريج فى أحوالها حتى تنتقل من الظواهر إلى البواطن، و تسرى فى الخلف من السّلف، و الندب إلى الاقتصار على الضرورة و القناعة بالبلاغ، و تبين الرسم فيها، و التعيين لحدودها، قد تضمّنت ذلك كلّه آيات اللّه التى تكفّل بحفظها، و سنّة رسوله التى قيّض مناخل الصدق لتصحيح نقلها، فالمكاتب- و المنّة للّه تعالى- مائجة، و المدارس حافلة، فما لنا و الإطالة فى الموجود الذائع، و المشهور الشائع: [البسيط]

و الشمس تكبر عن حلى و عن حلل فهى الدرارىّ فى التقليد بالدرر

ما أغنى الشمس عن مدح المادح! تحصيل الحاصل عناء هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدی وَ دِینِ الْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ وَ لَوْ کَرِهَ الْمُشْرِکُونَ [سورة التوبة، الآیة: ۳۳].

فلنذکر بعض أرباب الآراء من قریب و بعید، و خلق جدید، علی صورة المثال المفروض و لیکون کعرض الحبوب الذی تجزیء منه الحفنة عن الجفنة، و القربة عن القربة، و نقتصر

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۸، ص: ۳۰

علی الیسیر لإقامة الترتیب، و إحکام التبویب، و لیری الواقف علیه أننا قد نفضنا الزوایا، و رشفنا الرّوایا، و امتککنا العظام، و استقصینا النّظام، حرصا علی نشیدة الحقّ أن تعقل، و علی الطباع أن تنقل، و علی المرائی الصّدیة أن تصقل، و علی صورة النجاة أن تمقل، و نسأل اللّه تعالی هدایة توصل إلیه، لا إله إلّا هو الرحمن الرحیم؛ انتهی.

و قال رحمه اللّه تعالی فیما قبل هذا الکلام بکلام ما صورته: غصن المحبین، و أصنافهم المرتبین، و یشتمل علی مقدمة بیان، و ستة أفنان.

فالمقدمة ... فنقول: أصناف المحبین و العشّاق کثیر، و هباء نثیر، و جراد آثارها نیر، بحیث یشقّ إحصاؤهم، و لا یتأتی استقصاؤهم: [الطویل]

فقلت کما شاءت و شاء لها الهوی: قتیلک، قالت: أیّهم فهم کثر

ثم مدّ النفس بما لا یقتضی المقام الاختصاری ذکره فی هذا الموضع.

و قال رحمه اللّه تعالی فی بعض تراجم الروضة، و هی الخاتمة التی تنبه النفوس الصّیبة، علی حکم المحبّة لِیَهْلِکَ مَنْ هَلَکَ عَنْ بَیِّنَةٍ وَ یَحْیی مَنْ حَیَّ عَنْ بَیِّنَةٍ [سورة الأنفال، الآیة: ۴۲] بعد کلام ما صورته: فقر فی معنی هذه الخاتمة فیها حکم تنثال، و تجری مجری الأمثال:

المحبة بحر بعید الشطّ، و خطّ و الفناء منتهی الخطّ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ [سورة الأحزاب، الآیة: ۷۲] إلخ. المحبة مهوی بعید، و مجال وعد و وعید، من خل یقلی، ثم خیال یولی، و لیس له حدّ علیه یعوّل. المحبة ظهر لا یرکبه، من یری الموت فیتنکّبه، و لا یعلوه، من یأتی إلی وادی الفناء فیسلوه إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِیکُمْ بِنَهَرٍ [سورة البقرة، الآیة: ۲۴۹]. کم قصمت المحبة من ظهر؟ و کم سرّ صیرت إلی جهر؟ أولها العاقل المشهور، و آخرها الطی المنشور، ثم

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۸، ص: ۳۱

الموت ثم النشور وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَ وُضِعَ الْکِتابُ [سورة الزمر، الآیة: ۶۹]. المحبة أنس یستدرج، ثم شوق یلجم و یسرج، ثم فناء یزعج، عن الوجود و یخرج: [الطویل]

علی قدر أهل العزم تأتی العزائم

المحبة کاس، کم جردت من کاس؟ و آس، من شمّه لم یجد من آس: [الطویل]

متی أرتجی یوما شفائی من الضّنی إذا کان من یجنی علیّ طبیبی

تزاحم أنفاس المحبین علی خطرات الصّیبا، تزاحم الهباء علی مطارح شعاع الدّبا، فلو لا بلیلها لالتهبت، و تعلیل علیلها لتلک الأرماق لذهبت: [البسیط]

علیلة فی حواشی مرطها بلل یهدی لکلّ علیل منه إبلال

المحبة رقة، ثم فکرة مسترقة، ثم ذوق، یطیر به شوق، ثم وجل لا یبقی معه طوق، ثم لا تحت و لا فوق: [الخفیف]

أینما کنت لا أخلّف رحلا من رآنی فقد رآنی و رحلی

الهوی هوان، و حمام له ألوان، دمع ساجم، و وجد هاجم، و هیام لا یبرح، ثم وراءه ما لا یشرح: [السریع]

قال: بمن جنّ؟ و هل فى الورى ما يبعث الخبل سوى حبّه

من اقتحم بحر الهوى، هوى. لا تدخل فى بحر الهوى حتى تشاور صبرك، و تجاور قبرك، فإن كنت منّا أو فرح بسلام. الهوى طريق، و لسلوكه فريق. الزاد سرّ مكتوم، و وفاء معلوم: [البسيط]

و للميادين أبطال لها خلقوا و للدّواوين حسّاب و كتّاب

الحبّ حجّ ثان، لا يثنى نفس المريد عنه ثان، طريقه التجريد، و زاده الذكر، و طوافه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۳۲

المعرفة، و إفاضته الفناء فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ وَ اذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ وَ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ [سورة البقرة، الآية: ۱۹۸]. الغرام، صعب المرام، و الدخول فيه حرام، ما لم يكن فيه شروط كرام. من عرف ما أخذ، هان عليه ما ترك وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ يَخْتارُ [سورة القصص، الآية: ۶۸] ظهر الهوى طريقا سهلا، فكثر التائهون جهلا: [الطويل]

إذا لم يكن عون من اللّه للفتى أتته الرزايا من وجوه الفوائد

و العكس: [الكامل]

قد يخبأ المحبوب فى مكروهها من يخبأ المكروه فى المحبوب

و قال الشيخ: [الطويل]

هو الحبّ فاسلم بالحشا ما الهوى سهل فما اختاره مضنى به و له عقل

و عش خاليا فالحبّ راحته عنى و أوّله سقم و آجره قتل

نصحتك علما بالهوى و الذى أرى مخالفتى، فاختر لنفسك ما يحلو

فمن لم يمت فى حبّه لم يعش به و دون اجتناء النحل ما جنت النحل

طريق القوم مبنية على الموت، و إليه الإشارة بقوله: «موتوا قبل أن تموتوا». بيدى لا بيد عمرو، و قال بعضهم: رأيت ربّ العزّة فقلت: يا ربّ؛ بم أصل إليك؟ قال: فارق نفسك و تعال: [الكامل]

رفض السّوى فرض على العين لا تخلطنّ الحقّ بالمين

و الأين و الكيف سوى ظاهر فاستغن عن كيف و عن أين

الخشب، الذى يتّخذ منه النشب، ينقسم إلى أقسام، و أجزاء جسام: القسم الأول: فى الحدود و المعرفات، و الأسماء الواقعة و الصفات. و للسان الدين رحمه اللّه تعالى فى المواعظ اليد الطولى؛ قال فى الروضة فى الفصل الثانى فى محركات العزيمة، و هى اليقظة، ما نصّه: قلت: و المحركات المشتركات فى باعث اليقظة كثيرة: منها الوعظ السائق بمقود الشارد عن اللّه تعالى إلى مربط التوبة، و محرّك العزيمة يردّد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۳۳

أذانه على نوّام أهل الكهف، و قد ضرب نوم الغفلة على آذانهم، حتى يحول بينهم و بين أذانهم، و يركبهم ظهر الرياضة حتى تلحقهم بالمجذوبين من إخوانهم، و لمّا كان حبّ الدنيا هو المانع عن الشروع فى إطلاق العمل، و القاطع به بعده لم يجد أساة خبل الهوى و جنون الكسل أنجع من رقى العذل و التأنيب، و تقبيح المحبوب، سيما إذا انزعجت نبال نبله عن حنيات ضلوع الصدق، و قال بعضهم: الكلام إذا خرج من القلب دخل القلب: [الخفيف]

أوقد النار من رسالة ليلى و احذر السّيل بعدها من دموعى

و لا تعدل الوعظ البليغ باللسان الفصيح، و القلب القريح، فإذا رأيت الأرض قد اهتزّت و ربت، و هضاب القلوب القاسية قد تقلّبت، فشمّر للغراس و الزراع عن الذراع، و اغتنم السراع و الإسراع: [الوافر]

إذا هبّت رياحك فاغتنمها فإنّ لكلّ خافقة سكونا

[الكامل]

حفّر لها ماء يريها بدأة و اضمن لها حوضا و إن لم تحفر

و اربأ بنفسك عن تسامح بائع و اغنم إذا سامتك شهوة مشترى

قالوا: الوعظ يضرب وجه النفس عن التبّط فى بساط اللّذّات، و ينقل خطراتها عن الخطو فى ملعب الخطيئات، و يمثل لها الصبر عيانا، و يبين العواقب المحجوبة بيانا، و ينشئ سحاب الحزن فى أجواف أجزائها، و يذكرها بمآلها و انتهائها، و يعرض عليها مصارع فنائها، و خراب بنائها، و فراق حبائبها و أبنائها، عند نزول هاذم اللّذّات بفنائها، فترجع إلى اللّه تعالى بحكم الاضطرار أفكارها، و تخشع من خيفة اللّه تعالى و جلاله أبصارها.

و الوعظ يكون بلسانين، و يوجد فنين: لسان حال، و لسان مقال، و ربما كان لسان الحال أبلغ، و هو يسمع من القبور الموحشة، و القصور الخالية، و العظام البالية، و فيه حكايات

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۳۴

و أخبار، و لسان مقال كقوله سبحانه و تعالى: وَ سَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَ ضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ [سورة إبراهيم، الآية: ۴۵] و هو سبيل اللّه تعالى التى بعث بها النبيين، و ضمن فصولها الكتاب المبين، و السّوط الذى يحمل على الأوبة، و يسوق ذود المتطهرين إلى غدير التّوبة، و نحن نجعله هينمة بين يدى الفراسة، لتزكية النفوس إن صدق حكم الفراسة، فمن ذلك ما صدر عنى على لسان واعظ:

«الحمد للّه الولى الحميد، المبدىء المعيد، البعيد فى قربه من العبيد، القريب فى بعده فهو أقرب من حبل الوريد، محيى ربوع العارفين بتحيّات حياة التوحيد، و مفنى نفوس الزاهدين بكنوز احتقار الافتقار إلى العرض الزهيد، و مخلّص خواطر المحقّقين من سجون دجون التقييد، إلى فسح التجريد، نحمده و له المنتظمة درره فى سلوك الدوام و سموط التأبيد، حمد من نزّه أحكام وحدانيته، و أعلام فردانيته، عن مرابط التقييد، و مخابط الطّبع البليد، و نشكره شكر من افتتح بشكره أبواب المزيد، و نشهد أنه اللّه الذى لا إله إلّا هو شهادة نتخطّى بها معالم الخلق إلى حضرة الحقّ على كبد التفريد، و نشهد أنّ محمدا عبده و رسوله قلادة الجيد المجيد، و هلال العيد، و فذلكة الحساب و بيت القصيد، المخصوص بمنشور الإدلال، و إقطاع الكمال، بين مقام المراد و مقام المريد، الذى جعله السبب الأوصل فى نجاة الناجى و سعادة السعيد، و خاطب الخلائق على لسانه الصادق بحجتى الوعد و الوعيد، فكان ممّا أوحى به إليه، أنزل الملك به عليه، من الذكر الحميد، ليأخذ بالحجز و الأطواق من العذاب الشديد وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَ نَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ [سورة ق، الآية: ۱۶] إلى قوله حَدِيدٌ صلّى اللّه عليه و على آله صلاة تقوم ببعض حقّه الأكيد، و تسرى إلى تربته الزكية من ظهور المواجد الجائية على البريد: [الطويل]

قعدت لتذكير و لو كنت منصفا لذكّرت نفسى فهى أحوج للذكرى

إذا لم يكن منى لنفسى واعظ فيا ليت شعرى كيف أفعل فى الأخرى

## [موعظة من إنشاء لسان الدين]

آه! أىّ وعظ بعد وعظ اللّه تعالى يا أحبابنا يسمع؟ و فى ما ذا و قد تبيّن الرشد من الغىّ يطمع؟ يا من يعطى و يمنع، إذ لم تقم الصنيعة فماذا نصنع؟ اجمعنا بقلوبنا يا من يفرّق و يجمع، و ليّن حديدها بنار خشيتك فقد استعاذ نبيّك صلّى اللّه عليه و سلم من قلب لا يخشع، و من عين لا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۳۵

تدمع، اعلموا- رحمكم اللّه!- أنّ الحكمة ضالة المؤمن يأخذها من الأقوال و الأحوال، و من الجماد و الحيوان، و ما أملاه الملوان، فإنّ الحقّ نور لا يضره أن صدر من الخامل، و لا يقصر بمحموله احتقار الحامل، و أنتم تدرون أنكم فى أطوار سفر لا تستقرّ لها دون الغاية رحلة، و لا تتأتّى معها إقامة و لا مهلة، من الأصلاب، إلى الأرحام، إلى الوجود، إلى القبور، إلى النشور، إلى إحدى دارى البقاء، أفى اللّه شكّ؟ فلو أبصرتم مسافرا فى البرية يبنى و يفرش، و يمهّد و يعرش، أ لم تكونوا تضحكون من جهله، و تعجبون من ركاكة عقله؟ و و اللّه ما أموالكم و لا- أولادكم و شواغلكم عن اللّه التى فيها اجتهادكم إلّا بقاء سفر فى قفر، أو إعراس فى ليلة نفر، كأنكم بها مطرحة تعبر فيها المواشى، و تنبو العيون عن خبرها المتلاشى إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ [سورة التغابن، الآية: ۱۵] ما بعد المقيل إلّا الرحيل، و لا بعد الرحيل إلّا المنزل الكريم أو المنزل الوبيل، و إنكم تستقبلون أهوالا سكرات الموت بواكر حسابها، و عتب أبوابها. فلو كشف الغطاء عن ذرّة منها لذهلت العقول و طاشت الألباب، و ما كل حقيقة يشرحها الكلام يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا- تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ [سورة فاطر، الآية: ۵] أفلا أعددتم لهذه الورطة حيلة، و أظهرتم للاهتمام بها مخيلة؟ أ تعويلا على عفوه مع المقاطعة و هو القائل فى مقام التهديد إِنَّ عَذابِى لَشَدِيدٌ [سورة إبراهيم، الآية: ۷]؟ أ أمنا من مكره مع المنابذة فَلا- يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ [سورة الأعراف، الآية: ۹۹]؟ أطعما فى رحمته مع المخالفة و هو يقول فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ [سورة الأعراف، الآية: ۱۵۶]؟ أمشاقة و معاندة وَ مَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ [سورة الحشر، الآية: ۴]؟ أشكا فى اللّه دفتعالوا نعيد الحساب، و نقرّر العقد و نتّصف بدعوة الحقّ أو غيرها، من اليوم تفقد عقد العقائد عند التساهل بالوعيد، فالعامى يدمى الأصبع الوجعة، و العارف يضمد لها مبدأ العصب: [الخفيف]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۳۶

هكذا هكذا يكون التعامى هكذا هكذا يكون الغرور

يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ [سورة يس، الآية: ۳۰] و ما عدا، عمّا بدا؟ و رسولكم الحريص عليكم الرؤوف الرحيم يقول لكم «الكيس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت، و الأحمق من أتبع نفسه هواها، و تمنّى على اللّه الأمانى» فعلام بعد هذا المعوّل؟ و ما ذا يتأوّل؟ اتقوا اللّه سبحانه فى نفوسكم و انصحوها، و اغتنموا فرص الحياة و اربحوها أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِى جَنْبِ اللَّهِ وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ [سورة الزمر، الآية: ۵۶] و تنادى أخرى هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ [سورة الشورى، الآية: ۴۴] و نستغيث أخرى: يا ليتنا نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ [سورة الأعراف، الآية: ۵۳]، و تقول أخرى رَبِّ ارْجِعُونِ [سورة المؤمنون، الآية: ۹۹] فرحم اللّه من نظر لنفسه، قبل غروب شمسه، و قدّم لغده من أمسه، و علم أنّ الحياة تجرّ إلى الموت، و الغفلة تقود إلى الفوت، و الصحة مركب الألم، و الشبيبة سفينة تقطع إلى ساحل الهرم.

و إن شاء قال بعد الخطبة: إخوانى، ما هذا التوانى، و الكلف بالوجود الفانى عن الدائم الباقى و الدهر يقطع الأمانى، و هاذم اللّذّات قد شرع فى نقض المبانى؟ ألا معتبر فى عالم هذه المعانى؟ ألا مرتحل عن مغابن هذه المغانى؟: [الطويل]

ألا أذن تصغى إلىّ سميعة أحدّثها بالصدق ما صنع الموت

مددت لكم صوتى فأوّاه حسرة على ما بدا منكم فلم يسمع الصوت

هو القدر الآتى على كلّ أمّة فتوبوا سراعا قبل أن يقع الفوت

يا كلفا بما لا يدوم، يا مفتونا بغرور الوجود المعدوم، يا صريع جدار الأجل المهدوم، يا مشتغلا ببنيان الطرق قد ظهر المناخ و قرب القدوم، يا غريقا فى بحار الأمل ما عساك تعوم، يا معلّل الطعام و الشراب و لمع السراب، لا بدّ أن تهجر المشروب و تترك المطعوم. دخل سارق الأجل بيت عمرك فسلب النشاط و أنت تنظر، و طوى البساط و أنت تكرب، و اقتلع جواهر الجوارح و قد وقع بك النهب، و لم يبق إلّا أن يجعل الوسادة على أنفك و يقعد:

[المجتث]

لو خفّف الوجد عنى دعوت طالب ثارى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۳۷

كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها [سورة المؤمنون، الآية: ۱۰۰] كيف التراخى و الفوت مع الأنفاس ينتظر؟ كيف الأمان و هاجم الموت لا يبقى و لا يذر؟ كيف الركون إلى الطمع الفاضح و قد صحّ الخبر؟ من فكّر فى كرب الخمار تنغّصت عنده لذة النبيذ، من أحسّ بلغط الحريق فوق جداره لم يصغ بصوته لنغمة العود، من تيقّن بذلّ العزلة هان عليه ترك الولاية: [الكامل]

ما قام خيرك يا زمان بشرّه أولى لنا ما قلّ منك و ما كفى

أوحى اللّه سبحانه إلى موسى صلوات اللّه و سلامه عليه أن ضع يدك على متن ثور، فبعدد ما حاذته من شعره تعيش سنين، فقال: يا ربّ، و بعد ذلك؟ قال تموت، قال: يا ربّ فالآن: [المتقارب]

رأى الأمر يفضى إلى آخر فصيّر آخره أوّلا

إذا شعرت نفسك بالميل إلى شىء فاعرض عليها غصّة فراقه لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ [سورة الأنفال، الآية: ۴۲] فالمفروح به هو المحزون عليه، أين الأحباب؟ مرّوا، فيا ليت شعرى أين استقرّوا؟ استكانوا و اللّه و اضطرّوا، و استغاثوا [من سبقك] بأوليائهم ففرّوا، وليتهم إذ لم ينفعوا ما ضرّوا، فالمنازل من بعدهم خالية خاوية، و العروش ذابلة ذاوية، و العظام من بعد التفاضل متشابهة متساوية، و المساكن تندب فى أطلالها الذئاب العاوية: [المديد]

صحت بالرّبع فلم يستجيبوا ليت شعرى أين يمضى الغريب

و بجنب الدار قبر جديد منه يستسقى المكان الجديب

غاض قلبى فيه عند التماحى قلت هذا القبر فيه الحبيب

لا تسل عن رجعتى كيف كانت إنّ يوم البين يوم عصيب

باقتراب الموت علّلت نفسى بعد إلفى كلّ آت قريب

أين المعمّر الخالد؟ أين الولد أين الوالد؟ أين الطارف أين التالد؟ أين المجادل أين

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۳۸

المجالد؟ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً [سورة مريم، الآية: ۹۸] وجوه علاهنّ الثرى، و صحائف تفض، و أعمال على اللّه تعرض. بحث الزهاد و العباد، و العارفون و الأوتاد، و الأنبياء الذين يهدى بهم العباد، عن سبب الشقاء الذى لا سعادة بعده، فلم يجدوا إلّا البعد عن اللّه تعالى، و سببه حبّ الدنيا «لن تجتمع أمتى على ضلالة»: [الوافر]

هجرت حبائبى من أجل ليلى فما لى بعد ليلى من حبيب

و ما ذا أرتجى من وصل ليلى ستجزى بالقطيعة عن قريب

و قالوا: ما أورد النفس الموارد، و فتح عليها باب الحتف، إلّا الأمل، كلّما قوّمتها مثاقف الحدود فتح لها أركان الرخص، كلّما عقدت صوم العزيمة أهداها طرف الغرور فى أطباق:

حتى، و إذا، و لكن، و ربما، فأفرط القلب فى تقليبها حتى أفطر: [الرجز]

ما أوبق الأنفس إلّا الأمل و هو غرور ما عليه عمل

يفرض منه الشخص و هما ما له حال و لا ماض و لا مستقبل

ما فوق وجه الأرض نفس حيّة إلّا قد انقضّ عليها الأجل

لو أنهم من غيرها قد كوّنوا لامتلأ السهل بهم و الجبل

ما ثم إلّا لقم قد هيّئت للموت، و هو الآكل المستعجل

و الوعد حقّ و الورى فى غفلة قد خودعوا بعاجل و ضلّلوا

أين الذين شيّدوا و اغترسوا و مهّدوا و افترشوا و ظلّلوا

أين ذوو الراحات زادت حسرة إذ جنّبوا إلى الثرى و انتقلوا

لم تدفع الأحباب عنهم غير أن بكوا على فراقهم و أعولوا

اللّه فى نفسك أولى من له ذخرت نصحا و عتابا يقبل

لا تتركنها فى عمى و حيرة عن هول ما بين يديها تغفل

حقّر لها الفانى و حاول زهدها و شوقها إلى الذى تستقبل

وفد إلى اللّه بها مضطرّة حتى ترى السير عليها يسهل

هو الفناء و البقاء بعده و اللّه عن حكمته لا يسأل

يا قرّة العين و يا حسرتها يوم يوفّى الناس ما قد عملوا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۳۹

يا طرد المخالفة، إنكم مدركون فأستبقوا باب التوبة، فإنّ ربّ تلك الدار يجير و لا يجار عليه، فإذا أمنتم فاذكروا اللّه كما هداكم، يا طفيليّة الهمّة، دسّوا أنفسكم بزمر التائبين، و قد دعوا إلى اللّه دعوة الحبيب، فإن لم يكن أكل فلا أقلّ من طيب الوليمة، قال بعض العارفين: إذا عقد التائبون الصلح مع اللّه تعالى انتشرت رعايا الطاعة فى عمالة الأعمال وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَ وُضِعَ الْكِتابُ [سورة الزمر، الآية: ۶۹]. معانى هذا المجلس و اللّه نسيم سحر، إذا استنشقه مخمور الغفلة أفاق، سوط هذا الوعظ يبغض إن شاء اللّه زكمة البطالة، إنّ الذى أنزل الداء أنزل الدواء، إكسير هذا الكتاب يلقّب بحكمة جابر القلوب المنكسرة عين من كان له قلب إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ [سورة الأنعام، الآية: ۶] إلهى دلّنا من حيرة يضلّ فيها- إلّا إن هديت- الدليل، و أجرنا من غمرة و كيف إلّا بإعانتك السبيل؟ نفوس صدىء على مرّ الأزمان منها الصّقيل، و نبا بجنوبها عن الحقّ المقيل، و آذان أنهضها القول الثقيل، و عثرات لا يقيلها إلّا أنت يا مقيل العثرات يا مقيل، أنت حسبنا و نعم الوكيل؛ انتهى.

و من مواعظ لسان الدين رحمه اللّه سبحانه ما أورده فى الروضة إثر ما سبق، إذ قال:

إخوانى صمّت الآذان و النداء جهير، و كذب العيان و المشار إليه شهير، أين الملك و أين الظهير؟ أين الخاصة أين الجماهير؟ أين القبيل و العشير؟ أين كسرى بن أردشير؟ صدق و اللّه الناعى و كذب البشير! و غشّ المستشار و اتّهم المشير، و سئل عن الكلّ فأشار إلى التراب المشير: [الكامل]

خذ من حياتك للممات الآتى و بدار ما دام الزمان مواتى

لا تغترر فهو السراب بقيعة قد خودع الماضى به و الآتى

يا من يؤمّل واعظا و مذكّرا يوما ليوقظه من الغفلات

هلّا اعتبرت و يا لها من عبرة بمدافن الآباء و الأمّات

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۴۰

قف بالبقيع و ناد فى عرصاته فلكم به من جيرة ولدات

درجوا و لست بخالد من بعدهم متميّز عنهم بوصف حياة

و اللّه ما استهللت حيّا صارخا إلّا و أنت تعدّ فى الأموات

لا فوت عن درك الحمام لهارب و الناس صرعى معرك الآفات

كيف الحياة لدارج متكلّف سنة الكرى بمدارج الحيّات

أسفا علينا معشر الأموات لا ننفكّ عن شغل بهاك و هات

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۸؛ ص۴۰

و يغرّنا لمع السّراب فنغتدى فى غفلة عن هاذم اللّذّات

و اللّه ما نصح امرأ من غشّه و الحقّ ليس بخافت المشكاة

يا من غدا و راح، و ألف الراح، يا من شرب الراح، ممزوجة بالعذب القراح، و قعد لعيان صروف الزمان مقعد الاقتراح، كأنك و اللّه باختلاف الرياح، و سماع الصياح، و هجوم غارة الاجتياح، فأديل الخفوت من الارتياح، و نسيت أصوات الغناء برنّات الرياح، و عوضت عرر النّوب القباح، من غرر الوجوه الصّباح، و تناولت الجسوم الناعمة أيدى الاطّراح، و تنوسيت العهود الكريمة بمرّ المساء عليها و الصباح، و أصبحت كماة النطاح، من تحت البطاح، و خملت المهنّدة و الرماح، ذليلة من بعد الجماح: [الطويل]

و لو كان هول الموت لا شيء بعده لهان علينا الأمر و احتقر الهول

و لكنه حشر و نشر و جنّة و نار، و ما لا يستقلّ به القول

يا مشتغلا بداره، ورمّ جداره، عن إسراعه إلى النجاة و بداره، يا من صاح بإنذاره شيب عذاره، يا من صرف عين اعتذاره بأقذاره، يا من قطعه بعد مزاره و ثقل أوزاره، يا معتلقا ينتظر هجوم جزّاره، يا مختلسا للأمانة يرتقب مفتش ما تحت إزاره، يا من أمعن فى خمر الهوى خف من إسكاره، يا من خالف مولى رقّه توقّ من إنكاره، يا كلفا بعارية تردّ، يا مفتونا بأنفاس تعدّ، يا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۴۱

معوّلا على الإقامة و الرحال تشدّ، كأنى بك و قد أوثق الشّدّ، و ألصق بالوسادة الخدّ، و الرّجل تقبض و الأخرى تمدّ، و اللسان يقول يا لَيْتَنا نُرَدُّ [سورة الأنعام، الآية: ۷۲]: [السريع]

إنّا إلى اللّه و إنّا له ما أشغل الإنسان عن شانه

يرتاح للأثواب يزهى بها و الخيط مغزول لأكفانه

و يخزن الفلس لورّاثه مستنفدا مبلغ أكوانه

قوّض عن الفانى رحال امرئ مدّ إليه عين عرفانه

ما ثمّ إلّا موقف زاهد قد وكّل العدل بميزانه

مفرّط يشقى بتفريطه و محسن يجزى بإحسانه

## [من إنشاء لسان الدين يخاطب طالب موعظة]

يا هذا، خفى عليك مرض اعتقادك فالتبس الشحم بالورم، جهلت قيم المعادن فبعت الشّبه بالذهب، فسد حسّ ذوقك فتفكهت بحنظله، أين حرصك من أجلك؟ أين قولك من عملك؟ يدرككك الحياء من الطفل فتتحامى حمى الفاحشة فى البيت بسببه، ثم تواقعها بعين خالق العين، و مقدر الكيف و الأين، تاللّه ما فعل فعلك بمعبوده، من قطع بوجوده ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ [سورة المجادلة، الآية: ۷] إلى عَلِيمٌ [سورة المجادلة، الآية: ۷] تعود عليك مساعى الجوارح التى سخّرها لك بالقناطير المقنطرة من الذهب و الفضّة، فتبخل منها فى سبيله بفلس، و أحد الأمرين لازم: إمّا التكذيب، و إمّا الحماقة، و جمعك بين الحالتين عجيب، يرزقك السنين العديدة من غير حقّ وجب لك، و تسيء الظنّ به فى يوم؛ توجب الحقّ، و تعتذر بالغفلة، فما بال التمادى؟ تعترف بالذنب فما الحجّة فى الإصرار؟ وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِى خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً [سورة الأعراف، الآية: ۳۵] يا مدّعى النسيان، ما ذا فعلت بعد التذكير؟ يا معتذرا بالغفلة، أين ثمرة التنبيه؟ يا من قطع بالرحيل، أين الزاد؟ يا ذبابة الحرص، كم ذا تلجج فى ورطة الشهد؟ يا نائما ملء عينيه، حذار الأجل قد أنذر، يا ثمل الاغترار قرب خمار الندم، تدّعى الحذق بالصنائع و تجهل هذا القدر، تبذل النصح

لغيرك و تغشّ نفسك هذا الغشّ، اندمل جرح توبتك على عظم، قام بناء عزمتك على رمل، نبتت خضراء دعوتك على دمنة، عقدت كفّك من الحقّ على قبضة ماء أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ [سورة فاطر، الآية: ۸]، إذا غام جوّ هذا المجلس، و ابتدأ رشّ غمام الدموع، قالت النفس الأمّارة: حوالينا لا علينا، فدالت رياح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۴۲

الغفلة، و سحاب الصيف هفاف، كلّما شدّ طفل العزيمة على درّة التوبة صانعته ظئر الشهوة عن ذلك بعصفور، إذا ضيق الخوف فسحة المهل سرق الأمل حدود الجار، قال بعض الفضلاء:

كانوا إذا فقدوا قلوبهم، تفقّدوا مطلوبهم، و لو صدق الواعظ لأثّر، اللهمّ لا أكثر: [الطويل]

طبيب يداوى الناس و هو عليل

و الخطب جليل، و المتفطن قليل، فهل إلى الخلاص سبيل؟ اللهمّ انظر إلينا بعين رحمتك التى وسعت الأشياء، و شملت الأموات و الأحياء، يا دليل الحائرين دلّنا، يا عزيز ارحم ذلّنا، يا وليّ من لا وليّ له كن لنا كلّنا، إن أعرضت عنّا فمن لنا؟ نحن المذنبون و أنت غفّار الذنوب، فقلّب قلوبنا يا مقلّب القلوب، و استر عيوبنا يا ستّار العيوب، يا أمل الطالب و يا غاية المطلوب؛ انتهى.

و من كلام لسان الدين رحمه اللّه تعالى فى المواعظ ما خاطب به بعض من استدعى منه الموعظة، و نصّه: [الطويل]

إذا لم أنح يوما على نفسى التى بحرّائها أحببت كلّ حبيب

و قد صحّ عندى أنّ عادية الردى تدبّ لها و اللّه كلّ دبيب

فمنذا الذى يبكى عليها بأدمعى إذا كنت موصوفا برأى لبيب

كم قد نظرت إلى حبيب تغار من إرسال طرفك بكتاب الهوى إلى إنسانه، و قد ذبلت بالسقم نرجسة لحظه، و ذوت وردة خدّه، و اصفرّت لمغيب الفراق شمس حسنه، و هو يجود بنفسه التى كان يبخل منها بالنفس، يخاطب بلسان حاله مسترحما: «و ليت الفجل يهضم نفسه»، و أنت على أثر مسحبه إلى دست الحكم، وَ ما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَ لا بِكُمْ [سورة الأحقاف، الآية: ۹].

و منها: تاللّه لو لم يكن المخبر صادقا لنشب بحلق العيش بعده شوكة الشكّ: [الوافر]

و لو أنّا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كلّ حيّ

و لكنّا إذا متنا بعثنا و نسأل بعده عن كلّ شيّ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۴۳

فالحازم من بتر الآمال طوعا، و قال: بيدى لا بيد عمرو يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ [سورة فاطر، الآية: ۵].

و قال أمير الوعاظ رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

و بضدّها تتميز الأشياء

يا مقتولا ما له طالب ثار، بريد الموت مطلق الأعنّة فى طلبك، و ما يحميك حصن، ثوب حياتك منسوج من طاقات أنفاسك، و الأنفاس تستلب ذرّات ذاتك، و حركات الزمان قويّة فى النسج الضعيف، فيا سرعة التمزّق، يا رابطا مناه بخيط الأمل، إنه ضعيف الفتل، صيّاد التلف قد بثّ الصقور، و أرسل العقيان، و نصب الأشراك، و قطع المواد، فكيف السلامة؟ تهيّأ لسرعة الموت و أشدّ منها قلب القلب، ليت شعرى لما يؤول الأمر: [الطويل]

فو اللّه لا أدرى أ يغلبنى الهوى إذا جدّ جدّ البين أم أنا غالبه

فإن أستطع أغلب و إن يغلب الهوى فمثل الذى لاقيت يغلب صاحبه

مركب الحياة يجرى فى بحر البدن برخاء الأنفاس، و لا بدّ من عاصف قاصف بفلكه و يغرق الركاب: [الكامل]

فاقضوا مآربكم عجالا إنما أعماركم سفر من الأسفار

و قال: كأنك بحرب التلف قد قامت على ساق، و انهزمت بجنود الأمل، و إذا بملك الموت قد بارز الروح يجذبها بخطاطيف الشدائد من قيان العروق، قد شدّ كتاف الذبيح، و حار البصر لشدّة الهول، و ملائكة الرحمة عن اليمين قد فتحوا أبواب الجنّة، و ملائكة العذاب عن اليسار قد فتحوا أبواب النار، و جميع المخلوقات تستوكف الخبر، و الكون كلّه قد قام على صيحة: سعد فلان، أو شقى فلان، تهناك تنجلى أبصار الذين كانت أعينهم فى غطاء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ۴۴

عن ذكرى، ويحك! تهيّأ فتلك الساعة، حصّل زادا قبل الفوت: [الوافر]

تمتّع من شميم عرار نجد فما بعد العشيّة من عرار

مثّل لعينيك سرعة الموت، و ما قد عزمت أن تفعل حينئذ فى وقت الأسر فافعله فى وقت الإطلاق، و قال أبو العتاهية: [مجزوء الرمل]

خانك الطّرف اتّئد أيها القلب الجموح

لدواعى الخير و الشّرّ دنوّ و نزوح

كيف إصلاح قلوب إنما هنّ قروح

أحسن اللّه بنا إنّ الخطايا لا تفوح

فإذا المستور منّا بين أيديه فضوح

كم رأينا من عزيز طويت عنه الكشوح

صاح منه برحيل صالح الدهر الصّدوح

موت بعض الناس فى الأر ض على بعض فتوح

سيصير المرء يوما جسدا ما فيه روح

بين عينى كلّ حىّ علم الموت يلوح

كلّنا فى غفلة و ال موت يغدو و يروح

لبنى الدنيا من الدن يا غبوق و صبوح

رحن فى الوشى و أصبح ن عليهنّ المسوح

كلّ نطّاح من الدّه ر له يوما نطوح

نح على نفسك يا مس كين إن كنت تنوح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ۴۵

لتنوحنّ و لو عمّ رت ما عمّر نوح

و قال فى المعنى: [مجزوء الوافر]

لمن طلل أسائله معطّلة منازله

غداة رأيته تنعى أعاليه أسافله

و كنت أراه مأهولا و لكن باد آهله

و كلّ لاعتساف الده ر معرضة مقاتله

و ما من مسلك إلّا و ريب الدهر شامله

فيصرع من يصارعه و ينضل من يناضله

ينازل من يهمّ به و أحيانا يخاتله

و أحيانا يؤخّره و تارات يعاجله

كفاك به إذا نزلت على قوم كلا كله

و كم قد عزّ من ملك تحفّ به قنابله

و يثنى عطفه مرحا و تعجبه شمائله

فلمّا أن أتاه الحقّ ولّى عنه باطله

فغمّض عينه للمو ت و استرخت مفاصله

فما لبث السّياق به إلى أن جاء غاسله

فجهّزه إلى جدث سيكثر فيه خاذله

و يصبح شاحط المثوى مفجّعة ثواكله

مخمّشة نوادبه مسلّبة غلائله

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۴۶

و كم قد طال من أمل فلم يدركه آمله

رأيت الحقّ لا يخفى و لا تخفى شواكله

ألا فانظر لنفسك أىّ زاد أنت حامله

لمنزل وحدة بين الم قابر أنت نازله

قصير السّمك قد رمضت عليك به جنادله

بعيد تجاور الجيرا ن ضيّقة مداخله

أ أيتها المقابر فى ك من كنّا ننازله

و من كنّا نتاجره و من كنّا نعامله

و من كنّا نعاشره و من كنّا نداخله

و من كنّا نشاربه و من كنّا نؤاكله

و من كنّا نفاخره و من كنّا نطاوله

و من كنّا نراقبه و من كنّا نزايله

و من كنّا نكارمه و من كنّا نجامله

و من كنّا له إلفا قليلا ما نزاوله

و من كنّا له بالأم س أحيانا نواصله

فحلّ محلّة من حل لها صرمت حبائله

ألا إنّ المنيّة من هل و الخلق ناهله

أواخر من ترى تفنى كما فنيت أوائله

لعمرك ما استوى فى الأم ر عالمه و جاهله

ليعلم كلّ ذى عمل بأنّ اللّه سائله

فأسرع فائزا بالخى ر قائله و فاعله

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۴۷

ثم قال لسان الدين رحمه اللّه تعالى، بعد ما سبق، ما صورته: و هذا الغرض بحر، و يكفى من خزائنه عرض، و من بيت ماله قرض، إن شاء اللّه تعالى.

ثم قال: تنبيه يشتمل على سؤالين: أحدهما أن يقال: الوعظ غير مناسب للمحبّة، إذ لا يحصل إلّا بعد الفراغ و اليقظة، الثانى: أن يقال: عظمتم الحسرة لفراق عالم الحسّ، و أطلتم فى قشور، فنجيب عن الأول: إنّا لم نجلب الوعظ إلّا بين يدى تأميل حضور المحبّة، فكأنه يجرى مجرى الأسباب، فإن الغرض به وجهة النفس من جوّ السرور، و اللعب بالزور، إلى جوّ الحزن و الارتماض، و من هنالك تأخذ بخطامها أيدى الاضطرار، فتحصل اليقظة، ثم التوبة، و منها يستقيم الطريق فى منازل السائرين إلى الحقّ: [الكامل]

و النفس راغبة إذا رغّبتها و إذا تردّ إلى قليل تقنع

و عند ذلك يطوى بساط الزجر و الوعظ، و يمدّ بساط الاعتبار و الحبّ، إن شاء اللّه تعالى، فإنها كالثّكلى بطبعها لما فارقته من عنصر نور اللّه تعالى، و العوالم الروحانية التى هى الشعار و الدثار، و الأمل و الدار، و الحياة و الجمال، و الوجود و الكمال، و إن كانت لا تشعر بالسبب، و لا تستحضر ذكر العلّة، فإذا ذكر الفراق أنت أو تنوشدت الآثار حنّت، و يطرقها الحزن عند الألحان الشجيّة، و تحسّ بعض الأحيان بالمواجد العشقية: [الطويل]

و قالوا أتبكى كلّ قبر رأيته لقبر ثوى بين اللّوى و الدكادك

فقلت لهم: إنّ الأسى يبعث الأسى دعونى فهذا كلّه قبر مالك

و عن الثانى: إنّ كثيرا من النفوس لا تشعر بوجود عالم الحسّ، فضلا عن النظر فيه، و إن شعرت بذلك عدّ منها نبلا، و من كان بهذه المثابة لا سبيل لندائه إلّا من باب القشور أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ [سورة فصلت، الآية: ۴۴] إلى أن يتأتّى النداء من باب اللّه تعالى بفضل اللّه تعالى، فالنفوس الشخصية غير متساوية، و هى بهوى الهوى هاوية، فالقريب منها يجذب بالأنامل، و البعيد بالجزل الكوامل، و على قدر المحمول تكون قوّة الحامل: [الكامل]

يضع الهناء مواضع النقب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۴۸

[الكامل]

يكفى اللبيب إشارة مكتومة و سواه يدعى بالنداء العالى

و سواهما بالزجر من قبل العصا ثم العصا هى رابع الأحوال

و قال رحمه اللّه تعالى فى فصل ذمّ الكسل، ما صورته: و نحن نجلب بعض الأمثال فى ذمّه، ممّا يسهل حفظه، و يجب لحظه، فمن ذلك: الكسل مزلقة الربح، و مسخرة الصبح إذا رقدت النفس فى فراش الكسل استغرقها نوم الغفلة لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ [سورة الملك، الآية: ۱۰]. الندامة فى الكسل، كالسم فى العسل. الكسل آفة الصنائع، و أرضة فى البضائع. العجز و الكسل، يفتحان الخمول و لا تسل. الفلّاح إذا ملّ الحركة، عدم البركة: [البسيط]

ظهران لا يبلغان المرء إن ركبا باب السعادة: ظهر العجز، و الكسل

و فى اغتنام الأنام: من أضاع الفرصة، تجرّع الغصّة. إن كان لك من الزمان شىء فالحال، و ما سواه فمحال. تارك أمره إلى غد، لا يفلح للأبد. الإنسان ابن ساعته، فليحطها من إضاعته. التسويف سمّ الأعمال، و عدوّ الكمال. لم يحرم المبادر، إلّا فى النادر. ما درجت أفراخ ذلّ إلّا من وكر طماعة، و لا بسقت فروع ندم إلّا من جرثومة إضاعة. العزم سوق، و التاجر الجسور مرزوق. من وثق بعهد الزمان، علقت يداه بحبل الحرمان. الربح فى ضمن الجسارة، و المضيع أولى بالخسارة.

و من أمثالهم- فى نظر الإنسان لنفسه، قبل غروب شمسه- قولهم: اعلم أنّ كلّ حكيم صانع إذا فكّر فى أمره و نظر فى العواقب علم أنه

لا بدّ يوما أن يخرب دكانه الذى هو محلّ بضاعته، و تنحلّ أنقاضه، و تكلّ أدواته، و تضعف قوّته، و تذهب أيام شبابه، فمن بادر و اجتهد قبل خراب الدكان، و استغنى عن السعى، فإنه لا يحتاج بعد ذلك إلى دكان آخر، و لا إلى أدوات مجددة، فليتّجر بما اقتناه و يشتغل بالانتفاع و الالتذاذ بما اكتسبت يداه، و هذه حالة النفس بعد خراب الجسد، فبادر و اجتهد و احرص و استعجل، و تزوّد قبل خراب دكانك و هدم بنيته، فإنّ خير الزاد التقوى، قال حسان: [الطويل]

إذا أنت لم ترحل بزاد من التّقى و أبصرت بعد اليوم من قد تزوّدا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ۴۹

ندمت على أن لا تكون كمثله و لم تترصّد مثل ما كان أرصدا

قال أبو الفرج بن الطيب البغدادى فى اغتنام الوقت فى كتابه «فى السياسة و الآراء الفاضلة»: يجب أن تعيد و تمثّل، فإنّ الفكر مضطرب متشوّش بكثرة نوازع النفس و اختلاف قواها، و العمى فى بعض الأوقات، فإذا سنح للنفس وقت فاضل بصفاء جوهرها، و أبرمت قانونا أو صورة متوسطة فاضلة، يجب أن يقيّد بذلك وقت سعد ربما لا يعاود أو يعاود؛ انتهى.

## [رسالة منه إلى شيخ الموحدين بتونس]

و من نثر لسان الدين رحمه اللّه تعالى ما كتب به على لسان سلطانه إلى شيخ الموحّدين بتونس ابن تفراجين، يخبره بالتمحيص الجارى عليه، و نصّه: «من أمير المسلمين أيّده اللّه و نصره، و أعلى أمره و أظهره، إلى وليّنا فى اللّه تعالى الذى له القدم الرفيع المناصب، و المجد السامى الذوائب، و السياسة التى أخبارها سمر الركبان و حدو الركائب، الشيخ الجليل الكبير، الشهير الخطير، الهمام الأمضى، الرفيع الأعلى، الأمجد الأوحد، الأسعد الأصعد، الأوفى الظاهر الطاهر الفاضل الباسل الأرضى الأنقى المعظم الموقّر المبرور، علم الأعلام، سلالة أكابر أصحاب الإمام، معيد دولة التوحيد إلى الانتظام، أبى محمد عبد اللّه بن الشيخ الجليل الكبير الشهير الماجد الخطير الرفيع الأسعد الأمجد الحسيب الأصيل الأمضى الأرضى الأفضل الأكمل المعظم المقدس المرحوم أبى العباس تفراجين، وصل اللّه تعالى له عزّة تناسب شهرة فضله! و سعادة تتكفّل له فى الدارين برفعة محلّه:

«سلام كريم يخصّ مجادتكم الفاضلة، و رتبتكم الحافلة، و رحمة اللّه تعالى و بركاته.

أمّا بعد حمد الذى يمحّص ليثيب، و يأمر بالاستقالة ليجيب، و يعقب ليل الشدّة بصبح الفرج القريب، و يجنى من شجر التوكّل عليه، و التسليم إليه، ثمر الصنع العجيب، و يظهر العبر مهما كسر ثم جبر لكلّ ذى قلب منيب، و الصلاة على سيدنا و مولانا محمد رسوله الذى نلجأ إلى ظلّ شفاعته فى اليوم العصيب، و نستظهر بجاهه على جهاد عبدة الصليب، و نستكثر عدد بركاته فى هذا الثغر الغريب، و نصول منه على العدوّ بالحبيب، و الرضا عن آله و صحبه نجوم الهداية من بعد الأمنة من الأفول و المغيب، فإنّا كتبناه إليكم- كتب اللّه لكم عزّة متّصلة، و عصمة بالأمان من نوب الزمان متكفّلة!- من حمراء غرناطة حرسها اللّه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ۵۰

تعالى، و لا زائد بفضل اللّه تعالى الذى لطف و جبر، و أظهر فى الإقالة و حسن الإدالة العبر، ممّن كتب اللّه تعالى له العقبى لما صبر، إلّا الخبر الذى كسا الأعطاف الحبر، و الصنع الذى صدّق خبره الخبر، و الحمد للّه تعالى كثيرا كما هو أهله فلا فضل إلّا فضله، و لمكانتكم عندنا المحلّ الذى قررت شهرة فضلكم قواعده، و أعلت مصاعده، و أثبت التواتر شواهده، إذ لا نزال نتحف بسيركم الذى فى التدبيرات يقتفى، و علم يسترشد به إذا العلم اختفى، و السبيل عفا، و إنّ تلك الدولة بكم استقام أودها، و قامت و الحمد للّه عمدها، و إنكم رعيتم فى البنين حقوق آبائها، و حفظتم عليها ميراث عليائها، و لو لم تتّصل بنا أنباؤكم الحميدة، و آراؤكم السديدة، بما يفيد العلم بفضل ذاتكم، و يغرى قوى الاستحسان بصفاتكم، لغبطنا بمخاطبتكم و مفاتحتكم، ما نجده من الميل لكم طبعا و جبلّة، من غيرين نعتبر سببا أو علّة، فالتعارف بين الأرواح لا ينكر، و الحديث الكريم يؤيّد من ذلك ما ينقل و يذكر. و بحسب ذلك

نطلعكم على غريب ما جرى به فى ملكنا القدر، و حيث بلغ الورد و كيف كان الصّدر، و ربما اتّصلت بكم الحادثة التى أكفأها على دار ملكنا من لم يعرف غير نعمتها غاذيا، و لا برح فى جوانب إحسانها رائحا و غاديا، يتيم حجرها الكافل، و رضيع درّها الحافل، الشقى الخاسر، الخائن الغادر، محمد بن إسماعيل بن محمد المستجير بنسبنا من لؤم غدره، الخفيّة عنا حيل مكره لخمول قدره، إذ دعاه محتوم الحين ليهلك إلى أن يهلك، و سوّلت له نفسه الأمّارة بالسوء أن يملّك أخانا الخاسر ثم يملك، و سبحان الذى يقول يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ [سورة هود، الآية: ۴۶] و كيف تمّ له ما أبرمه من تسوّر الأسوار، و اقتحام البوار، و تملك الدار، و الاستيلاء على قطب المدار، و أننا كنفتنا عصمة اللّه تعالى بمتحوّلنا الذى كان به ليلتئذ محلّ ثوائنا، و كفّت القدرة الإلهية أكفّ أعدائنا، و خلصنا غلابا بحال انفراد الأمر عناية و نعم الرفيق، و صدق اللّجأ إلى رحمة اللّه تعالى التى ساحتها عن مثلنا لا تضيق، فمهما تنكّر الزمان أو تفرّق الفريق، و شرذمة الغدر تأخذ علينا كلّ فجّ عميق، حتى أوينا من مدينة وادى آش إلى الجبل العاصم، و الحجّة المرغمة أنف المخاصم، ثم أجزنا البحر بعد معاناة خطوب، و تجهّم من الدهر و قطوب، و بلا اللّه هذا الوطن بمن لا يرجو للّه وقارا، و لا يألو شعائره المعظمة احتقارا،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۵۱

فأضرمه نارا، و جلّل وجوه وجوهه خزيا و عارا، حتى هتك الباطل حماه، و غيّر اسمه و مسمّاه، و بدّد حاميته المتخيّرة و شذّبها، و سخّم دواوينه التى محّصها الترتيب و التجريب و هذّبها، و أهلك نفوسها و أموالها، و أساء لو لا تدارك اللّه تعالى أحوالها. و لما تأذن جلّ جلاله فى إقالة العثار، و درك الثار، و أنشأت نواسم رضاه إدامة الاستغفار، و رأينا قلادة الإسلام قد آن انتثارها، و الملّة الحنيفية كادت تذهب آثارها، و مسائل الخلاف يتعدّد مثارها، و جعلت الملتان نحونا تشير، و الملك يأمل أن يوافيه بقدومنا البشير، تحركنا حركة خفيفة تشعر أنها حركة الفتح، و نهضنا نبتدر ما كتب اللّه تعالى من المنح، و قد امتعض لنا الكون بما حمل، و استخدم الفلك نفسه بمشيئته تعالى و اكتمل، و كاد يقرب لقرى ضيفنا الثور و الحمل، و ظاهرنا محلّ أخينا السلطان الكبير الرفيع المعظم المقدس أبى سالم الذى كان وطنه مأوى الجنوح، و مهبّ النصر الممنوح- رحمة اللّه تعالى عليه!- مظاهرة مثله من الملوك الأعاظم، و ختم الجميل بالجميل و الأعمال بالخواتم، و أنف حتى عدوّ الدين لنعمتنا المكفورة، و حقوقنا المحجوبة المستورة، فأصبح بعد العدوّ حبيبا، و عاد بعد الإباية منيبا، و سخّر أساطيله تحضيضا على الإجازة و ترغيبا، و استقبلنا البلاد و بحر البشر يزخر موجه، و ملك الإسلام قد خرّ على الحضيض أوجه، و الروم مستولية على الثغور، و قد ساءت ظنون المؤمنين بالعقبى و للّه عاقبة الأمور، و الخبيث الغادر الذى كان يموّه بالإقدام قد ظهر كذب دعواه، و هان مثواه، و تورّط فى أشراك المندمة تورّط مثله ممّن اتّبع هواه، و جحد نعمة مولاه، فلو لا أنّ اللّه عزّ و جلّ تدارك جزيرة الأندلس بركابنا، و عاجل أوارها بانسكابنا، لكانت القاضية، و لم تر لها من بعد تلك الريح العقيم من باقية، لكنّا بفضل اللّه تعالى رفعنا عنها وطأة العدوّ و قد دنا بكلكل، و ابتززناه منها أىّ مشرب و مأكل، و اعتززنا عليه بالله تعالى الذى يعزّ و يذلّ، و يهدى و يضلّ، فلم نسامحه فى شرط يجرّ غضاضة، و لا يخلّف فى القلوب مضاضة، و خضنا بحر الهول، و برئنا إلى اللّه تعالى ربّنا عن القوّة و الحول، و ظهرت للمسلمين ثمرة سريرتنا، و ما بذلنا فى مصانعة العدوّ من الإجهاز عليهم من حسن سيرتنا، فقويت فينا أطماعهم، و انعقد على التحرّم بنا إجماعهم. و قصدنا مالقة بعد أن انثالت الجهة الغربية، و أذعنت المعاقل الأبيّة، فيسّر اللّه تعالى فتحها، و هيّأ منحها، ثم توالت البيعات، و صرحت بمآذن البلاد الدّعاة، و اضطرب أمر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۵۲

الخائن و قد دلفت المخاوف إليه، و حسب كلّ صيحة عليه، فاقتضت نعامته الشائلة، و دولة بغيه الزائلة، و آراؤه الفائلة، أن ضمّ ما أمكنه من ذخيرة مكنونة، و آلة للملك مصونة، و استركب أوباشه الذين استباح الحقّ دماءهم، و عرف الخلق اعتزاءهم للغدر و انتماءهم، و قصد سلطان قشتالة من غير عهد و لا وثيقة، و لا مثلى طريقة، و لا شيمة بالرّعى خليقة، لكن اللّه، عزّ و جلّ، حمله على قدمه، لإراقة دمه، و زيّن الوجود بعدمه، فلحين قدومه عليه راجيا أن يستفزّه بعرض، أو يحيل صحة عقده المبرم إلى مرض، و مؤملا

هو و شيعته الغادرة كرّة على الإسلام مجهزة، و نصرة لمواعيد الشيطان منجزة، تقبض عليه و على شيعته، و صمّ عن سماع خديعته، و أفحش بهم المثلة، و أساء بحسن رأيه فيهم القتلة، فأراح اللّه تعالى بإبادتهم نفوس العباد، و أحيا بهلاكهم أرماق البلاد. و حثثنا السير إلى دار ملكنا فدخلناها فى اليوم الأغرّ المحجّل، و حصلنا منها على الفتح الهنى المعجّل، وعدنا إلى الأريكة التى نابنا عنها التمحيص فما حسبناه إلّا سرورا أعقبه الكمال، و مرضا عاجله الإبلال، فثابت للدين الآمال، و نجحت الأعمال، و بذلنا فى الناس من العفو ما غفر الذنوب، و جبر القلوب، و أشعنا العفو فى القريب و القصىّ، و ألبسنا المريب ثوب البرىّ، و تألّفنا الشارد، و أعذبنا الموارد، و أجرينا العوائد، و أسنينا الفوائد، إلّا ما كان من شرذمة عظمت جرائرهم، و خبثت فى معاملة اللّه تعالى سرائرهم، و عرف شؤمهم، و صدق من يلومهم، فأقصيناهم و شرّدناهم، و أجليناهم عن هذا الوطن الجهادى و أبعدناهم. و لمّا تعرّف سلطان قشتالة باستقلالنا، و استقرارنا بحضرة الملك و احتلالنا، بادر يعرّف بما كان من عمله فيمن لحق به من طائفة الغدر، و إخوان الخديعة و المكر، و بعث إلينا برءوسهم، ما بين رئيسهم الشقىّ و مرءوسهم، و قد طفا على جداول السيوف حبابها، وراق بحنّاء الدماء خضابها، و برز الناس إلى مشاهدتها معتبرين، و فى قدرة اللّه تعالى مستبصرين، و لدفاع الناس بعضهم ببعض شاكرين، و أحقّ اللّه تعالى الحقّ بكلماته

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۵۳

و قطع دابر الكافرين، فأمرنا بنصب تلك الرءوس بمسوّر الغدر الذى فرعته، و جعلناه علما على عاتق العمل السيئ الذى اخترعته، و شرعنا فى معالجة العلم، و أفضنا على العباد و البلاد حكم السلم، فاجتمع الشمل كأحسن أحواله، و سكن هذا الوطن بعد زلزاله، و أفاق من أهواله.

و لعلمنا بفضلكم الذى قضاياه شائعة، و مقدّماته ذائعة، أخبرناكم به على اختصار، و اجتزاء و اقتصار، ليسر دينكم المتين بتماسك هذا الثغر الأقصى بعد استرساله، و إشرافه على سوء مآله، و كنّا نخاطب محلّ أخينا السلطان الجليل المعظّم الأسعد الأوحد الخليفة أمير المؤمنين أبى إسحاق ابن الخليفة أمير المؤمنين المعظّم المقدّس أبى يحيى بن أبى بكر ابن الأئمة المهتدين و الخلفاء الراشدين- وصل اللّه تعالى أسباب سعده! و حرس أكناف مجده!- لو لا أننا تعرفنا كونه فى هذه المدة مقيما بغير تلك الحضرة التونسية، فاجتزأنا بمخاطبة جهتكم السنيّة، و بين سلفنا و سلفكم من الودّ الراسخ البنيان، و الكريم الأثر و العيان، ما يدعو إلى أن يكون سبب المخاطبة موصولا، و آخرة الودّ خيرا من الأولى، لكن الطريق جمّ العوائق، و البحر مفروق البوائق، و قبول العذر بشواغل القطر بالفضل لائق، و مرادنا أن يتّصل الودّ، و يتجدّد العهد، و اللّه عزّ و جلّ يتولّى أمور المسلمين بمتوارد إحسانه! و يجمع قلوبهم حيث كانوا على طاعة اللّه تعالى و رضوانه! و هو سبحانه يطيل سعادتكم، و يحرس مجادتكم، و ينجح إدارتكم، و يسنّى إرادتكم! و السلام الكريم يخصّكم، و رحمه اللّه تعالى و بركاته».

## [خطبة له يبشر فيها بالفتح]

و من نثره رحمه اللّه تعالى قوله: «أيها الناس، ضاعف اللّه تعالى بمزيد النعم سروركم! و تكفل بلطفه الخفى فى مثل هذا القطر الغريب أموركم! أبشّركم بما كتب به سلطانكم السعيد إليكم، المترادفة بيمنه و سعادته نعم اللّه تعالى عليكم! أمتع اللّه تعالى الإسلام ببقائه! و أيّده على أعدائه! و نصره فى أرضه بملائكة سمائه! و أنّ اللّه تعالى فتح له الفتح المبين، و أعزّ بحركة جهاده الدين، و بيّض وجوه المؤمنين، و أظفره بإطريرة البلد الذى فجع المسلمين بأسرهم فجيعة تثير الحميّة، و تحرّك النفس الأبيّة، فانتقم اللّه تعالى منهم على يده، و بلّغه من استئصالهم غاية مقصده، فصدق من اللّه تعالى لأوليائه، و على أعدائه، الوعد و الوعيد، و حكم بإبادتهم المبدىء المعيد وَ كَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَ هِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [سورة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۵۴

هود، الآية: ۱۰۲] و تحصّل من سبيه بعد ما رويت السيوف من دمائهم آلاف عديدة، لم يسمع بمثلها فى المدد المديدة، و العهود

البعيدة، و لم يصب من إخوانكم المسلمين عدد يذكر، و لا رجل يعتبر، فتح هنى، و صنع سنى، و لطف خفى، و وعد و فى، فاستبشروا بفضل اللّه تعالى و نعمته، وقفوا عند الافتقار و الانقطاع لرحمته، و قابلوا نعمه بالشكر يزدكم، و استبصروا فى الدفاع عن دينكم ينصركم و يؤيّدكم، و اغتبطوا بهذه الدولة المباركة التى لم تعدموا من اللّه تعالى معها عيشا خصيبا، و لا رأيا مصيبا، و لا نصرا عزيزا و لا فتحا قريبا، و تضرّعوا فى بقائها، و نصر لوائها، إلى من لم يزل سميعا للدعاء مجيبا، و اللّه عزّ و جلّ يجعل البشائر الفاشية فيكم عادة، و لا- يعدمكم و لا- أولى الأمر منكم توفيقا و سعادة، و السلام الكريم يخصّكم، و رحمة اللّه تعالى و بركاته من مبلغ ذلك فلانا». انتهى.

## [خطابه إلى سلطان فاس]

و من نثر لسان الدين- رحمه اللّه تعالى!- ما أنشأه عن سلطانه الغنى باللّه تعالى- حين وصله ابنه الذى كان بفاس- يخاطب سلطان فاس، ما نصّه:

«المقام الذى تقلّد نافلة الفضل شفعا، و جودّ صورة الكمال إفرادا و جمعا، و استولى و جمع بين المنح، و التهنئة بالفتح، فأحرز أصلا و فرعا، و استحقّ الشكر عقلا و شرعا، و أغرى أيدى جوده، بالقصد الذى هو حظّ وليّه من وجوده، فأثار من جيش اللقاء نقعا، و وسط به جمعا، مقام محل أخينا الذى أقلام مقاصده ذربة بحسن التوقيع، و عيون فضله مذكاة لإحكام الصنيع، و عذبات فخره تهفو بذروة العلم المنيع، و مكارمه تتفنّن فيها مذاهب التنويع، أبقاه اللّه تعالى و ألسن فضله ناطقة، و أفيئة سعده صادقة، و ألويته بالنصر العزيز خافقة، و بضائع مكارمه فى أسواق البرّ نافقة، و عصائب التوفيق لركائب أغراضه موافقة! السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا.

«سلام كريم، طيب برّ عميم، يخصّ مقامكم الأعلى، و طريقتكم المثلى، و أخوّتكم الفضلى، و رحمة اللّه تعالى و بركاته، مجلّ قدركم، و ملتزم برّكم، و موجب حمدكم و شكركم، فلان.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۵۵

«أمّا بعد حمد اللّه تعالى الذى جعل الشكر على المكرمات وقفا، و نهج منه بإزائها سبيلا لا تلتبس و لا تخفى، و عقد بينه و بين المزيد سببا و حلفا، و جعل المودّة فى ذاته ممّا يقرّب إليه زلفى، مربح تجارة من قصد وجهه بعمله حتى يرى الشىء ضعفا، و ناصر هذه الجزيرة من أوليائه الكرام السيرة بمن يوسعها فضلا و عطفا، و مدنى ثمار الآمال لتتمتع بها اجتناء و قطفا، و الصلاة و السلام على سيدنا و مولانا محمد النبىّ العربى الكريم، الرؤوف الرحيم، الذى مدّ من الرحمة على الأمّة سجفا، و ملأ قلوبها تعاطفا و تعارفا و لطفا، القائل «من أيقن بالخلف جاد بالعطيّة» و وعد من عامل اللّه تعالى بربح المقاصد السنيّة، وعدا لا يجد خلفا، و الرضا عن آله و أصحابه الذين كانوا من بعده للإسلام كهفا، و على أهله فى الهواجر ظلّا ملتفّا، غيوث النّدى كلّما شاموا سماحا و ليوث العدى كلّما شهدوا زحفا، و الدعاء لمقام أخوّتكم الأسعد بالنصر الذى يكف من عدوان الكفر كفّا، و المجد الذى لا يغادر كتابه من المفاخر التى ترك الأول للآخر حرفا، و إلى هذا- أيّدكم اللّه بنصر من عنده، و حكم لملككم الأسمى باتّصال سعده، و أنجز فى ظهوره على من عاند أمره سابق وعده!- فإننا نقرّر لدى مقامكم و إن كان الغنىّ بأصالة عقله، عن اجتلاء الشاهد و نقله، و جلاء البيان و صقله، أنّ الهدايا و إن لم تحل العين منها كما حلت، أو تناولها الاستنزار فما نبهت فى لحظ الاعتبار و لا جلّت، أو كانت زيفا كلّما أغرى بها الاختبار قلّت، لا بدّ أن تترك فى النفوس ميلا، و أن تستدعى من حسن الجزاء كيلا، و أن تنال من جانب التراحم و التعاطف نيلا، و أىّ دليل أوضح محجّة، و أبين حجّة، من قوله صلّى اللّه عليه و سلم: «تهادوا تحابوا» من غير تبيين مقدار، و لا إعمال اعتبار، و لا تفرقة بين لجين و لا نضار؟ فكيف إذا كانت الهدية فلذة الكبد التى لا يلذّ العيش بعد فراقها، و لا تضىء ظلم الجوانح إلّا بطلوع شمسها و إشراقها، و جمع الشمل الذى هو أقصى آمال النفوس الآلفة، و البواطن المصاحبة للحنين المحالفة، لا سيما إذا اقتعدت محلّ الهنا، بالفتح الرائق السّنا، و

حفّت بها من خلفها و أمامها صنائع البرّ و قومة الاعتناء، فهنالك تفخر ألسن الثناء، و تتطابق أعلام الشكر السامية البناء. و إننا ورد علينا كتابكم الذى سطّره البرّ و أملاه، و كنفه اللحظ و تولّاه، و وشّحه البيان و حلّاه، مهنئا بما منح اللّه جلّ جلاله من ردّ الحقّ، و تعيين الجمع و رفع الفرق، و تطويق الأمان و أمان الطوق، و إسعاد السّعد، و بلوغ القصد، و قطع دابر من جحد نعمة الأب و الجدّ، و سلّ سيف البغى دامى الحدّ، و الحمد للّه تعالى حمدا يلهمه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۵۶

و يتيحه، و نسأله إمدادا يسوّغه و يبيحه، على أن أحسن العقبى و أعقب الحسنى، و أرى النعم بين فرادى و مثنى، و جمع الشمل الذى قد تبدّد، و جدّد رسم السعادة لهذا القطر فتجدّد، و أخذ الظالم فلم يجد من محيص، و جمع لنا الأجر و الفخر بين تخصيص و تمحيص، و قلّد برءوس الفجرة الغدرة الفرضة التى فرعوها، و أطفأ بمراق دمائهم نار الضلالة التى شرعوها، و كتب لقبيلكم الفضل الذى يحمد و يشكر، و الحقّ الذى لا يجحد و لا ينكر، فلقد أوى لما تبرأت الخلصان، و تحفّى عند ما تنكّر الزمان، و سبّب الإدالة، و طاوع الأصالة و الجلالة، حتى فرج اللّه تعالى الكربة، و آنس الغربة، و أقال العثرة و تقبّل القربة، له الحمد على آلائه، و صلة نعمائه، ملء أرضه و سمائه. و وصل صحبته الولد مكنوفا بجناح اللطف، ممهّدا له ببركتكم مهاد العطف، فبرزنا إلى تلقّيه تنويها لهديتكم و إشادة، و إبداء فى برّكم و إعادة، و أركبنا الجيش الذى آثرنا لحين استقلالنا عرضه، و قرّرنا بموجب الاستحقاق فرضه، فبرز إلى الفضاء الأفيح حسن الترتيب، سافرا عن المرأى العجيب، و لو لا الحنان الذى تجده النفوس للأبناء و تستشعره، و التشوّق إلى اللقاء الذى لا يجحده منصف و لا ينكره، لما شقّ علينا طول مقامه فى حجركم، و لا ثواؤه لصق أريكة أمركم، فجواركم محلّ لاستفادة رسوم الإمارة، و تعلّم السياسة و الإدارة، حتى يرد علينا بقدوم كتيبة جهادكم، و يقود إلينا طليعة نصركم إيانا و إمدادكم، فنحن الآن نشكر مقاصدكم التى اقتضى الكمال سياقها، و زيّن المجد آفاقها، و قدّرها فأحكم طباقها، و نقرّر لديكم أنّ حظّنا من ودادكم، و محلّنا من جميل اعتقادكم، حظّ بان رجحانه و فضله، و لم يتأتّ بين من سلف من السلف مثله، من الصحبة فى المنزل الخشن و هى الوسيلة، و فى رعيها تظهر الفضيلة، و الاشتراك فى لازم الوصول إلى الحقّ، و ضمّ أشتات الخلق، و المودّة الواضحة الطرق، إلى ما بين السّلف، من الودّ الآمن بدره من الكلف، المذخورة أذمّته للخلف، فإذا كانت المعاملة جارية على حسبه، و شعبها راجعة إلى مذهبه، جنى الإسلام ثمرة حافلة، و استكفى الدين إيالة كافلة، فاللّه، عزّ و جلّ، يمهّد البلاد بيمن تدبيركم، و يجرى على مهيع السداد جميع أموركم، و يجعلكم ممّن زين الجهاد عواتق أعماله، و كان رضا اللّه تعالى عنه أقصى آماله، حتى تربى مآثركم على مآثر أسلافكم الذين عرف هذا الوطن الجهادى إمدادهم، و شكر جهادهم، و قبل اللّه تعالى فيه أموالهم و أولادهم،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۵۷

و حسّن من أجله معادهم. و قد حضر بين يدينا رسولكم الذى وجهتم الولد- أسعده اللّه تعالى- لنظره، و تخيرتموه لصحبة سفره، فلان، و هو من الأمانة و الفضل، و الرّجاحة و العقل، بحيث طابق اختياركم، و استحقّ إيثاركم، فأطنب فى تقرير ما لديكم من عناية بهذه الأوطان عينت الرفد، و ضربت الوعد، و أخلصت فى سبيل اللّه تعالى القصد، و غير ذلك ممّا يؤكّد المودّة المستقرّة الأركان، المؤسّسة على التقوى و الرضوان، فأجبناه بأضعاف ذلك ممّا لدينا لكم، و قابلنا بالثناء الجميل قولكم و عملكم، و اللّه تعالى يصل سعدكم، و يحرس مجدكم، و السلام الكريم يخصّكم، و رحمة اللّه تعالى و بركاته».

### [من إنشائه على لسان ابن سلطانه]

و من ذلك ما كتبه- رحمه اللّه تعالى!- على لسان الأمير سعد ابن سلطانه الغنى بالله تعالى إليه و هو:

«مولاى و مولى كبيرى و مولى المسلمين، و رحمتى المتكفّلة بالسعد الرائق الجبين.

يقبّل قدمكم التى جعل اللّه تعالى العزّ فى تقبيلها، و السعد فى اتباع سبيلها، عبدكم الصغير فى سنّه، الكبير فى خدمتكم و خدمة كبيره

فى حياتكم بفضل اللّه تعالى و منّه، الهاشّ لتمريغ وجهه فى كتابكم من الذراع، المنبئة طباعه عن العبودية الكامنة بالبدار إلى ذلك و الإسراع، عبدكم و ولدكم سعد، كتبه من بابكم، المحوط بعزّ أمركم، المتحف إن شاء اللّه تعالى بأنباء نصركم، و قد وصل إلى عبدكم تشريفكم السابغ الحلل، و تنويهكم المبلغ غاية الأمل، و خط يدكم الكريمة، و غمامة رحمتكم الهامية الدّيمة، فيا له من عزّ أثبت لى الفخر فى أبناء الملوك، و سار بى من الترشيح لرتب حظوتكم على المنهج المسلوك، قرّر من عافية مولاى و سعادته، و اقتران السعود حيث حلّ بوفادته، ما تكفّل ببلوغ الآمال، و تمم لسان الحال فى شكر اللّه تعالى لسان المقال، و اللّه تعالى يديم أيام مولاى حتى يقوم بحقّ شكر النعم لسانه، و تؤدّى بعده جوارحه من الدفاع بين يدى سلطانه ما يسرّ به سلطانه، و بعث جوابه منقولا ليد حامله من يده ليهنئ تقبيل اليد الكريمة بحال تأكيد، و يقرّر ما لعبده إلى وجهه الكريم من شوق شديد، و يعرف شمول نعمة اللّه تعالى و نعمته لمن ببابه من خدم و حرم و عبيد، و يمدّ يد الرغبة لمولاه فى صلة الإنعام بتشريفه، و إعلامه بتزايدات حركاته و تعريفه، ففى ضمن ذلك كلّ عزّ مشيد، و خير جديد، و يهدى تحية أهل منزل مولاى على اختلافهم بحسب منازلهم من نعمة لحظه، التى يأخذ منها كلّ بحظّه، و السلام الكريم و رحمة اللّه تعالى و بركاته».

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۵۸

و قال رحمه اللّه تعالى: و من نثرى ما خاطبت به السلطان على لسان ولده من مالقة، و قد وصلت به إليه من المغرب:

«مولاى الذى رضا اللّه تعالى مقترن برضاه، و النّجح مسبّب عن نيّته و دعاه، و طاعته مرتبطة بطاعة اللّه، أبقى اللّه تعالى علىّ بكم ظلّ رحماه، و غمام نعماه! و زادنى من مواهبه هداية فى توفية حقّه الكبير فإنّ الهدى هدى اللّه!

«يقبّل مواطئ أقدامكم التى ثراها شرف الخدود، و فخر الجباه، و يقرّر من عبوديّته ما يسجّل الحقّ مقتضاه، و يسلّم على مثابة رحمتكم السلام الذى يحبّه اللّه تعالى و يرضاه، ولدكم و عبدكم يوسف، من منزل تأييدكم بظاهر مالقة حرسها اللّه، و الوجود ألسن بالعزّ باللّه ناطقة، و الأعلام و الشجر ألوية بالسعد خافقة، و أنواع التوفيق متوافقة، و صنائع اللطيف الخبير مصاحبة مرافقة. و قد وصل، يا مولاى، لعبدكم المفتخر بالعبودية لكم ما بعث به على مقامكم، و جادت به سحائب إنعامكم، و لمن تحت حجبة ستركم المسدول، و فى ظلّ اهتمامكم الموصول، و لمن ارتسم بخدمة أبوابكم الشريفة من الخدام، و أولى المراقبة و الالتزام، ما يضيق عنه بيان العبارة، و يفتضح فيه لسان القول و الإشارة، من عنايات سنيّة، و نعم باطنة و جليّة، و ملاحظة مولوية، و مقاصد ملكيّة، فما شئت من قباب مذهبة، و ملابس منتخبة، و أسرّة مرتّبة، و محاسن لا مستورة و لا محجّبة، و اللواء الذى نشرتم على عبدكم ظلّه الظّليل، و مددتم عليه جناح العزّ الجليل، جعله اللّه تعالى أسعد لواء يسير فى خدمتكم! و مدّ علىّ و عليه لواء حرمتكم! حتى يكون لجهادى بين يديكم شاهدا، و بالنصر العزيز و الفتح المبين عليكم عائدا، و لطائفة الخلوص لأمركم قائدا، و لأولياء بابكم هاديا و لأعدائكم كائدا.

و اتّفق يا مولاى أن كان عبدكم قد ركب مغتنما برد اليوم، و مؤثرا للرياضة فى عقب النوم، و التف عليه الخدام، و الأولياء الكرام، فلمّا عدنا تعرضت لنا تلك العنايات المجلوّة الصور، المتلوّة السور، و قد حشر الناس، و حضرت منهم الأجناس، فعلا الدعاء، و انتشر الثناء، و راقت الأبصار تلك الهمّة العليا، فنسأل اللّه تعالى يا مولاى أن يكافىء مقامكم بالعزّ الذى لا يتبدّل، و النصر الذى يستأنف و يستقبل، و السعد الذى محكمه لا يتأوّل، و العبد و من له على حال اشتياق للورود على أبوابكم الرفيعة المقدار، و ارتياح لقرب المزار: [الوافر]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۵۹

و أبرح ما يكون الشوق يوما إذا دنت الديار من الديار

و العمل على تيسير الحركة متّصل، و الدهر لأوامر سعدكم محتفل، بفضل اللّه تعالى، و السلام على مقام مولاى مقام الشفقة و الرحمة، و المنّة و النعمة، و رحمة اللّه تعالى و بركاته»؛ انتهى.

## [ظهير من إنشائه بتولية ابن سلطانه مشيخة الغزاة]

و من إنشاء لسان الدين فى تولية الأمير يوسف المذكور مشيخة الغزاة على لسان السلطان والده ما نصّه:

«هذا ظهير كريم فاتح بنشر الألوية و البنود، و قود العساكر و الجنود، و أجال فى ميدان الوجود، جياد الباس و الجود، و أضفى ستر الحماية و الوقاية بالتهائم و النجود، على الطائفين* و العاكفين و الرّكّع السجود*، عقد للمعتمد به عقد التشريف، و القدر المنيف، زاكى الشهود، و أوجب المنافسة بين مجالس السروج و مضاجع المهود، و بشر السيوف فى الغمود، و أنشأ ريح النصر آمنة من الخمود، أمضى أحكامه، و أنهد العزّ أمامه، و فتّح عن زهر السرور و الحبور كمامه، أمير المسلمين عبد اللّه محمد بن مولانا أمير المسلمين أبى الحجاج بن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد بن فرج بن نصر- أيّد اللّه تعالى أمره! و خلّد ذكره!- لكبير ولده، و سابق أمده، و ريحانة خلده، و ياقوتة الملك على يده، الأمير الكبير الطاهر الظاهر الأعلى، واسطة السلك، و هلال سماء الملك، و مصباح الظّلم الحلك، و مظنّة العناية الأزلية من مدبر الفلك و مجرى الفلك، عنوان سعده، و حسام نصره و عضده، و سمىّ جدّه، و سلالة فضله و مجده، السعيد المظفّر الهمام الأعلى الأمضى، العالم العامل الأرضى، المجاهد المؤمّل المعظّم أبى الحجاج يوسف، ألبسه اللّه تعالى من رضاه عنه حللا لا تخلق جدّتها الأيام، و لا تبلغ كنهها الأفهام، و بلّغه فى خدمته المبالغ التى يسرّ بها الإسلام، و تسبح فى بحار صنائعها الأقلام، و حرس معاليها الباهرة بعينه التى لا تنام، و كنفه بركنه الذى لا يضام، فهو الفرع الذى جرى فصله على أصله، و ارتسم نصره فى نصله، و اشتمل حدّه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۶۰

على فصله، و شهدت ألسن خلاله، برفعة جلاله، و ظهرت دلائل سعادته، فى بدء كلّ أمر و إعادته، لمّا صرف وجهه إلى ترشيحه، لافتراع هضاب المجد البعيد المدى و توشيحه، بالصبر و الحلم و الباس و الندى، و أرهف منه سيفا من سيوف اللّه تعالى لضرب هام العدا، و أطلعه فى سماء الملك بدر هدى، لمن راح و غدا، و أخذه بالآداب التى تقيم من النفوس أودا، و تبذر فى اليوم فتجنى غدا، و رقاه فى رتب المعالى طورا فطورا، ترقى النبات ورقا و نورا، ليجده بحول اللّه تعالى يدا باطشة بأعدائه، و لسانا مجيبا عند ندائه، و طرازا على حلّة علائه، و غماما من غمائم آلائه، و كوكبا وهّاجا بسمائه، و عقد له لواء الجهاد على الكتيبة الأندلسية من جنده، قبل أن ينتقل عن مهده، و ظلّله بجناح رايته، و هو على كتد دابّته، و استركب جيش الإسلام ترحيبا بوفادته، و تنويها بمجادته، و أثبت فى غرض الإمارة النصرية سهم سعادته، رأى أن يزيده من عنايته ضروبا و أجناسا، و يتبع أثره ناسا فناسا، قد اختلفوا لسانا و لباسا، و أنفقوا ابتغاء لمرضاة اللّه و التماسا، ممّن كرم انتماؤه، و زيّنت بالحسب العلى سماؤه، و عرف غناؤه، و تأسّس على المجادة بناؤه، حتى لا يدع من العناية فنّا إلّا و جلبه إليه، و لا مقادة فخر إلّا جعلها فى يديه، و لا حلّة عزّ إلّا أضفى ملابسها عليه. و كان جيش الإسلام فى هذه البلاد الأندلسية- أمّن اللّه سبحانه خلالها، و سكن زلزالها، و صدق فى رحمة اللّه تعالى التى وسعت كل شىء آمالها!- كلف همّته و مرعى ذمّته، و ميدان اجتهاده، و متعلّق أمل جهاده، و معراج إرادته، إلى تحصيل سعادته، و سبيل خلاله، إلى بلوغ كماله، فلم يدع له علّة إلّا أزاحها، و لا طلبة إلّا أجال قداحها، و لا عزيمة إلّا أورى اقتداحها، و لا رغبة إلّا فسح ساحها، آخذا مدوّنته بالتهذيب، و مصافّه بالترتيب، و آماله بالتقريب، محسنا فى تلقّى الغريب، و تأنيس المريب، مستنجزا له و به وعد النصر العزيز و الفتح القريب، و رفع عنه لهذا العهد نظر من حكّم الأغراض فى حماته، و استشعر عروق الخسائف لتشذيب كماته، و اشتغل عن حسن الوساطة لهم بمصلحة ذاته، و جلب جباته، و تثمير ماله و توفير أقواته، ذاهبا أقصى مذاهب التعمير بأمد حياته، فانفرج الضيق، و خلص إلى حسن نظره الطريق، و ساغ الريق، و رضى الفريق، رأى- و اللّه الكفيل لنجح رأيه، و شكر سعيه، و صلة حفظه و رعيه- أن يجهد لهم اختياره، و يحسن لديهم آثاره، و يستنيب فيما بينه و بين سيوف جهاده، و أبطال خلاده، و حماة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۶۱

أحوازه، و آلات اعتزازه، من يجرى مجرى نفسه النفيسة فى كل مبنى، و يكون له لفظ الولاية و له- أيّده اللّه تعالى!- المعنى، فقدمه

على الجماعة الأولى كبرى الكتائب، و مقادة الجنائب، و أجمة الأبطال، و مزنة الودق الهطّال، المشتملة من الغزاة على مشيخة آل يعقوب نسباء الملوك الكرام، و أعلام الإسلام، و سائر قبائل بنى مرين، ليوث العرين، و غيرهم من أصناف القبائل، و أولى الوسائل، ليحوط جماعتهم، و يعرف بتفقّده إطاعتهم، و يستخلص للّه تعالى و لأبيه- أيّده اللّه تعالى!- طاعتهم، و يشرّف بإمارته مواكبهم، و يزيّن بهلاله الناهض إلى الإبدار على فلك سعادة الأقدار كواكبهم، تقديما أشرق له وجه الدين الحنيف و تهلل، و أحسّ باقتراب ما أمّل، فللخيل اختيال و مراح، و للأسل السّمر اهتزاز و ارتياح، و للصدور انشراح، و للآمال مغدى فى فضل اللّه تعالى و رواح. فليتولّ ذلك- أسعده اللّه تعالى- تولى مثله ممّن أسرة الملك أسرته، و أسوة النبيّ صلوات اللّه تعالى عليه أسوته، و الملك الكريم أصل لفرعه، و النسب العربى محتد لطيب طبعه، آخذا أشرافهم بترفيع المجالس بنسبة أقدارهم، مغريا حسن اللقاء بإيثارهم، شاكرا غناءهم، مستدعيا ثناءهم، مستدرّا لأرزاقهم، موجبا المزية بحسب استحقاقهم، شافعا لديه فى رغباتهم المؤمّلة، و وسائلهم المتحمّلة، مسهلا الإذن لوفودهم المتلاحقة، منفقا لبضائعهم النافقة، مؤنسا لغرمائهم، مستجليا أحوال أهليهم و آبائهم، مميّزا بين أغفالهم و نبهائهم. و على جماعتهم- رعى اللّه تعالى جهادهم، و وفّر أعدادهم!- أن يطيعوه فى طاعة اللّه تعالى و طاعة أبيه، و يكونوا يدا واحدة على دفاع أعداء اللّه تعالى و أعاديه، و يشدّوا فى مواقف الكريهة أزره، و يمتثلوا نهيه و أمره، حتى يعظم الانتفاع، و يشهر الدفاع، و يخلص المصال للّه تعالى و المصاع، فلو وجد- أيّده اللّه تعالى!- غاية فى تشريفهم لبلغها، أو موهبة لسوّغها، لكن ما بعد ولده العزيز عليه مذهب، و لا وراء مباشرتهم بنفسه مغرب، و اللّه تعالى منجح الأعمال، و مبلغ الآمال، و الكفيل بسعادة المآل.

«فمن وقف هذا الظهير الكريم فليعلم مقدار ما تضمّنه من أمر مطاع، و فخر مستند إلى إجماع، و وجوب اتّباع، و ليكن خير مرعىّ لخير راع، بحول اللّه تعالى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۶۲

«و أقطعه- أيّده اللّه تعالى!- ليكون بعض المواد لأزواد سفره، و سماط نفره، فى جملة ما أولاه من نعمه، و سوّغه من موارد كرمه، جميع القرية المنسوبة إلى عرب عنان، و هى المحلّة الأثيرة، و المنزلة الشهيرة، تنطلق عليها أيدى خدّامه و رجاله، جارية مجرى صريح ماله، محررة من كلّ وظيفة لاستغلاله، إن شاء اللّه تعالى، فهو المستعان سبحانه، و كتب فى كذا»؛ انتهى.

### [ظهير من إنشائه فى تقليد الأمير سعد]

و كتب لسان الدين- رحمه اللّه تعالى!- فى شأن تقليد الأمير سعد أخى المذكور الأصغر منه سنّا ما صورته:

«هذا ظهير جعل اللّه تعالى له الملائكة ظهيرا، و عقد منه فى سبيل اللّه تعالى لواء منصورا، و أعطى المعتمد به باليمن كتابا منشورا وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً [سورة الإسراء، الآية: ۲۰]، و أطلع صبح العناية المبصرة الآية يبهر سفورا، و يسطع نورا، و أقرّ عيونا للمسلمين و شرح صدورا، و وعد الأهلّة أن تصير بإمداد شمس الهدى إياها بدورا، و بشّر الإسلام بالنصر المنتظر، و الفتح الرائق الغرر، مواسط و ثغورا، و أتبع حماة الدين لواء الإمارة السعيدة النصرية فأسعد بها آمرا و أكرم بها مأمورا، أمر به، و أمضى العمل بمقتضاه و حسبه، أمير المسلمين عبد اللّه محمد بن أمير المسلمين المجاهد فى سبيل ربّ العالمين أبى الحجاج بن أمير المسلمين المجاهد فى سبيل ربّ العالمين أبى الوليد بن فرج بن نصر، أعلى اللّه تعالى رايته و سدّد رأيه! و شكر عن الإسلام و المسلمين سعيه! لقرّة عينه، و مقتضى حقّه من العدوّ و دينه، و غصن دوحه، و آية لوحه، و درّة قلادته، و درّىّ أفلاك مجادته، و سيف نصره، و هلال قصره، و زينة عصره، و متقبل هديه و رشده، و مظنة إشراق سعده، و إنجاز وعده، ولده الأسعد، و سليل ملكه المؤيد، الأمير الأجلّ الأعزّ الأسنى الأطهر الأظهر الأعلى، لابس أثواب رضاه و نعمته، و منحة اللّه لنصره و خدمته، و مظهر عزّه و بعد همّته، التقىّ الرضىّ العالم العامل الماجد حامى الحمى تحت ظلّ طاعته، و كافى الإسلام الذى يأمن من إضاعته، المحرز مزايا الأعمار الطويلة حظّ الشهر فى يومه و حظّ اليوم فى ساعته، الموقر المهيب المؤمل المعظم أبى النصر سعد عرّفه اللّه تعالى ببركة سعد بن عبادة جدّه، خال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و

سلم و أعظم بمجده، و وزيره فى حلّه و عقده، و أجناه ثمرة النصر الذى كناه به و وصل سببه بسببه فما النصر إلّا من عنده، و أنتج له الفتح المبين من مقدمتى نصره و سعده، لما صرف وجه عنايته إليه فى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۶۳

هذه البلاد الأندلسية التى خلص لله انفرادها و انقطاعها، و تمحّض - لأن تكون كلمة اللّه هى العليا- قراعها، و صدق مصالها فى سبيله جلّ و علا و مصاعها، إلى ما يمهّد أرجاءها، و يحقّق رجاءها، من سلم يعقد، و لا يعدم الحزم معه و لا يفقد، و عطاء ينقد، و رأى لا يتعقّب و لا ينقد، و حرب تضمّر له الجياد، و يعتقل الأسل الميّاد، و كأن الجيش روض أمله الذى فى جناه يسرح، و مرمى فكره الذى عنه لا يبرح، فديوانه ديوان أمانيه الذى تسهب فيه و تشرح، أسهمه من سياسته أوفى الحظوظ و أسناها، و قصر عليه لفظ العناية و معناها، و وقف عليه موحدها و مثناها، فأزاح علله، و أحيا أمله، و أنشأ جذله، و رفع عنه من لم يبذل الجدّ له، و لا أخلص للّه فيه عمله. و اختار لقيادة مغانيه المنصورة، و إمارة غزواته المبرورة، أقرب الناس إلى نفسه نسبا، و أوصلهم به سببا، و أحقّهم بالرتب المنيفة و المظاهر الشريفة، ذاتا و أبا، و جدّا و حسبا، و أمره على أشرافه، و دلّ به الأنفال على أعرافه، و صرف إليه آماله، و استعمل فى أسنّته يمينه و فى أعنّته شماله، و عقد عليه ألويته الخافقة لعزّة نصره، و رأى الظهور على أعداء اللّه تعالى جنّى فهيّأه لهصره، و أدار هالة قتام الجهاد عن قرب بالولادة على بدره، و نبّه نفوس المسلمين على جلالة قدره، و قدّمه على الكتيبة الثانية من عسكر الغزاة المشتملة على الأشياخ من أولاد يعقوب كبار بنى مرين، و سائر قبائلهم المكرمين، و غيرهم من القبائل المحترمين، ينوب عن أمره فى عرض مسائلهم، و قرى وافدهم، و إجراء عوائدهم، تقديما تهلّل له الإسلام و استبشر، و تيقّن الظفر فاستبصر، لما علم بمن استنصر، فليخلصوا له فى طاعته الكبرى الطاعة، و ليعلقوا ببنان نداه بنان الطماعة، و يؤملوا على يديه نجح الوسيلة إلى مقامه و الشفاعة، و يعلموا أنّ اختصاصهم به هو العنوان على رفع محالّهم لديه، و عزّة شأنهم عليه، فلو وجد هضبة أعلى لرفعها لهم و أعلاها، أو عزة أعزّ لجلالها، أو قبلة أزكى لصرف وجوههم شطرها و ولاها، حتى تجنى ثمرة هذا القصد، و تعود بالسعد حركة هذا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۶۴

الرصد و تعلو ذؤابة هذا المجد، و تشهد بنصر الدين على يده ألسنة الغور و النّجد، بفضل اللّه سبحانه. و عليه- أسعد اللّه الدولة باستعماله مكافحا بأعلامها، و زينا لأيامها، و سيفا فى طاعة إمامها!- أن يقدم منهم فى مجلسه أهل التقديم، و يقابل كرامهم بالتكريم، و يستدعى آراء مشايخهم فى المشكلات فى أمور الحرب، و يغضى جفون عزائمهم فى موقف الصبر و الضرب، و يتفقّدهم بإحسانه عند الغناء، و يقابل حميد سعيهم بالثناء، على هذا يعتمد و بحسبه يعمل، و هو الواجب الذى لا يهمل، و قصده بالإعظام و الإجلال، و الانقياد الذى يعود بالآمال و ينجح الأعمال، بحول اللّه تعالى متقبل، و كتب فى كذا»؛ انتهى.

### [من إنشائه إلى سلطانه و قد عاد لملكه]

و ممّا اشتمل على نظم لسان الدين و نثره ما كتب به من سلا إلى سلطانه الغنى بالله تعالى، و قد بلغه ما كان من صنع اللّه سبحانه له و عودته إلى سلطانه: [الطويل]

هنيئا بما خوّلت من رفعة الشان و إن كره الباغى و إن رغم الشّانى

و أن خصّك الرحمن جلّ جلاله بمعجزة منسوبة لسليمان

أغار على كرسيّه بعض جنّه فألقت له الدنيا مقالد إذعان

فلمّا رآها فتنة خرّ ساجدا و قال إلهى امنن علىّ بغفران

وهب لى ملكا بعدها ليس ينبغى تقلّده بعدى لإنس و لا جان

فآتاه لمّا أن أجاب دعاءه من العزّ ما لم يؤت يوما لإنسان

و إن كان هذا الأمر فى الدهر مفردا فأنت له لمّا اقتديت به الثانى

فقابل صنيع اللّه بالشكر و استعن به واجز إحسان الإله بإحسان

و حقّ الذى سمّاك باسم محمد لو انّ الصّبا قد عاد منه بريعان

لما بلغ النعمى عليك سروره أليّة واف لا أليّة خوّان

فإنى أنا العبد الصريح انتسابه كما أنت مولاى العزيز و سلطانى

إذا كنت فى عزّ و ملك و غبطة فقد نلت أوطارى و راجعت أوطانى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۶۵

«مولاى الذى شأنه عجب، و الإيمان بعناية اللّه تعالى به قد وجب، و عزّه أظهره من برداء العزة احتجب، إذا كانت الغاية لا تدرك، فأولى أن تسلّم و تترك، و منّة اللّه تعالى عليك ليست ممّا يشرح، قد عقل العقل فما يبرح، و قيد اللسان فما يرعى فى مجال العبارة و لا يسرح، اللهمّ ألهمنا على هذه النعمة شكرا ترضاه، و إمدادا من لدنك نتقاضاه، يا اللّه يا اللّه. سعود أنارت بعد أفول شهابها، و حياة كرّت بعد ذهابها، و أحباب اجتمعت بعد فراقها، و أوطان دنت بعد بعد شامها من عراقها، و أعداء أذهب اللّه تعالى رسم بغيهم و محاه، و بغاة أدار عليهم الدهر رحاه، و عباد أعطوا من كشف الغمّ ما سألوه، و نازحون لو سئلوا فى إتاحة القرب بما فى أرماقهم لبذلوه، و سبحان الذى يقول وَ لَوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعَلُوهُ [سورة النساء، الآية: ۶۶] فليهن الإسلام بياض وجهه بعد اسوداده، و تغلّب إيالة من لا يؤمن بالله و لا باليوم الآخر على بلاده، و عودة الملك المظلوم إلى معتاده، و استواء الحقّ النائى جنبه فوق مهاده، و ردّ الإرث المغصوب إلى مستحقّه عن آبائه و أجداده، و الحمد للّه الذى غسل عن وجه الأمّة الحنيفية العار، و أنقذ عهدتها و قد ملكها الذعار، فردّ المعار، و أعيد الشّعار، نحمدك اللهمّ حمدا يليق بقدسك، لا بل لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك. و العبد، يا مولاى، قد بهرت عقله آلاء اللّه تعالى قبلك، فالفكر جائل و اللسان ساكت، و العقل ذاهل و الطرف باهت، فإن أقام رسما للمخاطبة فقلم مرح و ركض، و طرس هزّ جناح الارتياح و نفض، ليس هذا المرام ممّا يرام، و لا هذه العناية التى تحار فيها الأفهام، ممّا تصمى غرضه السّهام، فنسأل اللّه تعالى أن يجعل مولاى من الشاكرين، و بأحكام تقلّبات الأيام من المعتبرين، حتى لا يغرّه السّراب الخادع، و الدهر المرغم للأنوف الجادع، و لا يرى غير اللّه فى الوجود من صانع، و لا معط و لا مانع، و يمتعه بالعزّ الجديد، و يوفقه للنظر السديد، و يلهمه للشكر فهو مفتاح المزيد، و السلام»؛ انتهى.

## [و من إنشائه ما خاطب به عبد اللّه التونسى]

و ممّا خاطب به لسان الدين رحمه اللّه تعالى أبا عبد اللّه بن عمر التونسى قوله:

«سيدى الذى عهده لا ينسى، و ذكره يصبح فى ترديده بالجميل و يمسى، أبقاكم اللّه تعالى تجلون من السعادة شمسا، و تصرفون فى طاعته لسانا فردا و بنانا خمسا:

وصلنى كتابكم الأشعث الأغبر، و مقتضبكم الذى أضغاثه لا تعبر، شاهدة بعدم الاعتناء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۶۶

أوضاعه، معدوما إمتاعه، قصيرا فى التعريف بالحال المتشوّف إليها باعه، مضمّنا الإحالة على خلىّ من معناها، غير متلبّس بموحدها و لا مثناها، سألته كما يسأل المريض عمّا عند الطبيب، و يحرص الحبيب على تعرّف أحوال الحبيب، فذكر أنه لم يتحمّل غير تلك السّحاة المغنية فى الاختصار، المجحفة بحظّى الأسماع و الأبصار، فهممت بالعتب، على البخيل بالكتب، ثم عذرت سيدى بما يعترى مثله من شواغل تطرق، و خواطر تومض و تبرق، و إذا كان آمنا سربه، مهنّأ شربه، فهو الأمل، و يقنع هذا المجمل، و إن كان التفسير هو الأكمل، و ما ثمّ ما يعمل، و ودّه فى كلّ حال ودّه، و اللّه سبحانه بالتوفيق يمدّه، و السلام».

و كانت للسان الدين رحمه اللّه تعالى مخاطبات كثيرة لسلطان الدولة و أعيانها، دلّت على قوة عارضته فى البلاغة، و قد ألمعنا بجملة منها فى هذا الكتاب فى مواضع و لم نكثر منها طلبا للاختصار أو التوسّط بحسب ما اقتضاه الباعث فى الحال، و اللّه سبحانه و تعالى يبلغ الآمال، و يزكى الأعمال.

### [من إنشائه على لسان سلطانه إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم]

و من نثر لسان الدين رحمه اللّه تعالى ما كتبه عن السلطان أبى الحجاج يوسف بن نصر إلى سيد العالمين صلّى اللّه عليه و سلم إثر نظم، و نصّ الكلّ هو: [الطويل]

إذا فاتنى ظلّ الحمى و نعيمه فحسب فؤادى أن يهبّ نسيمه

و يقنعنى أنى به متكنّف فزمزمه دمعى و جسمى حطيمه

يعود فؤادى ذكر من سكن الغضا فيقعده فوق الغضا و يقيمه

و لم أر شيئا كالنسيم إذا سرى شفى سقم القلب المشوق سقيمه

نعلّل بالتّذكار نفسا مشوقة ندير عليها كأسه و نديمه

و ما شفّنى بالغور قدّ مرنّح و لا شاقنى من وحش وجرة ريمه

و لا سهرت عينى لبرق ثنيّة من الثّغر يبدو موهنا فأشيمه

برانى شوق للنبىّ محمد يسوم فؤادى برحه ما يسومه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۶۷

ألا يا رسول اللّه ناداك ضارع على النأى محفوظ الوداد سليمه

مشوق إذا ما الليل مدّ رواقه تهمّ به تحت الظلام همومه

إذا ما حديث عنك جاءت به الصّبا شجاه من الشوق الحثيث قديمه

أ يجهر بالنّجوى و أنت سميعها و يشرح ما يخفى و أنت عليمه

و تعوزه السّقيا و أنت غياثه و تتلفه الشكوى و أنت رحيمه

بنورك نور اللّه قد أشرق الهدى فأقماره وضّاحة و نجومه

لك انهلّ فضل اللّه بالأرض ساكبا فأنواؤه ملتفّة و غيومه

و من فوق أطباق السماء بك اقتدى خليل الذى أوطاكها و كليمه

لك الخلق الأرضى الذى جلّ ذكره و مجدك فى الذكر العظيم عظيمه

يجلّ مدى علياك عن مدح مادح فموسر درّ القول فيك عديمه

ولى يا رسول اللّه فيك وراثة و مجدك لا ينسى الذّمام كريمه

و عندى إلى أنصار دينك نسبة هى الفخر لا يخشى انتقالا مقيمه

و كان بودّى أن أزور مبوّأ بك افتخرت أطلاله و رسومه

و قد يجهد الإنسان طرف اعتزامه و يعوزه من بعد ذاك مرومه

و عذرى فى تسويف عزمى ظاهر إذا ضاق عذر العزم عمّن يلومه

عدتنى بأقصى الغرب عن تربك العدا جلالقة الثّغر الغريب و رومه

أجاهد منهم فى سبيلك أمّة هى البحر يعيى أمرها من يرومه

فلو لا اعتناء منك يا ملجأ الورى لريع حماه و استبيح حريمه

فلا تقطع الحبل الذى قد وصلته فمجدك موفور النّوال عميمه

و أنت لنا الغيث الذى نستدرّه و أنت لنا الظّلّ الذى نستديمه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۶۸

و لمّا نأت دارى و أعوز مطمعى و أقلقنى شوق يشبّ جحيمه

بعثت بها جهد المقلّ معوّلا على مجدك الأعلى الذى جلّ خيمه

وكلت بها همّى و صدق قريحتى فساعدنى هاء الروىّ و ميمه

فلا تنسنى يا خير من وطئ الثّرى فمثلك لا ينسى لديه خديمه

عليك صلاة اللّه ما ذرّ شارق و ما راق من وجه الصباح و سيمه

«إلى رسول الحقّ، إلى كافة الخلق، و غمام الرحمة الصادق البرق، الحائز فى ميدان اصطفاء الرحمن قصب السّبق، خاتم الأنبياء، و إمام ملائكة السماء، و من وجبت له النبوّة و آدم بين الطّين و الماء، شفيع أرباب الذّنوب، و طبيب أدواء القلوب، و الوسيلة إلى علّام الغيوب، نبىّ الهدى الذى طهر قلبه، و غفر ذنبه، و ختم به الرسالة ربّه، و جرى فى النفوس مجرى الأنفاس حبّه، الشفيع المشفّع يوم العرض، المحمود فى ملإ السماء و الأرض، صاحب اللواء المنشور يوم النّشور، و المؤتمن على سرّ الكتاب المسطور، و مخرج الناس من الظّلمات إلى النور، المؤيّد بكفاية اللّه و عصمته، الموفور حظّه من عنايته و نعمته، الظّلّ الخفّاق على أمّته، من لو حازت الشمس بعض كماله ما عدمت إشراقا، أو كان للآباء رحمة قلبه ذابت نفوسهم إشفاقا، فائدة الكون و معناه، و سرّ الوجود الذى بهر الوجود سناه، و صفىّ حضرة القدس الذى لا ينام قلبه إذا نامت عيناه، البيرق الذى سبقت له البشرى، و رأى من آيات ربّه الكبرى، و نزل عليه سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى [سورة الإسراء، الآية: ۱] من الأنوار من عنصر نوره مستمدّة، و الآثار تخلق و آثاره مستجدّة، من طوى بساط الوحى لفقده، و سدّ باب الرسالة و النّبوّة من بعده، و أوتى جوامع الكلم فوقفت البلغاء حسرى دون حدّه، الذى انتقل فى الغرر الكريمة نوره، و أضاءت لميلاده مصانع الشام و قصوره، و طفقت الملائكة تجيئه و فودها و تزوره، و أخبرت الكتب المنزّلة على الأنبياء بأسمائه و صفاته، و أخذ عهد الإيمان به على من اتّصلت بمبعثه منهم أيام حياته، المفزع الأمنع يوم الفزع الأكبر، و السّند المعتمد عليه فى أهوال المحشر، ذو المعجزات التى أثبتتها المشاهدة و الحسّ، و أقرّ بها الجنّ و الإنس، من جماد يتكلّم، و جذع لفراقه يتألّم، و قمر له ينشقّ، و حجر يشهد أنّ ما جاء به هو الحقّ، و شمس بدعائه عن مسيرها تحبس، و ماء من بين أصابعه يتبجّس، و غمام باستسقائه يصوب،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۶۹

و طوىّ بصق فى أجاجها فأصبح ماؤها و هو العذب المشروب، المخصوص بمناقب الكمال و كمال المناقب، المسمّى بالحاشر العاقب، ذى المجد البعيد المرامى و المراقب، أكرم من رفعت إليه وسيلة المعترف المغترب، و نجحت لديه قربة البعيد و المقترب، سيد الرّسل محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب، الذى فاز بطاعته المحسنون، و استنقذ بشفاعته المذنبون، و سعد باتّباعه الذين لا خوف عليهم و لا هم يحزنون، صلّى اللّه عليه و سلم ما لمع برق، و همع ودق، و طلعت شمس، و نسخ اليوم أمس:

«من عتيق شفاعته، و عبد طاعته، المعتصم بسببه، المؤمن بالله ثم به، المستشفى بذكره كلّما تألّم، المفتتح بالصلاة عليه كلّما تكلّم، الذى إن ذكر تمثّل طلوعه بين أصحابه و آله، و إن هبّ النسيم العاطر وجد فيه طيب خلاله، و إن سمع الأذان تذكّر صوت بلاله، و إن ذكر القرآن استشعر تردّد جبريل بين معاهده و خلاله، لاثم تربه، و مؤمّل قربه، و رهين طاعته و حبّه، المتوسّل به إلى رضا اللّه ربّه، يوسف بن إسماعيل بن نصر:

«كتبه إليك يا رسول اللّه و الدمع ماح، و خيل الوجد ذات جماح، عن شوق يزداد كلّما نقص الصّبر، و انكسار لا يتاح له إلّا بدنوّ

مزارك الجبر، و كيف لا- يعيى مشوقك الأمر، و توطأ على كبده الجمر، و قد مطلت الأيام بالقدوم على تربك المقدّسة اللحد، و وعدت الآمال و دانت بإخلاف الوعد، و انصرفت الرفاق و العين بنور ضريحك ما اكتحلت، و الركائب إليك ما رحلت، و العزائم قالت و ما فعلت، و النواظر فى تلك المشاهد الكريمة لم تسرح، و طيور الآمال عن وكور العجز لم تبرح، فيا لها من معاهد فاز من حيّاها، و مشاهد ما أعطر ريّاها! بلاد نيطت بها عليك التمائم، و أشرقت بنورك منها النجود و التهائم، و نزل فى حجراتها عليك الملك، و انجلى بضياء فرقانك فيها الحلك، مدارس الآيات و السّور، و مطالع المعجزات السافرة الغرر، حيث قضيت الفروض و حتمت، و افتتحت سورة الرحمن و ختمت، و ابتدئت الملّة الحنيفية و تمّمت، و نسخت الآيات و أحكمت:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٧٠

«أما و الذى بعثك بالحقّ هاديا، و أطلعك للخلق نورا باديا، لا يطفئ غلّتى إلّا شربك، و لا يسكّن لوعتى إلّا قربك، فما أسعد من أفاض من حرم اللّه إلى حرمك، و أصبح بعد أداء ما فرضت عن اللّه ضيف كرمك، و عفّر الخدّ فى معاهدك و معاهد أسرتك، و تردّد ما بين دارى بعثتك و هجرتك! و إنى لما عاقتنى عن زيارتك العوائق و إن كان شغلى عنك بك، وعدتنى الأعداء فيك عن وصل سببى بسببك، و أصبحت بين بحر تتلاطم أمواجه، و عدوّ تتكاثف أفواجه، و يحجب الشمس عند الظهيرة عجاجه، فى طائفة من المؤمنين بك وطّنوا على الصبر نفوسهم، و جعلوا التوكّل على اللّه و عليك لبوسهم، و رفعوا إلى مصارختك رؤوسهم، و استعذبوا فى مرضاة اللّه تعالى و مرضاتك بوسهم، يطيرون من هيعة إلى أخرى، و يلتفتون و المخاوف عن يمنى و يسرى، و يقارعون و هم الفئة القليلة جموعا كجموع قيصر و كسرى، لا يبلغون من عدوّ هو الذّرّ عند انتشاره، عشر معشاره، قد باعوا من اللّه تعالى الحياة الدنيا، لأن تكون كلمة اللّه تعالى هى العليا، فيا له من سرب مروع، و صريخ إلّا منك ممنوع، و دعاء إلى اللّه و إليك مرفوع، و صبية حمر الحواصل، تخفق فوق أوكارها أجنحة المناصل، و الصليب قد تمطّى فمدّ ذراعيه، و رفعت الأطماع بضبعيه، و قد حجبت بالقتام السماء، و تلاطمت أمواج الحديد، و البأس الشديد، فالتقى الماء، و لم يبق إلّا الدّماء، و على ذلك فما ضعفت البصائر و لا ساءت الظنون، و ما وعد به الشهداء تعتقده القلوب حتى تكاد تشاهده العيون، إلى أن نلقاك غدا إن شاء اللّه تعالى و قد أبلينا العذر، و أرغمنا الكفر، و أعملنا فى سبيل اللّه تعالى و سبيلك البيض و السّمر. استنبت رقعتى هذه لتطير إليك من شوقى بجناح خافق، و تسعد من نيتى التى تصحبها برفيق موافق، فتؤدّى عن عبدك و تبلّغ، و تعفّر الخدّ فى تربك و تمرّغ، و تطيّب بريّا معاهدك الطاهرة و بيوتك، و تقف وقوف الخضوع و الخشوع تجاه تابوتك، و تقول بلسان التملّق، عند التشبّث بأسبابك و التعلّق، منكسرة الطّرف، حذرا بهرجها من عدم الصرف:

يا غياث الأمّة، و غمام الرحمة، ارحم غربتى و انقطاعى، و تغمّد بطولك قصر باعى، و قوّ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٧١

على هيبتك خور طباعى، فكم جزت من لجّ مهول، و جبت من حزون و سهول، و قابل بالقبول نيابتى، و عجّل بالرضا إجابتى. و معلوم من كمال تلك الشّيم، و سجاياتيك الدّيم، أن لا يخيب قصد من حطّ بفنائها، و لا يظمأ وارد أكبّ على إنائها.

اللّهمّ، من جعلته أول الأنبياء بالمعنى و آخرهم بالصورة، و أعطيته لواء الحمد يسير آدم فمن دونه تحت ظلاله المنشورة، و ملّكت أمّته ما زوى له من زوايا البسيطة المعمورة، و جعلتنى من أمّته المجبولة على حبّه المفطورة، و شوّقتنى إلى معاهده المبرورة، و مشاهده المزورة، و وكلت لسانى بالصلاة عليه، و قلبى الحنين إليه، و رغّبتنى بالتماس ما لديه، فلا- تقطع منه أسبابى، و لا تحرمنى من حبّه ثوابى، و تداركنى بشفاعته يوم أخذ كتابى.

«هذه يا رسول اللّه وسيلة من بعدت داره، وشطّ مزاره، و لم يجعل بيده اختياره. فإن لم تكن للقبول أهلا فأنت للإغضاء و السماح أهل، و إن كانت ألفاظها و عرة فجنابك للقاصدين سهل، و إن كان الحب يتوارث كما أخبرت، و العروق تدسّ حسبما إليه أشرت، فلى بانتسابى إلى سعد عميد أنصارك مزيّة، و وسيلة أثيرة حفيّة، فإن لم يكن لى عمل ترتضيه فلى نيّة، فلا تنسنى و من بهذه الجزيرة

المفتتحة بسيف كلمتك، على أيدى خيار أمّتك، فإنما نحن بها وديعة تحت بعض أقفالك، نعوذ بوجه ربّك من إغفالك، و نستنشق من ريح عنايتك نفحة، و نرتقب من محيّا قبولك لمحة، ندافع بها عدوّا طغى و بغى، و بلغ من مضايقتنا ما ابتغى، فمواقف التمحيص قد أعيت من كتب و ورّخ، و البحر قد أصمت من استصرخ، و الطاغية فى العدوان مستبصر، و العدو محلّق و الولىّ مقصّر. و بجاهك ندفع ما لا نطيق، و بعنايتك نعالج سقيم الدّين فيفيق، فلا تفردنا و لا تهملنا، وناد ربّك فينا، رَبَّنا وَ لا تُحَمِّلْنا [سورة البقرة، الآية: ۲۸۶]، و طوائف أمّتك حيث كانوا، عناية منك تكفيهم، و ربّك يقول لك و قوله

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۷۲

الحقّ وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ [سورة الأنفال، الآية: ۳۳] و الصلاة و السلام عليك يا خير من طاف و سعى، و أجاب داعيا إذا دعا، و صلّى اللّه على جميع أحزابك و آلك، صلاة تليق بجلالك، و تحقّ لكمالك، و على ضجيعيك و صديقيك، و حبيبيك و رفيقيك، خليفتك فى أمّتك، و فاروقك المستخلف بعده على جلّتك، و صهرك ذى النّورين المخصوص ببرّك و نحلتك، و ابن عمّك سيفك المسلول على حلتك، بدر سمائك و والد أهلّتك، و السلام الكريم عليك و عليهم كثيرا أثيرا، و رحمة اللّه تعالى و بركاته. و كتب بحضرة جزيرة الأندلس غرناطة، صانها اللّه تعالى و وقاها! و دفع عنها ببركتك كيد عداها»! انتهت الرسالة.

و كتب أيضا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم على لسان مخدومه السلطان الغنى باللّه محمد بن السلطان أبى الحجاج- رحم اللّه تعالى الجميع!- ما صورته: [الطويل]

دعاك بأقصى المغربين غريب و أنت، على بعد المزار، قريب

مدلّ بأسباب الرجاء و طرفه غضيض على حكم الحياء مريب

يكلف قرص البدر حمل تحيّة إذا ما هوى و الشمس حين تغيب

لترجع من تلك المعالم غدوة و قد ذاع من ردّ التحيّة طيب

و يستودع الريح الشمال شمائلا من الحبّ لم يعلم بهنّ رقيب

و يطلب فى جيب الجيوب جوابها إذا ما أطلّت و الصباح جنيب

و يستفهم الكفّ الخضيب و دمعه غراما بحنّاء النجيع خضيب

و يتبع آثار المطىّ مشيّعا و قد زمزم الحادى و حنّ نجيب

إذا أثر الأخفاف لاحت محاربا يخرّ عليها راكعا و ينيب

و يلقى ركاب الحجّ و هى قوافل طلاح و قد لبّى النداء لبيب

فلا قول إلّا أنّة و توجّع و لا حول إلّا زفرة و نحيب

غليل و لكن من قبولك منهل عليل و لكن من رضاك طبيب

ألا ليت شعرى و الأمانىّ ضلّة و قد تخطىء الآمال ثمّ تصيب

أ ينجد نجد بعد شحط مزاره و يكثب بعد البعد منه كثيب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۷۳

و تقضى ديونى بعد ما مطل المدى و ينفذ بيعى و المبيع معيب

و هل أقتضى دهرى فيسمح طائعا و أدعو بحظّى مسمعا فيجيب

و يا ليت شعرى هل لحومى مورد لديك؟ و هل لى فى رضاك نصيب

و لكنك المولى الجواد و جاره على أىّ حال كان ليس يخيب

و كيف يضيق الذّرع يوما بقاصد و ذاك الجناب المستجار رحيب

و ما هاجنى إلّا تألّق بارق يلوح بفود الليل منه مشيب

ذكرت به ركب الحجاز و جيرة أهاب بها نحو الحبيب مهيب

فبتّ و جفنى من لآلىء دمعه غنىّ و صبرى للشجون سليب

ترنّحنى الذكرى و يهفو بى الهوى كما مال غصن فى الرياض رطيب

و أحضر تعليلا لشوقى بالمنى و يطرق وجد غالب فأغيب

مرامى، لو أعطى الأمانىّ، زورة يبثّ غرام عندها و وجيب

فقول حبيب إذ يقول تشوّقا عسى وطن يدنو إلىّ حبيب

تعجّبت من سيفى و قد جاور الغضا بقلبى فلم يسبكه منه مذيب

و أعجب أن لا يورق الرمح فى يدى و من فوقه غيث المشوق سكيب

فيا سرح ذاك الحىّ لو أخلف الحيا لأغناك من صوب الدموع صبيب

و يا هاجر الجوّ الجديد تلبّثا فعهدى رطب الجانبين خصيب

و يا قادح الزند الشّحاح ترفّقا عليك فشوقى الخارجىّ شبيب

أيا خاتم الرسل المكين مكانه حديث الغريب الدار فيك غريب

فؤادى على جمر البعاد مقلّب يماح عليه للدموع قليب

فو اللّه ما يزداد إلّا تلهّبا أ أبصرت ماء ثار عنه لهيب

فليلته ليل السليم و يومها إذا شدّ للشوق العصاب عصيب

هواى هدى فيك اهتديت بنوره و منتسبى للصحب منك نسيب

و حسبى على أنى لصحبك منتم و للخزرجيّين الكرام نسيب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۷۴

عدت عن مغانيك المشوقة للعدا عقارب لا يخفى لهنّ دبيب

حراص على إطفاء نور قدحته فمستلب من دونه و سليب

فكم من شهيد فى رضاك مجدّل يظلّله نسر و يندب ذيب

تمرّ الرياح الغفل فوق كلومهم فتعبق من أنفاسها و تطيب

لنصرك عنك الشغل من غير منّة و هل يتساوى مشهد و مغيب

فإن صحّ منك الحظّ طاوعنى المنى و يبعد مرمى السهم و هو مصيب

و لو لاك لم يعجم من الروم عودها فعود الصليب الأعجمىّ صليب

و قد كانت الأحوال، لو لا مراغب ضمنت و وعد بالظهور، تريب

فما شئت من نصر عزيز و أنعم أثاب بهنّ المؤمنين مثيب

منابر عزّ أذّن الفتح فوقها و أفصح للعضب الطرير خطيب

نقود إلى هيجائها كلّ صائل كما ريع مكحول اللحاظ ربيب

و نجتاب من سرد اليقين مدارعا يكفّتها من يجتنى و يثيب

إذا اضطرب الخطىّ حول غديرها يروقك منها لجّة و قضيب

فعذرا و إغضاء و لا تنس صارخا بعزّك يرجو أن يجيب مجيب

و جاهك بعد اللّه نرجو، و إنه لحظّ ملىء بالوفاء رغيب

عليك صلاة اللّه ما طيّب الفضا عليك مطيل بالثناء مطيب

و ما اهتزّ قدّ للغصون مرنّح و ما افترّ ثغر للبروق شنيب

«إلى حجّة اللّه تعالى المؤيّدة ببراهين أنواره، و فائدة الكون و نكتة أدواره، و صفوة نوع البشر و منتهى أطواره، إلى المجتبى و موجود الوجود لم يغن بمطلق الوجود عديمه، المصطفى من ذرّيّة آدم قبل أن يكسو العظام أديمه، المحتوم فى القدم، و ظلمات العدم، عند صدق القدم، تفضيله و تقديمه، إلى وديعة النور المنتقل فى الجباه الكريمة و الغرر، و درّة الأنبياء التى لها الفضل على

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٧٥

الدّرر، و غمام الرحمة الهامية الدّرر، إلى مختار اللّه تعالى المخصوص باجتبائه، و حبيبه الذى له المزية على أحبّائه، و ذرّيّة أنبياء اللّه تعالى آبائه، إلى الذى شرح صدره و غسله، ثم بعثه واسطة بينه و بين العباد و أرسله، و أتمّ عليه إنعامه الذى أجز له، و أنزل عليه من الهدى و النور ما أنزله، إلى بشرى المسيح و الذبيح، و من لهم التّجر الربيح، المنصور بالرعب و الريح، المخصوص بالنسب الصريح، إلى الذى جعله فى المحول غماما، و للأنبياء إماما، و شقّ صدره لتلقّى روح أمره غلاما، و أعلم به فى التوراة و الإنجيل إعلاما، و علم المؤمنين صلاة عليه و سلاما، إلى الشفيع الذى لا تردّ فى العصاة شفاعته، و الوجيه الذى قرنت بطاعة اللّه تعالى طاعته، و الرؤوف الرحيم الذى خلصت إلى اللّه تعالى فى أهل الجرائم ضراعته، صاحب الآيات التى لا يسع ردّها، و المعجزات التى أربى على الألف عدّها، فمن قمر شقّ، و جذع حنّ له و حقّ، و بنان يتفجّر بالماء، فيوقم بريّ الظماء، و طعام يشبع الجمع الكثير يسيره، و غمام يظلّل به مقامه و مسيره، خطيب المقام المحمود إذا كان العرض، و أول من تنشقّ عنه الأرض، و وسيلة اللّه تعالى التى لولاها ما أقرض القرض، و لا عرف النّفل و الفرض، محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف المحمود الخلال من ذى الجلال، الشاهد بصدقه صحف الأنبياء و كتب الأرسال، و آياته التى أثلجت القلوب ببرد اليقين السلسال، صلّى اللّه عليه و سلّم ما ذرّ شارق، و أومض بارق، و فرّق بين اليوم الشامس و الليل الدامس فارق، صلاة تتأرّج على شذى الزهر، و تتبلّج عن سنا الكواكب الزّهر، و تتردّد بين السّرّ و الجهر، و تستغرق ساعات اليوم و أيام الشهر، و تدوم بدوام الدهر:

«من عبد هداه، و مستقرى مواقع نداه، و مزاحم أبناء أنصاره فى منتداه، و بعض سهامه المفوقة إلى نحور عداه، مؤمّل العتق من النار بشفاعته، و محرز طاعة الجبّار بطاعته، الآمن باتّصال رعيه من إهمال اللّه تعالى و إضاعته، متّخذ الصلاة عليه وسائل نجاة، و ذخائر فى الشدائد مرتجاة، متاجر بضائعها غير مزجاة، الذى ملأ بحبّه جوانح صدره، و جعل فكره هالة لبدره، و أوجب حقّه على قدر العبد لا على قدره، محمد بن يوسف بن نصر الأنصارى الخزرجى، نسيب سعد بن عبادة من أصحابه، و بوارق سحابه، و سيوف نصرته، و أقطاب دار هجرته، ظلّله اللّه تعالى يوم الفزع الأكبر من رضاك عنه بظلال الأمان! كما أنار قلبه من هدايتك بأنوار الهدى و الإيمان، و جعله من أهل السياحة فى فضاء حبّك و الهيمان!

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٧٦

«كتبه إليك يا رسول اللّه و اليراع تقتضى الهيبة صفرة لونه، و المداد يكاد أن يحول سواد جونه، و ورقة الكتاب يخفق فؤادها حرصا على حفظ اسمك الكريم و صونه، و الدمع يقطر فتنقط به الحروف و تفصل الأسطر، و توهّم المثول بمثواك المقدّس لا يمرّ بالخاطر سواه و لا يخطر، عن قلب بالبعد عنك قريح، و جفن بالبكاء جريح، و تأوّه عن تبريح، كلّما هبّ من أرضك نسيم ريح، و انكسار ليس له إلّا جبرك، و اغتراب لا يؤنس فيه إلّا قربك، و إن يقض فقبرك، و كيف لا يسلم فى مثلها الأسى، و يوحش الصباح و المسا، و يرجف جبل الصبر بعد ما رسا، لو لا لعلّ و عسى، فقد سارت الركبان إليك و لم يقض مسير، و حومت الأسراب عليك و الجناح كسير، و وعدت الآمال فأخلفت، و حلفت العزائم فلم تف بما حلفت، و لم تحصل النفس من تلك المعاهد ذات الشرف الأثيل، إلّا على التمثيل، و لا من المعالم الملتمسة التنوير، إلّا على التصوير، مهبط وحى اللّه تعالى و متنزل أسمائه، و متردّد ملائكة سمائه، و

مدافن أوليائه، و ملاحد أصحاب خيرة أنبيائه، رزقنى اللّه تعالى الرضا بقضائه، و الصّبر على جاحم البعد و رمضائه. من حمراء غرناطة حرسها اللّه تعالى دار ملك الإسلام بالأندلس قاصية سيلك، و مسحبة رجلك يا رسول اللّه و خيلك، و أنأى مطارح دعوتك و مساحب ذيلك، حيث مصافّ الجهاد فى سبيل اللّه و سبيلك قد ظلّلها القتام، و شهبان الأسنّة أطلعها منه الإعتام، و أسواق بيع النفوس من اللّه تعالى قد تعدّد بها الأيامى و الأيتام، حيث الجراح قد تحلّت بعسجد نجيعها النحور، و الشهداء تحفّ بها الحور، و الأمم الغريبة قد قطعها عن المدد البحور، حيث المباسم المفترّة، تجلوها المصارع البرّة، فتحييها بالعراء ثغور الأزاهر، و تندبها صوادح الأدواح برنّات تلك المزاهر، و تحمل السحاب أشلاءها المعطّلة من ظلّها بالجواهر، و حيث الإسلام من عدوّه المكايد بمنزلة قطرة من عارض غمام، و حصاة من ثبير أو شمام، و قد سدّت الطريق، و أسلم الفراق الفريق، و أغصّ الريق، و يئس من الساحل الغريق، إلّا أنّ الإسلام بهذه الجهة المتمسكة بحبل اللّه تعالى و حبلك، المهتدية بأدلّة سبلك، سالم و الحمد للّه تعالى من الانصداع، محروس بفضل اللّه تعالى من الابتداع، مقدود من جديد الملّة، معدوم فيه وجود الطوائف المضلّة، إلّا ما يخصّ الكفر من هذه العلّة،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۷۷

و الاستظهار على جمع الكثرة من جموعه بجمع القلّة. و لهذه الأيام، يا رسول اللّه، أقام اللّه تعالى أوده بارّا بوجهك الوجيه و رعيا، و إنجازا لوعدك و هو الذى لا يخلف وعدا و لا يخيب سعيا، و فتح لنا فتوحا أشعرتنا برضاه عن وطننا الغيب، و بشّرتنا منه تعالى بغفر التقصير و رفع التثريب، و نصرنا و له المنّة على عبدة الصليب، و جعل لألفنا الرّدينى و لامنا السّردى حكم التغليب، و إذا كانت الموالى التى طوّقت الأعناق مننها، و قرّرت العوائد الحسان سيرها و سننها، تبادر إليها نوّابها الصرحاء و خدّامها النصحاء بالبشائر، و المسرّات التى تشاع فى العشائر، و تجلو لديها نتائج أيديها، و غايات مباديها، و تتاحفها و تهاديها، بمجانى جناتها و أزاهر غواديها، و تطرف محاضرها بطرف بواديها، فبابك يا رسول اللّه أولى بذلك و أحقّ، و لك الحقّ الحقّ، و الحرّ منّا عبدك المسترقّ، حسبما سجّله الرّقّ، و فى رضاك من كلّ من يلتمس رضاه المطمع، و مثواك المجمع، و ملوك الإسلام فى الحقيقة عبيد سدّتك المؤملة، و خول مثابتك المحسنة بالحسنات المجملة، و شهب تعشو إلى بدورك المكملة، و بعض سيوفك المقلّدة فى سبيل اللّه تعالى المحملة، و حرسة مهادك، و سلاح جهادك، و بروق عهادك. و إنّ مكفول احترامك الذى لا يخفر، و ربىّ إنعامك الذى لا يكفر، و ملتحف جاهك الذى يمحى ذنبه بشفاعتك إن شاء اللّه تعالى و يغفر، يطالع روضة الجنّة المفتّحة أبوابها بمثواك، و يفاتح صوان القدس الذى أجنّك و حواك، و ينثر بضائع الصلاة عليك بين يدى الضريح الذى طواك، و يعرض جنى ما غرست و بذرت، و مصداق ما بشرت به لما بشرت و أنذرت، و ما انتهى إليه طلق جهادك، و مصبّ عهادك، لتقرّ عين نصحك التى أنام العيون الساهرة هجوعها، و أشبع البطون و روّاها ظمؤها فى اللّه تعالى وجوعها، و إن كانت الأمور بمرأى من عين عنايتك، و غيبها متعرّف بين إفصاحك و كنايتك، و مجمله يا رسول اللّه صلّى اللّه عليك، و بلّغ وسيلتى إليك، هو أنّ اللّه سبحانه لمّا عرفنى لطفه الخفى فى التمحيص، المقتضى عدم المحيص، ثم فى التخصيص، المغنى بعيانه عن التنصيص، وفّق ببركاتك السارية رحماتها فى القلوب، و وسائل محبّتك العائدة بنيل المطلوب، إلى استفادة عظة و اعتبار، و اغتنام إقبال بعد إدبار، و مزيد استبصار، و استعانة باللّه تعالى و انتصار، فسكن هبوب الكفر بعد إعصار، و حلّ مخنّق الإسلام بعد حصار، و جرت على سنن السّنّة بحسب الاستطاعة و المنّة السيرة، و جبرت

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۷۸

بجاهك القلوب الكسيرة، و سهّلت المآرب العسيرة، و رفع بيد العزّة الضّيم، و كشف بنور البصيرة الغيم، و ظهر القليل على الكثير، و باء الكفر بخطّة التعثير، و استوى الدين الحنيف على المهاد الوثير، فاهتبلنا يا رسول اللّه غرّة العدوّ و انتهزناها، و شمنا صوارم عزّة الغدوّ و هززناها، و أزحنا علل الجيوش و جهزناها. فكان ممّا ساعد عليه القدر، و الخطب المبتدر، و الورد الذى حصل بعده الصّدر، أنّنا عاجلنا مدينة برغه، و قد جرّعت الأختين ما علقة و رنده، من مدائن دينك، و مزابن ميادينك، أكؤس الفراق، و أذكرت مثل من بالعراق، و سدّت طرق التزاور عن الطّراق، و أسالت المسيل بالنجيع المراق، فى مراصد المراد و المراق، و منعت المراسلة مع هذى

الحمام، لا- بل مع طيف المنام عند الإلمام، فيسّر اللّه تعالى اقتحامها، و ألحمت بيض الشفار فى زرق الكفار إلحامها، و أزال بشر السيوف من بين تلك الحروف إقحامها، فانطلق المسرى، و استبشرت القواعد الحسرى، و عدمت بطريقها المخيف مصارع الصّرعى و مثاقف الأسرى، و الحمد للّه على فتحه الأسنى و منحه الأسرى، و لا إله إلّا هو منفّل قيصر و كسرى، و فاتح مغلقاتهما المنيعة قسرا، و استولى الإسلام منها على قرار جنات، و أم بنات، و قاعدة حصون، و شجرة غصون، طهّرت مساجدها المغتصبة المكرهة، و فجع بحفظها الفيل الأفيل و أبرهة، و انطلقت بذكر اللّه الألسنة المدرهة، و فاز بسبق ميدانها جيادك الفرّهة، هذا و طاغية الروم على توفّر جموعه، و هول مرثيه و مسموعه، قريب جواره، بحيث يتّصل خواره، و قد حرّك إليها الحنين حواره. ثم نازل المسلمون بعدها شجا الإسلام الذى أعيا النطاسىّ علاجه، و كرك هذا القطر الذى لا- تطاول أعلامه و لا تصاول أعلاجه، و ركاب الغارات التى تطوى المراحل إلى مكايدة المسلمين طى البرود، و حجر الحيّات التى لا- تخلع على اختلاف الفصول جلود الزرود، و منغّص الورود فى العذب المورود، و مغضّ المضاجع، و حلم الهاجع، و مجهّز الخطب الفاجىء الفاجع، و مستدرك فاتكة الراجع، قبل هبوب الطائر الساجع، حصن أشب حماه اللّه تعالى دعاء لا خبرا، كما جعله للمتفكرين فى قدرته معتبرا،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۸؛ ص۷۸

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۷۹

فأحاطوا به إحاطة القلادة بالجيد، و أذلّوا عزّته بعزة ذى العرش المجيد، و حفّت به الرايات يسمها وسمك، و يلوح فى صفحاتها اسم اللّه تعالى و اسمك، فلا ترى إلّا نفوسا تتزاحم على مورد للشهادة أسرابها، و ليوثا يصدق فى اللّه تعالى ضرابها، و أرسل اللّه عليها رجزا إسرائيليا من جراد السهام، تشذ آياته عن الأفهام، و سدّد إلى الجبل النفوس القابلة للإلهام، من بعد الاستغلاق و الاستبهام، و قد عبثت جوارح صخوره فى قنائص الهام، و أعيا صعبه على الجيش اللّهام، فأخذ مسائغه النقض و النقب، ورغا فوق أهله السّقب، و نصبت المعارج و المراقى، و قرعت المناكب و التراقى، و اغتنم الصادقون مع اللّه تعالى الحظّ الباقى، و قال الشهيد السابق: يا فوز استباقى، و دخل البلد فالتحم السيف، و استلب البحت و الزيف، ثم استخلصت القصبة فعلت أعلامك فى أبراجها المشيدة، و ظفر ناشد دينك منها بالنشيدة، و شكر اللّه تعالى فى قصدها مساعى النصائح الرشيدة، و عمل ما يرضيك يا رسول اللّه فى سدّ ثلمها، و صون مستلمها، و مداواة ألمها، حرصا على الاقتداء فى مثلها بأعمالك، و الاهتداء بمشكاة كمالك، و رتب فيها الحماة تشجى العدو، و تصل فى مرضاة اللّه تعالى و مرضاتك برواحها الغدوّ. ثم كان الغزو إلى مدينة إطريرة بنت حاضرة الكفر إشبيلية التى أظلّتها بالجناح الساتر، و أنامتها فى ضمان الأمان للحسام الباتر، و قد وتر الإسلام من هذه المومسة البائسة بوتر الواتر، و أحفظ منها بأذى الوقاح المهاتر، لما جرّته على أسراه من عمل الخاتل الخاتر، حسب المنقول لا بل المتواتر، فطوى إليها المسلمون المدى النازح، و لم تشك المطىّ الروازح، و صدق فى الجدّ جدّها المازح، و خفقت فوق أوكارها أجنحة الأعلام، و غشيتها أفواج الملائكة الموسومة و ظلال الغمام، و صابت من السهام ودق الرّهام، و كاد يكفى السهام على الأرض ارتجاج أطوادها بكلمة الإسلام، و قد صمّ خاطب عروس الشهادة عن الملام، و سمح بالعزيز المصون مبايع الملك العلّام، و تكلّم لسان الحديد الصامت و صمت إلّا بذكر اللّه لسان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۸۰

الكلام، و وفت الأوتار بالأوتار، و وصل بالخطّىّ درع الأبيض البتّار، و سلّطت النار على أربابها، و أذن اللّه تعالى فى تبار تلك الأمة و تبابها، فنزلوا على حكم السيف آلافا، بعد أن أتلفوا بالسلاح إتلافا، و استوعب المقاتلة أكنافا، و قرنوا فى الجدل أكتافا، و حملت العقائل و الخرائد، و الولدان و الولائد، إركابا من فوق الظهور و إردافا، و أقلت منها أفلاك الحمول بدورا تضىء من ليالى المحاق أسدافا، و امتلأت الأيدى من المواهب و الغنائم، بما لا- يصوّره حلم النائم، و تركت العوافى تتداعى إلى تلك الولائم، و تفتّن من مطاعمها فى الملائم، و شنّت الغارات على حمص فجلّلت خارجها مغارا، و كست كبار الروم بها صغارا، و أجحرت أبطالها إجحارا، و استاقت من النّعم ما لا يقبل الحصر استبحارا. و لم يكن إلّا أن عدل القسم، و استقلّ بالقفول العزيز الرسم، و وضح من التوفيق الوسم،

فكانت الحركة إلى قاعدة جيّان قيعة الظلّ الأبرد، و نسيجة المنوال المفرد، و كناس الغيد الخرّد، و كرسيّ الإمارة، و بحر العمارة، و مهوى هوى الغيث الهتون، و حزب التين و الزيتون، حيث خندق الجنّة تدنو لأهل النار مجانيه، و تشرق بشواطئ الأنهار إشراق الأزهار زهر مبانيه، و القلعة التى تختّمت بنان شرفاتها بخواتم النجوم، و همت من دون سحابها البيض سحائب الغيث السّجوم، و العقيلة التى أبدى الإسلام يوم طلاقها، و هجوم فراقها، سمة الوجوم لذلك الهجوم، فرمتها البلاد المسلمة بأفلاذ أكبادها الوادعة، و أجابت منادى دعوتك الصادقة الصادعة، و حبتها بالفادحة الفادعة، فغصّت الرّبا و الوهاد بالتكبير و التهليل، و تجاوبت الخيل بالصّهيل، و انهالت الجموع المجاهدة فى اللّه تعالى انهيال الكثيب المهيل، و فهمت نفوس العباد المجاهدة فى اللّه تعالى حقّ الجهاد معانى التيسير من ربّها و التسهيل، و سفرت الرايات عن المرأى الجميل، و أربت المحلّات المسلمة على التأميل، و لمّا صبحتها النواصى المقبلة الغرر، و الأعلام المكتتبة الطّرر، برز حاميتها مصحرين، و للحوزة المستباحة مستنصرين، فكاثرهم من سرعان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۸۱

الأبطال رجل الدّبى، و نبت الوهاد و الرّبا، فأقحموهم من وراء السور، و أسرعت أقلام الرماح فى بسط عددهم المكسور، و تركت صرعاهم ولائم للنسور، ثم اقتحموا ربض المدينة الأعظم فافترعوه، و جدّلوا من دافع عن أسواره و صرعوه، و أكؤس الحتوف جرّعوه، و لم يتّصل أولى الناس بأخراهم، و يحمد بمخيم النصر العزيز سراهم، حتى خذل الكافر الصبر و أسلم الجلد، و أنزل على المسلمين النصر فدخل البلد، و طاح فى السيل الجارف الوالد منه و الولد، و أتهم المطرف و المتلد، فكان هولا بعيد الشناعة، و بعثا كقيام الساعة، أعجل المجانيق عن الركوع و السجود، و السلالم عن مطاولة النجود، و الأيدى عن ردم الخنادق و الأغوار، و الأكبش عن مناطحة الأسوار، و النفوط عن إصعاق الفجار، و عمد الحديد، و معاول البأس الشديد، عن نقب الأبراج و نقض الأحجار، فهيلت الكثبان، و أبيد الشيب و الشبان، و كسرت الصّلبان، و فجع بهدم الكنائس الرهبان، و أهبطت النواقيس من مراقيها العالية و صروحها المتعالية، و خلعت ألسنتها الكاذبة، و نقل ما استطاعته الأيدى المجاذبة، و عجزت عن الأسلاب ذوات الظهور، و جلّل الإسلام شعار العزّ و الظهور، بما خلت عن مثله سوالف الدهور و الأعوام و الشهور، و أعرست الشهداء و منوا النفوس المبيعة من اللّه تعالى نحل الصدقات و المهور، و من بعد ذلك هدم السور، و محيت عن محيطه المحكم السطور، و كاد يسير ذلك الجبل الذى اقتعدته المدينة و يدك ذلك الطور، و من بعد ما خرب الوجار، عقرت الأشجار، و عفّر المنار، و سلطت على بنات التراب و الماء النار، و ارتحل عنها المسلمون و قد عمّتها المصائب، و أصمى لبّتها السهم الصائب، و جلّلتها القشاعم العصائب، فالذئاب فى الليل البهيم تعسل، و الضباع من الحدب البعيد تنسل، و قد ضاقت الجدل عن المخانق، و بيع العرض الثمين بالدانق، و سبكت أسورة الأسوار، و سوّيت الهضاب بالأغوار، و اكتسحت الأحواز القاصية سرايا المغوار، و حجبت بالدخان مطالع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۸۲

الأنوار، و تخلّفت قاعتها عبرة للمعتبرين، و عظة للنظارين، و آية للمستبصرين، و نادى لسان الحمية، يا لثارات الإسكندرية، فأسمع آذان المقيمين و المسافرين، و أحقّ اللّه الحقّ بكلماته و قطع دابر الكافرين.

«ثم كانت الحركة إلى أختها الكبرى، ولدتها الحزينة عليها العبرى، مدينة أبدة ذات العمران المستبحر، و الربض الخرق المصحر، و المبانى الشّمّ الأنوف، و عقائل المصانع الجمّة الحلى و الشنوف، و الغاب الأنوف، بلدة التجر، و العسكر المجر، و أفق الضّلال الفاجر الكاذب على اللّه تعالى الكذب الفجر، فخذل اللّه تعالى حاميتها التى يعيى الحسبان عدّها، و سجر بحورها التى لا يرام مدّها، و حقّت عليها كلمة اللّه تعالى التى لا يستطاع ردّها، فدخلت لأوّل وهلة، و استوعب جمّها و المنّة للّه تعالى فى نهلة، و لم يكف السيف من عليها و لا مهلة، فلمّا تناولها العفا و التخريب، و استباحها الفتح القريب، و أسند عن عواليها حديث النصر الحسن الغريب، و أقعدت أبراجها من بعد القيام و الانتصاب، و أضرعت مسايفها لهول المصاب، انصرف عنها المسلمون بالفتح الذى عظم صيته، و العزّ الذى سما طرفه و اشرأبّ ليته، و العزم الذى حمد مسراه و مبيته، و الحمد للّه ناظم الأمر و قد رأب شتيته، و جابر الكسر و قد أفات الجبر

مفيته.

«ثم كان الغزو إلى أمّ البلاد، و مثوى الطارف و التلاد، قرطبة، و ما قرطبة؟ المدينة التى على عمل أهلها فى القديم بهذا الإقليم كان العمل، و الكرسى الذى بعصاه رعى الهمل، و المصر الذى له فى خطة المعمور الناقة و الجمل، و الأفق الذى هو لشمس الخلافة العبشمية الحمل، فخيم الإسلام بعقوتها المستباحة، و أجاز نهرها المعيى على السّباحة، و عمّ دوحها الأشب بوارا، و أدار الكماة بسورها سوارا، و أخذ بمخنّقها حصارا، و أعمل النصر بشجر نصلها اجتناء ما شاء و اهتصارا، و جدّل من أبطالها من لم يرض انجحارا، فأعمل إلى المسلمين إصحارا، حتى فرع بعض جهاتها غلابا جهارا، و رفعت الأعلام إعلاما بعزّ الإسلام و إظهارا، فلو لا استهلال الغوادى، و أن أتى الوادى، لأفضت إلى فتح الفتوح تلك المبادى، و لقضى تفثه العاكف و البادى، فاقتضى الرأى- و لذنب الزمان فى اغتصاب الكفر إياها متاب، تعمل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۸۳

ببشراه بفضل اللّه تعالى أقتاد و أقتاب، و لكل أجل كتاب- أن يراض صعبها حتى يعود ذلولا، و تعفّى معاهدها الآهلة فتترك طلولا، فإذا فجع اللّه تعالى بمارج النار طوائفها المارجة، و أباد بخارجها الطائرة و الدارجة، خطب السيف منها أمّ خارجة، فعند ذلك أطلقنا بها ألسنة النار و مفارق الهضاب بالهشيم قد شابت، و الغلّات المستغلّات قد دعا بها القصل فما ارتابت، و كأنّ صحيفة نهرها لما أضرمت النار حافى ظهرها ذابت، وحيته فرط أمام الحريق فانسابت، و تخلفت لغمائم الدخان عمائم تلويها برءوس الجبال أيدى الرياح، و تنشرها بعد الركود أيدى الاجتياح، و أغريت بأقطارها الشاسعة، و جهاتها الواسعة، جنود الجوع، و توعّدت بالرجوع، فسلب أهلها لتوقع الهجوم منزور الهجوع، فأعلامها خاشعة خاضعة، و ولدانها لثدىّ البؤس راضعة، و اللّه سبحانه يوفد بخبر فتحها القريب ركاب البشرى، و ينشر رحمته قبلنا نشرا.

«ثم تنوّعت يا رسول اللّه لهذا العهد أحوال العدوّ تنوّعا يوهم إفاقته من الغمرة، و كادت فتنته تؤذن بخمود الجمرة، و توقّع الواقع، و حذر ذلك السمّ الناقع، و خيف الخزق الذى يحار فيه الراقع، فتعرفنا عوائد اللّه سبحانه ببركة هدايتك، و موصول عنايتك، فأنزل النصر و السكينة، و مكّن العقائد المكينة، فثابت العزائم و هبّت، و اطّردت عوائد الإقدام و استتبت، و ما راع العدوّ إلّا خيل اللّه تعالى تجوس خلاله، و شمس الحق توجب ظلاله، و هداك الذى هديت يدحض ضلاله، و نازلنا حصنى قنبيل و الحائر، و هما معقلان متجاوران يتناحى منهما الساكن سرارا، و قد اتّخذا بين النجوم قرارا، و فصل بينهما حسام النهر يروق غرارا، و التفّ معصمه فى حلّة العصب و قد جعل الجسر سوارا، فخذل الصليب بذلك الثغر من تولّاه، و ارتفعت أعلام الإسلام بأعلاه، و تبرّجت عروس الفتح المبين بمجلاه، و الحمد للّه تعالى على ما أولاه.

«ثم تحرّكنا على تفئة تعدّى ثغر الموسطة على عدوّه المساور فى المضاجع، و مصبحه بالفاجىء الفاجع، فنازلنا حصن روطة الآخذ بالكظم، المعترض بالشّجا اعتراض العظم، و قد شحنه العدو مددا بئيسا، و لم يأل اختياره رأيا و لا تلبيسا، فأعيا داؤه، و استقلّت بالمدافعة أعداؤه، و لما أتلع إليه جيد المنجنيق، و قد برك عليه بروك الفنيق، و شدّ عصام المنع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۸۴

الوثيق، لجأ أهله إلى التماس العهود و المواثيق، و قد غصوا بالريق، و كاد يذهب بأبصارهم لمعان البريق، فسكناه من حامية المجاهدين بمن يحمى ذماره، و يقرّر اعتماره، و استولى أهل الثغور إلى هذا الحدّ على معاقل كانت مستغلقة ففتحوها، و شرعوا أرشية الرماح إلى قلب قلوبها فنحوها.

«و لم تكد الجيوش المجاهدة تنفض عن الأعراف متراكم الغبار، و ترخى عن آباط خيلها شدّ حزم المغار، حتى عاودت النفوس شوقها، و استتبعت ذوقها، و خطبت التى لا فوقها، و ذهبت بها الآمال إلى الغاية القاصية، و المدارك المتصاعبة على الأفكار المتعاصية، فقصدنا الجزيرة الخضراء باب هذا الوطن الذى منه طرق وادعه، و مطلع الحق الذى صدع الباطل صادعه، وثنية الفتح التى

برق منها لامعه، و مشرف الهجوم الذى لم تكن لتعثر على غيره مطامعه، و فرضة المجاز التى لا تنكر، و مجمع البحرين فى بعض ما يذكر، حيث يتقارب الشطّان، و يتوازى الخطّان، و كاد أن تلتقى حلقتا البطان، و قد كان الكفر قدّر قدر هذه الفرضة التى طرق منها حماه، و رماه الفتح الأول بما رماه، و علم أن لا تتصل أيدى المسلمين بإخوانهم إلّا من تلقائها، و أنه لا يعدم المكروه مع بقائها، فأجلب عليها برجله و خيله، و سدّ أفق البحر بأساطيله، و مراكب أباطيله، بقطع ليله، و تداعى المسلمون بالعدوتين إلى استنقاذها من لهواته، أو إمساكها من دون مهواته، فعجز الحول، و وقع بملكه إياها القول، و احتازها قهرا، و قد صابرت الضيق ما يناهز ثلاثين شهرا، و أطرق الإسلام بعدها إطراق الواجم، و اسودّت الوجوه لخبرها الهاجم، و بكتها حتى دموع الغيث الساجم، و انقطع المدد إلّا من رحمة من ينفّس الكروب، و يغرى بالإدالة الشروق و الغروب، و لما شكنا بشبا اللّه تعالى نحرها، و أغصصنا بجيوش الماء و جيوش الأرض تكاثر نجم السماء برّها و بحرها، و نازلناها نذيقها شديد النزال، و نجحنا بصدق الوعيد فى سبيل الاعتزال، رأينا بأوا لا يظاهر إلّا بالله تعالى و لا يطال، و ممنعة يتحاماها الأبطال، و جنابا روّضه الغيث الهطّال، أمّا أسواقها فهى التى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۸۵

أخذت النجد و الغور، و استعدت بخلاء الجلاد عن البلاد فارتكبت الدّور، تحوز بحرا من العمارة ثانيا، و تشكّك أن يكون الإنس لها بانيا، و أمّا أبراجها فصفوف و صنوف، تزيّن صفحات السائف منها أنوف، و آذان لها من دوامغ الصخر شنوف، و أما خندقها فصخر مجلوب، و سور مقلوب، فصدقها المسلمون القتال بحسب محلّها من نفوسهم، و اقتران اغتصابها ببوسهم، و أفول شموسهم، فرشقوها من النبال بظلال تحجب الشمس فلا يشرق سناها، و عرجوا فى المراقى البعيدة لفرعون مبناها، و نفوسها أنقابا، و حصونها عقابا، و دخلوا مدينة إلبنة بنتها غلابا، و أحسبوا السيوف استلالا و الأيدى اكتسابا، و استوعب القتل مقاتلتها السابغة الجنن، البالغة المنن، فأخذهم الهول المتفاهم، و جدّلوا كأنهم الأراقم، لم تفلت منهم عين تطرف، و لا لسان يلبى من يستطلع الخبر أو يستشرف.

«ثم سمت الهمم الإيمانية إلى المدينة الكبرى فداروا سوارا على سورها، و تجاسروا على اقتحام أودية الفناء من فوق جسورها، و دفوا إليها بالضّروب، من حيل الحروب، بروجا مشيدة، و مجانيق توثق حبالها منها نشيدة، و خفقت بنصر اللّه تعالى عذبات الأعلام، و أهدت الملائكة مدد السلام، فخذل اللّه تعالى كفّارها، و أكهم شفارها، و قلّم بيد قدرته أظفارها، فالتمسوا الأمان للخروج، و نزلوا على مراقى العروج، إلى الأباطح و المروج، من سمائها ذات البروج، فكان بروزهم من العراء إلى الأرض، تذكرة بيوم العرض، و قد جلّل المقاتلة الصّغار، و تعلّق بالأمان النساء و الصّغار، و بودرت المدينة بالتطهير، و نطقت المآذن العالية بالأذان الشهير، و الذكر الجهير، و طرحت كفّارها التماثيل عن المسجد الكبير، و أزرى بألسنة النواقيس لسان التهليل و التكبير، و أنزلت عن الصروح أجرامها، يعيى الهندام مرامها، و ألفى منبر الإسلام بها مجفوّا فأنست غربته، و أعيد إليه قربه و قربته، و تلا واعظ الجمع المشهود،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۸۶

قول منجز الوعود و مورق العود وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ ما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (۱۰۱) وَ كَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَ هِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (۱۰۲) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (۱۰۳) [سورة هود، الآية: ۱۰۱، ۱۰۲، ۱۰۳] فكان الدمع يغرق الآماق، و الوجد يستأصل الأرماق، و ارتفعت الرغبات، و علت السبات، و جىء بأسرى المسلمين يرسفون فى القيود الثقال، و ينسلون من أجداث الاعتقال، ففكّت عن سوقهم أساود الحديد، و عن أعناقهم فلكات البأس الشديد، و ظلّلوا بجناح اللطف العريض المديد، و ترتّبت فى المقاعد الحامية، و أزهرت بذكر اللّه تعالى المآذن السامية، و عادت المدينة لأحسن أحوالها، و سكنت من بعد أهوالها، و عادت الجالية إلى أموالها، و رجع إلى القطر شبابه، و ردّ على دار الإسلام بابه، و اتّصلت بأهل لا إله إلّا اللّه أسبابه، فهى اليوم فى بلاد الإسلام قلادة النحر، و حاضرة البرّ و البحر، أبقى اللّه تعالى عليها و على ما وراءها من بيوت أمتك، و دائع اللّه تعالى فى ذمتك، بكلمة دينك الصالحة الباقية! و سدل عليه أستار عصمته الواقية! وعدنا و الصلاة عليك شعار البروز و القفول، و هجّيرى

الشروق و الأفول، و الجهاد يا رسول اللّه الشأن المعتمد، ما امتدّ بالأجل الأمد، و المستعان الفرد الصمد.

«و لهذا العهد يا رسول اللّه صلّى اللّه عليك، و بلّغ وسيلتى إليك، بلغ من هذا القطر المرتدى بجاهك الذى لا يذلّ من ادّرعه، و لا يضلّ من اهتدى بالسبيل الذى شرعه، إلى أن لاطفنا ملك الروم بأربعة من البلاد كان الكفر قد اغتصبها، و رفع التماثيل ببيوت اللّه تعالى و نصبها، فانجاب عنها بنورك الحلك، و دار بإدالتها إلى دعوتك الفلك، و عاد إلى مكاتبها القرآن الذى نزل به على قلبك الملك، فوجبت مطالعة مقرّك النبوىّ بأحوال هذه الأمّة المكفولة فى حجرك، المفضلة بإدارة تجرك، المهتدية بأنوار فجرك، و هل هو إلّا ثمرات سعيك، و نتائج رعيك، و بركة حبّك؟ و رضاك الكفيل برضا ربّك، و غمام رعدك، و إنجاز وعدك، و شعاع من نور سعدك، و بذر يجنى ريعه من بعدك، و نصر رايتك، و برهان آيتك، و أثر حمايتك و رعايتك؟

و استنبت هذه الرسالة مائحة بحر الندى الممنوح، و مفاتحة باب الهدى بفتح الفتوح، و فارعة المظاهر و الصروح، و ملقية الرحل بمتنزل الملائكة و الروح، لتمدّ إلى قبولك يد استمناح،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٨٧

و تطير إليك من الشوق الحثيث بجناح، ثم تقف بموقف الانكسار، و إن كان تجرها آمنا من الخسار، و تقدم بأنس القربة، و تحجم بوحشة الغربة، و تتأخّر بالهيبة، و تجهش لطول الغيبة، و تقول: ارحم بعد دارى، و ضعف اقتدارى، و انتزاح أوطانى، و خلوّ أعطانى، و قلّة زادى، و فراغ مزادى، و تقبّل وسيلة اعترافى، و تغمّد هفوة اقترافى، و عجّل بالرضا انصراف متحملى لانصرافى، فكم جبت من بحر زاخر، و قفر بالركاب ساخر، و حاش للّه تعالى أن يخيب قاصدك، أو تتخطانى مقاصدك، أو تطردنى موائدك، أو تضيق عنى عوائدك، ثم تمدّ مقتضية مزيد رحمتك، مستدعية دعاء من حضر من أمّتك، و أصحبتها يا رسول اللّه عرضا من النواقيس التى كانت بهذه البلاد المفتتحة تعين الإقامة و الأذان، و تسمع الأسماع الضالة و الآذان، ممّا قبل الحركة، و سالم المعركة، و مكّن من نقله الأيدى المشتركة، و استحقّ بالقدوم عليك، و الإسلام بين يديك، السابقة فى الأزل البركة، و ما سواها فكانت جبالا عجز عن نقلها الهندام، فنسخ وجودها الإعدام، و هى يا رسول اللّه جنى من جنانك، و رطب من أفنانك، و أثر ظهر علينا من مسحة حنانك.

«هذه هى الحال و الانتحال، و العائق أن تشدّ إليك الرحال، و يعمل الترحال، إلى أن نلقاك فى عرصات القيامة شفيعا، و نحلّ بجاهك إن شاء اللّه تعالى محلّا رفيعا، و نقدّم فى زمرة الشهداء الدامية كلومهم من أجلك، الناهلة غللهم من سجلك، و نبتهل إلى اللّه تعالى الذى أطلعك فى سماء الهداية سراجا، و أعلى لك فى السبع الطباق معراجا، و أم الأنبياء منك بالنبى الخاتم، و قفّى على آثار نجومها المشرقة بقمرك العاتم، أن لا يقطع عن هذه الأمة الغريبة أسبابك، و لا يسدّ فى وجوهها أبوابك، و يوفقها لاتّباع هداك، و يثبت أقدامها على جهاد عداك، و كيف تعدم ترفيها، أو تخشى بخسا و أنت موفّيها، أو يعذبها اللّه تعالى و أنت فيها؟

و صلاة اللّه و سلامه تحطّ بفنائك رحال طيبها، و تهدر فى ناديك شقاشق خطيبها، ما أذكر الصباح الطّلق هداك، و الغمام السّكب نداك، و ما حنّ مشتاق إلى لثم ضريحك، و بليت نسمات الأسحار عمّا استرقت من ريحك، و كتب فى كذا». انتهت الرسالة، و فيها ما لا خفاء به من براعة لسان الدين، رحمه اللّه تعالى و قدّس روحه الطاهرة! آمين.

و ممّا علق بحفظى من نثره رحمه اللّه تعالى أثناء رسالة فى العزاء خاطب بها ملك المغرب قوله بعد كلام: أين مروان بن الحكم و دهاؤه، و عبد الملك بن مروان و بهاؤه،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٨٨

و الوليد و بناؤه، و سليمان و غذاؤه، و عمر بن عبد العزيز و ثناؤه، و يزيد و نساؤه، و هشام و خيلاؤه، و الوليد و ندماؤه، و الجعدى و آراؤه؟ أم أين السفاح و حسامه، و المنصور و اعتزامه، و المهدى و إعظامه، و الهادى و إقدامه، و الرشيد و أيامه، و الأمين و ندامه، و المأمون و كلامه، و المعتصم و إسراجه و إلجامه؟ انتهى.

و قد تقدّم كلام أبى الخطاب بن دحية فى هذا المعنى بطوله فى الباب الثانى من هذا القسم، فليراجع ثمة.

## [خطبة للمقرى على منوال لسان الدين]

قلت: و قد تقدّم فى الخطبة نظمى لمثل هذا، و قد كنت نسجت على منوال لسان الدين و أنا بالمغرب نثرا ممّا لم يحضرنى منه الآن غير قولى: أين الإسكندر و يونانه، و شدّاد و بنيانه، و النمروذ و عدوانه، و فرعون و هامانه، و قارون و طغيانه، و كسرى أنو شروان و إيوانه، و قيصر و بطارقته و أعوانه، و سيف بن ذى يزن و غمدانه، و المنذر و نعمانه؟ إلى أن قلت: و أين أبو بكر رضى اللّه تعالى عنه و ثباته، و عمر رضى اللّه تعالى عنه و وثباته، و عثمان رضى اللّه تعالى عنه و رهباته، أم أين على رضى اللّه تعالى عنه و شجاعته و علمه، و أين معاوية رضى اللّه تعالى عنه و حلمه، و أين يزيد و ظلمه؟ ثم ذكرت ما تقدّم للسان الدين، و قلت بعده: و أين الواثق و غناؤه، و المتوكل و مواليه و أولياؤه و أبناؤه، و المنتصر و آماله، و المعتزّ و جماله، و المستعين و عمّاله، و المهتدى و أعماله، و المعتضد و ذكاؤه و إحاطته بالأخبار و اشتماله، و المقتدر و نساؤه و إهماله؟ إلى أن قلت: و أين بنو عبيد و ضلالهم، و بنو بويه و جلالهم، و بنو سلجوق و نظامهم، و بنو سامان و إعظامهم، و بنو أيوب و صلاحهم، و الجراكسة و مبانيهم و سلاحهم؟ ثم قلت فى ملوك المغرب: و أين عبد الرحمن الداخل و أمراؤه، و الناصر و زهراؤه، و الحكم و وزراؤه، و المؤيد و ظهراؤه، أم أين المنصور بن أبى عامر و غزواته و مواليه، و المظفّر و أدواته و معاليه، أم أين بنو حمّود و علاهم، و أوصافهم و حلاهم، و بنو جهور و حزمهم، و بنو باديس و عزمهم، و أين معتضد بنى عبّاد، و معتمدهم الذى سنا كرمه للمعتفين باد، و بنو ذى النون و مزيّتهم، و بنو صمادح و مريتهم، و بنو الأفطس و بنو هود، و ما كان لهم من المكارم فى الحفل المشهود، و أين لمتونه، و صبرهم الذى ركبوا متونه، أم أين الموحّدون و ناصرهم و منصورهم، و مصانعهم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۸۹

و قصورهم، أم أين بنو الأحمر و غرناطتهم، و إزالتهم عن حوزة الدين أدناس المعتدين و إماطتهم، و جعلهم الأمور لمثل ابن الحكيم و لسان الدين و إناطتهم، أم أين بنو مرين و فارسهم، و مغانيهم و مدارسهم، و أين بنو زيّان و منازلهم الشاهقة، و أشجار عزّهم الباسقة، و أين الحفصيون، و مستنصرهم الذى قضى للمعالى الديون، و أبو فارس، الذى شنّفت بأخباره آذان الطروس و الفهارس؟ طحنت و اللّه تعالى الجميع رحى المنون، و تأيمت الأزواج و يتّم البنون، و طالت الأيام و السنون؛ و بقيت القصور العالية، خالية، و الرسوم المتكاثرة، دائرة، و السلوك المنظومة متناثرة، و عن قريب يقف الكلّ بين يدى ربّ الأرباب، فى يوم تذهل فيه الألباب، و تنقطع إلّا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم الأسباب، و يقتصّ للمظلوم من الظالم، و تنبهم للنجاة الطرق و المعالم، و تبلى السرائر لدى من هو بها عالم، يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً [سورة آل عمران، الآية: ۳۰] يوم يحكم اللّه تعالى فى الخلق، بالحقّ، حسبما سبق فى علمه إذ جعلهم قريبا و بعيدا، و شقيّا و سعيدا، اللهمّ اجعلنا فى ذلك اليوم الصعب ممّن فاز بالنجاة، و حاز شفاعة نبيّك و مصطفاك ذى الحرمة و الجاه، صلّى اللّه عليه و سلم و شرّف و كرّم؛ انتهى.

## [من كلام لسان الدين يخاطب السلطان أبا زيان]

رجع لنثر لسان الدين بن الخطيب رحمه اللّه تعالى:

و من كلام لسان الدين رحمه اللّه تعالى ما خاطب به سلطان المغرب أبا زيّان لمّا تمّ له الأمر، و هو مشتمل على نظم و نثر، و نصّه: [الكامل]

يا ابن الخلائف، يا سمىّ محمد يا من علاه ليس يحصر حاصر

أبشر فأنت مجدّد الملك الذى لولاك أصبح و هو رسم داثر

من ذا يعاند منك وارثه الذى بسعوده فلك المشيئة دائر

ألقت إليك يد الخلافة أمرها إذ كنت، أنت لها الوليّ الناصر

هذا و بينك للصريخ و بينها حرب مضرّسة و بحر زاخر

من كان هذا الصنع أول أمره حسنت له العقبى و عزّ الآخر

مولاى عندى فى علاك محبّة و اللّه يعلم ما تكنّ ضمائر

قلبى يحدّثنى بأنك جابر كسرى، و حظّى منك حظّ وافر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸ ص: ۹۰

بثرى جدودك قد حططت حقيبتى فوسيلتى لعلاك نور باهر

و بذلت وسعى و اجتهادى مثل ما يلقى لملككك سيف أمرك عامر

فهو الولى لدى الذى اقتحم الردى و قضى العزيمة و هو سيف باتر

و ولى جدّك فى الشدائد عندما خذلت علاه قبائل و عشائر

فاستهد منه النّصح و اعلم أنه فى كلّ معضلة طبيب ماهر

إن كنت قد عجلت بعض مدائحى فهى الرياض، و للرياض بواكر

«مولانا، و عمدة ديننا و دنيانا، الذى سخر اللّه تعالى البرّ و البحر بأمره، و حكم فوق السماوات السبع بعزّ نصره، و أغنى يوم سعده عن سلّ السلاح و شهره، و فتق عن زهر الصنع الجميل كمامة تسليمه و صبره، و قيّض له فى علم غيبه وزيرا مدخورا لشدّ أزره، و قوّد الملك إليه على حال حصره، الخليفة الإمام، الذى استبشر به الإسلام، و خفقت بعزّه الأعلام، و لاح بدر محيّاه فافتضّ الظلام، المقتدى بالنبىّ الكريم سميّه فى المراشد التى تألّق منها الصبح، و المقاصد التى لازمها النّجح، و التمحيص الذى نبع منه المنح، حتى فى الهجرة التى جاءه بعدها الفتح، أبو زيان، ابن مولانا السلطان ولى العهد ترشيحا و مآلا، و مؤمل الإسلام تقلّدا للمذهب الصريح و انتحالا، و أمير المسلمين لو أوسعه القدر إمهالا، و وسطى عقد البنين خلائق متعدّدة و خلالا، المتحف بالشهادة و لمّا يعرف بدره هلالا، المعوّض بما عند اللّه تعالى سعادة ألبسته سربالا، و أبلغته من رضوان اللّه تعالى آمالا، أبى عبد الرحمن بن مولانا أمير المسلمين عظيم الخلفاء، و عنصر الصبر و الوفاء، و ستر اللّه تعالى المسدول على الضعفاء، و المجاهد فى سبيل اللّه تعالى بنفسه و ماله، المنيف على مراكز النجوم بهممه و آماله، المقدس أبى الحسن بن موالينا الخلفاء الطاهرين و الأئمة المرضيين، من قبيل بنى مرين، و صفوة اللّه تعالى فى هذا المغرب الأقصى من أوليائه المؤمنين، و زينة الدنيا و عمدة الدين، هنّأه اللّه تعالى ما أورثه من سرير الملك الأصيل، و خوّله من سعادة الدنيا و الدين على الإجمال و التفصيل، و توّجه من تاج العزّة القعساء عند اشتباه السبيل، و عوّضه من قبيل الملائكة عند تشتّت القبيل، و جعل قدمه الراسخة، و آياته الناسخة، و ربوته السامية الباذخة، و عزة نصره

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸ ص: ۹۱

الشادخة، و أوزعه شكر آلائه، فى الخلاص من ملكة أعدائه، و خطر البحر و عدوان مائه، و غول السفر، و ارتكاب الغرر، و ثبات أقدام أوليائه الذين ما بدّلوا تبديلا، و لا ارتضوا لقبلة طاعته بعد أن ولّوا وجوههم شطرها تحويلا، بل صبروا صبرا جميلا، و باعوا نفوسهم تتميما لعقدة إيمانهم و تكميلا.

«يسلّم على مقامكم الذى وسم السعد مشرق جبينه، و ذخرت قبل الطاعة ليمينه، و أقسم السعد بمظاهرة أمره السعيد فبرّ- و الشكر للّه تعالى- فى يمينه، عبدكم الذى اعتلق منكم بالوسيلة الكبرى، و قرّ بملككم عينا و شرح صدرا، و بذل الجهد و إن قل قدرة و قدرا، و التمس لكم الدعاء علنا و سرّا، ابن الخطيب الذى حطّ رحل اقتصاده بتراب الملوك الكرام جدودكم، محاريب برّكم و أسباب وجودكم، و آبائكم الذين فى مظاهرتهم و رعيهم يظهر للناس مخايل هداكم و تدرّ سحائب جودكم، ملتحفا منذ سنتين بأصونة

قبورهم و ثيابها، مستظلّا بأفنيتها المعظمة و قبابها، ممرغا خدّه بترابها، مواصلا الصراخ بالمرين و يا ليعقوب متطارحا على أبوابها، فلم يتح اللّه تعالى له نعرة ترعى الضيف و تحمى الدخيل، أو حميّة تدفع الضيم و تشفى العليل، إلّا على يدكم يا أيها الكريم ابن الكريم ابن الكريم، و بطل الميدان فى موقف الهول العظيم، المدخور لنصر المظلوم و إنصاف الغريم، و إجالة أقلام الفتح بفتح الأقاليم.

«كتبه مهنّئا بما سنّى اللّه تعالى لملككم من الصنع الذى خرق حجاب العادة، و أرى إعجاز السعادة، معجلا ذلك بين يدى المبادرة إلى لثم بساطكم الذى لشرف وجوهها تلثمه الوجوه، و تخشاه الأملاك الجبابرة و ترجوه، و أداء الواجب من القيام بمنظوم ثنائه فى الحفل المشهود، و إبلاغ لسان الحمد وسع المجهود، و إلقاء ما عند العبد من خلوص و جنوح، و حبّ واضح أىّ وضوح، فولىّ دعوتكم الشيخ أبو ثابت أعزّه اللّه تعالى يقرّره، و يبيّن مجمله و يفسّره، و العبد واثق بفضل اللّه تعالى على يديكم، و ملتمس النصر لديكم، و قاطع أن طلبته بكم تتسنّى، و أنكم سبب عاقبته الحسنى، إمّا بالظهور على الوطن الذى تجرّأ به المنقلب على ملككم، و مدّ اليد إلى نثر سلككم، و نقص إرثكم المسلم المحرر، و زلزل وطنكم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۹۲

المؤسس على الطاعة المقرّر، و أضرم النار فى بسائطكم و جبالكم، و أطلق يد الفتنة على بيوت أموالكم متكثرا عليكم بالقلّة، متعززا بالذلّة، جانيا على داركم بما لا تبيحه الملّة، أو بالشفاعة الجازمة إن لم يأذن اللّه تعالى فى الانتصاف، و اللّه يجعل الظهور بكم من الأوصاف، و يعينكم على جبر الكسير، و تيسير الأمر العسير، و يهنيكم منيحة الملك الكبير، و يبقى كلمته فى عقبكم بعد تملّؤ التعمير، و السلام».

و له رحمه اللّه تعالى فى مخاطبة السلطان أبى زيان المذكور: «المولى الذى طوق المنن، و أحيا السنن، و أنبت اللّه تعالى حبّه فى القلوب النبات الحسن، ناظم كلمة الدين بعد انتشارها، و مقيل عثارها، و الآخذ بثارها، و المخلد لآثارها، السلطان أبو زيان ... إلى آخره- أبقاكم اللّه تعالى عالى القدم، منصور العلم، ظاهرا على الأمم، مقصود الحمى كالركن الملتزم. عبد مقامكم الذى أويتموه غريبا، و آنستموه مريبا، و أنلتموه على عدوّه الدهر نصرا عزيزا و فتحا قريبا، فلم يخش دركا و تثريبا، و لا عدم حظوة و شفقة و نعمة و تقريبا، ابن الخطيب عن ثناء يعطّر الآفاق، و يرقم الأوراق، و يخرق الجيوب و الأطواق، و حبّ بهر نورا وراق، و جاس اشتهاره الشام و العراق. و يطالع العبد محلّ مولاه الذى خلّف ببابه قلبه و ولده، و صبره و جلده، و صيّر وطنه داره الحقيقيّة و بلده، أنه لمّا قدم على محلّ أخيه، المعتدّ بما أودع اللّه تعالى من الخلال الشريفة فيه، مولاى ابن مولاى أبى عبد اللّه- كفل اللّه تعالى جميل رعيه و كرم عهده! و حكم بإعلاء جدّه و مضاء حدّه- رعى الوسيلة، و صدّق المخيلة، و جلا عند اجتلاء مخاطبتكم أسارير الفضيلة، فلم يدع حقّا إلّا صرفه، و لا نكرة إلّا عرّفه، و لا نعمة إلّا سكبها، و لا مزية إلّا أوجبها، و لا رتبة إلّا أعلاها، و لا نعمة إلّا أولاها، و ما ذاك يا مولاى و إن تعدّدت الرسائل و الأذمّة، و ادّكرت القرب بعد أمّة، إلّا بوصاتكم التى لا تهمل، و حرمتكم التى لا تجهل، و عطف مقامكم الذى اشتهر، و اعتنائكم بعبدكم الذى راق و بهر، فالعبد عبدكم بكلّ اعتبار، و خديمكم و إن نأت الدار، و محسوب على نعمه مقامكم الرفيع المقدار، و الأمل فى مقامكم غير منقطع السبب، و الأهل و الولد تحت كنف مقامكم الأصيل الحسب، حتى يمنّ اللّه تعالى بحجّ بيته و زيارة رسوله على يديكم، و يكون قضاء هذا الوطر منسوبا إليكم، و بعد هذا يستقرّ القرار، حيث يختار من يخلق ما يشاء و يختار، بحول اللّه تعالى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۹۳

«و العبد يذكّر مولاه بما بشّره به بين يدى وداعه، و بمرأى وزيره السعيد و استماعه، من انجلاء الحركة عن عزّه و ظهوره، و نجاح أحواله و استقامة أموره، و يهنيه بصدق الوعد، و إمطار الرعد، و ظهور السعد، و هى وسيلة إذا عدّت الوسائل، و روعيت الذّمم الجلائل، و مثل مولاى من رعى و أبقى، و سلك التى هى أبرّ و أتقى، و ما قصّر عنه القلم من حقّ مولاى فالرسول أعزّه اللّه تعالى يتمّمه، و ما قصر عنه الرسول فاللّه تعالى يعلمه، و هو جلّ و علا يديم أيام مولاى و يبقى مجده، و يصل سعده، و السلام»؛ انتهى.

### [من كلامه يخاطب شيخ الدولة يحيى بن رحو]

و ممّا خاطب به لسان الدين رحمه اللّه تعالى شيخ الدولة يحيى بن رحوّ قوله: سيدى الذى له المزية العظمى، و المحلّ الأسمى، شيخ قبيل بنى مرين، و قطب مدار الأحرار على الإجمال و التعيين، و المتميز بالدهاء و الرّجاحة، و المعرفة الفسيحة الساحة، و الصدقة المباحة، و شروط الصوفية من ترك الأذى و وجود الراحة، أسلّم على ذاتكم الطاهرة التى بخلت الأزمان و اللّه أن تأتى بنظيرها، و تنافست الدول فى تكبيرها، و سارت المواكب الملوكية بمسيرها، و أثنت الألسن بفضلها و خيرها، و أقرر لديها أنى أعددت من معرفتها بالأندلس كنزا لم أنفق منه إلى اليوم وزنا، إعدادا له و خزنا، إذ لا يخرج العتاد الكبير إلّا عن حاجة وفاقة، و لا تردّ اليد إلى الذخيرة إلّا فى إضاقة و عجز طاقة، و ما كانت الوصلة بمثلها ليهملها مثلى جهلا بقيمتها العالية، و إزراء بجهتها الكافلة الكافية، لكن نابت عن يدها أيد، و كفى عن ابتذالها ما كفّ اللّه تعالى من عمرو و زيد، و الآن أقرر أنى قد كادت حاجتى إلى ذلك العتاد أن تتمحّض، و زبدته أن تتمخّض، إذ هو حظى من رعى ذلك القبيل الذى قصرت عليه رياسته، و الوزير الذى من رأيه تستمدّ سياسته، و إذا وفد خاصّة هذه المدينة مهنّين، و بشكر إيالته الكريمة مثنين، فخيمته ظلّ ظليل، و مشاركته معتمدى فى الكثير، فكيف و لا غرض لى إلّا فى القليل، و عندى أنّ رعيه لمثلى لا يفتقر إلى وسيلة تجلب، و لا ذمام يحسب، فمثله من قدر قدر الهناء، و شدّ أعلام الحمد و الثناء، سامية البناء، و عرف أنّ الدنيا على اللّه تعالى أحقر الأشياء، و قد رفعت أمرى كلّه بعد اللّه تعالى إلى رأيك، و غنيت عن سعيى لنفسى بجميل سعيك، و السلام».

### [من كلامه يخاطب شيخه ابن مرزوق فى شفاعة]

و ممّا خاطب به لسان الدين شيخه سيدى أبا عبد اللّه بن مرزوق التلمسانى رضى اللّه تعالى عنه قوله شافعا: «يا سيدى، أبقاكم اللّه تعالى محطّ الآمال و قبلة الوجوه، و بلّغ سيادتكم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۹۴

ما تؤمّله من فضل اللّه تعالى و ترجوه، و كلأ بعين حفظه ذاتكم الفاخرة، و جعل عزّ الدنيا متّصلا لكم بعزّ الآخرة، بعد تقبيل يدكم التى يدها لا تزال تشكر، و حسنتها عند اللّه تعالى تذكر، أنهى إلى مقامكم أنّ الشيخ الكذا أبا فلان- مع كونه مستحقّ التجلّة بهجرة إلى أبواكم الكريمة قدمت، و وسائل من أصالة و حشمة كرمت، و فضل و وقار، و تنويه للولاية إن كانت ذات احتقار، و سن اقتضى الفضل برّه، و أدب شكر الاختبار عليه و سرّه- له بمعرفة سلفكم الأرضى وسيلة مرعية، و فى الاعتراف بنعمتكم مقامات مرضية، و توجّه إلى بابكم، و التّمسك بأسبابكم، و المؤمّل من سيدى ستره بجناح رعيه فى حال الكبرة، و لحظه بطرف المبرّة، إمّا فى استعمال يليق بذوى الاحتشام، أو سكون تحت رعى و اهتمام، و إعانة على عمل صالح يكون مسكة ختام، و هو أحقّ الغرضين بالتزام، و إحالة سيدى فى حفظه رسم مثله، على اللّه تعالى الذى يجزى المحسنين بفضله، و منه نسأل أن يديم أيام المجلس العملى محروسا من النوائب، مبلّغ الآمال و المآرب، و المملوك قد قرّر شأنه فى إسعاف المقاصد المأمولة من الشفاعة إليكم، و التحسّب فى هذه الأبواب عليكم، و تقليب القلوب بيد اللّه تعالى الذى يعطى و يمنع، و يملك الأمر أجمع، و السلام».

و كتب إليه أيضا فى الشفاعة بما نصّه: «سيدى الأعظم، و ملاذى الأعصم، و عروة عزى الوثقى التى لا تفصم، أبقاك اللّه تعالى بقاء آثارك آية للعزّ تأمر الدهر فيأتمر، و يلبى بفنائك الطائف و المعتمر، بأى لسان أثنى على فواضلك و هى أمّهات المنن، و طرف الشام و اليمن، و مقامات بديع الزمن، و التحف المترفعة عن الثمن؟ فحسبى دعاء أردّده و أوليه، و أرتقب مطلوب الإجابة من مقدّمه و تاليه، و إن تشوّف المنعم للحال الموقوف خيره بمشيئة اللّه تعالى على جميل سعيه، الموسّد على وطاء لطفه المغشّى بغطاء رعيه، قلب خافق، و قلب مؤمن يجول به وسواس منافق، و قد تجاوز موسى مجمع البحرين، و أصبح سرىّ بابه سرىّ العين، و لقد كانت مراحل

الرّمل قصيرة قبل أن يكسبها زجلى ثقل الحركة، و يخلط خاصيّ فى وظائفها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۹۵

المشتركة، و ليت أمرى برز إلى طرف، و أفضى إلى منصرف، و ربما ظفر آيس بما يرجوه، و برز المحبوب من المكروه، و اللّه تعالى لا يفضح جاه الكتاب الذى أحيا و أنشر، و حيّا و بشر، و أعطى صحيفته باليمين و قد جمعت مثابتكم المحشر، و موصل كتابى، ينوب فى تقبيل اليد العليا منابى.

و ليعلم سيدى أنّ هذا القطر على شهرته، و تألّق مشتريه و زهرته، إذا انتحل كرامه، و عهد الفضل لم يبق إلّا انصرامه، فهو لبابه المتخيّر، و زلاله الذى لا يتغيّر، أصالة معروفة، و همّة إلى الإيثار مصروفة، و نبلا على السّنّ و الكبرة، و رجولية خليقة بصلة الحرمة و المبرّة، و الوسيلة لا تطرح، و المعنى الذى لا يفسّر لوضوحه و لا يشرح، و هو انتماؤه إلى جناب سيدى حديثا و قديما، و اعترافه بنعمه مديرا لها و مديما، و اللّه تعالى يوفى من إيثار سيدى حظّه، و يجدّد لديه رعيه و لحظه، حتى يعود خافقا علم إقباله، معلما برد اهتباله، مسرورا ببلوغ آماله، فلعمرى إنّ محلّ ولايته لكفيّ، و إنّ عهد أمانته لوفيّ، و إنّ عامل جدّه لظاهر و خفيّ، و ما يفعله سيدى من رعيه، و إنجاح سعيه، محسوب من مناقبه، و معدود فى فضل مذاهبه، و السلام الكريم يخصّكم و رحمة اللّه و بركاته»؛ انتهى.

و قد تكررت فى كتابنا هذا مخاطبات لسان الدين رحمه اللّه تعالى للخطيب ابن مرزوق المذكور نظما و نثرا؛ إذ كان- أعنى ابن مرزوق- رئيس الدولة، و معتمد الجلّة، و سبق منّا التعريف ببعض أحواله فى باب مشايخ لسان الدين ممّا جرّته المناسبة، فليرجع إليه من أراده، و اللّه تعالى يجعل الجميع من أهل السعادة!

## [من كلامه يخاطب أبا زيد بن خلدون الرئيس]

و ممّا اشتمل على نثر لسان الدين و نظمه ما خاطب به الرئيس أبا زيد بن خلدون، لما ارتحل من بحر ألمرية و استقرّ ببلد بسكرة عند رئيسها أبى العباس بن مزنى، صحبة رسالة خطبها أخوه أبو زكريا، و قد تقلّد كتابة صاحب تلمسان، و وصل الكتاب عنه من إنشائه، و هذه صورة ما كتبه لسان الدين رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

بنفسى و ما نفسى علىّ بهينة فينزلنى عنها المكاس بأثمان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۹۶

حبيب نأى عنّى و صمّ لأنّتى وراش سهام البين عمدا فأصمانى

و قد كان همّ الشّيب، لا كان، كافيا فقد آذنى لمّا ترحّل همّان

شرعت له من دمع عينى موردا فكدّر شربى بالفراق و أظمانى

و أرعيته من حسن عهدى جميمه فأجدب آمالى و أوحش أزمانى

حلفت على ما عنده لى من رضا قياسا بما عندى فأحنث أيمانى

و إنى على ما نالنى منه من قلى لأشتاق من لقياه نغبة ظمآن

سألت جنونى فيه تقريب عرشه فقست بجنّ الشوق جنّ سليمان

إذا ما دعا داع من القوم باسمه و ثبت و ما استثبتّ شيمة هيمان

و تا اللّه ما أصغيت فيه لعاذل تحاميته حتى ارعوى و تحامانى

و لا استشعرت نفسى برحمة عاند تظلّل يوما مثله عبد رحمن

و لا شعرت من قبله بتشوّق تخلّل منها بين روح و جثمان

أما الشوق فحدّث عن البحر و لا حرج، و أمّا الصبر فسل به أية درج، بعد أن تجاوز اللّوى و المنعرج، لكن الشدّة تعشق الفرج، و

المؤمن ينشق من روح اللّه تعالى الأرج، و أنّى بالصّبر، على إبر الدّبر، لا بل الضرب الهبر، و مطاولة اليوم و الشهر، حتى حكم القهر؟ و هل للعين أن تسلو سلوّ المقصر، عن إنسانها المبصر، أو تذهل ذهول الزاهد، عن سرّها الرائى و المشاهد؟ و فى الجسد بضعة يصلح إذا صلحت، فكيف حاله إن رحلت عنه و نزحت، و إذا كان الفارق هو الحمام الأوّل، فعلام المعوّل؟ أعيت مراوضة الفراق، على الراق، و كادت لوعة الاشتياق، أن تفضى إلى السّياق: [السريع]

تركتمونى بعد تشييعكم أوسع أمر الصبر عصيانا

أقرع سنّى ندما تارة و أستميح الدمع أحيانا

و ربما تعلّلت بغشيان المعاهد الخالية، و جددت رسوم الأسى بمباكرة الرسوم البالية، أسأل نون النوى عن أهليه، و ميم الموقد المهجور عن مصطليه، وثاء الأثافى المثلثة عن منازل الموحّدين، و أحار بين تلك الأطلال حيرة الملحدين، لقد ضللت إذا و ما أنا من المهتدين،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۹۷

كلفت لعمر اللّه بسال عن جفونى المؤرقة، و نائم عن همومى المتجمّعة المتفرّقة، ظعن عن ملال، لا متبرما منى بشرّ خلال، و كدّر الوصل بعد صفائه، و ضرّج النصل بعد عهد وفائه:

[الطويل]

أقلّ اشتياقا أيّها القلب ربّما رأيتك تصفى الودّ من ليس جازيا

فها أنا أبكى عليه بدم أساله، و أنهل فيه أسى له، و أعلّل بذكراه قلبا صدعه، و أودعه من الوجد ما أودعه، لمّا خدعه، ثم قلاه و ودّعه، و أنشق ريّاه أنف ارتياح قد جدعه، و أستعدى به على ظلم ابتدعه: [الطويل]

خليلىّ، هل أبصرتما أو سمعتما قتيلا بكى، من حبّ قاتله، قبلى

فلو لا عسى الرجاء و لعلّه، لا بل شفاعة المحلّ الذى حلّه، لمزجت الحنين بالعتب، و بثثت كتائبه كمناء فى شعاب الكتب، تهزّ من الألفات رماحا حذر الأسنّة، و توتّر من النونات أمثال القسىّ المرنّه، و تقود من بياض الطّرس و سواد النّقس بلقا تردى فى الأعنّة، و لكنه أوى إلى الحرم الأمين، و تفيّأ ظلال الجوار المؤمن من معرّة العوار عن الشمال و اليمين، حرم الخلال المزنيّة، و الظلال اليزنيّة، و الهمم السنيّة، و الشّيم التى لا ترضى بالدون و لا بالدّنيّة، حيث الرفد الممنوح، و الطير الميامن يزجر لها السّنوح، و المثوى الذى إليه- مهما تقارع الكرام على الضّيفان، حول جوابى الجفان- الميل و الجنوح: [الكامل]

نسب كأنّ عليه من شمس الضّحى نورا، و من فلق الصباح عمودا

و من حلّ بتلك المثابة فقد اطمأنّ جنبه، و تغمّد بالعفو ذنبه، و للّه درّ القائل حيث يقول: [الكامل]

فوحقّه لقد انتدبت لوصفه بالبخل لو لا أنّ حمصا داره

بلد متى أذكره تهتج لوعتى و إذا قدحت الزّند طار شراره

اللهمّ غفرا، لا كفرا، و أين قرارة النخيل، من مثوى الأقلف البخيل، و مكذبة المخيل؟

و أين ثانية هجر، من متبوّأ من ألحد و فجر؟: [المتدارك]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۹۸

من أنكر غيثا منشؤه فى الأرض و ليس بمخلفها

فبنان بنى مزنى مزن مثل؟؟؟ بلطف مصرّفها

شكرت حتى بعبارتها و بمعناها و بأحرفها

مزن مذحلّ ببسكرة يوما نطقت بمصحّفها

ضحكت بأبى العباس من ال أيام ثنايا زخرفها

و تنكّرت الدنيا حتى عرفت منه بمعرّفها

بل نقول: يا محلّ الولـد لا أُقْسِمُ بِهـذَا الْبَلَـدِ وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ [سورة البلد، الآية: ۱، ۲]، لقـد حلّ بينك عرى الجلد، و خلد الشوق بعدك يا ابن خلدون فى الصميم من الخلد، فحيّا اللّه تعالى زمنا شفيت برقى قربك زمانته، و اجتليت فى صدف مجدك جمانته، و يا من لمشوق لم تقض من طول خلّتك لبانته، و أهلا بروض أظلّت أشتات معارفك بانته، فحمائمه بعدك تندب، فيساعدها الجندب، و نواسـمه ترقّ فتتغاشـى، و عشـياته تتخافت و تتلاشـى، و مزنه باك، و دوحه فى مأتم ذى اشتباك، كأن لم تكن قمر هالات قبابه، و لم يك أنسك شارع بابه، إلى صـفوة الظرف و لبابه، و لم يسـبح إنسان عينك فى ماء شبابه، فلهفى عليك من درّة اختلستها يد النوى، و مطـل بردّهـا الـدهر و لوى، و نعق الغراب ببينها فى ربوع الجوى، و نطق بالزخرف فما نطق عن الهوى، و بأى شـىء نعتاض منك أيتها الرياض، بعـد أن طمى نهرك الفيّاض، و فهقت الحياض؟ و لا كان الشانئ المشـنوء، و الجرب المهنوء، من قطع ليل أغار على الصـبح فاحتمل، و شاركك فى الذمّ الناقة و الجمل، و اسـتأثر جنحه ببدر النادى لما كمل، نشـر الشراع فراع، و أعمل الإسراع، كأنما هو تمساح النّيـل ضـايق الأحبـاب فى البرهـة، و اختطف لهم من الشـطّ نزهـة العين و عين النزهـة، و لجّج بهـا و العيون تنظر، و الغمر على الاتّباع يخطر، فلم يقدر إلّا على الأسف، الأثر المنشف، و الرجوع بملء العيبة، من الخيبة، و وقر الجسرة، من الحسرة، و إنما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۹۹

أشكو إلى اللّه البثّ و الحزن، و نستمطر من عبارتنا المزن، و بسيف الرجاء نصول، إذا شرعت لليأس النصول: [البسيط]

ما أقدر اللّه أن يدنى على شحط من داره الحزن ممّن داره صول

فإن كان كلم الفراق رغيبا، لما نويت مغيبا، و جللت الوقت الهنىء تشـغيبا، فلعلّ الملتقى يكون قريبا، و حديثه يروى صحيحا غريبا. إيه ثقـة النفس كيف حـال تلـك الشـمائل، المزهرة الخمائـل؟ و الشّـيم، الهاميـة الـديم، هـل يمرّ ببالها من راعت بالبعـد باله، و أخمـدت بعـاصف البين ذباله، أو ترثى لشؤون شأنها سـكب لا يفتر، و شوق يبتّ جلال الصبر و يبتر، و ضـنى تقصـر عن حلله الفاقعـة صـنعاء و تستر، و الأمر أعظم و اللّه يستر، و ما الذى يضيرك؟ صين من لفح السّموم نضيرك! بعد أن أضرمت و أشعلت، و أوقدت و جعلت، و فعلت فعلتك التى فعلت، أن تترفّق بـذما، أو تردّ بنغبـة ما، أرماق ظما، و تتعاهـد المعاهـد بتحيّـة يشمّ منها شـذا أنفاسك، أو تنظر إلينا على البعد بمقلة حوراء من سواد أنقاسك، و بياض قرطاسك، فربما قنعت الأنفس المحبّة بخيال زور، و تعلّلت بنوال منزور، و رضيت لمّا لم تصد العنقاء بزرزور: [الكامل]

يا من ترحّل و النسيم لأجله تشتاق إن هبّت شذا ريّاها

تحيى النفوس إذا بعثت تحيّة فإذا عزمت اقرأ وَ مَنْ أَحْياها

[سورة المائدة، الآية: ۳۲]

و لئن أحييت بهـا فيمـا سـلف نفوسـا تفـديك- و اللّه تعـالى إلى الخير يهـديك- فنحن نقول معشـر مريـديك: ثنّ و لا تجعلها بيضـة الـديك، و عـذرا فـإنى لم أجتر على خطابـك بـالفقر الفقيرة، و أدللت لـدى حجراتك برفع العقيرة، لا عن نشاط بعثت مرموسه، و لا اغتباط بالأدب تغرى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۰۰

بسياسـته سوسه، و انبسـاط أوحى إلىّ على الفترة نـاموسه، و إنما هو اتّفاق جرّته نفثـة المصـدور، و هناء الجرب المجـدور، و خارق لا مخارق، فثم قياس فارق، أو لحن غنى به بعد الممات مفارق، و الذى سبّبه، و سوّغ منه المكروه و حبّبه، ما اقتضاه الصنو يحيى مدّ اللّه تعـالى حيـاته، و حرس من الحوادث ذاته!- من خطـاب ارتشف به لهـذه القريحـة بلالتها، بعـد أن رضـى علالتها، و رشـح إلى الصّـهر الحضـرمى سـلالتها، فلم يسع إلّا إسـعافه، بما أعافه، فأمليت مجيبا، ما لا يعـدّ فى يوم الرهان نجيبا، و أسـمعت وجيبا، لما ساجلت هـذه

الترهات سحرا عجيبا، حتى إذ ألف القلم العريان سبحه، و جمح برذون الغرارة فلم أطق كبحه، لم أفق من غمرة علوّه، و موقف متلوّه، إلّا و قد تحيّز إلى فئتك معتزّا بل معتزا، و استقبلها ضاحكا مفترّا، و هشّ لها برّا، و إن كان لونه من الوجل مصفرّا، و ليس بأوّل من هجر، فى التماس الوصل ممّن هجر، أو بعث التمر إلى هجر، و أى نسب بينى اليوم و بين زخرف الكلام، و إجالة جياد الأقلام، فى محاورة الأعلام؟ بعد أن حال الجريض، دون القريض، و شغل المريض، عن التعريض، و استولى الكسل، و نسلت الشعرات البيض كأنها الأسل، تروع بمرط الحيات، سرب الحياة، و تطرق بذوات الغرر و الشّيات، عند البيات، و الشيب الموت العاجل، و إذا ابيضّ زرع صبّحته المناجل، و المعتبر الآجل، و إذا اشتغل الشيخ بغير معاده، حكم فى الظاهر بإبعاده، و أسره فى ملكة عاده، فأغض أبقاك اللّه و اسمح، لمن قصّر عن المطمح، و بالعين الكليلة فالمح، و اغتنم لباس ثوب الثواب، و اشف بعض الجوى بالجواب، تولّاك اللّه تعالى فيما استضفت و ملكت، و لا بعدت و لا هلكت، و كان لك آية سلكت، و وسمك من السعادة بأوضح السّمات، و أتاح لقاءك من قبل الممات، و السلام الكريم يعتمد جلال ولدى، و ساكن خلدى، بل أخى و إن عتبته و سيدى، و رحمة اللّه تعالى و بركاته»؛ انتهى.

قلت: هذه الرسالة الرافلة فى حلل البلاغة لم أر مثلها و لم أقف عليه، فرحم اللّه تعالى لسان الدين و وجّه سحائب الرحمة إليه! فلقد كان آية اللّه فى النظم و النثر و جميع العلوم على اختلافها.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۰۱

## [من رسالة له كتب بها إلى الفقيه أبى زكريا بن خلدون لما ولى الكتابة عند أبى حمو سلطان تلمسان]

و كما خاطب الولى ابن خلدون خاطب أخاه أبا زكريا يحيى حسبما قال فى بعض كتبه:

و ممّا خاطبت به الفقيه أبا زكريا بن خلدون، لمّا ولى الكتابة عن السلطان أبى حمّو سلطان تلمسان من بنى زيان و اقترن بذلك نصر و صنع غبطته به و أشدت به قصد تنفيقه و إنهاضه لديه:

«نخصّ الحبيب الذى هو فى الاستظهار به أخ و فى الشفقة عليه ولد، و الولى الذى ما بعد قرب مثله أمل و لا على بعده جلد، و الفاضل الذى لا يخالف فى فضله ساكن و لا بلد، أبقاه اللّه تعالى و فاز فوزه و عصمته لها من توفيق اللّه سبحانه عمد، و مورد سعادته المسوغ لعادته لا غور و لا ثمد، و مدى إمداده من خزائن إلهام اللّه تعالى و سداده ليس له أمد، و حمى فرح قلبه بمواهب من ربّه أن يطرقه كمد.

«تحية محلّه، من صميم قلبه بمحلّه، المنشئ رواق الشفقة، مرفوعا بعمد المحبّة و المقة، فوق ظعنه و حلّه، مؤثره و مجلّه، المعتنى بدقّ أمره و جلّه، ابن الخطيب، من الحضرة الجهادية غرناطة، صان اللّه تعالى خلالها، و وقى هجير هجر الغيوم ظلالها! و عمر بأسود اللّه تعالى أغيالها، كما أغرى بمن كفر باللّه تعالى صيالها!. و لا زائد إلّا منن من اللّه تعالى تصوب، و قوة يستردّ بها المغصوب، و يخفض الصليب المنصوب، و الحمد للّه تعالى الذى بحمده ينال المطلوب، و بذكره تطمئنّ القلوب، و مودّتكم المودّة التى غذتها ثدىّ الخلوص بلبانها، و أحلتها حلائل المحافظة بين أعينها و أجفانها، و مهّدت مواتّ أخواتها الكبرى أساس بنيانها، و استحقّت ميراثها مع استصحاب حال الحياة إن شاء اللّه تعالى و اتّصال زمانها، و اقتضاء عهود الأيام بيمنها و أمانها، و للّه درّ القائل: [الطويل]

فإن لم يكنها أو تكنه فإنه أخوها غذته أمّه بلبانها

«وصل اللّه تعالى ذلك من أجله و فى ذاته، و جعله وسيلة إلى مرضاته، و قربة تنفع عند اعتبار ما روعى من سنن الجبار و مفترضاته. و قد وصل كتابكم الذى فاتح بالريحان و الرّوح، و حلّ من مرسوم الولاء محلّ البسملة من اللوح، و أذن لنوافح الثناء بالبوح، يشهد عدله بأنّ البيان يا آل خلدون سكن من مثواكم دار خلود، و قدح زندا غير صلود، و استأثر من محابركم السيالة، و قضب أقلامكم الميّادة الميّالة، بأب منجب و أمّ ولود، يقفو شانيه غير المشنوّ،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۰۲

و فصيله غير الجرب و لا المهنوّ، من الخطاب السلطانى سفينة منوح، إن لم نقل سفينة نوح، ما شئت من آل أزواج، و زمر من الفضل و أفواج، و أمواج كرم تطفو فوق أمواج، و فنون بشائر، و إهطاع قبائل و عشائر، و ضرب للمسرّات أعيا الشائر، فللّه هو من قلم راعى نسب القنا فوصل الرحم، و أنجد الوشيج و الملتحم، و ساق بعصاه من البيان الذود المزدحم، و أخاف من شذّ عن الطاعة مع الاستطاعة فقال لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ [سورة هود، الآية: ۴۳] و لو لم يوجب الحقّ برقه و رعده، و وعيده و وعده، لأوجبه يمنه و سعده، فلقد ظهرت مخايل نجحه، علاوة على نصحه، و وضحت محاسن صبحه، فى وحشة الموقف الصعب و قبحه، و صل اللّه تعالى له عوائد منحه! و جعله إقليدا كلما استقبل باب أمل وكّله اللّه تعالى بفتحه!

«أمّا ما قرّره ولاؤكم من حبّ زكا على حبّة القلب حبّه، و أنبته النبات الحسن ربّه، و ساعده من الغمام سكبه، و من النسيم اللدن مهبّه، فرسم ثبت عند المولىّ نظيره، و من غير معارض يضيره، و ربما أربى بتذييل مزيد، و شهادة ثابت و يزيد، و لم لا يكون ذلك، و للقلب على القلب شاهد؟ و كونها أجنادا مجنّدة لا يحتاج تقريره إلى ماهد، أو جهد جاهد، و مودّة الأخوة سبيلها لا حب، و دليلها للدعوة الصادقة مصاحب، إلى ما سبق من فضل و لقاء، و نظافة سقاء، و اعتقاد، لا يراع سربه بذئب انتقاد، و اجتلاء شهاب وقّاد، لا يحوج إلى إيقاد، إنما عاق عن مواصلة ذلك نوى شطّ منها الشطن، و تشذيب لم يتعيّن معه الوطن، فلمّا تعيّن، و كاد الصبح أن يتبيّن، عاد الوميض ديجورا، و الثماد بحرا مسجورا، إلى أن أعلق اللّه تعالى منكم اليد بالسبب الوثيق، و أحلّكم منجى نيق، لا- يخاف من منجنيق، و جعل يراعكم لسعادة موسى معجزة تأتى على الخبر بالعيان، فتخرّ لثعبانها سحرة البيان: [مجزوء الخفيف]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۰۳

أ يحيى، سقى، حيث لحت، الحيا فنعم الشعاب و نعم الركون

و حيّا يراعك من آية فقد حرّك القوم بعد السكون

دعوت لخدمة موسى عصاه فجاءت تلقّف ما يأفكون

فأذعن من يدّعى السحر رغما و أسلم من أجلها المشركون

و ساعدك السّعد فيما أردت فكان كما ينبغى أن يكون

«فأنتم أولى الأصدقاء بصلة السبب، و رعى الوسائل و القرب، أبقاكم اللّه تعالى و أيدى الغبطة بكم عالية، و أحوال تلكم الجهات بدرككم المهمات حالية، وديم المسرّات من إنعامكم المدرّات على معهود المبرات متوالية!

«و أمّا ما تشوّفتم إليه من حال وليكم فأمل متقلّص الظلّ، و ارتقاب لهجوم جيش الأجل المطلّ، و مقام على مساورة الصّل، و عمل يكذب الدعوى، و طمأنينة تنتظر الغارة الشعواء، و يد بالمدخور تفتّح، و أخرى تجهد و تمنح، و مرض يزور فيثقل، و ضعف عن الواجب يعقل، إلّا أنّ اللطائف تستروح، و القلب من باب الرجاء لا يبرح، و ربما ظفر البائس، و لم تطّرد المقايس، تداركنا اللّه تعالى بعفوه! و أوردنا من منهل الرضا و القبول على صفوه! و أذن لهذا الخرق فى رفوه!

«و أمّا ما طلبتم من انتساخ ديوان، و إعمال بنان فى الإتحاف ببيان، فتلك عهود لدىّ مهجورة، و معاهد لا متعهّدة و لا مزورة، شغل عن ذلك خوض يعلو لجبه، و حرص يقضى من لغط المانح عجبه، و هول جهاد تساوى جمادياه ورجبه، فلو لا التماس أجر، و تعلّل بربح تجر، لقلت: أهلا بذات النّحيين، فلئن شكت، و بذلت المصون بسبب ما أمسكت، فلقد ضحكت فى الباطن ضعف ما بكت، و نستغفر اللّه تعالى من سوء انتحال، و إيثار المزاح بكلّ حال، و ما الذى ينتظر مثلى ممّن عرف المآخذ و المتارك، و جرّب لما بلا المبارك، و خبر مساءة الدنيا الفارك؟

«هذا أيها الحبيب ما وسعه الوقت الضيق، و قد ذهب الشباب الرّيّق، فليسمح فيه معهود كمالك، جعل اللّه تعالى مطاوعة آمالك، مطاوعة يمينك لشمالك! و وطّأ لك موطّأ العزّ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۰۴

بباب كلّ مالك! و قرن النّجح بأعمالك! و حفظك فى نفسك و أهلك و مالك! و السلام»؛ انتهى.

### [من مخاطباته ما كتب به إلى صاحبه العلامة أبى القاسم بن رضوان]

و من مخاطبات لسان الدين لصاحبه العلامة أبى القاسم بن رضوان: [الكامل]

قد كنت أجهد فى التماس صنيعة نفسا شهاب ذكائها وقّاد

و أقول لو كان المخاطب غيركم عند الشدائد تذهب الأحقاد

«سيدى، أبقاكم اللّه تعالى علم فضل و إنصاف، و مجموع كمال أوصاف: كلام قصير، و اللّه تعالى بحسنات الأقوال و الأفعال بصير، و إليه بعد هذا الخباط كله المرجع و المصير، و ليس لنا إلّا مولّى و نصير، و هذا الرجل سيدى الخطيب أبو عبد اللّه بن مرزوق- جبره اللّه تعالى!- بالأمس كنّا نقف ببابه، و نتمسّك بأسبابه، و نتوسّل إلى الدنيا به، فإن كنّا قد عرفنا خيرا وجبت المشاركة، أو كفافا تعينت المتاركة، أو شرّا اهتبلت غرة الهدى الأنفس المباركة، و اتّصفت بصفة من يعصى فيسمح، و يسأل فيمنح، و يعود إلى القبح بالفعل الجميل، و يجيب يد التأميل، و مع هذا فلم ندر إلّا خيرا كرم منه المورد و المصرف، و من عرف حجّة على من لا يعرف، و أنتم فى الوقت سراج علم لا يخبو سناه، و مجموع تحف عرفنا منه ما عرفناه، و هذه هى الشهرة التى تغتنم إذا سفرت، و الهنة التى تسبر عليها النفس إذا نفرت، حتى لا تجد بعون اللّه تعالى عارضا يعوقها عن الخير، و سبيل الكمال الأخير، و الأجر فى استيفاء كتاب الشفاعة، و تحرّى المقاصد النفاعة، و تنفيق البضاعة، قد ضمنه من وعد بقيام الساعة، و الجزاء على الطاعة و غير الطاعة، و هذه المشاركة تسجيل لفصلكم قبلى، و هى فى الحقيقة لى، فكيف و اللّه تعالى يرى عملكم و عملى، و المتروك حقير، و الوجود إلى رحمة من رحمات اللّه تعالى فقير، و السلام»؛ انتهى.

### [من كلامه يخاطب شيخ العرب المبارك بن إبراهيم]

و من كلام لسان الدين رحمه اللّه تعالى قوله فى مخاطبة شيخ العرب مبارك بن إبراهيم رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۰۵

ساحات دارك للضياف مبارك و بضوء نار قراك يهدى السالك

و نوالك المبذول قد شمل الورى طرّا، و فضلك ليس فيه مشارك

قل للذى قال الوجود قد انطوى و البأس ليس له حسام فاتك

و الجود ليس له غمام هاطل و المجد ليس له همام باتك

جمع الشجاعة و الرجاحة و الندى و البأس و الرأى الأصيل مبارك

للدين و الدنيا و للشّيم العلا و الجود إن شحّ الغمام السافك

عند الهياج ربيعة بن مكدّم فى الفضل و التقوى الفضيل و مالك

ورث الجلالة عن أبيه و جدّه فكأنهم ما غاب منهم هالك

فجياده للآملين مراكب و خيامه للقاصدين أرائك

فإذا المعالى أصبحت مملوكة أعناقها بالحقّ فهو المالك

يا فارس العرب الذى من بيته حرم لها حجّ به و مناسك

يا من يبشّر باسمه قصّاده فلهم إليه مسارب و مسالك

أنت الذى استأثرت فيك بغبطتى و سواك فيه مآخذ و متاركك

لا زلت نورا يهتدى بضيائه من جنّه للروع ليل حالكك

و يخصّ مجدك من سلامى عاطر كالمسك صاك به الغوالى صائكك

«الحمد للّه تعالى الذى جعل بيتك شهيرا، و جعلك للعرب أميرا، و جعل اسمك فالا، و وجهك جمالا، و قربك جاها و مالا، و آل رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم لك آلا، أسلم عليك يا أمير العرب و ابن أمرائها، و قطب سيادتها و كبرائها، و أهنيك بما منحك اللّه تعالى من شهرة تبقى، و مكرمة لا يضلّ المتّصف بها و لا يشقى، إذ جعل خيمتك فى هذا المغرب على اتّساعه، و اختلاف أشياعه، مأمنا للخائف، على قياس المذاهب و الطوائف، و صرف الألسنة إلى مدحك، و القلوب إلى حبّك، و ما ذلك إلّا لسريرة لك عند ربّك، و لقد كنت أيام تجمعنى و إياك المجالس السلطانية على معرفتك متهالكا، و طوع الأمل سالكا، لما يلوح لى على وجهك من سيما المجد و الحياء، و الشّيم الدالّة على العلياء، و زكاء الأصول و كرم الآباء، و كان والدى- رحمه اللّه تعالى!- قد عيّن للقاء خال السلطان قريبكم لما توجّه فى الرسالة إلى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۰۶

الأندلس نائبا فى تأنيسه عن مخدومه، و منوّها حيث حلّ بقدومه، و اتّصلت بعد ذلك بينهما المهاداة و المعرفة، و الوسائل المختلفة، فعظم لأجل هذه الوسائل شوقى إلى التشرّف لزيارة ذلك الجناب الذى حلوله شرف و فخر، و معرفته كنز و ذخر، فلمّا ظهر الآن لمحلّ الأخ الكذا القائد فلان اللحاق بك، و التعلّق بسببك، رأيت أنه قد اتّصل بهذا الغرض المؤمل بعضى و اللّه تعالى ييسّر فى البعض، عند تقرير الأمن و هدنة الأرض، و هذا الفاضل بركة حيث حلّ لكونه من بيت أصالة و جهاد، و ما جدا و ابن أمجاد، و مثلك لا يوصى بحسن جواره، و لا ينبّه على إيثاره، و قبيلك فى الحديث- من العرب- و القديم، و هو الذى أوجب لها مزيّة التقديم، لم يفتخر قطّ بذهب يجمع، و لا ذخر يرفع، و لا قصر يبنى، و لا غرس يجنى، إنما فخرها عدوّ يغلب، و ثناء يجلب، و جزر تنحر، و حديث يذكر، وجود على الفاقة، و سماحة بحسب الطاقة، فلقد ذهب الذهب، و فنى النشب، و تمزّقت الأثواب، و هلكت الخيل العراب، و كلّ الذى فوق التراب تراب، و بقيت المحاسن تروى و تنقل، و الأعراض تجلى و تصقل، و للّه درّ الشاعر إذ يقول: [الرجز]

و إنما المرء حديث بعده فكن حديثا حسنا لمن وعى

هذه مقدمة إن يسّر اللّه تعالى بعدها لقاء الأمير، فيجلى اللسان عمّا فى الضمير: [الطويل]

و مدحى على الأملاك مدح، و إنما رأيتك منها فامتدحت على و سمى

و ما كنت بالمهدى لغيرك مدحتى و لو أنه قد حلّ فى مفرق النجم

## [من كلامه يخاطب شيخه أبا عبد اللّه بن مرزوق]

و من ذلك ما خاطب به شيخه الخطيب سيدى أبا عبد اللّه بن مرزوق، و هو: [السريع]

راش زمانى و برى نبله فكنت لى من وقعها جنّه

و لو قهرت الموت أمّنتنى منه و أدخلتنى الجنّه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۰۷

فكيف لا أنشرها منّة قد عرفتها الإنس و الجنّه

«بماذا أخاطب به تلك الجلالة، فيتيسّر الخطاب و تحصل الدّلالة، أبسيدى و يشركنى فيه، من قال لا إله إلّا اللّه بفيه؟ أو بروح حياتى، و ماهية ذاتى، و ذخرى الكبير الكثير، لا بل فلكى الأثير، و هو تضييق على الولد و الأهل، و تعدى المراتب المحدودة من الجهل، فلم يبق إلّا الإشارة الخارجة عن وظائف اللسان، و هى بعض دلالات الإنسان، أفدت الإكسير، و جبرت الكسير، و رويت يا أبا العلا

التيسير، و غمرت بالكرم و أمن حمام الحرم الظعن و المسير، فمن رام شكر بعض أياديك فلقد شدّ حقائب الرحال، إلى نيل المحال، و الحقّ أن نكل جزاك، لمن جعل إلى المجد اعتزاك، و نولى شكرك و ثناك، إلى من عمر بما يرضيه من الرفق بالخلق و إقامة الحقّ إناك، و ندعو منك بالبقاء إلى الروض المجود، و غمام الجود، و إمام الرّكّع السجود، لا بل لنور اللّه تعالى المشرق على التهائم و النّجود، و رحمته المبثوثة أثناء هذا الوجود.

«و ليعلم سيدى أنّ النفس طمّاعة جماعة، و سراب آمالها بحاره لمّاعة، فلا تفيق من كدّ، و لا تقف عند حدّ، سيما إذا لم يهذبها السلوك و التجريد، و لم يسر منها فى عالم الغيب البريد، و لا تجلّت لها السعادة التى يجذب بها المراد و يشمّر لها المريد، إلى أن يتأتّى عمّا دون الحقّ المحيد، و يصحّ التوحيد، و قد مثلت الآن خصما، يوسع ظهر استظهارى بالتسليم قصما، و يقول: المال عديلى عند القيمة، و طبيبى فى الأحوال السقيمة، و هو نتيجة كدّى عند الأقيسة العقيمة، و من استخلصنى على شرفى إذا تفاضلت الجواهر، و تبيّنت للحقّ المظاهر، و تعيّنت المراتب التى يقتعدها على رأى البراهمة النور الأصفهندى و النور القاهر، فخلاص المال طوع يديه، و هو كما قال اللّه تعالى أهون عليه، فألاطفها، حتى تلين معاطفها، و أخادعها، حتى تلوى أخادعها، و أقول: قد وقع الوعد، و أشرق السعد، و لان الجعد، و سكن الرعد، و للّه تعالى الأمر من قبل و من بعد، فتجيبنى: العمر المنام، و أيام الجاه و القدرة قد يحقّ لها الاغتنام، و همّ العاقل إلى وقته الحاضر مصروف، و «إذا لم يغير حائط» مثل معروف،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۰۸

و فى الوقت زبون يرجى به استخلاص الحقوق، و يستبعد وقوع العقوق، فإن رأى مولاى أن يشفع المنّة، و يقرع بابا ثانيا من أبواب الجنّة، قبل أن يشغل شاغل، أو يكدّر الأكل و الشرب واشى أو واغل، أو يثوب للمتعدى نظر فى اللجاج، أو يدسّ له ما يحمله على الاحتجاج- أو متسع مناطها، فسيح استنباطها، كثير هياطها و مياطها - فهو تمام صنيعته التى لم ينسج على منوالها الأحرار، و لا اهتدت إلى حسنتها الأبرار، و لا عرف بدر مجدها السّرار، فإليه كان الفرار، و للّه تعالى ثم له خلص الاضطرار، و يستقرّ تحت دخيله القرار، و تطمئنّ الدار فإنّ ما ابتدأ به من عزّ ضرب على الأيدى العادية منه حكم الحكام، و فارع الهضام و الآكام، على ملإ و مجمع، و بمرأى من الخلق و مسمع، يقتضى اطّراد قياس العزّة القعساء، و سعادة الإصباح و الإمساء، و ظهور درجات الرجال على النساء، فهو جاه حارت فيه الأوهام و هذه أذياله، و من ركب حقيقة أمرها هان عليه خياله، و المال ماله، و العيال عياله، و الوجود سريع زياله، و الجزاء عند اللّه تعالى مكياله، و عروض المغصوب باقية الأعيان، مستقلّة الشجر قائمة البنيان، تمنع عن شرائها قاعدة الأديان، و غيرها من مكيل و موزون، بين مأكول و مخزون، و الكتب ملقاة بالقاع، مطروحة بأخبث البقاع، فإن تأتّى الجبر، و إلّا فالصّبر، على أنّ وعد عمادى لا يفارق الإنجاز، و مكرمته التى طوّقها قد بلغت الشام و الحجاز، و حقيقة التزامه تباين المجاز، و آية مجده تستصحب الإعجاز، و للّه درّ إبراهيم بن المهدى يخاطب المأمون، لما أكذب فى العفو عنه الظنون: [البسيط]

وهبت مالى و لم تبخل علىّ به و قبل ذلك ما إن قد وهبت دمى

«و قد كانت هذه المنقبة غريبة فعززتها بأختها الكبرى، و فريدة فجئت بأخرى، و شفعت وترا، أبقاك اللّه تعالى لتخليد المناقب، و إعلاء المراتب! و جعل أخمص نعلك تاجا للنجم الثاقب! و تكفّل لك فى النفس و الولد بحسن العواقب: [البسيط]

آمين آمين لا أرضى بواحدة حتى أضيف إليها ألف آمينا

«و أمّا تنبيه سيدى على إنشاء رزق، و تقرير رفد و رفق، فلا أنبّه حاتما و كعبا، أن يملا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۰۹

قعبا، لمن خاض بحرا أو ركب صعبا، هذا أمر كفانيه الكافى، و داء لوخز الأشافى، أذهبه الشافى، و السلام»؛ انتهى.

### [من إنشائه ظهير كتابه على لسان سلطانه لأحد الفقهاء و قد ولاه استكشاف أحوال الرعية]

و من إنشاء لسان الدين رحمه اللّه تعالى على لسان السلطان قوله:

«هذا ظهير كريم، متضمّنه استجلاء لأمور الرعيّة و استطلاع، و رعاية كرمت منها أجناس و أنواع، و عدل بهر منه شعاع، و وصايا يجب لها إهطاع، أصدرناه للفقيه فلان لمّا تقرّر لدينا دينه و عدله و فضله، رأينا أنه أحقّ من نقلّده الأمر الأكيد، و نرمى به من أغراض البرّ الغرض البعيد، و نستكشف به أحوال الرعايا حتى لا يغيب عنّا شيء من أحوالها، و لا يتطرّق إليها طارق من أهوالها، و ينهى إلينا الحوادث التى تنشأ فيها إنهاء يتكفّل بحياطة أبشارها و أموالها.

و أمرناه أن يتوجّه إلى جهة كذا حاطها اللّه تعالى فيجمع الناس فى مساجدهم، و يندبهم من مشاهدهم، و يبدأ بتقرير غرضنا فى صلاح أحوالهم، و إحساب أموالهم، و مكابدتنا المشقّة فى مداراة عدوّهم الذى نعلم من أحواله ما غاب عنهم دفعه اللّه تعالى بقدرته، و وقى نفوسهم و حريمهم من معرّته، و لما رأينا من انبتات الأسباب التى تؤمل، و عجز الحيل التى كانت تعمل؛ و يستدعى إنجادهم بالدعاء، و إخلاصهم فيه إلى ربّ السماء، و يسأل عن سيرة القوّاد، و ولاة الأحكام بالبلاد، فمن نالته مظلمة فليرفعها إليه، و يقصّها عليه، ليبلغها إلينا، و يوفدها مقررة الموجبات لدينا، و يختبر ما افترض صدقة للجبل، و ما فضل عن كريم ذلك العمل، ليعيّن إلى بناء الحصن بجبل فارّه يسّر اللّه تعالى لهم فى إتمامه، و جعل صدقتهم تلك مسكة ختامه، و غيره ممّا افترض إعانة للمسافرين، و إنجادا لجهاد الكافرين، فيعلم مقداره، و يتولّى اختباره، حتى لا يجعل منه شيء على ضعيف، و لا يعدل به لمشروف عن شريف، و لا تقع فيه مضايقة ذى الجاه، و لا مخادعة غير المراقب للّه، و متى تحقّق أن غنيّا قصّر به عن حقّه، أو ضعيفا كلف منه فوق طوقه، فيجير الفقير من الغنى، و يجرى من العدل على السّنن السّوى، و يعلم الناس أنّ هذه المعونة و إن كانت بالنسبة إلى محلّ ضرورتها يسيرة، و أنّ اللّه تعالى يضاعفها لهم أضعافا كثيرة، فليست ممّا يلزم، و لا من المعاون التى بتكريرها يجزم،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۱۰

و ينظر فى عهود التوفيق فيصرفها فى مصارفها المتبيّنة، و طرقها الواضحة البيّنة.

«و يتفقّد المساجد تفقّدا يكسو عاريها، و يتمّم منها المآب تتميما يرضى باريها، و يندب الناس إلى تعليم القرآن لصبيانهم، فذلك أصل أديانهم، و يحذرهم المغيب على كلّ شيء من أعشارهم، فالزكاة أخت الصلاة و هما من قواعد الإسلام، و قد اخترنا لهم بأقصى الجدّ و الاعتزام، و رفعنا عنهم رسم التعريف نظرا إليهم بعين الاهتمام، و قدّمنا الثقات لهذه الأحكام، و جعلنا الخوض شرعيّا فى هذا العام، و فيما بعده إن شاء اللّه تعالى من الأعوام.

«و من أهم ما أسندناه إليه، و عوّلنا فيه عليه، البحث بتلك الأحواز عن أهل البدع و الأهواء، و السائرين من السبيل على غير السّواء، و من ينبز بفساد العقد، و تحريف القصد، و التلبّس بالصوفية و هو فى الباطن من أهل الفساد، و الذاهبين إلى الإباحة و تأويل المعاد، و المؤلّفين بين النساء و الرجال، و المتبعين لمذاهب الضلال، فمهما عثر على مطوّق بالتهمة، منبز بشيء من ذلك من هذه الأمة، فليشدّ ثقافه شدّا، و يسدّ عنه سبيل الخلاص سدّا، و يسترع فى شأنه الموجبات، و يستوعب الشهادات، حتى ينظر فى حسم دائه، و يعاجل المرض بدوائه، فليتولّ ما ذكرنا نائبا بأحسن المناب، و يقصد وجه اللّه تعالى راجيا منه جزيل الثواب، و يعمل عمل من لا يخاف فى اللّه لومة لائم ليجد ذلك فى موقف الحساب.

«و على من يقف عليه من القوّاد و الأشياخ و الحكّام أن يكونوا معه يدا واحدة على ما حررنا فى هذه الفصول، من العمل المقبول، و العدل المبذول، و من قصر عن غاية من غاياته، أو خالف مقتضى من مقتضياته، فعقابه عقاب من عصى أمر اللّه و أمرنا فلا يلم إلّا نفسه التى غرّته، و إلى مصرع النكير جرّته، و اللّه تعالى المستعان»؛ انتهى.

### [من إنشائه عند قبر السلطان أبى الحسن المدينى و قد لجأ إلى ولده]

و من ذلك ما خاطب به تربة السلطان الكبير أبى الحسن المرينى لما قصدها عقب ما شرع فى جواره و توسّل إلى أغراضه بذلك إلى

ولده رحم اللّه تعالى الجميع:

«السلام عليك ثم السلام، أيّها المولى الهمام، الذى عرف فضله الإسلام، و أوجبت حقّه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۱۱

العلماء الأعلام، و خفقت بعزّ نصره الأعلام، و تنافست فى إنفاذ أمره و نهيه السيوف و الأقلام.

و السلام عليك أيّها المولى الذى قسم زمانه بين حكم فصل، و إمضاء نصل، و إحراز خصل، و عبادة قامت من اليقين على أصل. السلام عليك يا مقرّر الصدقات الجارية، و مشبع البطون الجائعة و كاسى الظهور العارية، و قادح زناد العزائم الوارية، و مكتّب الكتائب الغازية، فى سبيل اللّه تعالى و السرايا السارية. السلام عليك يا حجّة الصبر و التسليم، و ملتقى أمر اللّه تعالى بالخلق المرضى و القلب السليم، و مفوّض الأمر فى الشدائد إلى السميع العليم، و معمل البنان الطاهر فى اكتتاب الذكر الحكيم. كرّم اللّه تعالى تربتك و قدّسها، و طيّب روحك الزكية و آنسها.

فلقد كنت للدهر جمالا، و للإسلام ثمالا، و للمستجير مجيرا، و للمظلوم وليّا و نصيرا، لقد كنت للمحارب صدرا، و فى المواكب بدرا، و للمواهب بحرا، و على العباد و البلاد ظلّا ظليلا- و سترا؛ لقد فرعت أعلام عزّك الثنايا، و أجزلت همّتك لملوك الأرض الهدايا، كأنك لم تعرض الجنود، و لم تنشر البنود، و لم تبسط العدل المحدود، و لم توجد الجود، و لم تزين الرّكّع السّجود، فتوسّدت الثرى، و أطلت الكرى، و شربت الكأس التى يشربها الورى، و أصبحت ضارع الخدّ، كليل الحدّ، سالكا سنن الأب و الجدّ، لم تجد بعد انصرام أجلك، إلّا صالح عملك، و لا أصبحت لقبرك، إلّا رابح تجرك، و ما أسلفت من رضاك و صبرك، فنسأل اللّه تعالى أن يؤنس اغترابك، و يجود بسحاب الرحمة ترابك! و ينفعك بصدق اليقين! و يجعلك من الأئمة المتقين! و يعلى درجتك فى علّيين! و يجعلك مع الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين و الصّدّيقين.

وليهنك أن صيّر اللّه تعالى ملكك من بعدك، إلى نير سعدك، و بارق رعدك، و منجز وعدك، أرضى ولدك، و ريحانة خلدك، و شقّة نفسك، و السّرحة المباركة من غرسك، و نور شمسك، و موصل عملك البرّ إلى رمسك، فقد ظهر عليه أثر دعواتك، فى خلواتك و أعقاب صلواتك، فكلمتك و المنّة للّه تعالى باقية، و حسنتك إلى محلّ القبول راقية، يرعى بك الوسيلة، و يتمّم مقاصدك الجميلة، أعانه اللّه تعالى ببركة رضاك على ما قلّده، و عمر بتقواه يومه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۱۲

و غده، و أبعد فى السعد أمده، و أطلق بالخير يده، و جعل الملائكة أنصاره و الأفدار عدده.

«و إننى أيّها المولى الكريم، البرّ الرحيم، لما اشترانى، و راشنى و برانى، و تعبدنى بإحسانه، و استعمل فى استخلاصى خطّ بنانه، و وصيّة لسانه، لم أجد مكافأة إلّا التقرّب إليك و إليه برثائك، و إغراء لسانى بتخليد عليائك، و تعفير الوجنة فى حرمك، و الإشادة بعد الممات بمجدك و كرمك، ففتحت الباب فى هذا الغرض، إلى القيام بحقّك المفترض، الذى لولاه لانّصلت الغفلة عن أدائه و تمادت، فما يبست الألسن و لا كادت، متحيّزا بالسبق، إلى أداء هذا الحقّ، بادئا بزيارة قبرك الذى هو رحلة الغرب ما نويته من رحلة الشرق، و ما أعرضت عنه فأقطعه أثر مواقع الاستحسان، و قد جمع بين الشكر و التنويه و الإحسان، و اللّه سبحانه يجعله عملا مقبولا، و يبلغ فيه من القبول مأمولا، و يتغمّد من ضاجعته من سلفك الكرام بالمغفرة الصّيّبة، و التحيّات الطيّبة، فنعم الملوك الكبار، و الخلفاء الأبرار، و الأئمة الأخيار، الذين كرمت منهم السّير و حسنت الأخبار، و سعد بعزماتهم الجهادية المؤمنون و شقى الكفّار، و صلوات اللّه تعالى عودا و بدءا على الرسول الذى اصطفاه و اختاره فهو المصطفى المختار، و على آله و أصحابه الذين هم السادة الأبرار، و سلّم تسليما»؛ انتهى.

### [من إنشائه يخاطب الوزير المتغلب على بلاد المغرب]

و قال لسان الدين رحمه اللّه تعالى: و ممّا خاطبت به الوزير المتغلّب على الملك بالمغرب ما نصّه: [السريع]

لا ترج إلّا اللّه فى شدّة وثق به فهو الذى أيّدك

حاشاك أن ترجو إلا الذى فى ظلمة الأحشاء قد أوجدك

فاشكره بالرحمة فى خلقه و وجهك ابسط بالرضا أو يدك

و اللّه لا تهمل ألطافه قلادة الحقّ الذى قلّدك

ما أسعد الملك الذى سسته يا عمر العدل، و ما أسعدك!

«نخصّ الوزير الذى بهر سعده، و حمد فى المضاء قصده، و عوّل على الشّيم التى اقتضاها مجده، و أورثه إيّاها أبوه و جدّه، الوزير عمر الكذا ابن الشيخ الكذا، أبقاه اللّه تعالى ثابت القدم، خافق العلم، شهيرا حديث سعده فى الأمم، مثلا خبر بسالته و جلالته فى العرب و العجم.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۱۳

«تحية معظّم مجده الكبير، المستند إلى عهده الوثيق و حسبه الشهير؛ المسرور بما سنّاه اللّه تعالى له من نجح التدبير، و النصر العديم النظير، و إنجاده إيّاه عند إسلام النصير، و فراق القبيل و العشير، ابن الخطيب، و اليد ممدودة إلى اللّه تعالى فى صلة سعد الوزير- أبقاه اللّه تعالى!- و دوام عصمته، و اللسان يطنب و يسهب فى شكر نعمته، و الأمل متعلّق بأسبابه الكريمة و أذمّته، و قد كان شيّعه مع الشفقة التى أذابت الفؤاد، و ألزمت الأرق و السهاد، على علم بأنّ عناية اللّه تعالى عليه عاكفة، وديم آلائه لديه واكفة، فإن الذى أقدره و أيّده و نصره، و أنفذت مشيئته ما دبّره، كفيل بإمداده، و ملىّ بإسعاده، و مرجو لإصلاح دنياه و معاده، و فى أثناء هذه الأراجيف استولى على معظّم وزارته الجزع، و تعاورته الأفكار تأخذ و تدع، فإنى كما يعلم الوزير أعزّه اللّه تعالى منقطع الأسباب، مستوحش من الجهة الأندلسية على بعد الجناب، و مستعدى علىّ بكونى من المعدودين فيمن له من الخلصاء و الأحباب، فشرعت فى نظر أحصل منه على زوال اللّبس، و أمان النفس، و اللحاق بمأمن يرعانى برعى الوزير، بخلال ما يدبّر الأمر من له التدبير، ففى أثنائه، و تمهيد أساس بنائه، ورد البشير بما سنّاه اللّه تعالى لسيدى و جابر كسرى، و منصفى بفضل اللّه تعالى من دهرى، من الصنع الذى ظهر، و راق نوره و بهر، فأمنت و إن لم أكن ممّن جنى، و حفتنى المسرّات بين فرادى و ثنى، و انشرح بفضل اللّه تعالى صدرى، و زارتنى النعم و التهانى من حيث أدرى و لا أدرى، و وجهت الولد الذى شملته نعمة الوزير و إحسانه، و سبق إليه امتنانه، نائبا عنى فى تقبيل يده، و شكر يده، و الوقوف ببابه، و التمسّك بأسبابه، آثرته بذلك لأمور: منها المزاولة فيما كان يلزمنى من إخوته الأصاغر، و تدريبه على خدمة الجلال الباهر، و إفرادى له بالبركة، و لعائق ضعف عن الحركة، و بعد ذلك أشرع بفضل اللّه تعالى فى العمل على تجديد العهد بباب الوزارة العليّة، عارضا من ثنائها ما يكون وفق الأمنية، و ربّ عمل أغنى عنه فضل نيّة، و السلام الكريم على سيدى و رحمة اللّه تعالى و بركاته».

### [من إنشائه أيضا إلى وزير المغرب على أثر الفتح الذى تكيف له]

قال: و كتبت إليه أيضا على أثر الفتح الذى تكيف له:

«سيدى الذى أسرّ بسعادته، و ظهور عناية اللّه تعالى به فى إبدائه و إعادته، و أعلم كرم مجادته، و أعترف بسيادته، الوزير الميمون الطائر، الجارى حديث سعده و مضائه مجرى المثل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۱۴

السائر، أبقاه اللّه تعالى عزيز الأنصار! جارية بيمن نقيبته حركة الفلك الدوّار، معصوما من المكاره بعصمة الواحد القهّار، معظّم سيادته الرفيعة الجانب، و موقّر وزارته الشهيرة المناسب، الداعى إلى اللّه تعالى بطول بقائه فى عزّ واضح المذاهب، و صنع و اكف السحائب،

ابن الخطيب، عن الذى يعلم سيدى من لسان طلق بالثناء، و يد ممدودة إلى اللّه تعالى بالدعاء، و التماس لما يعدّ من جزيل النعماء، و الفتح الذى تفتح له أبواب السماء، و قد اتّصل ما سنّاه اللّه تعالى له من النصر و الظهور، و الصنع البادى السفور، لمّا التقى الجمعان، و تهوّدت أكؤس الطّعان، و تبين الشجاع من الجبان، و ظهر من كرّات سيدى و بسالته ما تحدّث به ألسنة الركبان، حتى كانت الطائلة لحزبه، و ظهرت عليه عناية ربّه، فقلت: الحمد للّه الذى جعل سعد عمادى متّصل الآيات، واضح الغرر و الشّيات. و قد كنت بعثت أهنّئه بما قدم من صنع جميل، و بلوغ تأميل، فقلت: اللهمّ أفد علينا التهانى تترى، و اجعل الكبرى من نعمتك السالفة بنعمتك الرادفة الخالفة هى الصغرى، و اجمع له بين نعم الدنيا و الأخرى، و الناس- أبقى اللّه تعالى سيدى!- لهم مع الاستناد إليك جهات، و أمور مشتبهات، إلّا المحب المتشيّع فجهتك هى التى آنست الغربة، و فرّجت الكربة، و وعدت بالخير، و ضمنت عاقبة الضير، و أنا أرتقب ورود التعريف المولوى على عبيده بهذه المدينة واصل اللّه تعالى لمباشرتها الهناء! و قرت العين بمشاهدة الآلاء! و اللّه عزّ و جلّ يديم سعادة سيدى و يطيل بقاءه! و يرادف قبله نعمه و آلاءه، بفضله»؛ انتهى.

### [من إنشائه إلى وزير المغرب بسلا]

و قال: و ممّا خاطبت به المذكور و أنا ساكن بسلا: [الطويل]

أيا عمر العدل الذى مطل المدى بوعد الهدى حتى وفيت بدينه

و يا صارم الملك الذى يستعدّه لدفع عداه أو لمجلس زينه

هنت عينك اليقظى من اللّه عصمة كفت وجه دين اللّه موقع شينه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١١٥

و هل أنت إلّا الملك و الدين و الدّنا و لا يلبس الحقّ المبين بمينه

إذا نال منك العين ضرّ فإنما أصيب به الإسلام فى عين عينه

«الوزير الذى هو للدين الوزر الواقى، و العلم السامى المراقب و المراقى، و الحلى المقلّد فوق الترائب و التراقى، و الكنز المؤمّل و الذخر الباقى، حجب اللّه تعالى العيون عن عين كمالك! و صيّر الفلك الدوّار مطيّة آمالك! و جعل اتّفاق اليمن مقرونا بيمينك، و انتظام الشمل معقودا بشمالك!.

«اعلم أنّ مطلق لسان الثناء على مجدك، و المستضىء على البعد بنور سعدك، و معقود الرجاء بعروة وعدك، لا يزال فى كلّ ساعة يسحب الفلك فيه ذيلها، و يعاقب يومها و ليلها، مصغى الأذن إلى نبإ يهدى عنك للّه تعالى دفاعا، أو يمدّ فى ميدان سعدك باعا، و أنت اليوم النصير على الدهر الظلوم، و آسى الكلوم، و ذو المقام المعلوم، فتعرفت أنّ بعض ما يتلاعب به بين أيدى السادة الخدام، و تتفكّه به المثاقفة و الأقدام، من كرة مرسلة الشهاب، أو نارنجة ظهر عليها من اسمها صبغة الالتهاب، حوّمت حول عينك لا كدّر صفاؤها، و لا هدم فوق مهاد الدعة و الأمن إغفاؤها، فرعت حول حماها، و رامت أن تصيب فخيب اللّه تعالى مرماها: [الطويل]

نرى السوء ممّا نتقى فنهابه و ما لا نرى ممّا يقى اللّه أكثر

«فقلت: مكروه أخطأ سهمه، و تنبيه من اللّه تعالى لمن نبل عقله و فهمه، و دفاع قام دليله، و سعد أشرق جليله، و أيام أعربت عن إقبالها، و عصمة غطت بسربالها، و جوارح جعل اللّه تعالى الملائكة تحرسها، فلا تغتالها الحوادث و لا تفترسها، و الفطن يشعر بالشىء و إن جهل أسبابه، و الصوفى يسمع من الكون جوابه، فبادرت أهنّئه تهنئة من يرى تلك الجوارح الكريمة أعزّ عليه من جوارحه، و يرسل طير الشكر للّه تعالى فى مساقط اللطف الخفى و مسارحه، و سألته سبحانه أن يجعلك عن النوائب حجرا لا يقرب، و ربعك ربعا لا يخرب، ما سبح الحوت و دبّ العقرب، ثم إننى شفعت الهناء و وترته، و أظهرت السرور فما سترته، بما سنّاه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١١٦

لتدبيرك من مسالمة تكذّب الإرجاف، و تغنى عن الإيجاف، و تخصب للإبل العجاف، و تريح من كيد، و تفرغ إلى مجادلة عمرو و زيد، و كأنى بسعدك قد سدل الأمان، و عدل الزمان، و أصلح الفاسد، و نفق الكاسد، و قهر الروع المستأسد، و سرّ الحبيب و ساء الحاسد، و السلام»؛ انتهى.

### [من إنشائه معزيا الرئيس عامر بن محمد الهنتانى]

و من إنشاء لسان الدين رحمه اللّه تعالى ما خاطب به الرئيس عامر بن محمد بن على الهنتانى معزّيا له عن أخيه عبد العزيز: [الطويل]

أبا ثابت، كن فى الشدائد ثابتا أعيذك أن يلفى حسودك شامتا

عزاؤك عن عبد العزيز هو الذى يليق بعزّ منك أعجز ناعتا

فدوحتك الغنّاء طالت ذوائبا و سرحتك الشّمّاء طابت منابتا

لقد هدّ أركان الوجود مصابه و أنطق منه الشجو من كان صامتا

فمن نفس حرّ أوثق الحزن كظمها و من نفس بالوجد أصبح خافتا

هو الموت للإنسان فصل لحدّه و كيف ترجّى أن تصاحب مائتا

و للصبر أولى أن يكون رجوعنا إذا لم نكن بالحزن نرجع فائتا

«اتّصل بى أيها الهمام، و بدر المجد الذى لا يفارقه التّمام، ما جنته على علیائك الأيام، و اقتنصه محلّق الردى بعد أن طال الخيام، و ما استأثر به الحمام، فلم يغن الدفاع و لا نفع الذّمام، من وفاة صنوك الكريم الصفات، و هلاك وسطى الأسلاك، و بدر الأحلاك، و مجير الأملاك، و ذهاب السّمح الوهّاب، و أنا لديغ صلّ الفراق، الذى لا يفيق بألف راق، و جريح سهم البين، و مجارى العيون الجارية بدمع العين، لفقد أنيس سهّل علىّ مضض النكبة، و نحّى ليث الخطب عن فريستى بعد صدق الوثبة، و آنسنى فى الاغتراب، و صحبنى إلى منقطع التراب، و كفل أصاغرى خير الكفالة، و عاملنى من حسن العشرة بما سجّل عقد الوكالة، انتزعه الدهر من يدى حيث لا أهل و لا وطن، و الاغتراب قد ألقى بعطن، و ذات اليد يعلم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١١٧

حالها من يعلم ما ظهر و ما بطن، و رأيت من تطارح الأصاغر على شلو الغريب، النازح عن النسيب و القريب، ما حملنى على أن جعلت البيت له ضريحا، و مدفنا صريحا، لأخدع من يرى أنه لم يزل مقيما لديه، و أنّ ظلّ شفقته منسحب عليه، فأعيا مصابى عند ذلك الفرح، و أعظم الظمأ البرح، و نكأ القرح القرح، إذ كان ركنا قد بنته لى يد معرفتك، و متّصفا فى البرّ بى و الرعى لصاغيتى بكريم صفتك، فوالهفا عليه من حسام، و عزّ سام، و أياد جسام، و شهرة بين بنى حام و سام، أىّ جمال خلق، و وجه للقاصد طلق، و شيم تطمح للمعالى بحق؟ و أىّ عضد لك يا سيدى لا يهن إذا سطا، و لا يقهر إذا خطا، يوجب لك على تحليه بالشيمة، ما توجبه البنوّة من الهيبة، و يرد ضيفك آمنا من الخيبة، و يسدّ ثغرك عند الغيبة، ذهبت إلى الجزع فرأيت مصابه أكبر، و دعوت بالصبر فولّى و أدبر، و استنجدت الدمع فنضب، و استصرخت الرجاء فأنكر ما روى و اقتضب، و بأى حزن يلقى عبد العزيز و قد جلّ فقده، أو يطفأ لاعجه و قد عظم وقده، اللهمّ لو بكى بندى أياديه، أو بغمائم غواديه، أو بعباب واديه، و هى الأيام أى شامخ لم تهدّه، أو جديد لم تبله و إن طالت المدة؟ فرّقت بين التيجان و المفارق، و الخدود و النمارق، و الطّلى و العقود، و الكأس و ابنة العنقود، فما التعلّل بالفان، و إنما هى إغفاءة أجفان، و التشبّث بالحبائل، و إنما هو ظلّ زائل؟ و الصبر على المصائب، و وقوع سهمها الصائب، أولى ما اعتمد طلابا، و رجع إليه طوعا أو غلابا، فأنا يا سيدى أقيم رسم التعزية، و إن بوّئت بمضاعف المرزية، و لا عتب على القدر، فى الورد من الأمر و الصّدر، و لو لا أن هذا الواقع ممّا لا يجدى فيه الخلصان، و لا يغنى فيه اليراع و لا الخرصان، لأبلى جده من اقترضتموه معروفا، و كان بالتشيّع إلى تلك الهضبة معروفا، و كان بالتشيع إلى تلك الهضبة معروفا، لكنها سوق لا ينفق فيها إلّا سلعة التسليم،

للحكيم العليم، وطىّ الجوانح على المضض الأليم، و لعمرى لقد خلّدت لهذا الفقيد و إن طمس الحمام محاسنه الوضّاحة، لمّا كبس منه الساحة، صحفا منشّرة، و ثغورا بالحمد مؤشّرة، يفخر بها بنوه، و يستكثر بها مكتسبو الحمد و مقتنوه، و أنتم عماد البازة، و علم المفازة، و قطب المدار، و عامر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۱۸

الدار، و أسد الأجمة، و بطل الكتيبة الملجمة، و كافل البيت، و الستر على الحىّ و الميت، و مثلك لا يهدى إلى نهج لاحب، و لا ترشده نار الحباحب، و لا ينبّه على سنن نبىّ كريم أو صاحب، قدرك أعلى، و فضلك أجلى، و أنت صدر الزمان بلا مدافع، و خير معل و علام الفضل و رافع، و أنا و إن أخّرت فرض بيعتك لما خصّ نى من المصاب، و نالنى من الأوصاب، و نزل بى من جور الزمان الغصّاب، ممّن يقبل عذره الكرم، و يسعه الحرم المحترم، و اللّه سبحانه الكفيل لسيدى و عمادى ببقاء يكفل به الأبناء و أبناء الأبناء، و يعلى لقومه رتب العزّ سامية البناء، حتى لا يوحش مكان فقيد مع وجوده، و لا يحسّ بعضّ زمان مع جوده، و يقرّ عينه فى ولده و ولد ولده، و يجعل أيدى مناويه تحت يده»؛ و السلام.

### [من إنشائه يخاطب الرئيس عامر بن محمد الهنتانى]

و خاطبه لسان الدين أيضا بما نصّه:

«سيدى الذى هو رجل المغرب كلّه، و المجمع على طهارة بيته و زكاء أصله، علم أهل المجد و الدين، و بقية كبار الموحّدين.

بعد السلام الذى لتلك الجلالة الراسخة القواعد، السامية المصاعد، و الدعاء للّه أن يفتح لك فى مضيقات هذه الأحوال مسالك التوفيق، و يمسككك من عصمته بالسبب الوثيق، أعرّفك أنّ جبلك اليوم و قد عظم الرّجفان، و فاض التنور و طغى الطوفان، تؤمل النفوس الغرقى جودىّ جوده، و تغتبط غاية الاغتباط بوجوده. و و اللّه لو لا العلائق التى يجب لها الالتزام، ما وقع على غير قصدك الاعتزام، و اللّه تعالى يمدّك بإعانته على تحمّل القصّاد، و يبقى محلّك رفيع العماد كثير الرماد، و يجعل أبا يحيى خلفا منك بعد عمر النهاية البعيد الآماد، و يبقى كلمة التوحيد فيكم إلى يوم التناد. و حامله القائد الكذا معروف النباهة و الجهاد، و محلّه لا ينكر فى الفؤاد، لما استبهمت السبل، و التبس القول و العمل، لم يجد أنجى من الركون إلى جنابك، و التمسّك بأسبابك، و الانتظام فى جملة خواصّك و أحبابك، حتى ينبلج الصبح،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۱۹

و يظهر النّجح، و يعظم المنح، و يكون بعد هجرته الفتح، و مثلكم من قصد و أمّل، و أنضى إليه المطا و أعمل، و أمّا الذى عندى من القيام بحقّ تلك الذات الشريفة، و القول بمناقبها المنيفة، فهو شىء لا تفى به العبارة، و لا تؤدّيه الألفاظ المستعارة، و اللّه تعالى المسؤول فى صلة عزّ سيدى و دوام سعده، و السلام عليكم و رحمة اللّه تعالى و بركاته»؛ انتهى.

### [من إنشائه يخاطب شيخ الدولة و قد أبل من مرضه]

و قال لسان الدين رحمه اللّه تعالى: و ممّا خاطبت به شيخ الدولة- و قد استقلّ من مرض- ما نصّه: [البسيط]

لا أعدم اللّه دار الملك منك سنا يجلى به الحالكان الظّلم و الظّلم

و أنشدتك الليالى و هى صادقة «المجد عوفى إذ عوفيت و الكرم»

«من علم- أعلى اللّه تعالى قدرك!- أنّ المجد جواد حلاك شياته، لا بل الملك بدر أنت آياته، لا بل الإسلام جسم أنت حياته، دعا منك بالبقاء لمجد يروق بك جبينه، و ملك تنيره و تزينه، و لدين تعامل اللّه تعالى بإعزازه و تدينه، فلقد ألمت نفوس المؤمنين لآلامك، و وجم الإسلام لتوقّع إسلامك، و تأخرت الأعلام لتأخّر أطرافك بمصالح الملك و أعلامك، فإنما أنامل الدين و الدنيا

متشبّثة بأذيال أيامك، و رحال الأمل مخيّمة بين حلالك و خيامك، فإذا قابلت الأشراف نعم اللّه تعالى بشكر، و رمت الغفلة عن ذلك بنكر، فاشكره جلّ و علا بملء لسانك و جنانك، و اجر فى ميدان حمده مطلقا من عنانك، على ما طوّقك من استرقاق حرّ، و إفاضة أياد غرّ، و اقتناء عسجد من الحمد و درّ، و إتاحة نفع و دفع ضرّ، و إدالة حلو من مرّ، و كن على ثقة من مدافعة اللّه تعالى عن حماك، و عزّ تبلغ ذوائبه السّماك، و رزق يجرّه فأل منتماك، و دونك مجلس الإمامة فقد تدبيره بزمامك، و حظوة الخلافة فاستحقّها بوسائلك القديمة و ذمامك، و محاسن الدولة فاجلها على منصّة إمامك، و رسوم البرّ فأغر بها عين اهتمامك، و ذروة المنبر فأمض بها ظبة حسامك، و أجز الآملين زهر الأيادى البيض من كمائم أكمامك، فيا عزّ دولة بك- يا جملة الكمال- قد استظهرت، و أذلّت المعاند و قهرت، و بأعمال آرائك اشتهرت، فراقت فضائلها و بهرت: جزالة كما شقّ الجوّ جارح، و لطافة كما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٢٠

طارح بفن التأليف مطارح، و فكر فى الغيب سارح، و دين لغوامض الحلم و العدل شارح، و مكارم محت آثار الكرماء و نسخت، و حلّت عقود أخبار الأجواد فى الأعصار و فسخت، فلم تدع لفضل الفضل ذكرا، و تركت معروف يحيى بن خالد نكرا، لا بل لم يبق لكعب، من علو كعب، و أنست دعوة حاتم، بأىّ ماح و خاتم، فصارت سبى جوار، و منع جوار، و عقر ناب، عند اقشعرار جناب، و أين يقع من كبر قدر ترفّع عن الكبر، وجود خضب الأيدى بحنّاء التبر، و عزّ استخدم الأسل الطّوال بيراع أقلّ من الشبر، و حقن الدماء المراقة بإراقة نجيع الحبر، و فكّ العقال، و رفع النّوب الثقال، وراعى الذرّة و المثقال، و عثر الزمان فأفال، و وجد لسان الصدق فقال:

«أقسم ببارئ النّسم، و هو أبرّ القسم، ما فازت بمثلك الدول، و لا ظفرت بمثلك الملوك الأواخر و الأول، و لو تقدّمت لم يضرب إلّا بك المثل، و لم يقع إلّا على سنّتك و كتابك و الإجماع المنعقد على آدابك العمل، و المملوك لمّا شام مالكه برق العافية، و تدرّع بالألطاف الخافية، كتب مبشّرا بالهناء، و مذيعا ما يجب من الحمد و الثناء، و شاكرا ماله بوجوده من الاعتناء، فقد بادر ركن الدين بالبناء، و أبقى الستر و المنّة على الآباء و الأبناء، فنسأل اللّه تعالى أن يمتّع منك بأثير الملوك، و وسطى السلوك، و سلالة أرباب المقامات و السلوك، و يبقيك و حصّة الصحّة وافرة، و غرّة العزّة القعساء سافرة، و غادة عادة السعادة غير نافرة، و كتيبة الأمل فى مقامك السعيد غانمة ظافرة، ما زحفت للصباح شهب المواكب، و تفتّحت بشطّ نهر المجرّة أزهار الكواكب، و السلام»؛ انتهى.

### [من إنشائه يخاطب شيخه ابن مرزوق جوابا عن كتاب منه]

و من ذلك ما خاطب به سيدى أبا عبد اللّه بن مرزوق، جوابا عن كتابه، و قد استقرّ خطيب السلطان بتونس: [الوافر]

و لمّا أن نأت منكم ديار و حال البعد بينكم و بينى

بعثت لكم سوادا فى بياض لأنظركم بشىء مثل عينى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٢١

«بم أفاتحك يا سيدى، و أجلّ عددى؟ كيف أهدى سلاما، فلا أحذر ملاما؟ أو أنتخب لك كلاما، فلا أجد لتبعة التقصير فى حقّك الكبير إيلاما؟ إن قلت: تحيّة كسرى فى الثناء و تبّع، فكلمة فى مربع العجمة تربع، و لها المصيف فيه و المربع، و الجميم و المنبع، فتروى متى شاءت و تشبع، و إن قلت: إذا العارض خطر، و مهما همى أو قطر، سلام اللّه يا مطر، فهو فى الشريعة بطر، و ركبه خطر، و لا يرعى به وطن و لا يقضى به وطر، و إنما العرق الأوشج، و لا يستوى البان و البنفسج، و العوسج و العرفج: [الطويل]

سلام و تسليم و روح و رحمة عليك و ممدود من الظّلّ سجسج

«و ما كان فضلك ليمنعنى الكفران أن أشكره، و لا لينسبنى الشيطان أن أذكره، فأتخذ فى البحر سبيا. أو أسلك غير الوفاء مذهبا، تأبى ذلك- و المنّة للّه تعالى- طباع، لها فى مجال الرّعى باع، و تحقيق و إشباع، و سوائم من الإنصاف، ترعى فى رياض الاعتراف، فلا يطرقها ارتياع، و لا تخيفها سباع، و كيف نجحد تلك الحقوق و هى شمس ظهيره، و أذان عقيرة جهيرة، فوق مئذنة شهيرة، آدت

الأكتاد لها ديون تستغرق الذمم، و تسترقّ حتى الرمم، فإن قضيت فى الحياة فهى الخطّة التى نرتضيها، و لا نقنع من عامل الدهر المساعد إلّا أن ينفذ مراسمها و يمضيها، و إن قطع الأجل فالغنىّ الحميد- من خزائنه التى لا تبيد- يقضيها، و يرضى من يقتضيها. و حيّا اللّه تعالى أيها العلم السامى الجلال، زمنا بمعرفتك المبرّة على الآمال. برّ و أتحف، و إن أساء بفراقك و أجحف، و أعرى بعد ما ألحف، و أظفر باليتيمة المذخورة للشدائد و المزائن، ثم أوحش منها أصونة هذه الخزائن، فآب حنين الأمل بخفيه، و أصبح المغرب غريبا يقلّب كفّيه، و نستغفر اللّه تعالى من هذه الغفلات، و نستهديه دليلا فى مثل هذه الفلوات، و أى ذنب فى الفراق للزمن، أو لعراب الدّمن، أو للرواحل المدلجة ما بين الشام إلى اليمن، و ما منها إلّا عبد مقهور، و فى رمة القدر مبهور، عقد و الحمد للّه مشهور، و حجّة لها على النفس

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۲۲

اللّوّامة ظهور، جعلنا اللّه تعالى ممّن ذكر المسبب فى الأسباب! و تذكّر وَ ما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ [سورة البقرة، الآية: ۲۶۹] قبل غلق الرّهن و سدّ الباب، و بالجملة فالفراق ذاتىّ، و وعده مأتىّ، فإن لم يكن فكأن قد، ما أقرب اليوم من الغد، و المرء فى الوجود غريب، و كل آت قريب، و ما من مقام إلّا لزيال، من غير احتيال، و الأعمار مراحل و الأيام أميال: [الوافر]

نصيبك فى حياتك من حبيب نصيبك فى منامك من خيال

جعل اللّه تعالى الأدب مع الحقّ شأننا! و أبعد عنّا الفراق الذى شاننا! و إنى لأسر لسيدى بأن رعى اللّه تعالى صالح سلفه، و تداركه بالتلاقى فى تلفه، و خلّص سعادته من كلفه، و أحلّه من الأمن فى كنفه، و على قدرها تصاب العلياء، و أشدّ الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء.

هذا، و الخير و الشّرّ فى هذه الدار، المؤسّسة على الأكدار، ظلّان مضمحلّان، فقد ارتفع، ما ضرّ أو نفع، و فارق المكان، فكأنه ما كان، و من كلمات الملوك، البعيدة عن الشكوك، إلى أن يشاء ملك الملوك: [مجزوء الكامل]

خذ من زمانك ما تيسّر و اترك بجهدك ما تعسّر

و لربّ مجمل حالة ترضى به ما لم يفسّر

و الدهر ليس بدائم لا بدّ أن سيسوء إن سرّ

و اكتم حديثك جاهدا شمت المحدّث أو تحسّر

و الناس آنية الزجا ج إذا عثرت به تكسر

لا تعدم التّقوى فمن عدم التّقى فى الناس أعسر

و إذا امرؤ خسر الإل ه فليس خلق منه أخسر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۸؛ ص۱۲۲

إنّ للّه تعالى فى رعيك لسرّا، و لطفا مستمرّا مستقرّا، إذ ألقاك اليمّ إلى الساحل، فأخذ بيدك من ورطة الواحل، و حرّك منك عزيمة الراحل، إلى الملك الحلاحل، فأدالك من إبراهيمك سميّا، و عرفك بعد الولىّ و سميّا، و نقلك من عناية إلى عناية، و هو الذى يقول و قوله الحقّ ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ [سورة البقرة، الآية: ۱۰۶].

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۲۳

«و قد وصل كتاب سيدى يحمد- و للّه الحمد- العواقب، و يصف المراقى التى حلّها و المراقب، و ينشر المفاخر الحفصيّة و المناقب، و يذكر ما هيّأه اللّه تعالى لديها من إقبال، و رخاء بال، خصّيصى اشتمال، و نشوة آمال، و أنه اغتبط و ارتبط، و ألقى العصا بعد ما خبط، و مثل تلك الخلافة العليّة من تزن الذوات، المخصوصة من اللّه تعالى بتشريف الأدوات، بميزان تمييزها، و تفرق بين شبه المعادن و إبريزها، «و شبه الشىء» مثل معروف، و لقد أخطأ من قال: الناس ظروف، إنما هم شجرات مربع فى بقعة ماحلة، و إبل مائة

لا تجد فيها راحلة، و ما هو إلّا اتفاق، و نجح للملك و إحقاق، و قلّما كذب إجماع و إصفاق، و الجليس الصالح لربّ سياسة أمل مطلوب، و حظّ إليه مجلوب، و إن سئل أطرف، و عمر الوقت ببضاعة أشرف، و سرق الطباع، و مدّ فى الحسنات الباع، و سلّى فى الخطوب، و أضحك فى اليوم القطوب، و هدى إلى أقوم الطرق، و أعان على نوائب الحقّ، و زرع له المودّة فى قلوب الخلق، زاد اللّه تعالى سيدى لديها قربا أثيرا، و جعل فيه للجميع خيرا كثيرا، بفضله و كرمه.

«و لعلمى بأنه- أبقاه اللّه تعالى!- يقبل نصحى، و لا يرتاب فى صدق صبحى، أغبطه بمثواه، و أنشده ما حضر من البديهة فى مسارة هداه و نجواه: [الكامل]

بمقام إبراهيم عذ و اصرف به فكرا تؤرّق عن بواعث تنبرى

فجواره حرم و أنت حمامة ورقاء و الأغصان عود المنبر

فلقد أمنت من الزمان و ريبه و هو المروّع للمسيء و للبرى

«و إن تشوّف سيدى فلعمر وليّه لو كان المطلوب دنيا لوجب وقوع الاجتزاء، و لاغتبط بما تحصّل فى هذه الجزور، المبيعة فى حانوت الزور، من السهام الوافرة الأجزاء، فالسلطان- رعاه اللّه تعالى!- يوجب ما فوق مزية التعليم، و الولد- هداهم اللّه تعالى!- قد أخذوا بحظّ قلّ أن ينالوه بغير هذا الإقليم، و الخاصّة و العامّة تعامل بحسب ما بلته من نصح سليم، و ترك لما بالأيدى و تسليم، و تدبير عاد على عدوّها بالعذاب الأليم، إلّا من أبدى السلامة و هو من إبطان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۲۴

الحسد بحال السليم، و لا ينكر ذلك فى الحديث و لا فى القديم، و لكن النفس منصرفة عن هذا الغرض، نافضة يدها من العرض، قد فوّتت الحاصل، و وصلت فى اللّه تعالى القاطع و قطعت الواصل، و صدقت لما نصح الفود الناصل، و تأهّبت للقاء الحمام الواصل، و قلت:

[المنسرح]

انظر خضاب الشباب قد نصلا و زائر الأنس بعده انفصلا

و مطلبى و الذى كلفت به حاولت تحصيله فما حصلا

لا أمل مسعف و لا عمل و نحن فى ذا و الموت قد وصلا

و الوقت إلى الإمداد منكم بالدعاء فى الأصائل و الأسحار، إلى مقيل العثار، شديد الافتقار، و اللّه عزّ و جلّ يصل لسيدى رعى جوانبه، و يتولّى تيسير آماله من فضله العميم و مآربه، و أقرأ عليه من التحيّات، المحملة من فوق رحال الأريحيات، أزكاها، ما أوجع البرق الغمائم فأبكاها، و حسد الروض جمال النجوم الزواهر فقاسها بمباسم الأزهار و حكاها، و اضطبر هرم الليل عند الميل عصا الجوزاء و توكّاها، و رحمة اللّه تعالى و بركاته»؛ انتهى.

و ممّا خاطب به لسان الدين- رحمه اللّه تعالى!- ابن مرزوق المذكور قوله:

«سيدى، و عمادى، كشف قناع النصيحة من وظائف صديق، أو خديم لصيق، و أنا بكلتا الجهتين حقيق، و يتلجلج فى صدرى كلام أنا إلى نفثه ذو احتياج، و لو فى سبيل هياج، و خرق سياج، و خوض دياج، و قد أصبحت سعادتى عن أصل سعادتك فرعا، فوجب النصح طبعا و شرعا، فليعلم سيدى أنّ الجاه ورطة، و الاستغراق فى تيار الدول غلطة، و بمقدار العلو- إلّا أن يقى اللّه تعالى- تكون السقطة، و أنه- و اللّه تعالى يعصمه من الحوادث، و يقيه من الخطوب الكوارث!- و إن تبعه الجمع فهو مفرد، و بسهام الحسدة مقصد، و أنّ الذى يقبّل يده، يضمر حسده، و ما من يوم إلّا و العلل تستشرى، و الحيل تريش و تبرى، و سموم المكايد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۲۵

تسرى، و العين الساهرة تطرق العين النائمة من حيث تدرى و لا تدرى، و هذا الباب الكريم مخصوص بالزيارة و البركة، و خصوصا

فى مثل هذه الحركة، فثمّ ظواهر تخالف السرائر، وحيل تصيب فى الجوّ الطائر، و ما عسى أن يتحفّظ المحسود، و قد عوت الكلاب و زأرت الأسود، و إن ظنّ سيدى أنّ الخطّة الدينية تذبّ عن نفسها، أو تنفع مع غير جنسها، فذلك قياس غير صحيح، و هبوب ريح، و إنما هى درجة فوق الوزارة و الحجابة، و دهر يدعى فيبادر بالإجابة، و جاه يجرّ على القبيل الأذيال، و يفيد العزّ و المال، و بحر هال، و صدور تحمل الجبال، و إن قطع بالأمان، من جهة السلطان، لم يؤمن أن يقع فيه، و اللّه سبحانه يقيه، و يمتّع به و يبقيه، ما البشر بصدده، و الحى يجرى إلى أمده، فيستظهر الغير بقبيل، و يجرى من التغلّب على سبيل، و يبقى سيدى- و اللّه تعالى يعصمه!- طائرا بلا جناح، و محاربا دون سلاح، ينادى من كان يثق بودّه فى طلل، و يقرع سنّ النادم و الأمر جلل، و مثله بين غير صنفه- ممّن لا يتّصف بظرف، و لا يلتفت إلى الإنسانية بطرف، و لا يعبد اللّه تعالى و لو على حرف- محمول عليه من حيث الصنفية، متعمّد بالعداوة الخفيّة، و إن ظنّ غير هذا فهو مخدوع مسحور، و مفتون مغرور، و بالفكر فى الخلاص تفاضلت النفوس، و استدفع البوس، و له وجوه كلّها متعذّر الحصول، دونه بيض النصول، و إلّا ما كان من الغرض الذى بان فيه بعد الجدّ الفتور، و عدل عنه و قد أخذ الدستور، و تيسّرت الأمور، و تقرّرت الأيمان و النذور، فإنه عرض قريب و سفر قاصد، و مسعى لا ينفق فيه سيدى من المال درهم واحد، و وطن لحركته راصد، لا يمنع عليه أهله، و لا يستصعب سهله، و أميره جبره اللّه تعالى يتطارح فى تعيينكم لاقتضائه، و إحكام آرائه، و تأمين خائفه، و استقدام أصنافه و طوائفه، و يتحرّكون حركة العزّ و التّنويه، و القدر النبيه، لا يعوزكم ممّن وراءكم مطلب، و لا يلفى عن مخالفتكم مذهب، و لا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٢٦

يكدّر لكم مشرب. و تمرّ أيام و شهور، و تظهر بطون للدهر و ظهور، و تفتح أبواب، و تسبّب أسباب، من رجوع يتأتّى بعد السكون و الفتور، و قد سكنت الخواطر و تنوّعت الأمور، أو مقام تمهّد به البلاد، و يعمل فى ترتيب الصلة الحسنة الاجتهاد، و تستغرق فى هذا الغرض الآماد، و يتأتى أن حدث و تراكم حادث الاستقلال و الاستبداد، تتهافت الأعمار، و يكون لمن ينتقل به على الشرق و الغرب الخيار، أو التحكّم فى ذخيرة سما منها المقدار، و ذهل عند مشاهدتها الاعتبار، و خزانة الكتب بجملتها و فيها الأمّهات الكبار، قد تجافت عنها الحاجة و عدم إليها الاضطرار، و الربع الذى يسوّغ بالشرع و العقار، فهذا كلّه حاصل، و ثمّ ضامن لا يتّهم و كافل، و عهود صبغها غير ناصل. و بالجملة فالوطن لأغراض الملك جامع، و لمقاصده من المقام أو الانتقال مطبع و سامع، و إن توقّع إثارة فتنة، أو ارتكاب إحنة، فالأمر أقرب، و حالة التيسير أغرب، و هذه الحجّة فى تلمسان غير معتبرة، و أجوبتها مقرّرة، و قدوم رسول الطاغية و إعانته تحصل فى الغالب، على هذه المطالب، و بالجملة فالدنيا قد اختلّت، و الأقدام قد زلّت، و الأموال قد قلّت، و شبيبة الدهر ولّت، و ذلك القطر على علّاته أحكم لمن يروم الجاه و أمنع، و أجدى بكلّ اعتبار و أنفع، و قد حضرت لاستخلاصكم إياه الآلة التى لا تتأتّى فى كل زمان، و تهيّأ إمكانه أىّ إمكان، و اقتضيت أيمان، و عرضت سلع تقلّ لها أثمان، و ارتهنت الوفاء مروءات و أديان، و تحقّق بذلك القطر الفساد الذى اشتهر به مأموره و أميره، و المنكر الذى يجب على كلّ مسلم تغييره، فإن شئت شرعا فالحكم ظاهر، أو طبعا فالطبع حاضر، و ما ثمّ عاذل بل عاذر، و المؤونة التى تلزم أقلّ من أن تكون ثمن بعض الحصون، فضلا عن الشجرة ذات الغصون، و ما يستهلك فى هذا الغرض شىء له خطر، و لا يستنقذ من الصحيفة سطر، و اليد محكمة بكلّ أو شطر. و ما يخصّ المملوك من هذا الأمر إلّا استنقاذ نشب، و استخلاص مؤمّل بين موروث و مكتسب، و بعيد أن لا ينفر له فى زمن من الأزمان، ملوك فى كل وقت و أعيان، و مروءات و أحساب و أديان، و اللّه سبحانه كلّ يوم هو فى شان، و أمّا خدمة دولة فهى علىّ حرام، لا ينجح لى فيها أن أعتمدها مرام، و كأنى بالمشرق لاحق، و لأنفاسه الذكية ناشق، فما هى إلّا أطماع، سرابها لماع، فإذا انقطعت، انفسحت الدنيا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٢٧

و اتّسعت، و معاش فى غمار، أو عكوف فى كسر دار، لمداومة استقالة و استغفار، و اللّه ما توهّم أن من بتلك البلاد يستنسر بغاثه

عليكم، أو يحتقر ما لديكم، فقد ظهر الكائن، و تطابق المخبر و المعاين، فسبحان من يقوى الضعيف و يهين المخيف، و يجرى يد المشروف و الشريف، و الهمم بيد اللّه تعالى ينجدها و يخذلها، و الأرض فى قبضته يرعاها و يهملها.

هذا بثّ لا يسع إفشاؤه، و سرّ إن لم يطو سقط به على السرحان شاؤه، و فيه ما ينكره الآمر، و تتعلّق به الظنون و تعمل الخواطر، فتدبّروه و اعتبروه، و بعقلكم فاسبروه، ثم غطّوه بالإحراق و استروه، و اللّه تعالى يرشدكم للتى هى أسعد، و يحملكم على ما فيه لكم العزّ السّرمد، و الفخر الذى لا ينفد، و السلام» انتهى.

### [من إنشائه جواب عن كتاب ورد إليه من الفقيه الكاتب ابن الثغرى على لسان سلطان تلمسان]

و قال رحمه اللّه تعالى: و ممّا صدر عنى ما أجبت به عن كتاب بعث به إلىّ الفقيه الكاتب عن سلطان تلمسان أبى عبد اللّه بن يوسف القيسى الثغرى: [الكامل]

حيّا تلمسان الحيا فربوعها صدف يجود بدرّه المكنون

ما شئت من فضل عميم إن سقى أروى و منّ ليس بالممنون

أو شئت من دين إذا قدح الهدى أورى و دنيا لم تكن بالدون

ورد النسيم لها بنشر حديقة قد أزهرت أفنانها بفنون

و إذا حبيبة أم يحيى أنجبت فلها الشفوف على عيون العين

«ما هذا النشر، و الصفّ و الحشر، و اللفّ و النشر، و الفجر و الليالى العشر، شذا كما تنفّست دارين، و سطور رقم خللها التزيين، و بيان قام على إبداعه البرهان المبين، و نقس، وشّى به طرس، فجاء كأنه العيون العين، لا بل ما هذه الكتائب الكتيبة التى أطلقت علينا الأعنّة، و أشرعت إلينا الأسنّة، و راعت الإنس و الجنّة، فأقسم بالرحمن، لو لا أنها رفعت شعار الأمان، و حيّت بتحيّة الإيمان، لراعت السّرب، و عاقت الذود أن يرد الشّرب، أظنّها مدد الجهاد قدّم، و شارد العرب استعمل فى سبيل اللّه و استخدم، و المتأخّر على ما فاته ندم، و العزم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۲۸

وجد بعد ما عدم، نستغفر اللّه! إنما هى رقاع الرقاع، وصلات صلاة ليس فيها سبق و لا إرقاع، و بقاع لها بطلّ الطباع الكريمة انتفاع، و ألحان بيان يعضدها إيقاع، و درّ منسوق، و رطب لنخلها بسوق، و للّه درّ القائل: «الملك سوق»، و من نصر الشيخ على كتيبة تعقبها كتيب، و اقتضاء وجيبة من ذى غلّة غير نجيبة، بينا هو يكابد من مراجعة الحىّ من حضر موت الموت، و لا يكاد يرجع الصوت، إذ صبّحته قيس و هى التى شذّت عن القياس، و أحجبت عن مبارزتها أسود الأخياس، فلو لا امتثال أمر، و صبر على جمر، لأعاد ما حكى فى مبارزة الوصىّ عن عمرو، فتحرّج من الخطل، و بيّن عذر المكره عن مناجزة البطل، أ لم يدر قائد رعيلها، و زائر غيلها، أنى أمتّ بذمة من عميده لا تحقر، و أنّ ذنب إضافتى إليه لا يغفر، و حقّه الحق الذى لا يجحد و لا يكفر: [البسيط]

لمّا رأت راية القيسىّ زاحفة إلىّ ريعت و قالت لى و ما العمل

قلت الوغى ليس من رأيى و لا عملى لا ناقة لى فى هذا و لا جمل

قد كان ذاك و رنّات الصّهيل ضحى تهزّ عطفى كأنى شارب ثمل

و الآن قد صوّح المرعى و قيضت ال خيمات و الركب بعد اللبث محتمل

قالت أ لست شهاب الدين تضرمها حاشا العلا أن يقال: استنوق الجمل

و إنّ أحسن من هذا و ذا وزر بمثله فى الدواهى يبلغ الأمل

هو الحمى لأبى حمّو استجره ففى ه الأمن منسدل و الفضل مكتمل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۲۹

و اللّه لو أعمل الراعى النّقاد به ما خاف من أسد خفّان به همل

تكون من قوم موسى إن قضوا عدلوا و إن تقاعد دهر جائر حملوا

هم الجبال الرواسى كلّما حكموا هم البحار الطوامى كلّما جملوا

فقلت: كان لك الرحمن بعدى ما سواه معتمد و الرأى معتمل

فها أنا تحت ظلّ منه يلحفنى و الشمل منى بستر العزّ يشتمل

فقل لقيس لقد خاب القياس فلا تذكو المصاع و تحت الليل فاحتملوا

دامت له ديم النعمى مساجلة يمناه، تنهلّ باليمنى فتنهمل

و آمنت شمس علياه الأفول إلى طىّ الوجود فلا شمس و لا حمل

«و لو خوى- و العوذ باللّه- نجم هذا المتات، و لم يتّصف السبب- و حاشاه- بالاتّصال و لا بالانبتات، فمرعى العدل مكفول، و سبب الرفق موصول، و إن اشتجرت نصول، و الهرم تأبى الأبطال التنزل إلى نزاله، و الناسك التائب يدين ضرب الغارات باعتزاله، إلّا من أعرق فى مذهب الخارجى الأخرق، نافع بن الأزرق، و حسبى، و قد ساء كسبى، أن أترك الخطر لراكبه، و أخلّى الطريق لمن يبنى المنار به، و نسير بسير أمثالى من الضعفاء، و نكفّ فهو زمان الانكفاء، و نسلّم مخطوبة هذا الفنّ إلى الأكفاء، و نقول: بالبنين و الرفاء، فقد ذهب الزمن المذهب، و تبين المذهب، و شاخ البازى الأشهب، و عتاد العمر ينهب، و مرهب الفوت من فوق الفود يرهب، اللهمّ ألهم هذه الأنفس رشدها، و أذكرها السكرات و ما بعدها. إيه أخى و الفضل وصفك و نعتك، و الزّيف يبهرجه بحتك، و سهام اليراعة انفرد بها بريك و نحتك، وصلتنى رسالتك البرّة، بل غمامتك الثرّة، و حيتنى ثغور فضلك المفترّة، فعظمت بورودها المسرّة، جدّدت العهد بمحبوب لقائك، و أنهلت ظامى الاستطلاع من سقائك، و اقتضت تجديد الدعاء ببقائك، إلّا أنها ربما ذهلت عند وداعك، و أبهر عقلها نور إبداعك، فلم تلقن الوصيّة، و سلكت المسالك القصيّة، و أبعدت من التطوّف، و جاءت تبتغى من أسرار التصوّف، و متى تقرن هيبة السبع الشداد، بحانوت الحدّاد، أو تنظر أحكام الاعتكاف، بدكان الإسكاف،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۳۰

أو يتعلّم طبع المثقال، بحانوت البقال؟ و الظنّ للغالب - و قد تلتبس المطالب- أنكم أمرتموها، لما أصدرتموها، بإعمال التشوّف، فطردت حكم الأبدال، غائبة عمّا يلزم من الجدال، و سمّت الشين صادا، و عيّنت لزرع الوصيّة حصادا، و اللّه تعالى يجعل المحبّ عند ظنّ من نظر بمرآته، أو وصفه ببعض صفاته، و هى تزلق عن صفاته، فالتصوّف أشرف، و ظلاله أورف، من أن يناله كلف بباطل، و مغرور بسراب ماطل، لا- برباب هاطل، و مفتون بحال حال أو عاطل، و من قال و لم يتّصف بمقاله، فعقله لم يرم عن عقاله، و جبال أثقاله، مانعة له عن انتقاله. و على ذلك، و بعد تقرير هذه المسالك، فقد عمرت يدها كيلا تعود بها صفرا بعد إعمال السفر، أو ترى أنها قد طولبت بذنب الغلط المغتفر، و أصبحت المراجعة بمجلس وعظ فتحت به باب الحرج، إلى إنكار الإمام أبى الفرج و فنّ الوعظ لما سأل الأخ هو الصديق المسعد، و المبرق قبل غمام رحمته و المرعد، و للّه درّ القائل: لست به و لم تبعد، و الاعتراض بعد ملازم، لكنّ الإسعاف لقصده لازم، و عامله عند الاعتلال بالعذر جازم، و إغضاؤه ملتمس، و فضله لا يخبو منه قبس، و عذرا أيها الفاضل، و بعد الاعتذار، عن القلم المهذار، و إغفال الحذار، اقرأ عليهم من طيّب السلام، ما يخجل أزهار الكمام عقب الغمام، و رحمة اللّه تعالى ممّن يمليه على الكاتب، و لعلّها تفتأ من عتب العاتب، ابن الخطيب؛ فإنى كتبته و الليل دامس، و بحر الظلام طامس، و عادة الكسل طبع خامس، و النافخ بشكوى البرد هامس، و الذبال المنادم خافت، لا يهتدى إليه الفراش المتهافت، يقوم و يقعد، و يفيق ثم يرعد، و يزفر ثم يخمد، و ربّما صار ورقة آس، أو مبضع آس، و ربما أشبه العاشق فى البوح بما يخفيه، و ظهوره من فيه، فتميله الآمال و تلويه، و تميته النواسم الهفافة بعد ما تحييه، و المطر، قد تعذّر معه الوطر، و ساقه الخطر، و فعل فى البيوت المتداعية ما لا تفعل الترك و

الططر، و النشاط، قد طوى منه البساط، و الجوارح بالكلال تعتذر، و وظائف الغد تنتظر، و الفكر فى الأمور السلطانية جائل، و هى بحر هائل، و مثلى مقنوع منه باليسير، و معذور فى قصر الباع و ضعف المسير، و السلام»؛ انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۳۱

## [من إنشائه فى السياسة، قصة عن الرشيد]

و هى من البلاغة فى الذروة.

و من نثر لسان الدين رحمه اللّه تعالى قوله: و ممّا صدر عنى فى السياسة: «حديث من امتاز باعتبار الأخبار، و حاز درجة الاشتهار، بنقل حوادث الليل و النهار، و ولج بين الكمائم و الأزهار، و تلطّف لخجل الورد من تبسّم النهار، قال: سهر الرشيد ليله، و قد مال فى هجر النبيذ ميله، و جهد ندماؤه فى جلب راحته، و إلمام النوم بساحته، فشحّت عهادهم، و لم يغن اجتهادهم، فقال: اذهبوا إلى طرق سمّاها و رسمها، و أمهات قسمها، فمن عثرتم عليه من طارق ليل، أو غثاء سيل، أو ساحب ذيل، فبلغوه، و الأمنة سوّغوه، و استدعوه، و لا تدعوه، فطاروا عجالى، و تفرّقوا ركبانا و رجالا فلم يكن إلّا ارتداد طرف، أو فواق حرف، و أتوا بالغنيمة التى اكتسحوها، و البضاعة التى ربحوها، يتوسّطهم الأشعث الأغبر، و اللجّ الذى لا يعبر، شيخ طويل القامة، ظاهر الاستقامة، سبلته مشمطّة، و على أنفه من القبع مطّة، و عليه ثوب مرقوع، لطير الحرق عليه وقوع، يهينم بذكر مسموع، و ينبئ عن وقت مجموع، فلما مثل سلم، و ما نبس بعدها و لا تكلم، فأشار إليه الملك فقعد، بعد أن انشمر و ابتعد، و جلس، فما استرق النظر و لا اختلس، إنما حركة فكره، معقودة بزمام ذكره، و لحظات اعتباره، فى تفاصيل أخباره، فابتدره الرشيد سائلا، و انحرف إليه مائلا، و قال: ممّن الرجل؟ فقال: فارسىّ الأصل، أعجمىّ الجنس عربىّ الفصل، قال: بلدك و أهلك و ولدك؟ قال: أمّا الولد فولد الديوان، و أمّا البلد فمدينة الإيوان، قال: النّحلة، و ما أعملت إليه الرحلة؟ قال: أمّا الرحلة فالاعتبار، و أمّا النّحلة فالأمر الكبار، قال: فنّك، الذى اشتمل عليه دنّك؟ فقال: الحكمة فنّى الذى جعلته أثيرا، و أضجعت فيه فراشا وثيرا، و سبحان الذى يقول وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً [سورة البقرة، الآية: ۲۶۹] و ما سوى ذلك فتبع، ولى فيه مصطاف و مرتبع، قال: فتعاضد جذل الرشيد و توفّر، كأنما أغشى وجهه قطعة من الصبح إذا أسفر، و قال: ما رأيت كالليلة أجمع لأمل شارد، و أنعم بمؤانسة وارد، يا هذا إنى سائلك، و لن تخيب بعد وسائلك، فأخبرنى ما عندك فى هذا الأمر الذى بلينا بحمل أعبائه، و منينا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۳۲

بمراوضة إبائه، فقال: هذا الأمر قلادة ثقيلة، و من خطّة العجز مستقيلة، و مفتقرة لسعة الذّرع، و ربط السياسة المدنية بالشرع، يفسده الحكم فى غير محلّه، و يكون ذريعة إلى حلّه، و يصلحه مقابلة الشكل بشكله، و من لم يكن سبعا آكلا تداعت سباع إلى أكله.

«فقال الملك: أجملت ففصّل، و بريت فنصّل، وكلت فأوصل، و انثر الحبّ لمن يحوصل، و اقسم السياسة فنونا، و اجعل لكلّ لقب قانونا، و ابدأ بالرعيّة، و شروطها المرعيّة.

فقال: رعيّتك ودائع اللّه تعالى قبلك، و مرآة العدل الذى عليه جبلك، و لا تصل إلى ضبطهم إلّا بإعانة اللّه تعالى التى وهب لك، و أفضل ما استدعيت به عونه فيهم، و كفايته التى تكفيهم، تقويم نفسك عند قصد تقويمهم، و رضاك بالسهر لتنويمهم، و حراسة كهلهم و رضيعهم، و الترفّع عن تضييعهم، و أخذ كلّ طبقة بما عليها و مالها، أخذا يحوط مالها، و يحفظ عليها كمالها، و يقصّر عن غير الواجبات آمالها، حتى تستشعر عليتها رأفتك و حنانك، و تعرف أوساطها فى النّصب امتنانك، و تحذر سفلتها سنانك، و حظّر على كلّ طبقة منها أن تتعدّى طورها، أو تخالف دورها، أو تجاوز بأمر طاعتك فورها، و سدّ فيها سبل الذريعة، و أقصر جميعها عن خدمة الملك بموجب الشريعة، و امنع أغنيائها من البطر و البطالة، و النظر فى شبهات الدين بالتمشدق و الإطالة، و ليقلّ فيما شجر بين الناس كلامها، و يرفض ما تنبز به أعلامها، فإنّ ذلك يسقط الحقوق، و يرتّب العقوق، و امنعهم من فحش الحرص و الشّره، و

تعاهدهم بالمواعظ التى تجلو البصائر من المره، و احملهم من الاجتهاد فى العمارة على أحسن المذاهب، و انههم عن التحاسد على المواهب، و رضهم على الإنفاق بقدر الحال، و التعزّى عن الفائت فردّه من المحال، و حدّد البخل عن أهل اليسار، و السخاء على أولى الإعسار، و خذهم من الشريعة بالواضح الظاهر، و امنعهم من تأويلها منع القاهر، و لا تطلق لهم التجمّع على من أنكروا أمره فى نواديهم، و كفّ عنهم أكفّ تعدّيهم، و لا تبح لهم تغيير ما كرهوه بأيديهم، و لتكن غايتهم، فيما توجّهت إليه إبايتهم، و نكصت عن الموافقة عليه رايتهم، إنهاءه إلى من وكلته بمصالحهم من ثقاتك، المحافظين على أوقاتك، و قدّم منهم من أمنت عليهم مكره، و حمدت على الإنصاف شكره، و من كثر حياؤه من التأنيب، و قابل الهفوة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٣٣

باستتابة المنيب، و من لا يتخطّى عن محلّه الذى حلّه، فربما عمد إلى المبرم فحلّه، و حسّن النيّة لهم بجهد الاستطاعة، و اغتفر المكاره فى جنب حسن الطاعة، و إن ثار جوادهم، و اختلف فى طاعتك مرادهم، فتحصّن لثورتهم، و اثبت لفورتهم، فإذا سالوا و سلّوا، و تفرّقوا و انسلّوا، فاحتقر كثرتهم، و لا تقل عثرتهم، و اجعلهم لما بين أيديهم و ما خلفهم نكالا، و لا تترك لهم على حلمك اتّكالا.

«ثم قال: و الوزير الصالح أفضل عددك، و أوصل مددك، فهو الذى يصونك عن الابتذال، و مباشرة الأنذال، و يثب لك على الفرصة، و ينوب فى تجرع الغصّة، و استجلاء القصّة، و يستحضر ما نسيته من أمورك، و يغلب فيه الرأى بموافقة مأمورك، و لا يسعه ما تمكنك المسامحة فيه، حتى يستوفيه، و احذر مصادمة تيّاره، و التجوّز فى اختياره، و قدّم استخارة اللّه تعالى فى إيثاره، و أرسل عيون الملاحظة على آثاره، و ليكن معروفا بالإخلاص لدولتك، معقود الرضا و الغضب برضاك و صولتك، زاهدا عمّا فى يديك، مؤثرا لكلّ ما يزلف لديك، بعيد الهمّة، راعيا للأذمّة، كامل الآلة، محيطا بالإيالة، رحيب الصدر، رفيع القدر، معروف البيت، نبيه الحىّ و الميت، مؤثرا للعدل و الإصلاح، دريّا بحمل السلاح، ذا خبرة بدخل المملكة و خرجها، و ظهرها و سرجها، صحيح العقد، متحرّزا من النقد، جادّا عند لهوك، متيقّظا فى حال سهوك، يلين عند غضبك، و يصل الإسهاب بمقتضبك، قلقا من شكره دونك و حمده، ناسبا لك الإصابة بعمده، و إن أعيا عليك وجود أكثر هذه الخلال، و سبق إلى نقضها شىء من الاختلال، فاطلب منه سكون النفس و هدونها و أن لا يرى منك رتبة إلّا رأى قدره دونها، و تقوى اللّه تعالى تفضل شرف الانتساب، و هى للفضائل فذلكة الحساب، و ساو فى حفظ عيبه بين قربه و نأيه، و اجعل حظّه من نعمتك موازيا لحظّك من حسن رأيه، و اجتنب منهم من يرى فى نفسه إلى الملك سبيلا، أو يقود من عيصه للاستظهار عليك قبيلا، أو من كاثر مالك ماله، أو من تقدّم لعدوك استعماله، أو من سمت لسواك آماله، أو من يعظم عليه إعراض وجهك، و يهمّه نادر نجهك، أو من يداخل غير أحبابك، أو من ينافس أحدا ببابك.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٣٤

و أمّا الجند فاصرف التقديم منهم للمقاتلة، و المكايدة و المخاتلة، و استوف عليهم شرائط الخدمة، و خذهم بالثبات للصدمة، و وفّ ما أوجبت لهم من الجراية و النعمة، و تعاهدهم عند الغناء بالعلفة و الطعمة، و لا تكرم منهم إلّا من أكرمه غناؤه، وطاب فى الذبّ عن ظنّك ثناؤه، و ولّ عليهم النبهاء من خيارهم، و اجتهد فى صرفهم عن الافتتان بأهليهم و ديارهم، و لا توطئهم الدّعة مهادا، و قدّمهم على حصصك و بعوثك مهما أردت جهادا، و لا تليّن لهم فى الإغماض عن حسن طاعتك قيادا، و عوّدهم حسن المواساة بأنفسهم اعتيادا، و لا تسمح لأحد منهم فى إغفال شىء من سلاح استظهاره، أو عدّة اشتهاره، و ليكن ما فضل من شبعهم و ريّهم، مصروفا إلى سلاحهم و زيّهم، و التزيّد فى مراكبهم و غلمانهم، من غير اعتبار لأثمانهم، و امنعهم من المشغلات و المتاجر، و ما يتكسّب به غير المشاجر، و ليكن من الغزو اكتسابهم، و على المغانم حسابهم، كالجوارح التى تفسد باعتيادها، أن تطعم من غير اصطيادها.

و اعلم أنها لا تبذل نفوسها من عالم الإنسان، إلّا لمن يملك قلوبها بالإحسان و فضل اللسان، و يملك حركاتها بالتقويم، و رتبها بالميزان القويم، و من تثق بإشفاقه على أولادها، و يشترى رضا اللّه تعالى بصبره على طاعته و جلادها، فإذا استشعرت لها هذه الخلال تقدمتك إلى مواقف التلف، مطيعة دواعى الكلف، واثقة منك بحسن الخلف، و استبق إلى تمييزهم استباقا، و طبقهم طباقا، أعلاها

من تأمّلت منه فى المحاربة عنك أخطارا، و أبعدهم فى مرضاتك مطارا، و أضبطهم لما تحت يده من رجالك حزما و وقارا، و استهانة بالعظائم و احتقارا، و أحسنهم لمن تقلّده أمرك من الرعيّة جوارا، إذا أجدت اختبارا، و أشدّهم على مماطلة من مارسه من الخوارج عليك اصطبارا، و من بلا فى الذى عنّ لك إحلاء و إمرارا، و لحقه الضر فى معارض الدفاع عنك مرارا، و بعده من كانت محبّته لك أزيد من نجدته، و موقع رأيه أنفع من موقع صعدته، و بعدهما من حسن انقياده لأمرائك، و إحماده لآرائك، و من جعل نفسه من الأمر حيث جعله، و كان صبره على ما عراه أكثر من اعتداده بما فعله.

و احذر منهم من كان عند نفسه أكبر من موقعه فى الانتفاع، و لم يستحى من التزيّد بأضعاف ما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٣٥

بذله من الدفاع، و شكا البخس فيما تعذّر عليه من فوائدك، و قاس بين عوائد عدوّك و عوائدك، و توعّد بانتقاله عنك و ارتحاله، و أظهر الكراهية لحاله.

و أما العمال فإنهم ينبؤون عن مذهبك، و حالهم فى الغالب شديدة الشبه بك، فعرّفهم فى أمانتك السعادة، و ألزمهم فى رعيّتك العادة، و أنزلهم من كرامتك بحسب منازلهم فى الاتّصاف، بالعدل و الإنصاف، و أحلّهم من الحفاية، بنسبة مراتبهم من الأمانة و الكفاية، وقفهم عند تقليد الأرجاء، مواقف الخوف و الرجاء، و قرّر فى نفوسهم أن أعظم ما به إليك تقربوا، و فيه تدربوا، و فى سبيله أعجموا و أعربوا، إقامة حقّ و دحض باطل، حتى لا يشكو غريم مطل ماطل، و هو آثر لديك من كل رباب هاطل، و كفّهم من الرزق الموافق، عن التصدّى لدنىء المرافق، و اصطنع منهم من تيسّرت كلفته، و قويت للرعايا ألفته، و من زاد على تأميله صبره، و أربى على خبره خبره، و كانت رغبته فى حسن الذكر، تشفّ على بنات الفكر، و اجتنب منهم من يغلب عليه التخرق فى الإنفاق، و عدم الإشفاق، و التنافس فى الاكتساب، و سهل عليه سوء الحساب، و كانت ذريعته المصانعة بالنفاية، دون التقصى و الكفاية، و من كان منشؤه خاملا، و لأعباء الدناءة حاملا، و ابغ من يكون الاعتذار فى أعماله، أوضح من الاعتذار فى أقواله، و لا يفتنّك ممّن قلّدته اجتلاب الحظّ المقنع، و التنفق بالسعى المسمع، و مخالفة السنن المرعيّة، و اتّباعه رضاك بسخط الرعيّة، فإنه قد غشّك، من حيث بلّك و رشّك، و جعل من يمينك فى شمالك، حاضر مالك، و لا تضمّن عاملا مال عمله، و حل بينه فيه و بين أمله، فإنك تميت رسومك بمحيّاه، و تخرجه من خدمتك فيه إلّا أن تملكه إياه، و لا تجمع له بين الأعمال فيسقط استظهارك ببلد على بلد، و الاحتجاج على والد بولد، و احرص على أن يكون فى الولاية غريبا، و منتقله منك قريبا، و رهينة لا يزال معها مريبا، و لا تقبل مصالحته على شىء اختانه، و لو برغيبة فتّانة، فتقبل المصانعة فى أمانتك، و تكون مشاركا له فى خيانتك، و لا تطل مدّة العمل، و تعاهد كشف الأمور ممّن يرعى الهمل، و يبلغ الأمل.

و أمّا الولد فأحسن آدابهم، و اجعل الخير دأبهم، و خف عليهم من إشفاقك و حنانك، أكثر من غلظة جنانك، و اكتم عنهم ميلك، و أفض فيهم جودك و نيلك، و لا تستغرق بالكلف

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٣٦

بهم يومك و لا- ليلك، و أثبهم على حسن الجواب، و سبّق لهم خوف الجزاء على رجاء الثواب، و علّمهم الصبر على الضرائر، و المهلة عند استخفاف الجرائر، و خذهم بحسن السرائر، و حبّب إليهم مراس الأمور الصعبة المراس، و حسن الاصطناع و الاحتراس، و الاستكثار من أولى المراتب و العلوم، و السياسات و الحلوم، و المقام المعلوم، و كرّه إليهم مجالسة الملهين، و مصاحبة الساهين، و جاهد أهواءهم عن عقولهم، و حذّر الكذب على مقولهم، و رشّحهم إذا آنست منهم رشدا أو هديا، و أرضعهم من المؤازرة، و المشاورة ثديا، لتمرّنهم على الاعتياد، و تحملهم على الازدياد، و رضهم رياضة الجياد، و احذر عليهم الشهوات فهى داؤهم، و أعداؤك فى الحقيقة و أعداؤهم، و تدارك الخلق الذميمة كلّما نجمت، و اقذعها إذا هجمت، قبل أن يظهر تضعيفها، و يقوى ضعيفها، فإن أعجزتك فى الصغر الحيل، عظم الميل: [البسيط]

إنّ الغصون إذا قوّمتها اعتدلت و لن تلين إذا قوّمتها الخشب

و إذا قدروا على التدبير، و تشوّفوا للمحلّ الكبير، إياك أن توطّنهم فى مكانك، جهد إمكانك، و فرقهم فى بلدانك، تفريق عبدانك، و استعملهم فى بعوث جهادك، و النيابة عنك فى سبيل اجتهادك، فإنّ حضرتك تشغلهم بالتحاسد، و التبارى و التفاسد، و انظر إليهم بأعين الثقات، فإنّ عين الثقة، تبصر ما لا تبصر عين المحبّة و المقة.

و أما الخدم فإنهم بمنزلة الجوارح التى تفرق بها و تجمع، و تبصر و تسمع، فرضهم بالصدق و الأمانة، وصنهم صون الجمانة، و خذهم بحسن الانقياد إلى ما آثرته، و التقليل ممّا استكثرته، و احذر منهم من قويت شهواته، و ضاقت عن هواه لهواته، فإنّ الشهوات تنازعك فى استرقاقه، و تشاركك فى استحقاقه، و خيرهم من ستر ذلك عنه بلطف الحيلة، و أدأب للفساد محيلة، و أشرب قلوبهم أنّ الحقّ فى كلّ ما حاولته و استنزلته، و أنّ الباطل فى كلّ ما جانبته و اعتزلته، و أنّ من تصفّح منهم أمورك فقد أذنب، و باين الأدب و تجنّب، و أعط

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٣٧

من أكددته، و أضقت منه ملكه و شددته، روحة يشتغل فيها بما يعنيه، على حسب صعوبة ما يعانيه، تغبطهم فيها بمسارحهم، و نجّم كليلة جوارحهم، و لتكن عطاياك فيهم بالمقدار الذى لا- يبطر أعلامهم، و لا يؤسف الأصاغر فيفسد أحلامهم، و لا ترم محسنهم بالغاية من إحسانك، و اترك لمزيدهم فضلة من رفدك و لسانك و حذّر عليهم مخالفتك و لو فى صلاحك، بحدّ سلاحك، و امنعهم من التواثب و التشاجر، و لا تحمد لهم شيم التقاطع و التهاجر، و استخلص منهم لسرّك من قلّت فى الإفشاء ذنوبه، و كان أصبر فى إحسانك، و ضبطه لما تقلّد من وديعتك، أحبّ إليه من حسن صنيعتك، و للسفارة عنك من حلا الصدق فى فمه، و آثره و لو باختطار دمه، و استوفى لك و عليك فهم ما تحمّله، و عنى بلفظه حتى لا يهمله، و لمن تودعه أعداء دولتك من كان مقصور الأمل، قليل القول صادق العمل، و من كانت قسوته زائدة على رحمته، و عظمه فى مرضاتك آثر من شحمته، و رأيه فى الحذر سديد، و تحرّزه من الحيل شديد؛ و لخدمتك فى ليلك و نهارك من لانت طباعه، و امتدّ فى حسن السجيّة باعه، و أمن كيده و غدره، و سلم من الحقد صدره، و رأى المطامع فما طمع، و استثقل إعادة ما سمع، و كان بريئا من الملال، و البشر عليه أغلب الخلال، و لا تؤنسهم منك بقبيح فعل و لا- قول، و لا تؤيسهم من طول، و مكن فى نفوسهم أن أقوى شفعائهم، و أقرب إلى الإجابة من دعائهم، إصابة الغرض فيما به وكلوا، و عليه شكلوا، فإنك لا تعدم بهم انتفاعا، و لا يعدمون لديك ارتفاعا.

و أمّا الحرم فهنّ مغارس الولد، و رياحين الخلد، و راحة القلب الذى أجهدته الأفكار، و النفس التى تقسّمها الإحماد إلى المساعى و الأفكار، فاطلب منهنّ من غلب عليهنّ من حسن الشيم، المترفعة عن القيم، ما لا يسوءك فى خلدك، أن يكون فى ولدك، و احذر أن تجعل لفكر بشر دون بصر إليهنّ سبيلا، و انصب دون ذلك عذابا وبيلا، و أرعهنّ من النساء العجز من بانت فى الديانة و الأمانة سبله، و قويت غيرته و نبله، و خذهنّ بسلامة النيّات، و الشيم السنيّات، و حسن الاسترسال، و الخلق السّلسال، و حذّر عليهنّ التغامز و التغاير، و التنافس و التخاير، و آس بينهنّ فى الأغراض، و التصامم عن الإعراض، و المحاباة بالأعراض، و أقلل من مخالطتهنّ فهو أبقى لهمّتك، و أسبل لحرمتك، و لتكن عشرتك لهنّ عند الكلال و الملال، و ضيق الاحتمال، بكثرة الأعمال، و عند الغضب و النوم، و الفراغ من نصب اليوم، و اجعل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٣٨

مبيتك بينهنّ تنم بركاتك، و تستتر حركاتك، و افصل من ولدت منهنّ إلى مسكن يختبر به استقلالها، و يعتبر بالتفرّد خلالها، و لا تطلق لحرمة شفاعة و لا تدبيرا، و لا تنط بها من الأمر صغيرا و لا كبيرا، و احذر أن يظهر على خدمهنّ فى خروجهنّ عن القصور، و بروزهنّ من أجمة الأسد الهصور، زى بارع، و لا- طيب للأنوف مسارع، و اخصص بذلك من طعن فى السّنّ، و يئس من الإنس و الجنّ، و من توفّر النزوع إلى الخيرات قبله، و قصر عن جمال الصورة و رسم بالبله.

ثم لمّا بلغ إلى هذا الحدّ حمى و طيس استجفاره، و ختم حزبه باستغفاره، ثم صمت مليّا، و استعاد كلاما أوّليّا.

ثم قال: و اعلم يا أمير المؤمنين- سدّد اللّه تعالى سهمك لأغراض خلافته! و عصمك من الزمان و آفته!- أنك فى مجلس الفصل، و مباشرة الفرع من ملكك و الأصل، فى طائفة من عزّ اللّه تعالى تذبّ عنك حماتها، و تدافع عن حوزتك كماتها، فاحذر أن يعدل بك غضبك عن عدل تزرى منه بضاعة، أو يهجم بك رضاك على إضاعة، و لتكن قدرتك وقفا على الانّصاف، بالعدل و الإنصاف، و احكم بالسّوية، و اجنح بتدبيرك إلى حسن الرويّة، و خف أن تقعد بك أناتك عن حزم تعين، أو تستفزّك العجلة فى أمر لم يتبين، و أطع الحجّة ما توجّهت إليك، و لا تحفل بها إذا كانت عليك، فانقيادك إليها أحسن من ظفرك، و الحقّ أجدى من نفرك، و لا تردّنّ النصيحة فى وجه، و لا تقابل عليها بنجه، فتمنعها إذا استدعيتها، و تحجب عنك إن استوعيتها، و لا تستدعها من غير أهلها، فيشغبك أولو الأغراض بجهلها، و احرص على أن لا ينقضى مجلس جلسته، أو زمن اختلسته، إلّا و قد أحرزت فضيلة زائدة، أو وثقت منه فى معادك بفائدة. و لا يزهدنّك فى المال كثرته، فتقل فى نفسك أثرته، وقس الشاهد بالغائب، و اذكر وقوع ما لا يحتسب من النوائب، فالمال المصون، أمنع الحصون، و من قلّ ماله، قصرت آماله، و تهاون بيمينه شماله، و الملك إذ فقد خزينه، أخنى على أهل الجدة التى تزينه، و عاد على رعيّته بالإجحاف، و على جبايته بالإلحاف، و ساء معتاد عيشه، و صغر فى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۳۹

عيون جيشه، و منّوا عليه بنصره، و أنفوا من الاقتصار على قصره، و فى المال قوة سماوية تصرف الناس لصاحبه، و تربط آمال أهل السلاح به، و المال نعمة اللّه تعالى فلا تجعله ذريعة إلى خلافه، فتجمع بالشهوات بين إتلافك و إتلافه، و استأنس بحسن جوارها، و اصرف فى حقوق اللّه تعالى بعض أطوارها، فإن فضل المال عن الأجل فأجلّ، و لم يضر ما خلف منه بين يدى اللّه عزّ و جلّ، و ما ينفق فى سبيل الشريعة، و سدّ الذريعة، مأمول خلفه، و ما سواه فمتعين تلفه. و استخلص لنواديك الغاصّة، و مجالسك العامّة و الخاصّة، من يليق بولوج عتبها، و العروج لرتبها، أمّا العامية فمن عظم عند الناس قدره، و انشرح بالعلم صدره، أو ظهر يساره، و كان اللّه تعالى إخباته و انكساره، و من كان للفتيا منتصبا، و بتاج المشورة معتصبا، و أمّا الخاصيّة فمن رقّت طباعه، و امتدّ فيما يليق بتلك المجالس باعه، و من تبحّر فى سير الحكماء، و أخلاق الكرماء، و من له فضل سافر، و طبع للدّنيّة منافر، ولديه من كلّ ما تستتر به الملوك من العوامّ حظّ وافر، وصف ألبابهم بمحصول خيرك، و سكّن قلوبهم بيمن طيرك، و أغنهم ما قدرت عن غيرك.

و اعلم بأنّ مواقع العلماء من ملكك مواقع المشاعل المتألّقة، و المصابيح المتعلّقة، و على قدر تعاهدها تبذل من الضياء، و تجلو بنورها صور الأشياء، و فرّعها لتحبير ما يزين مدتك، و يحسّن من بعد البلاء جدّتك، و بعناية الأواخر ذكرت الأول، و إذا محيت المفاخر خربت الدول.

و اعلم أنّ بقاء الذكر مشروط بعمارة البلدان، و تخليد الآثار الباقية فى القاصى و الدّان، فاحرص على ما يوضح فى الدهر سبلك، و يحرز المزية على من قبلك، و أنّ خير الملوك من ينطق بالحجّة و هو قادر على القهر، و يبذل الإنصاف فى السّرّ و الجهر، مع التمكّن من المال و الظّهر، و يسار الرعيّة جمال للملك و شرف، وفاقتهم من ذلك طرف، فغلّب أليق الحالين بمحلّك، و أولاهما بظعنك و حلّك.

و اعلم أن كرامة الجور دائرة، و كرامة العدل متكاثرة، و الغلبة بالخير سيادة، و بالشّرّ هوادة، و اعلم أنّ حسن القيام بالشريعة يحسم عنك نكاية الخوارج، و يسمو بك إلى المعارج،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۴۰

فإنها تقصد أنواع الخدع، و تورى بتغيير البدع، و أطلق على عدوّك أيدى الأقوياء من الأكفاء، و ألسنة اللفيف من الضعفاء، و استشعر عند نكثه شعار الوفاء.

و لتكن ثقتك باللّه تعالى أكثر من ثقتك بقوة تجدها، و كتيبة تنجدها، فإنّ الإخلاص يمنحك قوى لا تكتسب، و يمهّد لك مع

الأوقات نصرا لا يحتسب.

و التمس أبدا سلم من سالمك بنفيس ما فى يدك، و فضّل حاصل يومك على منتظر غدك، فإن أبى وضحت محجّتك، و قامت عليه للناس بذلك حجّتك، فللنفوس على الباغين ميل، و لها من جانبه نيل، و استهد فى كلّ يوم سيرة من يناويك، و اجتهد أن لا يوازيك فى خير و لا يساويك، و أكذب بالخير ما يشيعه من مساويك، و لا تقبل من الإطراء إلّا ما كان فيك فضل عن إطالته، و جدّ يزرى على بطالته، و لا تلق المذنب بحميّتك و سبّك، و اذكر عند حركة الغضب ذنوبك إلى ربّك، و لا تنس أنّ ربّ المذنب أجلسك مجلس الفصل، و جعل فى قبضتك رياش النصل. و تشاغل فى هدنة الأيام بالاستعداد، و اعلم أنّ التراخى منذر بالاشتداد، و لا تهمل عرض ديوانك، و اختبار أعوانك، و تحصين معاقلك و قلاعك. و عمّ إيالتك بحسن اطّلاعك، و لا تشغل زمن الهدنة بلذّاتك، فتجنى فى الشدّة على ذاتك، و لا تطلق فى دولتك ألسنة الكهانة و الإرجاف، و مطاردة الآمال العجاف، فإنه يبعث سوء القول، و يفتح باب العول، و حذر على المدرسين و المتعلمين، و العلماء و المتكلّمين، حمل الأحداث على الشكوك الخالجة و المزلّات الوالجة، فإنه يفسد طباعهم، و يغرى سباعهم، و يمدّ فى مخالفة الملّة باعهم، و سدّ سبيل الشفاعات فإنها تفسد عليك حسن الاختيار، و نفوس الخيار، و ابذل فى الأسرى من حسن ملكتك ما يرضى من ملّككك رقابها، و قلّدك ثوابها و عقابها، و تلقّ بدء نهارك بذكر اللّه تعالى فى ترفّعك و ابتذالك، و اختم اليوم بمثل ذلك.

و اعلم أنك مع كثرة حجّابك، و كثافة حجابك، بمنزلة الظاهر للعيون، المطالب بالديون، لشدّة البحث عن أمورك، و تعرّف السرّ الخفى بين أمرك و مأمورك، فاعمل فى سرّك ما لا تستقبح أن يكون ظاهرا، و لا تأنف أن تكون به مجاهرا، و أحكم بريك فى اللّه و نحتك،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۴۱

و خف من فوقك يخف من تحتك، و اعلم أنّ عدوّك من أتباعك من تناسيت حسن قرضه، أو زادت مؤونته على نصيبه منك و فرضه، فأصمت الحجج، و توقّ اللّجج، و استرب بالأمل، و لا يحملنك انتظام الأمور على الاستهانة بالعمل، و لا تحقرنّ صغير الفساد، فيأخذ فى الاستئساد، و احبس الألسنة عن التخالى باغتيابك، و التشبّث بأذيال ثيابك، فإنّ سوء الطاعة ينتقل من الأعين الباصرة، إلى الألسن القاصرة، ثم إلى الأيدى المتناصرة، و لا تثق بنفسك فى قتال عدوّ ناواك، حتى تظفر بعدوّ غضبك و هواك، و ليكن خوفك من سوء تدبيرك، أكثر من عدوّك الساعى فى تتبيرك، و إذا استنزلت ناجما، أو أمنت ثائرا هاجما، فلا تقلّده البلد الذى فيه نجم، و همى عارضه فيه و انسجم، يعظم عليك القدح فى اختيارك، و الغضّ من إيثارك، و احترز من كيده فى حوارك و مأمّك، فإنك أكبر همّه و ليس بأكبر همّك، و جمّل المملكة بتأمين الفلوات، و تسهيل الأقوات، و تجديد ما يتعامل من الصرف فى البياعات، و إجراء العوائد مع الأيام و الساعات، و لا تبخس عيار قيم البضاعات، و لتكن يدك عن أموال الناس محجورة، و فى احترامها إلّا عن الثلاثة مأجورة: مال من عدا طوره طور أهله، و تخارق فى الملابس و الزينة، و فضول المدينة، يروم معارضتك بحمله؛ و من باطن أعداك، و أمن اعتداك؛ و من أساء جوار رعيّتك بإحساره، و بذل الأذاية فيهم بيمينه و يساره. و أضرّ ما منيت به التعادى بين عبدانك، أو فى بلد من بلدانك، فسدّ فيه الباب، و اسأل عن الأسباب، و انقلهم بوساطة أولى الألباب، إلى حالة الأحباب، و لا تطوّق الأعلام أطواق المنون، بهواجس الظنون، فهو أمر لا يقف عند حدّ، و لا ينتهى إلى عدّ، و اجعل ولدك فى احتراسك، حتى لا يطمع فى افتراسك.

ثم لمّا رأى الليل قد كاد ينتصف، و عموده يريد أن ينقصف، و مجال الوصايا أكثر ممّا يصف، قال: يا أمير المؤمنين، بحر السياسة زاخر، و عمر المتمتّع بناديك مستأخر، فإن أذنت

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۴۲

فى فنّ من فنون الأنس يجذب بالمقاد، إلى راحة الرقاد، و يعتق النفس بقدرة ذى الجلال، من ملكة الكلال.

«فقال: أما و اللّه قد استحسنّا ما سردت، فشأنك، و ما أردت.

«فاستدعى عودا فأصلحه حتى حمده، و أبعد فى اختباره أمده، ثم حرّك بمّه، و أطال الجسّ ثمّه، ثم تغنّى بصوت يستدعى الإنصات، و يصدع الحصاة، و يستفزّ الحليم عن و قاره، و يستوقف الطير و رزق بنيه فى منقاره، و قال: [الخفيف]

صاح، ما أعطر القبول بنمّه أ تراها أطالت اللبث ثمّه

هى دار الهوى منى النفس فيها أبد الدهر و الأمانىّ جمّه

إن يكن ما تأرّج الجوّ منها و استفاد الشّذا و إلّا فممّه

من لطرفى بنظرة و لا نفى فى رباها و فى ثراها بشمّه

ذكر العهد فانتفضت كأنى طرقتنى من الملائك لمّه

وطن قد نضيت فيه شبابا لم تدنّس منه البرود مذمّه

بنت عنه و النفس من أجل من قد خلّفته خلاله مغتمّه

كان حلما فويح من أمّل الدّه ر و أعماه جهله و أصمّه

تأمل العيش بعد أن خلق الجسم و بنيانه عسير المرمّه

و غدت وفرة الشبيبة بالشي ب على رغم أنفها معتمّه

فلقد فاز سالك جعل اللّ ه إلى اللّه قصده و مأمّه

من يبت من غرور دنيا بهمّ يلدغ القلب أكثر اللّه همّه

«ثم أحال اللحن إلى لون التنويم، فأخذ كلّ فى النعاس و التهويم، و أطال الجس فى الثقيل، عاكفا عكوفا الضاحى فى المقيل، فخاط عيون القوم، بخيوط النوم، و عمر بهم المراقد، كأنما أدار عليهم الفراقد، ثم انصرف، فما علم به أحد و لا عرف، و لمّا أفاق الرشيد جدّ فى طلبه، فلم يعلم بمنقلبه، فأسف للفراق، و أمر بتخليد حكمه فى بطون الأوراق، فهى إلى اليوم تتلى و تنقل، و تجلى القلوب بها و تصقل، و الحمد للّه رب العالمين»؛ انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۴۳

و قال فى «الإحاطة» بعد إيراد نبذة من نثره ما صورته: فهذا ما حضر من المنثور و حظّه عندى من الإجادة ضعيف، و غرضه كما شاء اللّه تعالى سخيف، لكن اللّه سبحانه بعباده لطيف؛ انتهى.

## [نماذج قصار من نثر لسان الدين فى علية أهل زمانه و فى وصف بعض البلدان]

و ممّا علق بحفظى من نثره قوله فى تحليته لبعض أهل زمانه: هو إمام الفئة، و عين أعيان هذه المائة.

و قوله فى وصف فاس: نعم العرين، لأسود بنى مرين، ذات المشاهد التى منها مطرح الجنّة و مسجد الصابرين: [الكامل]

بلد أعارته الحمامة طوقها و كساه ريش جناحه الطاووس

فكأنّما الأنهار فيه مدامة و كأنّ ساحات الديار كؤوس

جمعت ما ولد سام و حام، و كثرة الالتئام و الالتحام، و اشتدّ الزحام، إلى أن قال: يلقى الرجل أبا مثواه فلا يدعوه لبيته، و لا يطعمه من بقله و زيته، و لا يطرق الضيف حماهم، و لا يعرف اسمهم و لا مسمّاهم إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ قَلِيلٌ ما هُمْ [سورة ص، الآية: ۲۴].

و قوله فى وصف مراكش المحروسة: ذات المقاصر و القصور، و مأوى الليث الهصور، و مسكن الناصر و المنصور، إلى أن قال: و منارها فى الفلاة، بمنزلة والى الولاة. ثم قال بعد كلام: إلّا أنّ خرابها هائل، و زحامها حرب وائل، و عقاربها كثيرة الدبيب، منغصة

لمضاجعة الحبيب؛ انتهى ما كتبته من حفظى لطول العهد.

و قال رحمه اللّه تعالى فى وصف مدينة بسطة من كلام لم يحضرنى جميعه الآن: محلّ خصيب، و منزل رحيب، و كفاها مسجد الجنّة دليلا- على البركة و باب المسك دليلا على الطيب، و لها من اسمها نصيب، إذ هى بحر الطعام، و ينبوع العيون المتعدّدة بتعدّد أيام العام؛ انتهى.

## [وصف بسطة للقلصادى و لابن مرزوق]

و لمّا أجرى ذكر بسطة الإمام أبو الحسن القلصادى فى رحلته قال: سقى اللّه تعالى أرجاءها المشرقة، و أغصانها المورقة، شابيب الإحسان، و مهّدها بالهدنة و الأمان، دار تخجل منها الدّور، و تتقاصر عنها القصور، و تقرّ لها بالقصور، مع ما حوته من المحاسن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۴۴

و الفضائل، من صحّة أجسام أهلها و ما طبعوا عليه من كرم الشمائل، و حسبك فيها من عدم الحرج، أنّ داخلها باب الفرج، ثم قال: و للّه درّ القائل: [الكامل]

دار مشى الإتقان فى تنجيدها حتى تناسب روضها و بناؤها

مرقومة الجنبات ذات قرارة يمتدّ قدّام العيون فضاؤها

ما زال يضحك دائما نوّارها فى وجه ساحته و يلعب ماؤها

و لبعض أصحابنا فيها و هو الأديب الكاتب أبو عبد اللّه بن الأزرق: [الكامل]

فى بسطة حيث الأباطح مشرقه أضحت جفونى بالمحاسن مغلقه

و له أيضا فى توريّة: [الرمل]

قل لمن رام النوى عن وطن قولة ليس بها من حرج

فرّج الهمّ بسكنى بسطة إنّ فى بسطة باب الفرج

رجع.

## [من إنشاء لسان الدين ما خاطب به السلطان على لسان جدته]

و من نثر لسان الدين رحمه اللّه تعالى ما خاطب به السلطان على لسان جدّته، و هو:

إلى قرّة أعيننا و أعين المؤمنين، و فلذة كبدنا الذى نصل للقائه الحنين بالحنين، و عزّنا الذى حللنا من كنفه بالحرم الأمين، و سترنا الذى خلفنا رضاه من أفقده الدهر من كرم البنين، و وارثنا المستأثر بعدنا بطول السنين، أمير المسلمين الأسعد المؤيّد الموفّق الطاهر البرّ الرحيم الأرضى الكافل الفاضل حفيدنا محمد بن ولدنا الرضى و واحدنا الكريم الحفى السلطان الكبير الجليل السعيد الطاهر الظاهر المقدّس، جعل اللّه تعالى من عصمته لزيما يرافقه! و أجرى القدر بما يوافقه! و حفظ عليه الكمال الذى تناسب فيه خلقه و خلائقه! و البرّ الذى حسنت فيه طرقه و طرائقه!

من المستظلّة بظلال رضاه و برّه، المبتهلة إلى اللّه تعالى فى عزّ نصره و سعادة أمره، الداعية إلى اللّه تعالى أن يسترها فى الحياة و ما بعدها بستره، و ما يفضل عمرها من عمره، جدّته التائقة إليه، كتبته من كنفه العزيز بحمرائه العليّة عن الخير الدائم بدوامه، و اليسر الملازم ببركة أيامه، و لا- زائد بفضل اللّه تعالى إلّا الشوق إليه، و تحويم الكبد الخافقة خفوق رايته عليه، و تجهيز مواكب الدعاء المقبول من خلفه و من بين يديه.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۴۵

و قد وصل كتابه العزيز الوفادة و الوصول، الكريم الجمل و الفصول، مطلع وجه السرور و الجذل، و مهدى قصيّ الأمل، و مجدّد العهد بحديثه الذى فى ضمنه شفاء الغلل، و برء العلل، مهديا تحفة عافيته و هى الهدية التى جلّت عن المكافاة، و ترفّعت عن المجازاة، إنما يجازى عليها من يصل بفضله عادتها، و يوالى بعد الإبداء إعادتها، و وصفتم يا ولدى ما عرفتم من نعم اللّه تعالى التى انثالت عليكم سحابها، و عنايته التى يلقى ركابكم تسهالها وترحابها، و استبشار الجهات بقدومكم الميمون، و اجتلاء وجهكم الذى فيه للإسلام قرّة العيون، و كيف لا- يكون ذلك و أنتم ذخرهم العزيز، و حرزهم الحريز، و الندرة التى خلصها من معادن سلفكم الذهب الإبريز، فى أيامكم و الحمد للّه نامت أجفانهم، و تكيف أمانهم، نسأل اللّه تعالى أن يديم لنا و لهم نعمة بقائكم، و يعلى الدين بعلوّكم فى معارج العزّ و ارتقائكم، فقابلنا ما قرّره سلطانكم بالحمد و الثناء، و الشكر المتّصل على الآناء، و محضتكم من خالص الدعاء، ما يتكفّل لكم بالحسنى و ما وعد اللّه تعالى من نيل الرجاء، و تمهيد الأرجاء، و أصدرت هذا الجواب لكم مصدر الهناء، بنعم اللّه تعالى المغدقة و الآلاء، و نسأل من فضلكم و برّكم صلة التعريف بمثل هذه الأخبار السارّة و الأنباء، و إتحافنا بمثلها مع الصباح و المساء، و إن كان مجدكم غنيّا عن الشبه لمثل هذه الأشياء، أدام اللّه تعالى لكم أسباب البقاء، و كان لكم فى كلّ حال، من إقامة و ارتحال، بعزّة وجهه و قدرته»؛ انتهى.

و يرحم اللّه تعالى لسان الدين بن الخطيب، فإنه يعبّر فى كلّ مقام بما يليق، فتارة يترقّى فى أدراج البراعة، و طورا يهتك عنان اليراعة.

و أمّا شعر لسان الدين رحمه اللّه تعالى فهو من النهاية فى الحسن، و قد قدّمنا فى هذا الكتاب منه نبذة فى أثناء نثره و كلامه الذى جلبناه، و فى مواضع غيرهما؛ جملة مفيدة من شعره رحمه اللّه تعالى.

### [من شعر لسان الدين فى مدح الرسول صلّى اللّه عليه و سلم]

و قال رحمه اللّه تعالى فى «الإحاطة» ما نصّه: الشعر- و لنثبت جملة من مطوّلاته، و نتله بشىء من مقطوعاته، و نقدّم من المطوّلات أمداح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تبركا بها، فمن ذلك قولى: [الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٤٦

هل كنت تعلم فى هبوب الريح نفسا يؤجّج لاعج التّبريح

أهدتك من شيح الحجاز تحيّة فاحت لها عرض الفجاج الفيح

باللّه قل لى كيف نيران الهوى ما بين ريح فى الفلاة و شيح

و خضيبة المنقار تحسب أنها نهلت بمورد دمعى المسفوح

باحت بما تخفى و ناحت فى الدّجى فرأيت فى الآماق دعوة نوح

نطقت، بما يخفيه قلبى، أدمعى و لطالما صمتت عن التصريح

عجبا لأجفانى حملن شهادة عن خافت بين الضلوع جريح

و لقلّما كتبت رواة مدامعى فى صفحتيها حلية التجريح

جاد الحمى بعدى و أجراع الحمى جود تكلّ به متون الريح

هنّ المنازل، ما فؤادى بعدها سال، و لا وجدى بها بمريح

حسبى ولوعا أن أزور بفكرتى زوّارها و الجسم رهن نزوح

فأبثّ فيها من حديث صبابتى و أحثّ فيها من جناح جنوحى

و دجنّة كادت تضلّ بها السّرى لو لا وميضا بارق و صفيح

رعشت كواكب جوّها فكأنها ورق تقلّبها بنان شحيح

صابرت منها لجّة مهما ارتمت و طمت رميت عبابها بسبوح
حتى إذا الكفّ؟؟؟ الخضيب بأفقها مسحت بوجه للصباح صبيح
شمت المنى و حمدت إدلاج السّرى و زجرت للآمال كلّ سنيح
فكأنما ليلى نسيب قصيدتى و الصبح فيه تخلّصى لمديح
لمّا حططت لخير من وطئ الثّرى بعنان كلّ مولّد و صريح
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٤٧
رحمى إله العرش بين عباده و أمينه الأرضى على ما يوحى
و الآية الكبرى التى أنوارها ضاءت أشعّتها بصفحة يوح
ربّ المقال الصّدق و الآى التى راقت بها أوراق كلّ صحيح
كهف الأنام إذا تفاقم مغصل مثلوا بساحة بابه المفتوح
يردون منه على مثابة راحم جمّ الهبات عن الذنوب صفوح
لهفى على عمر مضى أنضيته فى ملعب للتّرّهات فسيح
يا زاجر الوجناء يعتسف الفلا و الليل يعثر فى فضول مسوح
يصل السّرى سبقا إلى خير الورى و الرّكب بين موسّد و طريح
لى فى حمى ذاك الضّريح لبانة إن أصبحت لبنى أنا ابن ذريح
و بمهبط الروح الأمين أمانة اليمن فيها و الأمان لروحى
يا صفوة اللّه المكين مكانه يا خير مؤتمن و خير نصيح
أقرضت فيك اللّه صدق محبّتى أ يكون تجرى فيك غير ربيح
حاشا و كلّا أن تخيب وسائلى أو أن أرى مسعاى غير نجيح
إن عاق عنك قبيح ما كسبت يدى يوما فوجه العفو غير قبيح
و اخجلتى من حلبة الفكر التى أغريتها بغرامى المشروح
قصرت خطاها بعد ما ضمّرتها من كلّ موفور الجمام جموح
مدحتك آيات الكتاب فما عسى يثنى على علياك نظم مديحى
و إذا كتاب اللّه أثنى مفصحا كان القصور قصار كلّ فصيح
صلّى عليك اللّه ما هبّت صبا فهفت بغصن فى الرياض مروح
و استأثر الرحمن جلّ جلاله عن خلقه بخفىّ سرّ الروح
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٤٨

### [قصيدة له فى يوم ميلاد الرسول صلّى اللّه عليه و سلم عام ٧٦٢]

و أنشدت السلطان ملك المغرب ليلة الميلاد الأعظم من عام ثلاثة و ستين و سبعمائة هذه القصيدة: [الطويل]
تألّق نجديّا فأذكرنى نجدا و هاج بى الشوق المبرّح و الوجدا
و ميض رأى برد الغمامة مغفلا فمدّ يدا بالتّبر أعلمت البردا
تبسّم فى بحريّة قد تجهّمت فما بذلت وصلا و لا ضربت وعدا

و راود منها فاركا قد تنعّمت فأهوى لها نصلا و هدّدها رعدا

و أغرى بها كفّ الغلاب فأصبحت ذلولا و لم تسطع لإمرته ردّا

فحلّتها الحمراء من شفق الضحى نضاها و حلّ المزن من جيدها عقدا

لكك اللّه من برق كأنّ وميضه يد الساهر المقرور قد قدحت زندا

تعلّم من سكانه شيم الندى فغادر أجراع الحمى روضة تندى

و توّج من نوّارها قنن الرّبا و ختّم من أزهارها القضب الملدا

لسرعان ما كانت مناسف للصّبا فقد ضحكت زهرا و قد خجلت وردا

بلاد عهدنا فى قرارتها الصّبا يقلّ لذاك العهد أن يألف العهدا

إذا ما النسيم اعتلّ فى عرصاتها تناول فيها البان و الشّيح و الرّندا

فكم فى مجانى وردها من علاقة إذا ما استثيرت أرضها أنبتت وجدا

إذا استشعرتها النفس عاهدت الجوى إذا التمحتها العين عاقدت السّهدا

و من عاشق حرّ إذا ما استماله حديث الهوى العذرىّ صيّره عبدا

و من ذابل يحكى المحبّين رقّة فيثنى إذا ما هبّ عرف الصّبا قدّا

سقى اللّه نجدا ما نضحت بذكرها على كبدى إلّا وجدت لها بردا

و آنس قلبى فهو للعهد حافظ و قلّ على الأيام من يحفظ العهدا

صبور و إن لم يبق إلّا ذبالة إذا استقبلت مسرى الصّبا اشتعلت وقدا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۴۹

صبور إذا الشوق استجاد كتيبة تجوس خلال الصبر كان لها بندا

و قد كنت جلدا قبل أن يذهب النوى ذمائى و أن يستأصل العظم و الجلدا

أ أجحد حقّ الحبّ و الدمع شاهد و قد وقع التسجيل من بعد ما أدّى

تناثر فى إثر الحمول فريده فللّه عينا من رأى الجوهر الفردا

جرى يققا فى ملعب الخدّ أشهبا و أجهده ركض الأسى فجرى وردا

و مرتحل أجريت دمعى خلفه ليرجعه فاستنّ فى إثره قصدا

و قلت لقلبى طر إليه برقعتى فكان حماما فى المسير بها هدّا

سرقت صواع العزم يوم فراقه فلجّ و لم يرقب سواعا و لا ودّا

و كحّلت عينى من غبار طريقه فأعقبها دمعا و أورثها سهدا

إلى اللّه كم أهدى بنجد و حاجر و أكنى بدعد فى غرامى أو سعدى

و ما هو إلّا الشوق ثار كمينه فأذهل نفسا لم تبن عنده قصدا

و ما بى إلّا أن سرى الركب موهنا و أعمل فى رمل الحمى النّصّ و الوخدا

و جاشت جنود الصّبر و البين و الأسى لدىّ فكان الصّبر أضعفها جندا

و رمت نهوضا و اعتزمت مودّعا فصدّنى المقدور عن وجهتى صدّا

رقيق بدت للمشترين عيوبه و لم تلتفت دعواه فاستوجب الرّدّا

تخلّف عنّى ركب طيبة عانيا أما آن للعانى المعنّى بأن يفدى

مخلّف سربى قد أصيب جناحه و طرن فلم يسطع مراحا و لا مغدى

نشدتك يا ركب الحجاز، تضاءلت لك الأرض مهما استعرض السّهب و امتدّا

و جمّ لك المرعى و أذعنت الصّوى و لم تفتقد ظلّا ظليلا و لا وردا

إذا أنت شافهت الديار بطيبة و جئت بها القبر المقدّس و اللحدا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٥٠

و آنست نورا من جناب محمد يجلّى القلوب الغلف و الأعين الرّمدا

فنب عن بعيد الدار فى ذلك الحمى و أذر به دمعا و عفّر به خدّا

و قل يا رسول اللّه عبد تقاصرت خطاه و أضحى من أحبّته فردا

و لم يستطع من بعد ما بعد المدى سوى لوعة تعتاد أو مدحة تهدى

تداركه يا غوث العباد برحمة فجودك ما أجدى و كفّك ما أندى

أجار بك اللّه العباد من الرّدى و بوّأهم ظلّا من الأمن ممتدّا

حمى دينك الدنيا و أقطعك الرّضا و توّجك العليا و ألبسك الحمدا

و طهّر منك القلب لمّا استخصّه فجلّله نورا و أوسعه رشدا

دعاه فما ولّى، هداه فما غوى سقاه فما يظما، جلاه فما يصدا

تقدّمت مختارا، تأخّرت مبعثا فقد شملت علياؤك القبل و البعدا

و علّة هذا الكون أنت، و كلّ ما أعاد فأنت القصد فيه و ما أبدا

و هل هو إلّا مظهر أنت سرّه ليمتاز فى الخلق المكبّ من الأهدى

ففى عالم الأسرار ذاتك تجتلى ملامح نور لاح للطّور فانهدّا

و فى عالم الحسّ اغتديت مبوّأ لتشفى من استشفى و تهدى من استهدى

فما كنت لو لا أن ثبتّ هداية من اللّه مثل الخلق رسما و لا حدّا

فماذا عسى يثنى عليك مقصّر و لم يأل فيك الذكر مدحا و لا حمدا

بماذا عسى يجزيك هاو على شفى من النار قد أوردته بعدها الخلدا

عليك صلاة اللّه يا كاشف العمى و مذهب ليل الروع و هو قد اربدّا

إلى كم أرانى فى البطالة كانعا و عمرى قد ولّى، و وزرى قد عدّا

تقضّى زمانى فى لعلّ و فى عسى فلا عزمة تمضى و لا لوعة تهدا

حسام جبان كلّما شيم نصله تراجع بعد العزم و التزم الغمدا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٥١

ألا ليت شعرى هل أرانى ناهدا أقود القلاص البدن و الضّامر النّهدا

رضيع لبان الصّدق فوق شملّة مضمّرة و سّدت من كورها مهدا

فتهدى بأشواقى السراة إذا سرت و تحدى بأشعارى الركاب إذا تحدى

إلى أن أحطّ الرّحل فى تربك الذى تضوّع ندّا ما رأينا له ندّا

و أطفىء فى تلك الموارد غلّتى و أحسب قربا مهجة شكت البعدا

لمولدك اهتزّ الوجود فأشرقت قصور ببصرى ضاءت الهضب و الوهدا

و من رعبه الأوثان خرّت مهابة و من هو له إيوان كسرى قد انهدّا

و غاض له الوادى و صبّح عزّه بيوتا لنار الفرس أعدمها الوقدا

رعى اللّه منها ليلة أطلع الهدى على الأرض من آفاقها القمر السّعدا

و أقرض ملكا قام فينا بحقّها لقد أحرز الفخر المؤثّل و المجدا

و حيّا على شطّ الخليج محلّة يحالف من ينتابها العيشة الرّغدا

و جاد الغمام العدّ فيها خلائفا مآثرهم لا تعرف الحصر و العدّا

عليّا و عثمانا و يعقوب، لا عدا رضا اللّه ذاك النجل و الأب و الجدا

حموا و هم فى حومة البأس و الندى فكانوا الغيوث المستهلّة و الأسدا

و للّه ما قد خلّفوا من خليفة حوى الإرث عنهم و الوصيّة و العهدا

إذا ما أراد الصّعب أغرى بنيله صدور العوالى و المطهّمة الجردا

و كم معتد أردى و كم تائه هدى و كم حكمة أخفى و كم نعمة أبدى

أبا سالم، دين الإله بك اعتلى أبا سالم، ظلّ الإله بك امتدّا

فدم من دفاع اللّه تحت وقاية كفاك بها أن تسحب الحلق السّردا

و دونكها منى نتيجة فكرة إذا استرشحت للنظم كانت صفا صلدا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٥٢

و لو تركت منى الليالى صبابة لأجهدتها ركضا و أرهقتها شدّا

و لكنه جهد المقلّ بلغته و قد أوضح الأعذار من بلغ الجهدا

### [من نظم لسان الدين يخاطب السلطان أبا عنان على أثر انصرافه من بابه]

و قلت أخاطب السلطان الملك الكبير العالم أبا عنان على أثر انصرافى من بابه رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

أبدى لداعى الفوز وجه منيب و أفاق من عذل و من تأنيب

كلف الجنان إذا جرى ذكر الحمى و البان حنّ له حنين النّيب

و النفس لا تنفكّ تكلف بالهوى و الشّيب يلحظها بعين رقيب

رحل الصّبا فطرحت فى أعقابه ما كان من غزل و من تشبيب

أ ترى التغزّل بعد أن ظعن الصّبا شأنى الغداة أو النسيب نسيبى

أنّى لمثلى بالهوى من بعد ما للوخط فى الفودين أىّ دبيب

لبس البياض و حلّ ذروة منبر منّى و والى الوعظ فعل خطيب

قد كان يسترنى ظلام شبيبتى و الآن يفضحنى صباح مشيبى

و إذا الجديدان استجدّا أبليا من لبسة الأعمار كلّ قشيب

سلنى عن الدهر الخؤون و أهله تسل المهلّب عن حروب شبيب

متقلّب الحالات فاخبر تقله مهما أعدت يدا إلى تقليب

فكل الأمور إذا اعترتك لربّها ما ضاق لطف الرّبّ عن مربوب

قد يخبأ المحبوب فى مكروهها من يخبأ المكروه فى المحبوب

و اصبر على مضض الليالى إنها لحوامل سيلدن كلّ عجيب

و اقنع بحظّ لم تنله بحيلة ما كلّ رام سهمه بمصيب

يقع الحريص على الردى و لكم غدا ترك التسبّب أنفع التسبيب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٥٣

من رام نيل الشيء قبل أوانه رام انتقال يلملم و عسيب

فإذا جعلت الصبر مفزع معضل عاجلت علّته بطبّ طبيب

و إذا استعنت على الزمان بفارس لبّى نداءك منه خير مجيب

بخليفة اللّه الذى فى كفّه غيث يروّض ساح كلّ جديب

المنتقى من طينة المجد الذى ما كان يوما صرفه بمشوب

يرمى الصّعاب بصعبه فيقودها ذللا على حسب الهوى المرغوب

و يرى الحقائق من وراء حجابها لا فرق بين شهادة و مغيب

من آل عبد الحقّ حيث توشّحت شعب العلا و ربت بأىّ كثيب

أسد الشّرى سرج الورى فمقامهم للّه بين محارب و حروب

إمّا دعا الداعى و ثوّب صارخا ثابوا و أمّوا حومة التثويب

شهب ثواقب فى سماء عجاجة مأثورها قد صحّ بالتجريب

ما شئت فى آفاقها من رامح يبدو و كفّ بالنجيع خضيب

عجبت سيوفهم لشدّة بأسهم فتبسّمت و الجوّ فى تقطيب

نظموا بلبّات العلا و استوسقوا كالرّمح أنبوبا على أنبوب

تروى العوالى و المعالى عنهم أثر الندى المولود و المكسوب

من كلّ موثوق به إسناده بالقطع أو بالوضع غير معيب

فأبو عنان عن علىّ نصّه للنقل عن عثمان عن يعقوب

جاؤوا كما اتّسق الحساب أصالة و غدوا فذالك ذلك المكتوب

متجسّدا من جوهر النور الذى لم ترم يوما شمسه بغروب

متألّقا من مطلع الحقّ الذى هو نور أبصار و سرّ قلوب

قل للزمان و قد تبسّم ضاحكا من بعد طول تجهّم و قطوب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٥٤

هى دعوة الحقّ التى أوضاعها جمعت من الآثار كلّ غريب

هى دعوة العدل الذى شمل الورى فالشاة لا تخشى اعتداء الذيب

لو أنّ كسرى الفرس أدرك فارسا ألقى إليه بتاجه المعصوب

لمّا حللت بأرضه مستمليا ما شئت من برّ و من ترحيب

شمل الرّضا فكأنّ كلّ أقاحة تومى بثغر للسلام شنيب

و أتيت فى بحر القرى أمّ القرى حتى حططت بمرفإ التقريب

فرأيت أمن اللّه فى ظلّ التّقى و العدل تحت سرادق مضروب

و رأيت سيف اللّه مطرور الشّبا يمضى القضاء بحدّه المرهوب

و شهدت نور الحقّ ليس بآفل و الدّين و الدنيا على ترتيب

و وردت بحر العلم يقذف موجه للناس من درر الهدى بضروب

للّه من شيم كأزهار الرّبا غبّ انثيال العارض المسكوب

و جمال مرأى فى رداء مهابة كالسيف مصقول الفرند مهيب

يا جنّة فارقت من غرفاتها دار القرار بما اقتضته ذنوبى

أسفى على ما ضاع من حظّى بها لا تنقضى ترحاته و نحيبى

إن أشرقت شمس شرقت بعبرتى و تفيض فى وقت الغروب غروبى

حتى لقد علّمت ساجعة الضحى شجوى و جانحة الأصيل شحوبى

و شهادة الإخلاص توجب رجعتى لنعيمها من غير مسّ لغوب

يا ناصر الدين الحنيف و أهله إنضاء مسغبة و فلّ خطوب

حقّق ظنون بنيه فيك فإنهم يتعلّلون بوعدك المرقوب

ضاقت مذاهب نصرهم فتعلّقوا بجناب عزّ من علاك رحيب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٥٥

و دجا ظلام الكفر فى آفاقهم أو ليس صبحك منهم بقريب

فانظر بعين العزّ من ثغر غدا حذر العدا يرنو بطرف مريب

نادتك أندلس و مجدك ضامن أن لا يخيب لديك ذو مطلوب

غصب العدوّ بلادها و حسامك ال ماضى الشّبا مسترجع المغصوب

أرض السوابح فى المجاز حقيقة من كلّ قعدة محرب و جنيب

يتأوّد الأسل المثقّف فوقها و تجيب صاهلة رغاء نجيب

و النصر يضحك كلّ مبسم غرّة و اليمن معقود بكلّ سبيب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج٨؛ ص١٥٥

و الروم فارم بكلّ نجم ثاقب يذكى بأربعها شواظ لهيب

بذوابل السّلب التى تركت بنى زيّان بين مجدّل و سليب

و أضف إلى لام الوغى ألف القنا تظهر لديك علامة التغليب

إن كنت تعجم بالعزائم عودها عود الصليب اليوم غير صليب

و لك الكتائب كالخمائل أطلعت زهر الأسنّة فوق كلّ قضيب

فمرنّح العطفين لا من نشوة و مورّد الخدّين غير مريب

يبدو سداد الرأى فى راياتها و أمورها تجرى على تجريب

و ترى الطيور عصائبا من فوقها لحلول يوم فى الضلال عصيب

هذّبتها بالعرض يذكر يومه عرض الورى للموعد المكتوب

و هى الكتائب إن تنوسى عرضها كانت مدوّنة بلا تهذيب

قدّمت سالبة العدوّ و بعدها أخرى بعزّ النصر ذات وجوب

حتى إذا فرض الجلاد جداله و رأيت ريح النصر ذات هبوب

و إذا توسّط وصل سيفك عندها جزأى قياسك فزت بالمطلوب

و تبرّأ الشيطان لمّا أن علا حزب الهدى من حزبه المغلوب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٥٦

الأرض إرث و المطامع جمّة كلّ يهشّ إلى التماس نصيب

و خلائف التّقوى هم ورّاثها فإليكها بالحظّ و التّعصيب

لكأننى بك قد تركت ربوعها قفرا بكرّ الغزو و التعقيب

و أقمت فيها مأتما لكنه عرس لنسر بالفلاة و ذيب

و تركت مفلتها بقلب واجب رهبا و خدّ بالأسى مندوب

تبكى نوادبها و ينقلن الخطا من شلو طاغية لشلو سليب

جعل الإله البيت منك مثابة للعاكفين و أنت خير مثيب

فإذا ذكرت كأنّ هبّات الصّبا قضّت بمدرجها لطيمة طيب

لو لا ارتباط الكون بالمعنى الذى قصر الحجا عن سرّه المحجوب

قلنا لعالمك الذى شرّفته حسد البسيط مزيّة التركيب

و لأجل قطرك شمسها و نجومها عدلت من التشريق للتغريب

تبدو بمطل أفقها فضيّة و تغيب عندك و هى فى تذهيب

مولاى، أشواقى إليك تهزّنى و النار تفضح عرف عود الطّيب

بحلى علاك أطلتها و أطبتها و لكم مطيل و هو غير مطيب

طالبت أفكارى بفرض بديهها فوفت بشرط الفور و التّرتيب

متنبئ أنا فى حلى تلك العلا لكنّ شعرى فيك شعر حبيب

و الطبع فحل، و القريحة حرّة فاقبله بين نجيبة و نجيب

هابت مقامك فاطّنيت صعابها حتى غدت ذللا على التّدريب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٥٧

لكننى سهّلتها و أدلتها من كلّ وحشىّ بكلّ ربيب

إن كنت قد قاربت فى تعديلها لا بدّ فى التّعديل من تقريب

عذرى لتقصيرى و عجزى ناسخ و يجلّ منك العفو عن تثريب

من لم يدن للّه فيك بقربة هو من جناب اللّه غير قريب

### [قصيدة له يهنئ بها السلطان و قد أعذر أولاده]

و لمّا احتفل السلطان لإعذار ولده نظمت هذه القصيدة مساعدة لمن نظم من الأصحاب، و تشتمل على أوصاف من ذكر الحلبة التى أرسلها، و الطلبة التى نصبها فى الهواء للفرسان يرسلون العصى إليها، و الثيران التى أرسل عليها الأكلب الرومية تمسكها فى صورة القرط من آذانها، و هى آخر النظم فى الأغراض السلطانية، قصر اللّه تعالى ألسنتنا على ذكره، و شغلها به عن غيره!: [الطويل]

شحطت وفود الليل بان به الوخط و عسكره الزنجىّ همّ به القبط

أتاه وليد الصّبح من بعد كبرة أ يولد أجنى ناحل الجسم مشمطّ

كأنّ النجوم الزّهر أعشار سورة و من خطرات الرّجم أثناءها مطّ

و قد وردت نهر المجرّة سحرة غوائص فيه مثل ما تفعل البطّ

و قد جعلت تفلى بأنملها الفلا و يرسل منها فى غدائره مشط

يشفّ عباب الليل عنها جواهرا فيكثر فيها النّهب للحين و اللّقط

فسارت خيالا مثلها، غير أنه من البثّ و الشكوى يبين له لغط

سرت سلخ شهر فى تلفّت مقلة على قتب الأحلام تسمو و تنحطّ

لى اللّه من نفس شعاع و مهجة إذا قدحت لم يخب من زندها سقط

و نقطة قلب أصبحت منشأ الهوى و عن نقطة مفروضة ينشأ الخطّ

فأقسم لو لا زاجر الشّيب و النّهى و نفس لغير اللّه ما خضعت قطّ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٥٨

لريع لها الأحراس منّى بطارق مفارقه شمط و أسيافه شمط

تناقله كوماء سامية الذّرا و يقذفه شهم من النّيق منحطّ

و لو لا النّهى لم تستهن سبل الهدى و كاد وزان الحقّ يدركه الغمط

و لو لا عوادى الشّيب لم يبرح الهوى يهيّجه نوء على الرّمل مختطّ

و لو لا أمير المسلمين محمد لهالت بحار الرّوع و احتجب الشّط

ينوب عن الإصباح إن مطل الدّجى و يضمن سقى السّرح إن عظم القحط

تقرّ له الأملاك بالشّيم العلا إذا بذل المعروف أو نصب القسط

أرادوه فارتدّوا و جاروه فانثنوا و ساموه فى مرقى الجلالة فانحطّوا

تبرّ على المدّاح غرّ خلاله و ما رسموا فوق الطّروس و ما خطّوا

تعلّم منه الدهر حاليه فى الورى: فآونة يسخو، و آونة يسطو

و يجمع بين القبض و البسط كفّه بحكمة من فى كفّه القبض و البسط

خلائق قد طابت مذاقا و نفحة كما مزجت بالبارد العذب إسفنط

أسبط الإمام الغالبىّ محمد و يا فخر ملك كنت أنت له سبط

وقتك أواقى اللّه من كلّ غائل فأىّ سلاح ما المجنّ و ما اللّمط

لقد زلزلت منك العزائم دولة أناخت على الإسلام تجنى و تشتطّ

إيالة غدر ضيّع اللّه ركنها و نادى بأهليها التّبار فلم يبطوا

على قدر جلّى بك اللّه بؤسها و لا يكمل البحران أو ينضج الخلط

و كانوا نعيم الجنّتين تفيّؤوا و لمّا يقع منها النزول و لا الهبط

فقد عوّضوا بالأثل و الخمط بعدها و هيهات أين الأثل منها أو الخمط

فمن طائح فوق العراء مجدّل و من راسف فى القيد أرهقه الضغط

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٥٩

و أتحف منك اللّه أمّة أحمد أمانا كما يضفو على الغادة المرط

أنمت على مهد الأمان عيونها فيسمع من بعد السّهاد لها غطّ

و صمّ صدى الدنيا فلمّا رحمتها تزاحم مرتاد عليها و محتطّ

و أحكمت عقد السّلم لم تأل بعده و جاء فصحّ العقد و استوثق الرّبط

و أيقن مرتاب، و أصحب نافر و أذعن معتاص، و أقصر مشتطّ

و للّه مبناك الذى معجزاته سمت أن توافيها الشّفاه أو الخطّ

و أنست غريب الدار مسقط رأسه و من دون فرخيه القتادة و الخرط

تناسبت الأوضاع فيك و أحكمت على قدر حتى الأرائك و البسط

فجاء على وفق العلا رائق الحلى كما سمّط المنظوم أو نظم السّمط

و للّه إعذار دعوت له الورى فهبّوا لداعيه المهيب و إن شطّوا

تقودهم الزّلفى، و يدعوهم الرّضا و يحدوهم الخصب المضاعف و الغبط

و أغريت بالبهم العلاج تحفّيا فلم يدخر الشىء الغريب و لا السّمط

أتت صورة معلولة عن مزاجها و أصل اختلاف الصورة المزج و الخلط

قضيت بها دين الزمان، و لم يزل أكدّ كذوب الوعد يلوى و يشتطّ

و أرسلت يوم السّبق كلّ طمرّة كما قذف الملمومة النار و النّفط

رنت عن كحيل كالغزال إذا رنا و أوفت بهاد كالظّليم إذا يعطو

و قامت على منحوتة من زبرجد تخطّ على الصّم الصّلاب إذا تخطو

و كلّ عتيق من تماثل رومة تأنّق فى استخطاطه القسّ و القمط

و طاعنه نحر السّكاك أعانها على الكون عرق واشج و لحى سبط

تلقّف حيات العصىّ إذا هوت فثعبانها لا يستقيم له سرط

أزرت بها بحر الهواء سفينة على الجوّ لا الجودى كان لها حطّ

و طاردت مقدام الصّوار بجارح يصاب به منه الصّماخ أو الإبط



متين الشّوى فى رأسه سمهريّة مقصّرة عنهنّ ما ينبت الخطّ

و قد كان ذا تاج فلمّا تعلّقا بسامعتيه زانه منهما قرط

و جىء بشبل الملك ينجد عزمه عليه الحفاظ الجعد و الخلق السّبط

سمحت به لم ترع فرط ضنانة و فى مثلها من سنّة يترك الفرط

فأقدم مختارا، و حكّم عاذرا و لم يشتمل مسك عليه و لا ضبط

و لو غير ذات اللّه رامته نضنضت قنا كالأفاعى الرّقط أو دونها الرّقط

و أسد نزال من ذؤابة خزرج بهاليل لا روم القديم و لا قبط

جلّادهم مثنى إذا اشتجر الوغى كأنّ رعاء بالعضاه لها خبط

كتائب أمثال الكتاب تتاليا فمن بيضها شكل، و من سمرها نقط

دليلهم القرآن، يا حبّذا الهدى و رهطهم الأنصار يا حبّذا الرّهط

و بيض كأمثال البروق غمامها إذا وشحت سحب القتام دم عبط

و لكنه حكم يطاع و سنّة و أعمال برّ لا يليق بها الحبط

و ربّت نقص للكمال مآله و لا غرو فالأقلام يصلحها القطّ

فهنّيته صنعا و دمت مملّكا عزيزا تشيد المعلوات و تختطّ

و دون الذى يهدى ثناؤك فى الورى من الطّيب ما تهدى الألوّة و القسط

رضيت و من لم يرض بالله حاكما ضلالا فللّه الرّضا و له السّخط

حياتك للإسلام شرط حياته و لا يوجد المشروط إن عدم الشّرط

### [من نظمه عن كتاب أبيات الأبيات و الكتاب المسمى: الصيب و الجهام]

هذا كاف فى المطوّلات لنجلب منها عرضا يدلّ على حبوبها، و نتحف منها أنفس الظرفاء بمطلوبها، منقولة من الكتاب المسمى ب «أبيات الأبيات» و من الكتاب المسمى ب «الصّيّب و الجهام».

فمن التورية على طريقة المشارقة قولى: [الخفيف]

مضجعى فيك عن قتادة يروى و روى عن أبى الزّناد فؤادى



و كذا النوم شاعر فيك أمسى من دموعى يهيم فى كلّ وادى

و من هذا الباب أيضا: [الطويل]

و لمّا رأت عزمى حثيثا على السّرى و قد رابها صيرى على موقف البين

أتت بصحاح الجوهرىّ دموعها فعارضت من دمعى بمختصر العين

و فى هذا المعنى: [الوافر]

كتبت بدمع عينى صفح خدّى و قد منع الكرى هجر الخليل

و راب الحاضرين، فقلت: هذا كتاب العين ينسب للخليل

و من الأغراض الظريفة فيها: [الطويل]

تعجّلت وخط الشيب فى زمن الصّبا لخوضى غمار الهمّ فى طلب المجد

فمهما رأيتم شيبة فوق مفرقى فلا تنكروها إنها شيبة الحمد

و من التورية بالنجوم و الكاتب بيته بيت شرفه: [المتقارب]

بأوت على زمنى همّة فأعتبنى الزمن العاتب

و شرّفنى اللّه فى موطنى و فى بيته يشرف الكاتب

و أبدع منها قولى لمن يدعى بشمس الدين: [الرمل]

قل لشمس الدين وقّيت الردى لم يدع سقمك عندى جلدا

رمدت عينك هذا عجب أو عين الشمس تشكو الرّمدا

و قلت فى غرض التورية بما يظهر من الأبيات: [مجزوء الكامل]

أفل الألى كانوا نجو ما للورى فالكون مظلم

و تناكر الناس الحدى ث الحقّ و افتقد المعلّم

أنا كاتب السلطان ما طالعت قطّ كتاب مسلم

إلّا سخاما قادحا فى الدين و اللّه المسلّم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۶۲

و فى معنى الدعابة مع بعض الطلبة: [الخفيف]

قال لى عندما أتى بجدال و شكوك على أصول الدين

و لسانى يبدّل الدال تاء عاجز فى الأمور عن تبيين

التمس مخرجا يوافق قولى قلت: أحسنت يا جلال التّين

و فى التورية: [السريع]

اذمم ذوى التطفيل مهما أتى و إن تكن أجملتهم فاعنه

يمشى على رجليه مع أنه من جنس من يمشى على بطنه

و قلت: [السريع]

أفقد جفنىّ لذيذ الوسن من لم أزل فيه خليع الرّسن

عذاره المسكىّ فى خدّه أنبته اللّه النبات الحسن

و قلت فى رثاء من اسمه حسن: [البسيط]

أشكو إلى اللّه من بثّى و من شجنى لم أجن من محنتى شيئا سوى محن

أصابت الحسن العين التى رشقت و عادة العين لا تصمى سوى الحسن

و فى الشيب: [الطويل]

تفرّ عن الشّيب الغوانى تعزّزا كما يعتريها إن رأت سامّ أبرصا

بدا وضحا فى جدة العمر شانيا فمن سام شيخا فهو قد سام أبرصا

و قلت فى السها من النجوم الجوفية: [الكامل]

قالوا السها بادى النحول كأنه متستّر تبدو مخايل خوفه

أ تراه يشكو؟ قلت: هذا ممكن و اللّه يعلم داره من جوفه

و قلت: [المنسرح]

عابوا و قالوا: بساقه شعر لقد عداه الكمال من ساق

قلت انظروا ورد روض وجنته و كلّ ورد مشوّك الساق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۶۳

و قلت فى التضمين: [الخفيف]

رفعت قصة اشتياقى ليحيى فزوى الوجه رافضا للفتوّه

و رمى بالكتاب ضعف اهتبال قلت يحيى خذ الكتاب بقوّه

و قلت: [الطويل]

و ذى حيل يعيى التّقيّة أمره مكايده فى لجّة الليل تسبح

يدبّ شبول اللبث و الليث ساهر و يسرق ناب الكلب و الكلب ينبح

و قلت: [الكامل]

لمّا رأوا كلفى به و دروا مقدار ما لى فيه من حبّ

قالوا الفتى حلو فقلت لهم طلعت حلاوته على قلبى

و قلت، و لهما حكاية: [الطويل]

و ذى زوجة تشكو فقلت له اسقها دواء من الحبّ المليّن للبطن

فقال: أبت شرب الدواء بطبعها فقلت اسقها إن عافت الشرب بالقرن

و قلت: [الكامل]

لعنوا بريّا من خبائث ظنّهم فاللّه يلعن أهل سوق العنبر

و اللّه لا أوطأت ساقى سوقهم أبد الزمان فتلك سوق العن برى

و من الفكاهات: [المتقارب]

و لمّا دعانى داعى الهوى و أخلف ما كنت أمّلته

و لم يبق غير البكا حيلة بكيت بمقدار ما نلته

و قلت، و قد رفع للسلطان باكورة بنفسج: [الكامل]

قدم البنفسج و هو نعم الوارد قد نمّ منه إلىّ طيب زائد

فسألته: ما باله؟ فأجابنى و الحقّ لا يبغى عليه شاهد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١۶۴

أقبلت أطلب من بنان محمد صلة فعاد علىّ منه عائد

و قلت من التشبيه: [الطويل]

سهرنا و فى سير النجوم اعتبارنا إلى أن ضفا للّيل من فوقنا ريط

فخلنا شهاب الرجم إبرة خائط مسوحا و ما يبقى من الذّنب الخيط

و قلت أودّع صديقا أنست به: [المتقارب]

فلاحة مثلى ممقوتة و إن أعجب البدء منها وراق

زرعت اللقاء و عالجته فلم أستفد منه إلّا الفراق

و من تضمين المثل: [المديد]

لا تهج بالذكر فى كبدى نار وجد شقّ محتمله

و يقول الناس فى مثل لا تحرّك من دنا أجله

و من المدح: [الكامل]

عجبا لراحتك الملثّة بالندى أن لا تكون على الغمام غماما

يهمى و وجهك نوره متألّق و القطر إن سحب السحاب أغاما

و من أبيات المدح: [البسيط]

يا ناصر الدين لمّا قلّ ناصره و مطلع الجود فى الدنيا و قد أفلا

لو لا التشهّد و الترداد منك له لم يسمع الناس يوما من لسانك لا

و من أوصاف صنيع سلطانى: [الكامل]

ما ذا أحدّث فى صنيع خلافة هشّت إليه الشّهب فى آفاقها

فكأنما الجوزاء حين تعرّضت شدّت لتخدم فيه عقد نطاقها

و من قصيدة فى وصف فرس: [الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۶۵

فبوّأته من مهجتى متبوّأ خفيّا على سرّ الفؤاد المكتّم

و يا عجبا منى و فرط تشيّعى أهيم بوجدى فيه و هو ابن ملجم

و من الحماسة فى التورية بالمنطق: [الكامل]

حتى إذا فرض الجلاد جداله و رأيت ريح النصر ذات هبوب

قدّمت سالبة العدوّ و بعدها أخرى بعزّ النصر ذات وجوب

و إذا توسّط حدّ سيفك عندها جزأى قياس فزت بالمطلوب

و فى خاتمة قصيدة: [الكامل]

ما ضرّنى إن لم أجىء متقدّما السبق يعرف آخر المضمار

و لئن غدا ربع البلاغة بلقعا فلربّ كنز فى أساس جدار

و من المدح: [البسيط]

إن أبهم الخطب جلّى فى دجنّته رأيا يفرّق بين الغى و الرشد

و إن عتا الدهر أبدى من أسرّته و كفّه هدى حيران وريّ صد

و إن نظرت إلى لألاء غرّته يوم الهياج رأيت الشمس فى الأسد

و من الأوصاف فى قصيدة: [الرمل]

كم ليال بتّ فى ظلمائها أمتطى من نار شوقى فرشا

و كأنّ النجم شرب ثمل واصل الثملة حتى ارتعشا

و من التورية بالكفّتين من الحيل العددية: [البسيط]

لا عدل فى الملك إلّا و هو قد نصبه و صيّر الخلق فى ميزانه عصبه

و الكفّتان ترى من كفّه درتا أن تخرج العدد المجهول للطلبه

و فى رجال يحتال على الولاية: [الوافر]

حلفت لهم بأنّك ذو يسار و ذو ثقة و برّ فى اليمين

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۶۶

ليستندوا إليك بحفظ مال فتأكل باليسار و باليمين

و قلت، و لهما حكاية تظهر من الأبيات: [الخفيف]

قلت لمّا استقلّ مولاى زرعى و رأى غلّة الطعام قليله

دمنتى لانتجاعى الحرث كلّت فهى اليوم دمنة و كليله

و ممّا صدرت به كتابا لأحد الفضلاء: [الكامل]

يا من تقلّد للعلاء سلوكا و الفضل صيّر نهجه مسلوكا

كاتبتنى متفضّلا فملكتنى لا زلت منك مكاتبا مملوكا

و قلت فى غرض يظهر منه: [الرمل]

جلس المولى لتسليم الورى و لفصل البرد فى الجوّ احتكام

فإذا ما سألوا عن يومنا قلت: هذا اليوم برد و سلام

و قلت من التورية: [المجتث]

يا مالكى بخلال تهدى إلى القلب حيره

أضرمت قلبى نارا يا مالك بن نويره

و قلت أيضا: [الوافر]

أضاف إلى الجفون السود شعرا كجنح الليل أو صبغ المداد

فقلت أمير هذا الحسن تزكوا الأ جور له بتكثير السواد

و قلت أيضا: [مجزوء الرمل]

بأبى بدر غزانى مستبيحا شرح صدرى

فأنا اليوم شهيد ال حبّ من غزوة بدر

و قلت، و لهما حكاية: [الطويل]

أيا ليلة بالخصب لم تأل شهرة كما اشتهرت فى فضلها ليلة القدر

فآمن قلب اللوز من علّة النوى و أصبح فيها التين منشرح الصّدر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١۶٧

و من النزعات المشرقية فى التورية: [الكامل]

يا قائدى نحو الغرام بمقلة نفقت حلاوتها بكلّ فؤادى

ما ذا جنيت علىّ من مضض الهوى اللّه ينصف منك يا قوّادى

و من هذا النمط المشرقى: [الطويل]

و قالت حلقت الكسّ منى بنورة فقلت لها استنصرت من ليس ينصر

ألا فابلغى عنى فديتك و اصدقى محلّق ذاك الكسّ أنى مقصّر

و منها: [الخفيف]

قال لى و الدموع تنهلّ سحّا فى عراض من الخدود محول

بك ما بى فقلت مولاى عافا ك المعافى من عبرتى و نحولى

أنا جفنى القريح يروى عن الأع مش، و الجفن منك عن مكحول

و من أبيات التورية أو ما داخلته: [الكامل]

فى مصر قلبى من خزائن يوسف حبّ و عير مدامعى تمتاره

حلّيت شعرى باسمه فكأنه فى كلّ قطر حلّه ديناره

و من المدح أيضا و لا أستحضر لقبه: [المتقارب]

رأيت بكفّك اعتبارا بأسا و ندى ما إن يبارى

فقلت و قد عجبت منها يا بحر، متى تدعو نوارا

و قلت ممّا يجرى مجرى الحكم: [الكامل]

إنّ الهوى لشكاية معروفة صبر التصبّر من أجلّ علاجها

و النفس إن ألفت مرارة طعمه ضمنت بذاك له صلاح مزاجها

و من الغرائب فى الأوصاف: [المجتث]

كأنما الروض ملك باهى به جلساه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۶۸

يرضى النديم فمهما سقى الرياض كساه

و فى غرض النسيب: [الخفيف]

أصبح الخدّ منك جنّة عدن مجتلى أعين و شمّ أنوف

ظلّلته من الجفون سيوف جنّة الخلد تحت ظلّ السيوف

و قلت فى النسيب: [الكامل]

أرسلت طرفى فى حلاك بنظرة هى كانت السبب الغريب لما بى

و أراك بالعبرات قد عاقبتها ليس الرسول بموضع لعقاب

و من تحسين القبيح: [الطويل]

و أحول يعدى القلب سهم جفونه فتضحى صحيحات القلوب به مرضى

رأى الحسن أنّ اللحظ منه مهنّد فحرّفه كيما يكون له أمضى

و من النزعات الحسنة: [الكامل]

من لى بذكرى كلّما أوجستها تمحو سلوّى و اشتياقى تثبت

و سحاب دمع كلّما أمطرته غير القتاد بمضجعى لا ينبت

و من النسيب: [البسيط]

جاء العذار بظلّ غير ممدود فمنتهى الحسن منه غير محدود

ناديت قلبى إذ لاحت طلائعه يا صبر أيوب هذا درع داود

و فى نقيضه: [البسيط]

ما ضرّ منّى أن أخلفت موعودى و روض خدّك أضحى ذاوى العود

و قال قوس عذار فوق صفحته سفينة الحسن قد حطّت على الجودى

و من التضمين: [السريع]

يا من بأكناف فؤادى ربع قد ضاق بى عن حبّك المتّسع

ما فيك لى جدوى و لا أرعوى «شحّ مطاع و هوى متّبع»

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۶۹

و من الأغراض المخترعة: [المنسرح]

أنكرت لمّا أطلّ عارضه فقال لى حين رابه نظرى

أ لم تقل لى بأننى قمر فانظر إلى وبر أرنب القمر

و من التضمين: [البسيط]

يا كوكب الحسن يا معناه يا قمره يا روضه المتناهى الرّيع يا ثمره

أمرتنى بسلوّ عنك ممتنع «مأمور حسنك لمّا يقض ما أمره»

و قلت: [الكامل]

لمّا رضيت بفرقتى و بعادى و صرمت آمالى و خنت ودادى

لاعنت أمّ الصبر فيك و بعده ورّثت للأشجان كنز فؤادى

فالصبر منى أجنبىّ بعدها و لواعج الأشجان من أولادى

و من الأغراض المشرقية: [الخفيف]

سار بى للأمير يشكو اعتراضى يوسف و الشهود أبناء جنسه

قال لى ما تقول قلت مجيبا لم نخف من نكاله أو لحبسه

حصحص الحقّ يا خوند فدعنى أنا راودت يوسفا عن نفسه

و من الأوصاف: [البسيط]

بتنا نطارح همّ القحط ليلتنا و أيّد الهمّ و السّهد البراغيثا

و كان يحمد ما كنّا نكابده من المشقّة لو أنّ البراغيثا

و فى قريب من المعنى: [الطويل]

و قالوا بدت منكم على الجسم حمرة فقلت براغيث لكم رقّطونا

عدت نحونا ليلا و من بعدنا اغتدت كما رقصت فى القلو بزر قطونا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٧٠

و من التضمين: [مجزوء الرجز]

قال جوادى عند ما همزت همزا أعجزه

إلى متى تهمزنى وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ

و فى رثاء السلطان أبى الحجاج رحمه اللّه تعالى: [السريع]

غبت فلا عين و لا مخبر و لا انتظار منك مرقوب

يا يوسف، أنت لنا يوسف و كلّنا فى الحزن يعقوب

و قلت، و لهما حكاية: [الرمل]

طال حزنى لنشاط ذاهب كنت أسقى دائما من حانه

و شباب كان يندى نضرة نزل الثلج على ريحانه

و قلت، و قد أعجبنى نشاط ولدى: [الرمل]

سرق الدهر شبابى من يدى ففؤادى مسعر بالكمد

و حمدت الأمر إذ أبصرته باع ما أفقدنى من ولدى

و قلت، و لهما حكاية: [الخفيف]

قلت للشيب لا يربك جفائى فى اختصارى لك البرور و مقتك

أنت بالعتب يا مشيبى أولى جئتنى غفلة و فى غير وقتك

و ممّا خططته فى رملة نزلتها: [الوافر]

أقمنا برهة ثم ارتحلنا كذاك الدهر حال بعد حال

و كلّ بداية فإلى انتهاء و كلّ إقامة فإلى ارتحال

و من سام الزمان دوام أمر فقد وقف الرجاء على المحال

و قلت أيام مقامى بسلا: [الطويل]

أيا أهل هذا القطر ساعده القطر بليت فدلّونى لمن يرفع الأمر

تشاغلت بالدنيا و نمت مفرّطا و فى شغلى أو نومتى سرق العمر

و قلت، و البقاء للّه وحده، و به نختم الهذر: [مجزوء الرمل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۷۱

عدّ عن كيت و كيت ما عليها غير ميت

كيف ترجو حالة البق يا لمصباح و زيت

انتهى ما نقلته من «الإحاطة» من ترجمة نظمه، و بعض ما ذكر هنا قد تقدّم، و كرّرته لكونه بلفظة فى «الإحاطة»، و قد ذكرت أثناء الأبواب غير هذا الباب من نظم لسان الدين- رحمه اللّه تعالى!- كثيرا، و لنعزّز ذلك هنا بذكر ما لم يتقدّم ذكره، إذ نظمه بحر لا ساحل له، و لذا كتب ابنه أبو الحسن على هذا المحلّ من الإحاطة ما صوته: و لوالدى أيضا المترجم به- رحمه اللّه تعالى!- فى سكين الأضاحى لسلطانه أبى الحجاج يوسف بن نصر فيما يكتب بالسكين المضحية: [الطويل]

لى الفخر إن أبصرتنى أو سمعت بى على كلّ مصقول الغرارين مرهف

كفانى فخرا أن ترانى قائما بسنّة إبراهيم فى كفّ يوسف

و مقطوعاته كثيرة لم يتضمّن هذا الديوان منها إلّا القليل بسبب الاختصار، و من أراد الوقوف على جملتها فعليه بكتاب «الصّيّب و الجهام» فى شعره، رحمه اللّه تعالى! قال ذلك ولده على، لطف اللّه تعالى به! آمين؛ انتهى.

### [من شعره يتشوق إلى قصر باديس]

فمن ذلك قوله رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

عسى خطرة بالرّكب يا حادى العيس على الهضبة الشّمّاء من قصر باديس

لنظفر من ذكّ الزلال بعلّة و ننعم فى تلك الظلال بتعريس

حبست بها ركبى فواقا، و إنما عقدت على قلبى بها عقد تحبيس

لقد رسخت آى الجوى فى جوانحى كما رسخ الإنجيل فى قلب قسّيس

بميدان جفنى للسّهاد كتيبة تغير على سرح الكرى فى كراديس

و ما بى إلّا نفحة حاجريّة سرت و الدّجى ما بين وهن و تغليس

ألا نفس يا ريح من جانب الحمى تنفّس من نار الجوى بعض تنفيس

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۷۲

و يا قلب لا تلق السلاح فربما تعذّر فى الدّهر اطّراد المقاييس

و قد تعتب الأيام بعد عتابها و قد يعقب اللّه النعيم من البوس

و لا تخش لجّ الدمع يا خطرة الكرى إلى الجفن بل قيسى على صرح بلقيس

تقول سليمى ما لجسمك شاحبا مقالة تأنيب يشاب بتأنيس

و قد كنت تعطو كلّما هبّت الصّبا بريّان فى ماء الشبيبة مغموس

و من رابح الأيام يا ابنة عامر بجوب الفلا راحت يداه بتفليس

فلا تحسبى و الصّدق خير سجيّة ظهور النّوى إلّا بطون النواميس

و قفراء أمّا ركبها فمضلّل و مربعها من آنس غير مأنوس

سحبنا بها من هضبة لقرارة ضلالا و ملنا من كناس إلى خيس

إذا ما نهضنا عن مقيل غزالة نزلنا فعرّسنا بساحة عرّيس

أدرنا بها كأسا دهاقا من السّرى أملنا بها عند الصباح من الرّوس

و حانة خمّار هدانا لقصدها شميم الحميّا و اصطكاك النواقيس

تطلّع ربّانيّها من جداره يهينم فى جنح الظلام بتقديس

بكرنا و قلنا إذ نزلنا بساحة عن الصافنات الجرد و الضّمّر العيس:

أيا عابد الناسوت إنّا صبابة أتينا لتثليث، بلى، و لتسديس

و ما قصدنا إلّا المقام بحانة و كم ألبس الحقّ المبين بتلبيس

فأنزلنا فورا على جنباتها محاريب شتى لاختلاف النواميس

بدرنا بها طين الختام بسجدة أردنا بها تجديد حسرة إبليس

و دار العذارى بالمدام كأنها قطا تتهادى فى رياش الطواويس

و صارفنا فيها نضارا بمثله كأنّا ملأنا الكاس ليلا من الكيس

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٧٣

و قمنا نشاوى عند ما متع الضحى كما نهضت غلب الأسود من الخيس

فقال لبئس المسلمون ضيوفنا أما و أبيك الحبر ما نحن بالبيس

و هل فى بنى مثواك إلّا مبرّز بحلبة شورى أو بحلقة تدريس

إذا هزّ عسّال اليراعة فاتكا أسال نجيع الحبر فوق القراطيس

يقلّب تحت النّقع مقلة ضاحك إذا التفت الأبطال عن مقل شوس

سبينا عقار الروم فى عقر دارها بحلية تمويه و خدعة تدليس

لئن أنكرت شكلى ففضلى واضح وهل جائز فى العقل إنكار محسوس

رسبت بأقصى الغرب ثغر مضلة و كم درّة علياء فى قاع قاموس

و أغريت سوسى بالعذيب و بارق على وطن دانى الجوار من السوس

### [من لاميته المسماة، المنح الغريب فى الفتح القريب، التى خاطب بها سلطانه حين عاد لملكه من المغرب]

من أبدع ما صدر عن لسان الدين رحمه اللّه تعالى لاميته المشهورة التى خاطب بها سلطانه حين عاد من المغرب إلى الأندلس، و أعاد اللّه تعالى عليه ملكه الذى كان خلع منه، و يقال: إنّ السلطان أمر بكتب هذه القصيدة على قصوره بالحمراء إعجابا بها، و إنها إلى الآن لم تزل مكتوبة بتلك القصور التى استولى عليها العدوّ الكافر، أعادها اللّه تعالى للإسلام! و أول هذه القصيدة: [الكامل]

الحقّ يعلو و الأباطل تسفل و اللّه عن أحكامه لا يسأل

قال لسان الدين رحمه اللّه تعالى: نظمتها للسلطان- أسعده اللّه تعالى!- و أنا بمدينة سلا، لمّا انفصل طالبا حقّه بالأندلس، كان صنع اللّه تعالى براعة استهلالها، و وجهت بها إليه إلى رندة قبل الفتح، ثم لما قدمت أنشدتها بعد الفتح وفاء بنذرى، و سميتها «المنح الغريب، فى الفتح القريب» و منها:

و إذا استحالت حالة و تبدّلت فاللّه عزّ و جلّ لا يتبدّل

و اليسر بعد العسر موعود به و الصبر بالفرج القريب موكّل

و المستعدّ لما يؤمّل ظافر و كفاك شاهد «قيّدوا و توكّلوا»

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٧٤

أ محمد و الحمد منك سجيّة بحليّها دون الورى تتجمّل

أمّا سعودك فهو دون منازع عقد بأحكام القضاء مسجّل

و لك السجايا الغرّ و الشّيم التى بغريبها يتمثّل المتمثّل

و لك الوقار إذا تزلزلت الرّبا و هفت من الروع الهضاب الميّل

عوّذ كمالك ما استطعت فإنه قد تنقص الأشياء ممّا يكمل

تاب الزمان إليك ممّا قد جنى و اللّه يأمر بالمتاب و يقبل

إن كان ماض من زمانك قد مضى بإساءة قد سرّك المستقبل

هذا بذاك فشفّع الجانى الذى أرضاك فيما قد جناه الأول

و اللّه قد ولّاك أمر عباده لمّا ارتضاك ولاية لا تعزل

و إذا تغمّدك الإله بنصره و قضى لك الحسنى فمن ذا يخذل

و منها:

و ظعنت عن أوطان ملككك راكبا متن العباب فأىّ صبر يجمل

و البحر قد حنيت عليك ضلوعه و الريح تقطع للزفير و ترسل

و لك الجوارى المنشآت و قد غدت تختال فى برد الشباب و ترفل

جوفاء يحملها و من حملت به من يعلم الأنثى و ما ذا تحمل

و منها:

صبّحتهم غرر الجياد كأنما سدّ الثنيّة عارض متهلّل

من كلّ منجرد أغرّ محجّل يرمى الجلاد به أغرّ محجّل

زجل الجناح إذا أجدّ لغاية و إذا تغنّى للصهيل فبلبل

جيد كما التفت الظليم وفوقه أذن ممشّقة و طرف أكحل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٧٥

فكأنما هو صورة فى هيكل من لطفه و كأنما هو هيكل

و منها:

و خليج هند راق حسن صفائه حتى يكاد يعوم فيه الصيقل

غرقت بصفحته النمال و أوشكت تبغى النجاة فأوثقتها الأرجل

فالصرح منه ممرّد، و الصفح من ه مورّد، و الشطّ منه مهدّل

و بكلّ أزرق إن شكت ألحاظه مره العيون فبالعجاجة تكحل

متأوّد أعطافه فى نشوة ممّا يعلّ من الدماء و ينهل

عجبا له أنّ النجيع بطرفه رمد، و لا يخفى عليه مقتل

و منها:

للّه موقفك الذى و ثباته و ثباته مثل به يتمثّل

و الخيل خطّ، و المجال صحيفة و السّمر تنقط، و الصوارم تشكل

و البيض قد كسرت حروف جفونها و عوامل الأسل المثقّف تعمل

للّه قومك عند مشتجر القنا إذ ثوّب الداعى المهيب و أقبلوا

قوم إذا لفح الهجير وجوههم حجبوا برايات الجهاد و ظلّلوا

و هى طويلة لم يحضرنى الآن منها سوى ما كتبته.

و من نظمه رحمه اللّه تعالى قوله: [الخفيف]

يا إمام الهدى و أىّ إمام أوضح الحقّ بعد إخفاء رسمه

أنت عبد الحليم، حلمك نرجو فالمسمّى له نصيب من اسمه

## [من نظمه يخاطب عبد الواحد بن زكريا ابن سلطان إفريقية]

و قال يخاطب عبد الواحد بن زكريا بن أحمد اللحيانى أبا مالك ابن سلطان إفريقية مودّعا: [المتقارب]

أبا مالك، أنت نجل الملوك غيوث الندى و ليوث النزال

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٧۶

و مثلك يرتاح للمكرمات و ما لك بين الورى من مثال

عزيز بأنفسنا أن نرى ركابك مؤذنة بارتحال

و قد خبرت منك خلقا كريما أناف على درجات الكمال

و فازت لديك بساعات أنس كما زار فى الليل طيف الخيال

و لو لا تعلّلنا أننا نزورك فوق بساط الجلال

و نبلغ فيك الذى نبتغى و ذاك على اللّه سهل المنال

لما فترت أنفس من أسى و لا برحت أدمع فى انهمال

تلقّتك حيث احتللت السعود و كان لك اللّه فى كلّ حال

و توفى أبو مالك المخاطب بهذا فى بلاد الجريد سنة ٧۴٠.

و من نظم ابن الخطيب قوله لما أشرف على الحضرة المراكشية حاطها اللّه تعالى:

[البسيط]

ما ذا أحدّث عن بحر سبحت به من البحار فلا إثم و لا حرج

و عاه مبتدع الأشياء مستويا ما إن به درك كلّا و لا درج

حتى إذا ما المنار الفرد لاح لنا صحت ابشرى يا مطايا جاءك الفرج

قربت من عامر دارا و منزلة و الشاهد العدل هذا الطّيب و الأرج

و قال رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

كأنّا بتامسنا نجوس خلالها و ممدودها فى سيرنا ليس يقصر

مراكب فى البحر المحيط تخبّطت و لا جهة تدرى و لا البرّ تبصر

## [من نظمه ما كتب على مدرسة بناها السلطان أبو الحجاج و إجازة بينه و بين ابن الحجاج و قد مرا ببعض مسالك غرناطة]

و قال سامحه اللّه تعالى، و هو مكتوب بالمدرسة التى بناها السلطان أبو الحجاج بن نصر رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

ألا هكذا تبنى المدارس للعلم و تبقى عهود المجد ثابتة الرسم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۷۷

و يقصد وجه اللّه بالعمل الرضا و تجنى ثمار العزّ من شجر العزم

تفاخر منى حضرة الملك كلّما تقدم خصم فى الفخار إلى خصم

فأجدى إذا ضنّ الغمام من الحيا و أهدى إذا جنّ الظلام من النجم

فيا ظاعنا للعلم يطلب رحلة كفيت اعتراض البيد أو لجج اليمّ

ببابى حطّ الرحل لا تنو وجهة فقد فزت فى حال الإقامة بالغنم

فكم من شهاب فى سمائى ثاقب و من هالة دارت على قمر تمّ

يفيضون من نور مبين إلى هدى و من حكمة تجلو القلوب إلى حكم

جزى اللّه عنى يوسفا خير ما جزى ملوك بنى نصر عن الدين و العلم

و قال رحمه اللّه تعالى: مررت يوما مع شيخنا أبى البركات ابن الحاج ببعض مسالك غرناطة حرسها اللّه تعالى فأنشدنى من نظمه: [السريع]

غرناطة ما مثلها حضره الماء و البهجة و الخضره

و استجازنى رحمه اللّه تعالى، فقلت: [السريع]

سكانها قد أسكنوا جنّة فهم يلقّون بها نضره

## [من نظمه فى تورية طبية، و يخاطب ابن مرزوق، و يخاطب أحد الشرفاء]

و قال فى تورية طبية: [مخلع البسيط]

إنى و إن كنت ذا اعتلال رثّ القوى بيّن الهزال

فى عارض التيس لى شفاء فكيف فى عارض الغزال

و قال رحمه اللّه تعالى يخاطب شيخه سيدى أبا عبد اللّه بن مرزوق موطئا على بيت المشارقة فى العذار: [الطويل]

أما و الذى تبلى لديه السرائر لما كنت أرضى الخسف لو لا الضرائر

غدوت لضيم ابن الربيب فريسة أما ثار من قومى لنصرى ثائر

إذا التمست كفّى لديه جرايتى كأنى جان أوبقته الجرائر

و ما كان ظنّى أن أنال جراية يحكّم من جرّائها فىّ جائر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۷۸

متى جاد بالدينار أخضر زائفا و دارته دارت عليها الدوائر

و قد أخرج التعنيت كيس مرارتى و رقّت لبلواى النفوس الأمائر

تذكرت بيتا فى العذار لبعضهم له مثل بالحسن فى الأرض سائر

«و ما اخضرّ ذكّ الخدّ نبتا، و إنما لكثرة ما شقّت عليه المرائر»

و جاه ابن مرزوق لدىّ ذخيرة و للشدّة العظمى تعدّ الذخائر

و لو كان يدرى ما دهانى لساءه و أنكر ما صارت إليه المصائر

و قال رحمه اللّه تعالى يخاطب أحد الشرفاء: [الكامل]

أعيا اللقاء علىّ إلّا لمحة فى جملة لا تقبل التفصيلا

فجعلت بابك عن يمينك نائبا أهديه عند زيارتى تقبيلا

فإذا وجدتك نلت ما أمّلته أو لم أجدك فقد شفيت غليلا

## [من نظمه: و قد مر بدار أحد الأغنياء، و فى الشيخ ابن بطان]

و لمّا دخل رحمه اللّه تعالى مدينة أنفا، و مرّ منها على دار عظيمة تنسب إلى والى جبايتها عبّو من بنى الترجمان قارون قومه و غنى صنفه، قال: [الخفيف]

قد مررنا بدار عبّو الوالى و هى ثكلى تشكو صروف الليالى

أقصدت ربّها الحوادث لمّا رشقته بصائبات زوال

كان بالأمس واليا مستطيلا و هو اليوم ما له من وال

و قال فى الشيخ ابن بطّان الصنهاجى: [الكامل]

للّه درّك يا ابن بطّان فما لشهير جودك فى البسيطة جاحد

إن كان فى الدنيا كريم واحد يزن الجميع فأنت ذك الواحد

أجريت فضلك جعفرا يحيا به ما كان من مجد فذكرك خالد

فالقوم منك تجمّعوا فى مفرد ولد كما شاء العلاء و والد



و هى الليالى لا تزال صروفها يشقى بموقعها الكريم الماجد

و بمستعين اللّه يصلح منك ما قد كان أفسده الزمان الفاسد

و قال رحمه اللّه تعالى و قد انتابه البرغوث: [الكامل]

زحفت إلىّ ركائب البرغوث نمّ الظلام بركبها المحثوث

بالحبّة السوداء قابل مقدمى للّه أى قرى، أعدّ، خبيث

كسحت بهنّ ذباب سرح تجلّدى ليلا فحبل الصبر جدّ رثيث

إن صابرت نفسى أذاه تعبّدت أو صحت منه أنفت من تخنيثى

جيشان من ليل و برغوث فهل جيش الصباح لصرختى بمغيث

## [و من نظمه عند ما انتابه برغوث و يخاطب ابن حسون فى صدر رسالة]

و قال يخاطب الوالى محمد بن حسون بن أبى العلاء، و صدّر بها رسالة: [الكامل]

لم يبق لى جود الولاية حاجة فى الأمن أو فى الجاه أو فى المال

بعد اللقاء أولو الفضائل بغيتى و رأيت هذا القصد شرط كمال

أجملته و تشوّفت لبيانه همم فكنت مفسّر الإجمال

و خصصت بالإلقاء غيرك غيرة و جعلت ذكرك شاهد الأعمال

للبست يا ابن أبى العلا قشب الملا و تركت أهل الأرض فى أسمال

إن دوّن الفضلاء فضلا معلما فلقد أتيت عليه بالإكمال

تثنى عليك رعيّة آمالها فى أن تفوز يداك بالآمال

أرعيتها هملا فلم يطرق لها بمنيع سورك طارق الإهمال

من كنت و اليه تولّته العلا و من اطّرحت فما له من والى

و قال فى عثمان بن يحيى بن عمر بن روح: [الكامل]

أ سميّ ذى النورين وجهك فى الوغى شمس الضحى حلّت بليث عرين

أن تفتخر بمرين أرض العدوة ال قصوى فإنّك أنت فخر مرين

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٨٠

## [من نظمه فى عثمان بن يحيى و من نظمه و قد وقف على مراكش من نظمه يخاطب أحمد بن يوسف]

و قال رحمه اللّه تعالى عند وقوفه على مراكش و اعتباره بما صار إليه أمرها: [الخفيف]

بلد قد غزاه صرف الليالى و أباح المصون منه مبيح

فالذى خرّ من بناه قتيل و الذى خرّ منه بعض جريح

و كأنّ الذى يزور طبيب قد تأتّى له بها التشريح

أعجمت منه أربع و رسوم كان قدما بها اللسان الفصيح

كم معان غابت بتلك المغانى و جمال أخفاه ذاك الضريح

و ملوك تعبّدوا الدهر لمّا أصبح الدهر و هو عبد صريح

دوّخوا نازح البسيطة حتى قال ما شاء ذابل و صفيح

حين شبّت لهم من البأس نار ثم هبّت لهم من النصر ريح

أثر يندب المؤثّر لمّا طال بعد الدنوّ منه النزوح

ساكن الدار روحها، كيف يبقى جسد بعد ما تولّى الروح

و قال رحمه اللّه تعالى يخاطب أحمد بن يوسف حفيد الولى الصالح سيدى أبى محمد صالح النائم فى ظل صيته رحمه اللّه تعالى: [الخفيف]

يا حفيد الوليّ يا وارث الفخ ر الذى نال فى مقام و حال

لك يا أحمد بن يوسف جبنا كلّ قطر يعيى أكفّ الرّحال

و قال فى «نفاضة الجراب»: لما خرجت من أسفى سرت إلى منزل ينسب إلى أبى حذّو، و فيه رجل من بنى المنسوب إليه اسمه يعقوب، فألطف و أجزل، و آنس فى الليل، و طلبنى بتذكرة تثبت عندى معرفته فكتبت له: [الطويل]

نزلنا على يعقوب نجل أبى حذو فعرّفنا الفضل الذى ما له حدّ

و قابلنا بالبشر و احتفل القرى فلم يبق لحم لم ننله و لا زيد

يحقّ علينا أن نقوم بحقّه و يلقاه منّا البرّ و الشكر و الحمد

و قال: [الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٨١

أ ألقى إلى الأيام فضل مقادتى فتجنبنى ما بين كدّ و إرهاق
و أتلف بين الخلق و الرزق فكرتى و لست بخلّاق و لست برزّاق
إذا كنت بالإثراء لى فى تملّق رضيت بعزّ النّفس فى عزّ إملاق

## [و من نظمه نماذج صغار شتى]

و قال: [الطويل]
لك الملك ملك الحسن فاقض بنا الذى تشاء فما يعصى لأمرك واجبه
إذا ما كسرت اللحظ من تحت حاجب تحكّم فى الألباب كسرى و حاجبه
و قال: [الطويل]
سألنا ربيع العام للعام رحمة فضنّ و لم يسمح بذرّة إنعام
فقلنا و قد ردّ الوجوه لم يبل قليل الحيا قبحت و اللّه من عام
و قال: [الطويل]
تخوّنه صرف الزمان و هل ترى بقاء لحىّ أو دواما على أمر
هو الدهر ذو وجهين يوم و ليلة و من كان ذا وجهين يعتب فى غدر
و قال رحمه اللّه تعالى فى شجر الجوز: [الكامل]
انظر إلى ينعى و حسن بسوقى يهفو النسيم بقدّى الممشوق
يجلو اللواحظ منظرى حسنا كما يجلو ثغور الغانيات عروقى
و قال رحمه اللّه تعالى فى ساق: [الخفيف]
كيف آمنتما على الشّرب ظبيا لحظه فى القلوب غير أمين
راح يسقى فصبّ فى الكأس نزرا ثقة منه بالذى فى العيون
و قال يخاطب السلطان: [الخفيف]
أنت للمسلمين خير عماد و ملاذ و أىّ حرز حريز

لو رأى ما شرعت للخلق فيه عمر الفاضل بن عبد العزيز
لجزى ملككك المبارك خيرا و قضى بالشفوف و التبريز
فاشكر اللّه ما استطعت بفعل و بقول مطوّل أو وجيز
كلّ ملك يرى بصحبة أهل ال علم قد باء بالمحلّ العزيز
فإذا ما ظفرت منهم بإكسير ملأت البلاد من إبريز
و البرايا تبيد و الملك يفنى أين كسرى الملوك مع أبرويز
و قال رحمه اللّه تعالى: [البسيط]
ما لى أهذّب نفسى فى مطامعها و النفس تأنف تهذيبى و تهذى بى
إذا استعنت على أهلى بتجربة تأبى المقادير تجريبى و تجرى بى
و قال: [الكامل]

من لا نصيب لصحبه فى خيره و إذا سعى لم يقض حاجة غيره

فاقصد أباه متى أردت و قل له اللّه يلهمه العزاء بأيره

و قال رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

أ مستخرجا كنز العقيق بآماقى أناشدك الرحمن فى الرّمق الباقى

فقد ضعفت عن حمل صبرى طاقتى عليك و ضاقت عن زفيرى أطواقى

و قال رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

إذا لم أشاهد منك قبل منيتى نهاية آمالى و غاية غاياتى

فحسن عزائى حيل بينى و بينه و قرّة عينى لم تحلّ بمرآتى

شهودك أمنى من عداة خواطرى و قربك حرزى من توقّع آفات

فإن لم يكن وصل فهبها إشارة فيا حسن شاراتى بها من إشارات

و قال رحمه اللّه تعالى يخاطب الدنيا: [المنسرح]

دنيا خدعت الذى سفرت له عن صفحة لم يحل بها كرم



سرقت حظّ الإله من يده فهان ما كان منه يحترم

هذا الذى نال منك ليس له منقطع دائم و منصرم

و هبه نال الذى أراد أما بين يديه المشيب و الهرم

و لمّا أورد رحمه اللّه تعالى قول القائل فى وصف الدنيا: [الخفيف]

كلّما أنبت الزمان قناة ركّب المرء فى القناة سنانا

و كأنّا لم نرض فيها برى ب الدهر حتى أعانه من أعانا

قال أثره ما نصّه: و الحقّ ما قلته من أبيات تناسب ذلك، و لا حول و لا قوة إلّا باللّه: [البسيط]

و اللّه إن لم يداركها و قد وحلت بلمحة أو بلطف من لدنه خفى

و لم يجد بتلافيها على عجل ما أمرها صائر إلّا إلى تلف

فحب الدنيا رأس كل بليّة، و لولاه لم تزل النفس صافية عالية عن سجيّتها الأولية.

و من نظمه رحمه اللّه تعالى قوله: [الخفيف]

إن رأى الحقّ فيك منه بقيّه فاتّق البعد فيه حق التقيّه

و إذا لم يكن لذاتك رسم قائم تلك حالة حقّيّه

و قوله رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

فسامح إذا ما لم تفدك عبارة و إن أشكلت يوما فخذها كما هيا

و تلخيص ما دندنت بالقول حوله إذا قمت بالباقى فما زلت باقيا

و قال رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

ففى عالم الأسرار ذاتك تجتلى ملامح نور لاح للطّور فانهدا

و فى عالم الحسّ اغتديت مبوّأ لتشفى من استشفى و تهدى من استهدى

فما كنت لو لا أن ثبت هداية من اللّه مثل الخلق رسما و لا حدّا

و هذه الأبيات فى مدح النبى صلّى اللّه عليه و سلم.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۸۴

و قال رحمه اللّه تعالى: [البسيط]

حمامة البان، ما هذا البكاء على مرّ الليالى و ما ذا البثّ و الحزن

لا منزل بنت عنه أنت تندبه و لا حبيب و لا خلّ و لا سكن

لو كنت تنفث عن شوق منيت به إذا لصار رمادا تحتك الغصن

و قال رحمه اللّه تعالى مضمّنا: [الطويل]

أمط عنك مهما اسطعت كلّ إرادة و إلّا فمغنى القوم عنك بعيد

تكون مريدا ثم فيك إرادة إذا لم ترد شيئا فأنت مريد

و قال رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

تعلّقته من دوحة الجود و الباس قضيبا لعوبا بالرجاء و بالياس

ضروبا بضرب لليراعة و القنا طروبا بحمل المشرفيّة و الكاس

يذكرنيه الصبح عند انصداعه جمال رواء فى تأرّج أنفاس

و يبدو لعينى شعره و جبينه إذا ما سفحت الحبر فى صفح قرطاس

و قال رحمه اللّه تعالى: [الوافر]

أحبّ لحبّها جملى و رحلى و عزمى و القتادة و الطريقا

و من أخشاه من سبع و لصّ فكيف فريقها؟ سلموا فريقا!

و كيف أخصّ باسم الحبّ إن لم أحبّ لأجلها إلّا صديقا

و قال رحمه اللّه تعالى: و قلت من قصيدة: [الطويل]

أنا نسخة الأكوان أدمج خطّها فسرّ ذوى التحقيق فى طىّ أوراقى

فمن عالم الأشباح ليلى و ظلمتى و من عالم الأرواح نورى و إشراقى

و قال رحمه اللّه تعالى: [البسيط]

مولاى مولاى إن أرضاك بذل دمى فقد أتيت به أسعى على قدمى

و إن تعاظم ذنب قد جنته يدى و طال قرعى عليه السّنّ من ندم

فهبه لى و اغتفر ما كان من خطإ و زلّة وارع لى حبّى على القدم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۸۵

و قال رحمه اللّه تعالى من قصيدته العينية السلوية التى وجهها إلى سلا أيام خلّف بها أهله و ولده: [الرمل]

بولىّ اللّه فابدأ و ابتدر واحد الآحاد فى باب الورع

## [ترجمة العارف باللّه أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر، الأندلسى، نزيل سلا]

قلت: هذا الولى هو العارف باللّه تعالى سيدى الحاج أحمد بن عاشر أحد الصلحاء أصحاب الكرامات المشهورة بالمغرب، و قد زرت قبره بسلا عام تسعة و ألف، و هو أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر، الأندلسى، نزيل سلا، الولى الزاهد المشهور بالمناقب و الأحوال.

قال ابن عرفة: ما أدركت مبرّزا فى زماننا هذا إلّا الشيخ أبا الحسن المنتصر و أحمد بن عاشر بسلا؛ انتهى.

و قال بلديّنا أبو عبد اللّه بن صعد التلمسانى فى كتابه «النجم الثاقب، فيما لأولياء اللّه تعالى من المناقب»: كان أحد الأولياء الأبدال، معدودا فى كبار العلماء، مشهورا بإجابة الدعاء، معروفا بالكرامات، مقدّما فى صدور الزهاد، منقطعا عن الدنيا و أهلها، و لو كانوا من صالحى العباد، ملازما للقبور فى الخلاء المتّصل ببحر مدينة سلا، منفردا عن الخلق، لا يفكر فى أمر الرزق، و له أخبار جليلة، و كرامات عجيبة مشهورة، ممّن جمع له العلم و العمل، و ألقى عليه القبول من الخلق، شديد الهيبة، عظيم الوقار، كثير الخشية، طويل التفكّر و الاعتبار، قصده أمير المؤمنين أبو عنان، و ارتحل إليه عام سبعة و خمسين و سبعمائة، فوقف ببابه طويلا، فلم يأذن له، و انصرف و قد امتلأ قلبه من حبّه و إجلاله، ثم عاود الوقوف ببابه مرارا، فما وصل إليه، فبعث له بعض أولاده بكتاب كتبه إليه يستعطفه لزيارته و رؤيته، فأجابه بما قطع رجاءه منه، و أيس من لقائه، و اشتدّ حزنه، و قال: هذا ولى من أولياء اللّه تعالى حجبه اللّه عنّا؛ انتهى.

و لمّا أجرى ذكره لسان الدين فى «نفاضة الجراب» قال ما ملخّصه: و لقيت من أولياء اللّه تعالى بسلا الولى الزاهد الكبير المنقطع القرين، فرارا عن زهرة الدنيا، و عزوفا عنها، و إغفاء فى الورع، و شهرة بالكشف، و إجابة الدعوة و ظهور الكرامة، أبا العباس بن عاشر، يسّر اللّه تعالى لقاءه على تعذّره لصعوبة تأتّيه، و كثف هيبته، قاعدا بين القبور فى الخلاء، رثّ الهيئة، مطرق اللحظ، كثير الصمت، مفرط الانقباض و العزلة، قد ضرسه أهل الدنيا و تطارحهم،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۸۶

فهو شديد الاشمئزاز من قاصده، مجرمز للوثبة من طارقه، نفع اللّه تعالى به!

و قال ابن الخطيب القسطمينى الشهير بابن قنفذ: لقيته بسلا سنة ۷۶۳، و هو على أتمّ حال فى الورع، و الفرار من الأمراء، و التمسّك بالسنّة، و هو الشيخ الفقيه الولى، توفى فى سنة خمس و ستين و سبعمائة؛ انتهى.

و ممّن انتفع به و نال بركته الوليّ العارف باللّه سيدى أبو عبد اللّه بن عبّاد شارح الحكم، و قد ترجمناه فى هذا الكتاب.

و قال ابن عباد المذكور فى رسائله: و قد كنت قدما خرجت فى يوم مولده صلّى اللّه عليه و سلم صائما إلى ساحل البحر، فوجدت هناك سيدى الحاج ابن عاشر رحمه اللّه تعالى و جماعة من أصحابه معهم طعام يأكلونه، فأرادوا منى الأكل، فقلت: إنى صائم، فنظر إلىّ سيدى الحاج نظرة منكرة، و قال لى: هذا يوم فرح و سرور يستقبح فى مثله الصوم كالعيد، فتأمّلت قوله فوجدته حقّا، و كأنه أيقظنى من النوم؛ انتهى.

و قال ابن قنفذ السابق فى رحلته ما صورته: و كان ابن عاشر رحمه اللّه تعالى فريدا فى الورع، ميسرا عليه فى ذاك أتمّ تيسير، محفوظا من كلّ ما فيه شبهة، كثير النفور من الناس، و خصوصا أصحاب الولاية فى الأعمال، و خرجت على يده تلامذة نجباء أخيار، و طريقه أنه جعل «إحياء علوم الدين» بين عينيه، و اتبع ما فيه بجدّ و اجتهاد، و صدق و انقياد، و كان الحجّة فى ذلك الطريق، و أول اجتماعى به نفر منى، فحبسته بيدى و هززته، فتبسّم و وقف معى، و سألنى عن نسبى، و دعا لى، و طلبته بما يطمعنى، فاعتذر لى بالإقلال، ثم قال:

أمهل، فدخل و أخرج لى حبّات تين يابسة فى يده اليمنى، و غطّاها باليد اليسرى، و دفعها إلىّ، و ضحك معى، و عجب الحاضرون من ليانته و انشراحه معى؛ لأنه لا ينبسط إلى أحد، و حصل لى بذلك فخر لا يدرى قدره إلّا من حاول بعضه معه، و قصدنى كثير من الخواص فسألنى عن مجلسى معه و ما وقع من جوابه و سؤاله، و قد حاول ملك المغرب لما ارتحل إليه فى عام سبعة و خمسين و سبعمائة على لقائه فلم يقدر عليه بوجه، و حجبه اللّه تعالى حتى تبعه يوم جمعة من الجامع الأعظم على قدمه، و الناس ينظرونه، و هو لم يره، فرجع، و لم يكن قوته إلّا من نسخ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۸۷

العمدة فى الحديث، و كيف يبيعها، و لمن يبيعها، و لا يأخذ إلّا قيمتها، و لم تزل حالته و بركته فى زيادة إلى أن توفى سنة ۷۶۵، و

سأله بعض الأخيار بمحضرى عن الفرق بين مكاشفة المسلم و مكاشفة النصرانى؛ لوجود ذلك من بعضهم، فقال: المسلم الذى له هذه الدرجة يبرئ من العاهة، و النصرانى لا يبرئ، ثم قال: و هل يبرئ الفقيه من العاهة؟ فقال له:

نعم، ثم نظر يمينا و شمالا ليجد صاحب عاهة فيأتى بالعيان، فلم يجد أحدا، و كأنه اغتاظ لهذا السؤال، ثم أخرج يده و قال: يأتى لمن يقعد عن الحركة، فيحبسه بيده، و يقيمه و قد ذهب ألمه بعد أن جثا إلى الأرض فى الصفة، ثم قال: و سئل بعضهم عن هذا، و كان السائل نصرانيا فى زى المسلم، فقال له: الفرق بينهما سقوط الزنّار من وسطك، قال: فسقط، و فضحه اللّه تعالى! و أسلم بسبب ذلك؛ انتهى كلام ابن قنفذ القسطمينى، رحمه اللّه تعالى!

و ترجمة وليّ اللّه تعالى سيدى الحاج ابن عاشر- نفعنا اللّه تعالى ببركاته-! متّسعة جدا، و كراماته و مناقبه لا نبلغ لها حدّا، و لا نطيق لها عدّا، و إنما ألمعنا بذكره قصدا للتبرّك به، و اللّه ولى التوفيق، و هو الهادى إلى سواء الطريق.

## [رجع إلى نظم لسان الدين: مداعباته و من شعره عند ما وقف على قبر المعتمد باللّه فى مدينة أغمات]

رجع إلى نظم لسان الدين بن الخطيب رحمه اللّه تعالى- فنقول: و من مداعباته رحمه اللّه تعالى قوله: [السريع]

و مولع بالكتب يبتاعها بأرخص السوم و أغلاه

فى نصف الاستذكار أعطيته مختصر العين فأرضاه

و يعنى بمختصر العين الزبيدى فافهم. و قال رحمه اللّه تعالى من قصيدة: [الطويل]

و و اللّه ما اعتلّ الأصيل، و إنما تعلّم من شجوى فبان اعتلاله

و هذا غاية فى المبالغة و حسن التعليل.

و قال رحمه اللّه تعالى: وقفت على قبر المعتمد باللّه فى مدينة أغمات فى حركة حاجة أعملتها إلى الجهات المراكشية، باعثها لقاء الصالحين و مشاهدة الآثار، عام واحد و ستين و سبعمائة، و هو بمقبرة أغمات فى نشز من الأرض، و قد حفّت به سدرة، و إلى جنبه قبر «اعتماد» حظيّة مولاه رميك، و عليهما أثر التغرّب و معاناة الخمول من بعد الملك، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتهما، فأنشدت فى الحال: [البسيط]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٨٨

## [من نظمه: يخاطب ضريح السلطان أبا الحسن بشالة لاستنهاض عزيمته فى قضاء غرضه]

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات رأيت ذلك من أولى المهمّات

لم لا أزورك يا أندى الملوك يدا و يا سراج الليالى المدلهمّات

و أنت من لو تخطّى الدهر مصرعه إلى حياتى لجادت فيه أبياتى

أناف قبرك فى هضب يميّزه فتنتحيه حفيّات التحيّات

كرمت حيّا و ميتا و اشتهرت علا فأنت سلطان أحياء و أموات

ما رىء مثلك فى ماض، و معتقدى أن لا يرى الدهر فى حال و لا آت

و قد تقدّم هذا فى القسم الأول فى الباب السابع منه، و كرّرته هنا، و اللّه الموفق.

و قال رحمه اللّه تعالى مورّيا حين أكل مشرف الدار القابض: أى أكل ماله: [السريع]

مشرف دار الملك ما باله منتفخ الجوف شكا نافضا

فقيل لى ليس به علّة لكنه قد أكل القابضا

و قال: [السريع]

يا نفس، لا تصغى إلى سلوة كم أخلف الموعد عرقوب

و أنت يا قلبى وصّاك إب راهيم بالحزن و يعقوب

و قال فى السعيد أبى بكر ابن السلطان أبى عنان: [المتقارب]

أمير كأنّ قمير الدّجى أفاض الضياء على صفحتيه

تملأ قلبى من حبّه غداة نظرت بعينى إليه

فلا بسط الدهر كفّ الردى لذاك الشخيص و ذاك الوجيه

و قال يخاطب الخطيب ابن مرزوق: [الطويل]

تعلّم طيفورى خلال سميّه و إن كان منسوبا إلى غير بسطام

و جاء فقير الوقت لابس خرقة فليس براض غير صحبة صوام

فديتك لا ترده عنك مخيبا و درّسه يا مولاى قصّة بلعام

و قال: ممّا كتبت به إلى ابن مرزوق المذكور، و قد وصل ولده إلى سلا و منع ابن الخطيب عن لقائه عذر مرض، و كان نزوله بزاوية النسّاك: [الخفيف]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۱۸۹

صدّنى عن لقاء نجلك عذر يمنع الجسم عن تمام العباده

و اختصرت القرى لأن حطّ رحلا فى محلّ الغنى و دار الزّهاده

و لو انى احتفلت لم يعن الده ر و لا نلت بعض بعض أراده

و على كلّ حالة فقصورى عادة إذ قبولك العذر عاده

لا عدمت الرضى من اللّه و الحس نى كما نصّ وحيه و الزياده

و قال يخاطبه من ضريح السلطان أبى الحسن بشالة لاستنهاض عزيمته فى قضاء غرضه: [البسيط]

برئت للّه من حولى و من حيلى إن نام عنى وليى فهو خير ولى

أصبحت ما لى من عطف أؤمّله من غيره فى مهمّات و لا بدل

ما كنت أحسب أن أرمى بقاصية للهجر أقطع بها جانب الأمل

من بعد ما خلصت نحوى الشفاعة ما بين العلا و الدّجا و البيض و الأسل

إن كنت لست بأهل للذى طمحت إليه نفسى و أهوى نحوه أملى

فكيف يلغى و لا ترعى وسيلته؟ دخيل قبر أمير المسلمين على

من بعد ما اشتهرت حالى به وسرت بها الركائب فى سهل و فى جبل

و الرسل تترى و لا تخفى نتائجها عند التأمّل من قول و لا عمل

و لا لليلى من صبح أطالعه كأنّ همّى قد مدّ الدجنّة لى

لو أننى بابن مرزوق عقدت يدى و كان محتكما فى خيرة الدول

لكان كربى قد أفضى إلى فرج و كان حزنى قد أوفى على جذلى

ألمحت بالعتب لم أحذر مواقعه «أنا الغريق فما خوفى من البلل»

و لست أجحد ما خوّلت من نعم لكنها النفس لا تنفكّ عن أمل

و لست أيأس من وعد وعدت به «و إنما خلق الإنسان من عجل»

### [من نظمه: يخاطب السلطان أبى الحجاج و فى التورية]

و قال رحمه اللّه تعالى يخاطب السلطان أبا الحجاج: [الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٩٠

أمولاى إنّ الشعر ديوان حكمة يفيد الغنى و العزّ و الجاه من كانا

و قد وجد المختار فى الحفل منصتا له وحبا كعبا عليه و حسّانا

و فيما رواه الناقلون و أثبتوا بذلك ديوانا صحيحا فديوانا

بأنّ أبا بكر خليفته الرضا و فاروقه الأدنى إليه و عثمانا

و أنّ عليّا قدّس اللّه جمعهم و كرّمنا بالقرب منهم و حيّانا

لهم فى ضروب القول إذ هم فحوله خطاب و شعر يستقرّان تبيانا

و فاض على أهل القريض نوالهم فروّض روض القول سحّا و تهتانا

و أنت أحقّ الناس أن تفعل الذى به فعل المختار دينا و إيمانا

فما زلت تهدى فى البريّة هديه و تقضى بما يرضيه سرّا و إعلانا

و إن قيل قدر المرء ما هو محسن فصنعة نظم القول أرفعه شانا

### [من نظمه فى التورية و التجنيس]

و قال مورّيا: [الطويل]

بنفسى حبيب فى ثناياه «بارق» و لكنها للواردين عذاب

إذا كان لى منه عن الوصل «حاجر» فدمعى «عقيق» بالجفون مذاب

و قال: [الكامل]

عذّبت قلبى بالهوى فقيامه فى نار هجرك دائما و قعوده

و لقد عهدت القلب و هو موحّد فعلام يقضى فى العذاب خلوده

و قال فى التجنيس: [الطويل]

دعوتك للودّ الذى جنباته تداعت مبانيها و همّت بأن تهى

و قلت لعهد الوصل و القرب بعد ما تناءى و هل أسلو حياتى و أنت هى

و من شام من جوّ الشبيبة بارقا و لم تنهه عنه النّهى كيف ينتهى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٩١

و قال: [البسيط]

ناديت دمعى إذ جدّ الرحيل بهم و القلب من فرق التوديع قد وجبا

سقطت يا دمع من عينى غداة نأى عنّى الحبيب و لم تقض الذى وجبا

و قال: [المتقارب]

شلير، لعمرى أساء الجوار و سدّ علىّ رحيب الفضا

هو الشيخ أبرد شيء يرى إذا لبس البرنس الأبيضا

و قال: قلت أخاطب بعض من أدلّ عليه و ما أولانى بذلك: [المتقارب]

إذا قمت قل بعقيب الكرى إلهى أنت إله الورى

تباركت أنشأتهم من تراب و أنشأتنى بينهم من خرا

قلت: و لا خفاء ببشاعة هذا، فحذفه أولى من إثباته.

و قال يداعب بعض أصحابه: [السريع]

شيخ رباط إن أتى شادن خلوته عند انسدال الظلام

أدلى و قد أبصره دلوه و قال يا بشراى هذا غلام

و قال فى غرض يظهر: [الخفيف]

لم أجد فيه لين بثّ لقلبى و قبولا لحجّتى و اعتذارى

ثقّل اللّه ظهره بعيال سوّد اللّه وجهه بعذار

و قال من قصيدة: [الطويل]

أخذت و أمواج الردى متلاطمه بضبعىّ يا نجل الوصىّ و فاطمه

و قال: [الطويل]

و وجه غرست الورد فيه بنظرة فيا ليت كفّى متّعت بجنى غرسى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٩٢

كأنّ سواد الخال فى وجناته علامة مولانا على أحمر الطرس

و بينهما فى باطن الأمر نسبة لذلك أمضيت الغرام على نفسى

و قال يشير إلى بعض طبقات الغناء: [الكامل]

ضرط الفقيه فقلت ذاك غريبة ما كان ذلك منه بالمعلوم

فدنا إلىّ و قال قد أصرفتكم من ضرطتى بغريبة المزموم

### [من نظمه: يهنئ سلطان تلمسان أبا حم]

و فى آخر سنة أربع و سبعين وجّه إلى السلطان أبى حم سلطان تلمسان أبياتا لزومية فى غرض الهناء، و هى: [الكامل]

وقف الغرام على ثناك لسانى رعيا لما أوليت من إحسان

فكأنما شكرى لما أوليته شكر الرياض لعارض النيسان

أنا شيعة لك حيث كنت، قضيّة لم يختلف فى حكمها نفسان

و لقد تشاجرت الرماح فكنت فى ميدان نهرك فارس الفرسان

و رويت غرّ مآثر أسندتها لعلاك بين صحائح و حسان

و لأنت أولى بالتشيّع شيمة لم تتّفق لسواك من إنسان

الشمس أنت قد انفردت و هل يرى بين الورى فى مطلع شمسان

جبرت بجبرك كلّ نفس حرّة و شدا بشكر اللّه كلّ لسان

و بدت سعودك مستقيما سيرها و علت ففرّ أمامها النحسان

فاستقبل السعد المعاود سافرا عن أىّ وجه للرضا حسّان

و ابغ المزيد بشكر ربّك و لتثق بمضاعف الإنعام و الإحسان

فالشكر يقتاد المزيد ركائبا تنتاب بابك منه فى أرسان

ثمّ السلام عليك يزرى عرفه طيبا بعرف العود و البلسان

و قال: [البسيط]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٩٣

بحقّ ما بيننا يا ساكنى القصبه ردّوا علىّ حياتى فهى مغتصبه

ما ذا جنيتم على قلبى ببينكم و أنتم الأهل و الأحباب و العصبه

قلت: و لعل ابن زمرك قال أبياته التى على هذا الروىّ المذكورة فى غير هذا الموضع من هذا الكتاب جوابا لهذه حين كان ابن زمرك من جملة أتباع لسان الدين، رحم اللّه تعالى الجميع!.

و قال لسان الدين بن الخطيب رحمه اللّه تعالى: [الخفيف]

حين ساروا عنى و قد حنقتنى عبرات قد أعربت عن ولوعى

صحت من ينصر الغريب؟ فلمّا لم أجد ناصرا بلعت دموعى

و قال: [الخفيف]

قال لى و الدموع تنهلّ سحبا فى عراض من الخدود محول

بك ما بى فقلت مولاى عافا ك المعافى من عبرتى و نحولى

أنا جفنى القريح يروى عن الأع مش و الجفن منك عن مكحول

و قال: [الكامل]

أشكو لمبسمه الحريق و قد حمى عنى لماه المشتهى و رحيقه

يا ريقه حيرتنى و مطلتنى ما أنت إلّا بارد يا ريقه

و قال فيمن ركب البحر و ماد: [الكامل]

ركب السفينة و استقلّ بأفقها فكأنما ركب الهلال الفرقد

و شكوا إليه بميده فأجبتهم لا غرو إن ماد القضيب الأملد

و قال عندما خرج السلطان ابن الأحمر من فاس متوجّها إلى الأندلس لطلب حقّه:

[الطويل]

و لما حثثت السير و اللّه حاكم لملكك فى الدنيا بعزّ و فى الأخرى

حكى فرس الشطرنج طرفك لا يرى ينقّل من بيضاء إلّا إلى حمرا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٩۴

و يعنى بالبيضاء فاسا الجديدة، و بالحمراء حمراء غرناطة.

### [بين أبى عبد اللّه بن جزى و بعض أهل فاس]

و تذكّرت هنا أنّ بعض علماء الأندلس، و أظنّه أبا عبد اللّه بن جزىّ، لما رمدت عين بعض أهل فاس سأله عنها، فقال: [مجزوء الرجز]

يا سيدى عينى قد أودى قذاها بالأنس

فانظر إليها ترها دار مليك الأندلس

يعنى حمراء، فأجابه بقوله: [مجزوء الرجز]

وقّيت ممّا تشتكى من القذى و الوصب

ما رمدت عيناك بل عين العلا و الأدب

فلتحمدن إن لم تكن دار مليك المغرب

يعنى بيضاء، و هذا من غريب ما يحاضر به.

رجع- و قال لسان الدين رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

أجاد يراع الحسن خطّ عذاره و أودعه السّرّ المصون الذى يدرى

و لم يفتقر فيه لختم و طابع فمبسمه أغناه عن طابع السّرّ

و قال فى غرناطة: [الطويل]

أحيّيك يا معنى الكمال بواجب و أقطع فى أوصافك الغرّ أوقاتى

تقسّم منك الترب قومى و جيرتى ففى الظّهر أحيائى و فى البطن أمواتى

و قال فى غرض ينحو نحو المشارقة: [المتقارب]

رموا بالسلو حليف الغرام و أدمعه كالحيا الهاطل

أعوذ بعزّك يا سيدى لذلّى من دعوة الباطل

و قال: [الكامل]

يا ليل طلت و لم تجد بتبسّم و أريتنى خلق العبوس النادم

هلّا رحمت تغرّبى و تفرّقى للّه ما أقساك يا ابن الخادم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٩٥

و قال فى مروحة سلطانية: [الطويل]

كأنى قوس الشمس عند طلوعها و قد قدمت من قبلها نسمة الفجر

و إلّا فما هبّت بمحتدم الوغى بنصر و لكن من بنود بنى نصر

و قال يخاطب شيخه ابن الجيّاب: [الكامل]

بين السهام و بين كتبك نسبة فبها يصاب من العدوّ المقتل

و إذا أردت لها زيادة نسبة هذى و هذى فى الكنانة تجعل

و قال يتغزّل، و فيه معنى غريب: [الكامل]

إنّ اللحاظ هى السيوف حقيقة و من استراب فحجّتى تكفيه

لم يدع غمد السيف جفنا باطلا إلّا لشبه اللحظ يغمد فيه

قيل: و أحسن منه قول غيره: [الكامل]

إنّ العيون النّجل أمضى موقعا من كلّ هندىّ و كلّ يمانى

فضل العيون على السيوف بأنها قتلت و لم تخرج من الأجفان

و أصل ما قال لسان الدين قول الأول: [البسيط]

بين اللحاظ و عينيه مناسبة من أجلها قيل للأغماد أجفان

و قال لسان الدين رحمه اللّه تعالى فى الساعة، و تسميها المغاربة المنجانة: [البسيط]

تأمّل الرمل فى المنجان منقطعا يجرى و قد ردّ عمرا منك منتهبا

و اللّه لو كان وادى الرمل ينجده ما طال كامله إلّا و قد ذهبا

و قال: [الوافر]

أقول لعاذلى لمّا نهانى و قد وجد المقالة إذ جفانى

علمت بأنه مرّ التجنّى وفاتك أنه حلو اللسان

و قال فى غرض صوفى: [الكامل]



لا تنكروا إن كنت قد أحببتكم أو أننى استولى علىّ هواكم

طوعا و كرها ما ترون فإننى طفت الوجود فما وجدت سواكم

و قال يمدح، و فيه توريهٔ: [البسيط]

و إن نظرت إلى لألاء غرّته يوم الهياج رأيت الشمس فى الأسد

و قال ممّا يكتب على طاق الماء بباب القبّهٔ: [الخفيف]

أنا طاق تزهو بى الأيام تعبت فى بدائعى الأفهام

و تبدّيت للنواظر محرا با كأنّ الإناء فىّ إمام

واقف للصلاهٔ حتى إذا ما جئت للشرب حان منى سلام

و قال فى ذلك أيضا: [الكامل]

يا صانعى للّه ما أحكمته فلأنت بين العالمين رئيس

أحكمت تاجى يوم صغت رقوشه فصبت إليه مفارق و رؤوس

و أقمت فى محرابه فكأنه مجلى إناء الماء فيه عروس

و قال فى المشيب: [الكامل]

إنى لمبلى بالهوى من بعد ما للوخط فى الفودين أىّ دبيب

لبس البياض و حلّ ذروهٔ منبر منى و والى الوعظ، فعل خطيب

و قال رحمه اللّه تعالى: [السريع]

و اللّه ما جان على ماله أو جاهه من ذبّ عن عرضه

و الناس فى خير و فى ضدّه هم شهداء اللّه فى أرضه

و قال: [الطويل]

إلهى بالبيت المقدّس و المسعى و جمع إذا ما الخلق قد نزلوا جمعا



و بالموقف المشهود يا ربّ فى منى إذا ما أسال الناس من خوفك الدّمعا

و بالمصطفى و الصحب عجّل إقالتى و أنجح دعائى فيك يا خير من يدعى

صدعت و أنت المستغاث جنابه أقل عثرتى يا موئلى و اجبر الصدعا

و قال رحمه اللّه تعالى فى بنيونش سبتة: [الكامل]

بنيونش أسنى الأماكن رقعة و أجلّ أرض اللّه طرّا شانا

هى جنّة الدنيا التى من حلّها نال الرضا و الرّوح و الريحانا

قالوا القرود بها فقلت فضيلة حيوانها قد قارب الإنسانا

و فى بينونش هذه يقول أبو عبد اللّه بن مجبر: [مخلع البسيط]

بينونش جنّة و لكن طريقها يقطع النياطا

و جنّة الخلد لا يراها إلّا فتى يقطع الصراطا

و قال ابن الخطيب رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

إنّ الهوى لشكاية معروفة صبر التصبر من أجلّ علاجها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج٨؛ ص١٩٧

و النفس إن ألفت مرارة طعمه يوما ضمنت لها صلاح مزاجها

و قال رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

و لما رأت عزمى حثيثا على السّرى و قد رابها صبرى على موقف البين

أتت بصحاح الجوهرى دموعها فقابلت من دمعى بمختصر العين

و قال رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

تذكّرت عهدا كان أحلى من الكرى و أقصر من إلمام طيف خياله

فيما ليت شعرى من أتاح لى المنى و عذّب بالى هل أمرّ بباله

و قال رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٩٨

عينى جنت فعلام تحرق أضلعى؟ أ بما جنى جار يعذّب جار

يا قلب لا تدهشك نيران الهوى فكنار إبراهيم تلك النار

فاصبر على ما حمّلوا تنل المنى بالسبك أدرك نقشه الدينار

و قال رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

و ما كان إلّا أن جنى الطرف نظرة غدا القلب رهنا فى عقوبة ذنبه

و ما العدل أن يأتى امرؤ بجريرة فيؤخذ فى أوزارها جار جنبه

و قال رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

برى جسدى فيكم غرام و لوعة إذا سكن الليل البهيم تثور

فلو لا أنينى ما اهتدى نحو مضجعى خيالكم بالليل حين يزور

و لو شئت فى طىّ الكتاب لزرتكم و لم تدر عنى أحرف و سطور

و قال رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

بلد تحفّ به الرياض كأنه وجه جميل و الرياض عذاره

و كأنما واديه معصم غادة و من الجسور المحكمات سواره

و قال رحمه اللّه تعالى يخاطب السلطان أبا حمّو صاحب تلمسان و يشكره على ما كان أعان به أهل الأندلس: [الوافر]

لقد زار الجزيرة منك بحر يمدّ فليس تعرف منه جزرا

أعدت لها بعهدك عهد موسى سمّيك فهى تتلو منه ذكرا

أقمت جدارها و أفدت كنزا و لو شئت اتّخذت عليه أجرا

و قال أيضا: [المتقارب]

و قالوا الجزيرة قد صوّحت فقلت غمام النّدى تنتظر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ١٩٩

إذا وكفت كفّ موسى بها غماما يعود الجناب الخضر

و قال رحمه اللّه تعالى عقب الإياب من الرحلة المراكشية: [الوافر]

أفادت وجهتى بنداك مالا قضى دينى و أصلح بعض حالى

و متّعت الخواطر بانشراح و أطرفت النواظر باكتحال

و أبت خفيف ظهر، و المطايا بجاهك تشتكى ثقل الرحال

و شانى للمعالم غير شان و حالى بالمكارم جدّ حال

فحبّ علاك إيمانى و عقدى و شكر نداك دينى و انتحالى

كما قد صحّ للّه انقطاعى بتأميلى جنابك و ارتحالى

و ما يبقى سوى فعل جميل و حال الدهر لا تبقى بحال

و كلّ بداية فإلى انتهاء و كلّ إقامة فإلى ارتحال

و من سام الزمان دوام أمر فقد وقف الرجاء على المحال

و قال رحمه اللّه تعالى فى الضّراعة إلى ربّه، و الاعتراف بذنبه: [الكامل]

مولاى، إن أذنبت ينكر أن يرى منك الكمال و منّى النّقصان

و العفو عن سبب الذنوب مسبّب لو لا الجناية لم يكن غفران

و قال رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

سلام على تلك المرابع؛ إنها معاهد ألّافى و عهد صحابى

و يا أسفا المغنى انعمى فلطالما سكبت على مثواك ماء شبابى

و قال سامحه اللّه تعالى: [الوافر]

أموطنى الذى أزعجت عنه و لم أرزأ به مالا و لا دم

لئن أزعجت عنك بغير قصد فقبلى فارق الفردوس آدم

و من ميلادياته رحمه اللّه تعالى قوله: [الخفيف]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٠٠

ما على القلب بعدكم من جناح أن يرى طائرا بغير جناح

و على الشّوق أن يشبّ إذا ه بّ بأنفاسكم نسيم الصباح

جيرة الحىّ، و الحديث شجون و الليالى تلين بعد الجماح

أ ترون السّلوّ خامر قلبى بعدكم؟ لا و فالق الإصباح

و لو أنّى أعطى اقتراحى على ال أيام ما كان بعدكم باقتراحى

ضايقتنى فيكم صروف الليالى و استدارت علىّ دور الوشاح
و سقتنى كأس الفراق دهاقا فى اغتباق مواصل و اصطباح
و استباحت من جدّتى و فتائى حرما لم أخله بالمستباح
و منها:
يا ترى و النفوس أسرى أمان ما لها من وثاقها من سراح
هل يباح الورود بعد ديار أو يتاح اللقاء بعد انتزاح
و إذا أعوز الجسوم التلاقى ناب عنه تعارف الأرواح
و هى طويلة لم يحضرنى منها الآن سوى ما ذكرته.

## [قصيدة لأبى زكريا يحيى بن خلدون يحذو فيها حذو لسان الدين]

و قد حذا حذوها الفقيه الكاتب أبو زكريا يحيى بن خلدون أخو قاضى القضاة ولى الدين بن خلدون صاحب التاريخ، فقال فى مولد عام ثمانية و سبعين و سبعمائة، و استطرد لمدح السلطان أبى حمّو موسى صاحب تلمسان الذى تقدّم ذكره قريبا: [الخفيف]
ما على الصبّ فى الهوى من جناح أن يرى حلف عبرة و افتضاح
و إذا ما المحبّ عيل اصطبارا كيف يصغى إلى نصيحة لاح
يا رعى اللّه بالمحصّب ربعا آذنت عهده النوى بانتزاح
كم أدرنا كأس الهوى فيه مزجا ربّ جدّ من الجوى فى المزاح
هل إلى رسمه المحيل سبيل يا حداة المطىّ تلك الطّلاح

نسأل الدار بالخليط و نسقى ذلك الربع بالدموع السّفاح
أىّ شجو عاينت بعد نواها من أسّى لازم و صبر مزاح
أهل ودّى إن رابكم برح وجدى من صبا بارق و برق لباح
فاسألوا البرق عن خفوق فؤادى و الصبا عن سقام جسمى المتاح
يا أهيل الحمى نداء مشوق ما له عن هوى الدّمى من براح
طالما استعذب المدامع وردا فى هواكم عن كلّ عذب قراح
عاده بالطلول للشوق عيد من حمام بدوحهنّ صداح
من لقلب من الجوى فى ضرام و لجفن من البكا فى جراح
و لصبّ يهيجه الذكر شوقا فهو سكرا يرتاد من غير راح
و ليال قضيت للهو فيها وطرا و الشباب ضافى الجناح
راكبا فى الهوى ذلول نقاب ساحبا فى الغرام ذيل مراح
و نجوم المنى تنير إلى أن روّع الشيب سربها بالصباح
أىّ مسرى حمدت لم أخل منه بسوى حسرة و طول افتضاح
و لخسارى يوم القيامة إن لم يغفر اللّه زلّتى و اجتراحى
لم أقدّم وسيلة فيه إلّا حبّ خير الورى الشفيع الماحى

سيّد العالمين دنيا و أخرى أشرف الخلق فى العلا و السماح

سيّد الكون من سماء و أرض سرّه بين غاية و افتتاح

زهرة الغيب مظهر الوحى معنى ال نور كنه المشكاة و المصباح

آية المكرمات قطب المعالى مصطفى اللّه من قريش البطاح

أول الأنبياء تخصيص زلفى آخر المرسلين بعث نجاح

صفوة الخلق أرفع الرّسل قدرا و سراج الهدى و شمس الفلاح

من لميلاده بمكة ضاءت من قرى قيصر جميع الضواحى

و خبت نار فارس و تداعت من مشيد الإيوان كلّ النواحى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٠٢

من رقى فى السماء سبعا طباقا و رأى آى ربّه فى اتّضاح

و دنا منه قاب قوسين قربا ظافرا فى العلا بكلّ اقتراح

من هدى الخلق بين حمر و سود وجلا ليل غيّهم بالصباح

من يجير الورى غدا يوم يجزى كلّ عاص و طائع باجتراح

من إلى حوضه و ظلّ لواه يلجأ الناس بين ظام وضاحى

أحمد المجتبى حبيبا، و أنّى فوق عزّ الحبيب مرمى طماح

فى أنا جيله المسيح تلاه باسمه، و الكليم فى الألواح

و لكم حجّة و برهان صدق فى سماع أتى بها و التماح

إنّ فى النجم و النبات لآيا بهرت و الجماد و الأرواح

معجزات فتن المدارك وصفا و حسابا كالزّهر أو كالصباح

يا رواة القريض و الشعر عجزا ما عسى تدركون بالأمداح

إنما حسبنا الصلاة عليه و هى للفوز آية استفتاح

يا إلهى بحقّ أحمد عفوا عن ذنوب جنيتهنّ قباح

و أدم دولة الخليفة موسى ذى المعالى المبينة الأوضاح

مفخر الملك مستقرّ المزايا مظهر اللطف ذو التّقى و الصلاح

ناصر الحقّ خاذل الجور عدلا ملجأ الخائفين بحر السماح

يتلقّى الندى بوجه حيىّ و يلاقى العدا بباس صفاح

و له المكرمات إرثا و لبسا حاز حمدا بها معلّى القداح

من علا باذخ و فخر صميم و كمال بحت و مجد صراح

و أحاديث فى المعالى حسان رويت عنه فى العوالى الصّحاح

عاقد صفقة العلا كلّ حين فائز فيه سعيه بالرباح

للندى و الهدى يروح و يغدو أىّ مغدى إلى العلا و مراح

ملك تشرق الأسرّة منه فى سماء السرير نور صباح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٠٣

و إذا ما علا بعالى العوالى صهوة الجرد فهو ليث الكفاح

لبس الدهر منه حلّة حسن وثنى للسرور عطف مراح

و على عاتق الخلافة منه طرز فخر سبى النّهى بالتماح

ورث الملك شامخا عن سراة شيّدوا ركنه بأيد الصفاح

من بنى القاسم الذين تحلّوا بالمعالى و استأثروا بالفلاح

فرعوا هضبة الخلافة مجدا رفعوا سقفه على الأرماح

نشروا راية المفاخر حمدا خافق النور بالرّبا و البطاح

يا إماما بذّ الملوك جلالا و جمالا فديت بالأرواح

أنت شمس الكمال دمت عليها فى اغتباق من المنى و اصطباح

و بنوك الأعلون أنجم سعد زاهرات بنورك الوضّاح

و أبو تاشفين بدر منير زانه اللّه بالخلال الصّباح

أكمل العالمين خلقا و خلقا أشرف الناس فى الندى و الكفاح

و بكم زيّنت سماء المعالى و اهتدى الناس فى الدّجى و الصباح

## [حديث عن احتفال السلطان أبى حمو بالمولد النبوى الشريف]

و كان السلطان أبو حمّو الممدوح بهذه القصيدة يحتفل لليلة مولد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم غاية الاحتفال، كما كان ملوك المغرب و الأندلس فى ذلك العصر و ما قبله.

و من احتفاله له ما حكاه شيخ شيوخ شيوخنا الحافظ سيدى أبو عبد اللّه التنسى ثم التلمسانى فى كتابه «راح الأرواح، فيما قاله المولى أبو حمّو من الشعر و قيل فيه من الأمداح، و ما يوافق ذلك على حسب الاقتراح» و نصّه: أنه كان يقيم ليلة الميلاد النبوى- على صاحبه الصلاة و السلام!- بمشورة من تلمسان المحروسة مدعاة حفيلة يحشر فيها الناس خاصة و عامة، فما شئت من نمارق مصفوفة، و زرابىّ مبثوثة، و بسط موشّاة، و وسائد بالذهب مغشّاة، و شمع كالأسطوانات، و موائد كالهالات، و مباخر منصوبة كالقباب، يخالها المبصر تبرا مذاب، و يفاض على الجميع أنواع الأطعمة، كأنها أزهار الربيع المنمنمة، فتشتهيها الأنفس و تستلذّها النواظر، و يخالط حسن ريّاها الأرواح و يخامر، رتّب الناس فيها على مراتبهم ترتيب احتفال،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٠٤

و قد علت الجميع أبهة الوقار و الإجلال، و بعقب ذلك يحتفل المسمعون بأمداح المصطفى عليه الصلاة و السلام، و مكفّرات ترغّب فى الإقلاع عن الأنام، يخرجون فيها من فنّ إلى فن و من أسلوب إلى أسلوب، و يأتون من ذلك بما تطرب له النفوس و ترتاح إلى سماعه القلوب، و بالقرب من السلطان رضوان اللّه تعالى عليه خزانة المنجانة قد زخرفت كأنها حلّة يمانية، لها أبواب موجفة على عدد ساعات الليل الزمانية، فمهما مضت ساعة وقع النّقر بقدر حسابها، و فتح عند ذلك باب من أبوابها، و برزت منه جارية صوّرت فى أحسن صورة، فى يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطورة، فتضعها بين يدى السلطان بلطافة، و يسراها على فمها كالمؤدية بالمبايعة حقّ الخلافة، هكذا حالهم إلى انبلاج عمود الصباح، و نداء المنادى حىّ على الفلاح؛ انتهى.

و قال التنسى المذكور فى كتابه المسمّى ب «نظم الدّرّ و العقيان، فى شرب بنى زيّان، و ذكر ملوكهم الأعيان» ما نصّه: و كان السلطان أبو حمّو يقوم بحقّ ليلة مولد المصطفى صلّى اللّه عليه و سلّم، و يحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم، يقيم مدعاة يحشر لها الأشراف و السوقة، فما شئت من وَ نَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَ زَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) [سورة الغاشية، الآية: ١٥، ١٦]، و شمع كالأسطوانات، و أعيان

الحضرة على مراتبهم تطوف عليهم ولدان قد لبسوا أقبية الخزّ الملوّن و بأيديهم مباخر و مرشاة ينال كل منها بحظّه، و خزانة المنجانة ذات تماثيل لجين محكمة الصنعة، بأعلاها أيكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه، و يختله فيها أرقم خارج من كوّة بجذر الأيكة صاعدا، و بصدرها أبواب مرتجة بعدد ساعات الليل الزمانية، يصاقب طرفيها بابان كبيران، و فوق جميعها دوين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خطّ الاستواء سير نظيره فى الفلك، و يسامت أول كل ساعة بابها المرتج، فينقض من البابين الكبيرين عقابان فى يد كلّ واحد منهما صنجة صفر يلقيها إلى طست من الصفر مجوّف بوسطه ثقب يفضى بها إلى داخل الخزانة فيرنّ، و ينهش الأرقم أحد الفرخين، فيصفر له أبوه، فهناك يفتح باب الساعة الذاهبة، و تبرز

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۰۵

منه جارية محتزمة كأظرف ما أنت راء، بيمناها إضبارة فيها اسم ساعتها منظوما، و يسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة، و المسمع قائم ينشد أمداح سيد المرسلين و خاتم النبيين سيدنا و مولانا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم يؤتى آخر الليل بموائد كالهالات دورا، و الرياض نورا، و قد اشتملت من أنواع محاسن المطاعم على ألوان تشتهيها الأنفس و تستحسنها الأعين، و تلذّ بسماع أسمائها الآذان، و يشره مبصرها للقرب منها و التناول و إن كان ليس بغرثان، و السلطان لم يفارق مجلسه الذى ابتدأ جلوسه فيه، و كل ذلك بمرأى منه و مسمع حتى يصلى هنالك صلاة الصبح. على هذا الأسلوب تمضى ليلة المصطفى صلّى اللّه عليه و سلّم فى جميع أيام دولته، أعلى اللّه تعالى مقامه فى علّيين! و شكر له فى ذلك صنيعه الجميل آمين! و ما من ليلة مولد مرّت فى أيامه إلّا و نظم فيها قصيدا فى مديح مولد المصطفى صلّى اللّه عليه و سلّم، أول ما يبتدئ المسمع فى ذلك الحفل العظيم بإنشاده، ثم يتلوه إنشاد من رفع إلى مقامه العلى فى تلك الليلة نظما؛ انتهى و هو أتم مساقا ممّا فى «راح الأرواح».

## [مقطوعات لأبى زكريا يحيى بن خلدون]

و لا بأس أن نلمّ ببعض المقطوعات التى أنشأها الكاتب أبو زكريا يحيى بن خلدون المذكور على لسان جارية المنجانة فى مخاطبة السلطان أبى حمّو معلمة بما مرّ من ليل، ففى مضى ساعتين قوله: [الكامل]

أ خليفة الرحمن و الملك الذى تعنو لعزّ علاه أملاك البشر

للّه مجلسك الذى يحكى علا بك مالكى أفق السماء لمن نظر

أو ما ترى فيه النجوم زواهرا وجه الخليفة بينهنّ هو القمر

و الليل منه ساعتان قد انقضت تثنى عليك ثنا الرياض على المطر

لا زال هذا الملك منصورا بكم و بلغت ممّا ترتجى أسنى الوطر

و قوله فى مضى ثلاث ساعات: [المتقارب]

أمولاى يا ابن الملوك الألى لهم فى المعالى سنىّ الرّتب

تولّت ثلاث من الليل أبقت لك الفخر فى عجمها و العرب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۰۶

فدم حجّة اللّه فى أرضه تنال الذى شئته من أرب

و قوله فى مضى ست ساعات: [المجتث]

يا ماجدا و هو فرد تخاله فى عساكر

ستّ من الليل ولّت ما إن لها من نظائر

دامت لياليك حتى إلى المعاد نواضر

و قوله فى مضى ثمانى ساعات: [المجتث]

يا أكرم الخلق ذاتا و أشرف الناس أسره

مرّت ثمان و أبقت فى القلب منّى حسره

فيهنّ كان شبابى أخا نعيم و نضره

ولّى بها الدهر عنى ترى لها بعد كرّه

فاللّه يبقيك مولى يطيل فى السّعد عمره

و قوله فى مضى عشر ساعات: [البسيط]

يا مالك الخير و الخيل التى حكمت له بعزّ على الأيام مقتبل

هذا الصباح الذى لاحت بشائره و الليل ودّعنا توديع مرتحل

للّه عشر من الساعات باهرة مضين لا عن قلّى منّا و لا ملل

كذا تمرّ ليالى العمر راحلة عنّا و نحن من الآمال فى شغل

نمسى و نصبح فى لهو نسرّ به جهلا و ذلك يدنينا من الأجل

و العمر يمضى و لا ندرى فوا أسفى عليه إذ مرّ فى الآثام و الزلل

يا ليت شعرى غدا كيف الخلاص به و لم نقدّم له شيئا من العمل

يا ربّ، عفوك عما قد جنته يدى فليس لى بجزاء الذنب من قبل

يا ربّ و انصر أمير المسلمين أبا حمّوا الرضا و أنله غاية الأمل

و أبق فى العزّ و التمكين مدّته و أعل دولته الغرّا على الدول

## [حديث عن الموشحات و الأزجال: نشأتها، تدرجها، أنواعها]

رجع إلى نظم لسان الدين رحمه اللّه تعالى، فنقول:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۰۷

و أمّا موشّحاته و أزجاله فكثيرة، و قد انتهت إليه رياسة هذا الفن، كما صرّح بذلك قاضى القضاة ابن خلدون فى مقدمة تاريخه الكبير، و لنذكر بعض كلامه، إذ لا يخلو من فائدة زائدة، قال رحمه اللّه تعالى ما ملخّصه: و أمّا أهل الأندلس فلمّا كثر الشعر فى قطرهم، و تهذّبت مناحيه و فنونه، و بلغ التنميق فيه الغاية، استحدث المتأخّرون منهم فنّا منه سمّوه بالموشح، ينظمونه أسماطا أسماطا و أغصانا أغصانا، يكثرون منها و من أعاريضها المختلفة، و يسمّون المتعدّد منها بيتا واحدا، و يلتزمون عدد قوافى تلك الأغصان و أوزانها متتاليا فيما بعد إلى آخر القطعة، و أكثر ما ينتهى عندهم إلى سبعة أبيات، و يشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض و المذاهب، و ينسبون فيها، و يمدحون، كما يفعل فى القصائد. و يتجاوزون فى ذلك إلى الغاية، و استظرفه الناس و جملة الخاصة و الكافة؛ لسهولة تناوله، و قرب طريقه.

و كان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدّم بن معافى القبرى من شعراء الأمير عبد اللّه بن محمد المروانى، و أخذ عنه ذلك ابن عبد ربه صاحب العقد، و لم يذكر لهما مع المتأخرين ذكر، و كسدت موشّحاتهما، فكان أول من برع فى هذا الشأن بعدهما عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب ألمريّة. و قد ذكر الأعلم البطليوسى أنه سمع أبا بكر بن زهر يقول: كلّ الوشّاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتّفق له من قوله:

بدر تمّ شمس ضحى غصن نقا مسك شمّ

ما أتمّ ما أوضحا ما أورقا ما أنمّ

لا جرم من لمحا قد عشقا قد حرم

و زعموا أنه لم يسبق عبادة و شاح من معاصريه الذين كانوا فى زمان ملوك الطوائف.

و جاء مصلّيا خلفه منهم ابن ارفع رأسه شاعر المأمون بن ذى النون، صاحب طليطلة. قالوا:

و قد أحسن فى ابتدائه فى الموشحة التى طارت له حيث يقول:

قد ترنّم بأبدع تلحين و شقّت المذانب رياض البساتين

و فى انتهائه حيث يقول:

تخطر و لم تسلّم عساك المأمون مروّع الكتائب يحيى بن ذى النون

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۰۸

ثم جاءت الحلبة التى كانت فى مدة الملثّمين فظهرت لهم البدائع، و فرسان حلبتهم:

الأعمى التطيلى، ثم يحيى بن بقى، و للتطيلى من الموشحات المذهبة قوله:

كيف السبيل إلى صبرى و فى المعالم أشجان

و الركب وسط الفلا بالخرّد النواعم قد بانوا

## [من اشتهر من الوشاحين]

و ذكر غير واحد من المشايخ أنّ أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أنّ جماعة من الوشّاحين اجتمعوا فى مجلس بإشبيلية، و كان كلّ واحد منهم قد صنع موشحة و تأنّق فيها، فتقدّم الأعمى التّطيلى للإنشاد، فلمّا افتتح موشحته المشهورة بقوله:

ضاحك عن جمان سافر عن بدر

ضاق عنه الزمان و حواه صدرى

خرّق ابن بقى موشحته، و تبعه الباقون.

و ذكر الأعلم البطليوسى أنه سمع ابن زهر يقول: ما حسدت قطّ وشّاحا على قول إلّا ابن بقى حين وقع له:

أما ترى أحمد فى مجده العالى لا يلحق

أطلعه المغرب فأرنا مثله يا مشرق

و كان فى عصرهما من الوشّاحين المطبوعين أبو بكر الأبيض، و كان فى عصرهم أيضا الحكيم أبو بكر بن باجة صاحب التلاحين المعروفة. و من الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس مخدومه ابن تيفلويت صاحب سرقسطة، فألقى عليه بعض موشحته: جرّر الذيل أيّما جرّ فطرب الممدوح لذلك، و ختمها بقوله:

عقد اللّه راية النصر لأمير العلا أبى بكر

فلمّا طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت صاح «وا طرباه» و شقّ ثيابه، و قال: ما أحسن ما بدأت و ما ختمت، و حلف الأيمان المغلظة أن لا يمشى ابن باجة لداره إلّا على الذهب، فخاف الحكيم سوء العاقبة، فاحتال بأن جعل ذهبا فى نعله و مشى عليه.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۰۹

ثم قال ابن خلدون بعد كلام: و اشتهر بعد هؤلاء فى صدر دولة الموحّدين محمد بن أبى الفضل بن شرف، إلى أن قال: و ابن هردوس الذى له:

يا ليلة الوصل و السعود باللّه عودى

و ابن مؤهل الذى له:

ما العيد فى حلّة و طاق و شمّ طيب

و إنما العيد ففى التلاقى مع الحبيب

و أبو إسحاق الدوينى. قال ابن سعيد: سمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول: إنه دخل على ابن زهر، و قد أسنّ، و عليه زىّ البادية، إذ كان يسكن بحصن سبتة، فلم يعرفه، فجلس حيث انتهى به المجلس، و جرّت المحاضرة أن أنشد لنفسه موشحة وقع فيها:

كحل الدّجى يجرى من مقلة الفجر

على الصباح

و معصم النهر فى حلل خضر

من البطاح

فتحرّك ابن زهر، و قال: أنت تقول هذا؟ قال: اختبر، قال: و من تكون؟ فأخبره، فقال:

ارتفع، فو اللّه ما عرفتك.

قال ابن سعيد: و سابق الحلبة التى أدركت هو أبو بكر بن زهر، و قد شرّقت موشحاته و غرّبت. قال: و سمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول: قيل لابن زهر: لو قيل لك: ما أبدع ما وقع لك فى التوشيح؟ فقال: كنت أقول:

ما للمولّه من سكره لا يفيق؟

يا له سكران

[من غير خمر ما للكثيب المشوق

يندب الأوطان]

هل تستعاد أيامنا بالخليج

و لياليا

إذ يستفاد من النسيم الأريج

مسك دارينا

و إذ يكاد حسن المكان البهيج

أن يحيّينا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢١٠

روض أظلّه دوح عليه أنيق

مورق الأفنان

و الماء يجرى و عائم و غريق

من جنى الريحان

و اشتهر بعده ابن حيون. إلى أن قال: و بعد هؤلاء ابن حزمون بمرسية. ذكر ابن الرائس أنّ يحيى الخزرجى دخل عليه فى مجلسه، فأنشده موشحة لنفسه، فقال له ابن حزمون: ما الموشح بموشح حتى يكون عاريا من التكلّف فقال على مثل ما ذا؟ فقال: على مثل قولى:

يا هاجرى، هل إلى الوصال

منك سبيل

أو هل يرى عن هواك سال

قلب العليل

و أبو الحسن سهل بن مالك بغرناطة؛ قال ابن سعيد: كان والدى يعجب بقوله:

إنّ سيل الصباح فى الشرق عاد بحرا فى أجمع الأفق

فتداعت نوادب الورق أ تراها خافت من الغرق

فبكت سحرة على الورق

و اشتهر بإشبيلية لذلك العهد أبو الحسن بن الفضل؛ قال ابن سعيد عن والده: سمعت سهل بن مالك يقول له: يا ابن الفضل، لك على الوشّاحين الفضل، بقولك:

أوا حسرتى لزمان مضى عشيّة بان الهوى و انقضى

و أفردت بالرغم لا بالرضا و بتّ على جمرات الغضا

أعانق بالفكر تلك الطلول و ألثم بالوهم تلك الرّسوم

قال: و سمعت أبا بكر بن الصابونى ينشد الأستاذ أبا الحسن الدبّاج موشحاته غير ما مرّة، فما سمعته يقول «للّه درّك» إلّا فى قوله:

قسما بالهوى لذى حجر ما لليل المشوق من فجر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۱۱

جمد الصبح ليس يطرد ما لليلى فيما أظنّ غد

صحّ يا ليل أنك الأبد

أو نقصت قوادم النسر فنجوم السماء لا تسرى

و من موشحات ابن الصابونى قوله:

ما حال صبّ ضنى و اكتئاب أمرضه يا ويلتاه الطبيب

عامله محبوبه باجتناب ثم اقتدى فيه الكرى بالحبيب

جنا جفونى النوم لكننى لم أبكه إلّا لفقد الخيال

و ذو الوصال اليوم قد غرّنى منه كما شاء و شاء الوصال

فلست باللائم من صدّنى بصورة الحقّ و لا بالمحال

و اشتهر ببرّ العدوة ابن خلف الجزائرى صاحب الموشحة المشهورة:

يد الإصباح قد قدحت زناد الأنوار من مجامر الزهر

و ابن خزر البجائىّ، و له من موشحة:

ثغر الزمان موافق حيّاك منه بابتسام

## [موشحة ابن سهل التى عارضها لسان الدين و موشحة لسان الدين التى يعارض بها ابن سهل]

و من محاسن الموشّحات موشحة ابن سهل شاعر إشبيلية و سبتة من بعدها:

هل درى ظبى الحمى أن قد حمى قلب صبّ حلّه عن مكنس

فهو فى حرّ و خفق مثلما لعبت ريح الصّبا بالقبس

و قد نسج على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبد اللّه بن الخطيب، شاعر الأندلس و المغرب لعصره فقال:

جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس

لم يكن وصلك إلّا حلما فى الكرى أو خلسة المختلس

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢١٢

إذ يقود الدهر أشتات المنى ينقل الخطو على ما يرسم

زمرا بين فرادى وثنا مثل ما يدعو الوفود الموسم

و الحيا قد جلّل الروض سنا فثغور الزّهر منه تبسم

و روى النعمان عن ماء السّما كيف يروى مالك عن أنس

فكساه الحسن ثوبا معلما يزدهى منه بأبهى ملبس

فى ليال كتمت سرّ الهوى بالدّجى لو لا شموس ملبس

مال نجم الكأس فيها و هوى مستقيم السّير سعد الأثر

وطر ما فيه من عيب سوى أنه مرّ كلمح البصر

حين لذّ الأنس شيئا أو كما هجم الصّبح هجوم الحرس

غارت الشّهب بنا أو ربّما أثّرت فينا عيون النّرجس

أىّ شىء لامرئ قد خلصا فيكون الروض قد مكّن فيه

تنهب الأزهار منه الفرصا أمنت من مكره ما تتّقيه

فإذا الماء تناجى و الحصى و خلا كلّ خليل بأخيه

تبصر الورد غيورا برما يكتسى من غيظه ما يكتسى

و ترى الآس لبيبا فهما يسرق السّمع بأدنى فرس

يا أهيل الحىّ من وادى الغضا و بقلبى سكن أنتم به

ضاق عن وجدى بكم رحب الفضا لا أبالى شرقه من غربه

فأعيدوا عهد أنس قد مضى تعتقوا عانيكم من كربه

و اتّقوا اللّه و أحيوا مغرما يتلاشى نفسا فى نفس

حبس القلب عليكم كرما أفترضون عفاء الحبس

و بقلبى منكم مقترب بأحاديث المنى و هو بعيد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢١٣

قمر أطلع منه المغرب شقوة المغرى به و هو سعيد

قد تساوى محسن أو مذنب فى هواه بين وعد و وعيد

ساحر المقلة معسول اللّمى جال فى النّفس مجال النّفس

سدّد السّهم و سمّى و رمى ففؤادى نهبة المفترس

إن يكن جار و خاب الأمل و فؤاد الصّبّ بالشوق يذوب

فهو للنّفس حبيب أول ليس فى الحبّ لمحبوب ذنوب

أمره معتمل ممتثل فى ضلوع قد براها و قلوب

حكّم اللحظ بها فاحتكما لم يراقب فى ضعاف الأنفس

منصف المظلوم ممّن ظلما و مجازى البرّ منها و المسى

ما لقلبى كلّما هبّت صبا عاده عيد من الشوق جديد

كان فى اللوح له مكتتبا قوله: «إن عذابى لشديد»

جلب الهمّ له و الوصبا فهو للأشجان فى جهد جهيد

لاعج فى أضلعى قد أضر ما فهى نار فى هشيم اليبس

لم يدع فى مهجتى إلّا ذما كبقاء الصّبح بعد الغلس

سلّمى يا نفس فى حكم القضا و اعمرى الوقت برجعى و متاب

دعك من ذكرى زمان قد مضى بين عتبى قد تقضّت و عتاب

و اصرفى القول إلى المولى الرّضا ملهم التوفيق فى أمّ الكتاب

الكريم المنتهى و المنتمى أسد السّرج و بدر المجلس

ينزل النصر عليه مثل ما ينزل الوحى بروح القدس

إلى هذا الحدّ انتهى ابن خلدون من موشحة لسان الدين، و لا أدرى لم لم يكملها، و تمامها قوله:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢١٤

مصطفى اللّه سمىّ المصطفى الغنى بالله عن كلّ أحد

من إذا ما عقد العهد وفى و إذا ما فتح الخطب عقد

من بنى قيس بن سعد و كفى حيث بيت النّصر مرفوع العمد

حيث بيت النصر محميّ الحمى و جنى الفضل زكىّ المغرس

و الهوى ظلّ ظليل خيّما و الندى هبّ إلى المعترس

هاكها يا سبط أنصار العلا و الذى إن عثر الدهر أقال

غادة ألبسها الحسن ملا تبهر العين جلاء و صقال

عارضت لفظا و معنى و حلى قول من أنطقه الحبّ فقال:

«هل درى ظبى الحمى أن قد حمى قلب صبّ حلّه عن مكنس

«فهو فى حرّ و خفق مثل ما لعبت ريح الصّبا بالقبس»

ثم قال ابن خلدون: و أما المشارقة فالتكلّف ظاهر على ما عانوه من الموشحات، و من أحسن ما وقع لهم فى ذلك موشحة ابن سناء الملك المصرى التى اشتهرت شرقا و غربا، و أولها:

حبيبى ارفع حجاب النور عن العذار

تنظر المسك على كافور فى جلّنار

كلّلى يا سحب تيجان الرّبا بالحلى و اجعلى سوارك منعطف الجدول

### [استحداث العامة فن الزجل]

و لمّا شاع فنّ التوشيح فى أهل الأندلس، و أخذ به الجمهور لسلاسته، و تنميق كلامه، و تصريع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله، و نظموا فى طريقتهم بلغتهم الحضريّة من غير أن يلتزموا فيه إعرابا، و استحدثوا فنّا سمّوه بالزجل، و التزموا النظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهد، فجاؤوا فيه بالغرائب، و اتّسع فيه للبلاغة مجال، بحسب لغتهم المستعجمة. و أوّل من أبدع فى هذه

الطريقة الزجلية أبو بكر بن قزمان، و إن كانت قيلت قبله بالأندلس، لكن لم تظهر حلاها، و لا انسبكت معانيها، و اشتهرت رشاقتها، إلّا فى زمانه.

و كان لعهد الملثّمين، و هو إمام الزجالين على الإطلاق؛ قال ابن سعيد: رأيت أزجاله مرويّة ببغداد أكثر ممّا رأيتها بحواضر المغرب، قال: و سمعت أبا الحسن بن جحدر الإشبيلى إمام

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۱۵

الزجالين فى عصرنا يقول: ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة، و قد خرج إلى منتزه مع بعض أصحابه، فجلسوا تحت عريش، و أمامهم تمثال أسد من رخام يصبّ الماء على صفائح من الحجر، فقال:

و عريش قد قام على دكّان بحال رواق

و أسد قد ابتلع ثعبان من غلظ ساق

و فتح فمو بحال إنسان به الفواق

و انطلق من ثم على الصفاح و ألقى الصياح

و كان ابن قزمان، مع أنه قرطبى الدار، كثيرا ما يتردّد إلى إشبيلية، و ينتاب نهرها. إلى أن قال ابن خلدون: و جاءت بعدهم حلبة كان سابقها مدغلّيس، وقعت له العجائب فى هذه الطريقة، فمن قوله فى زجله المشهور:

ورذاذ دق ينزل و شعاع الشمس يضرب

فترى الواحد يفضّض و ترى الآخر يذهّب

و النبات يشرب و يسكر و الغصون ترقص و تطرب

و ترید تجى إلينا ثمّ تستحى و ترجع

و من محاسن أزجاله قوله:

لاح الضّيا و النجوم سكارى

ثم قال: و ظهر بعد هؤلاء فى إشبيلية ابن جحدر الذى فضل على الزجّالين فى فتح ميورقة بالزجل المشهور الذى أوّله:

من يعاند التوحيد بالسيف يمحق أنا برى ممّن يعاند الحقّ

قال أبو سعيد: لقيته و لقيت تلميذه البعبع صاحب الزجل المشهور الذى أوّله:

يا ليتنى إن ريت حبيبى أفتل أذنو بالرسيلا

لش أخذ عنق الغزيّل و سرق فمّ الحجيلا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۱۶

ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سهل بن مالك إمام الأدب، ثم من بعدهم لهذه العصور صاحبنا الوزير أبو عبد اللّه بن الخطيب إمام النظم و النثر فى الملّة الإسلامية غير مدافع، فمن محاسنه فى هذه الطريقة:

امزج الأكواس و املالى نجدّد ما خلق المال إلّا أن يبدّد

و من قوله على طريقة الصوفية و ينحو منحى الششترى منهم:

بين طلوع و بين نزول اختلطت الغزول

و مضى من لم يكن و بقى من لم يزول

و من محاسنه أيضا قوله فى ذلك المعنى:

البعد عنّك يا ابنى أعظم مصائبى و حين حصل لى قربك سيّبت قاربى

انتهى المقصود جلبه من كلام ابن خلدون، و قد أطال رحمه اللّه تعالى فى هذا المقصد، و لم أرد إيراد جميع كلامه لطوله و عدم تعلّق الغرض به، و فيما ذكرته منه كفاية لتعلّقه بأمر لسان الدين رحمه اللّه تعالى، و شهادته له أنه شاعر الإسلام غير مدافع، و أنه انتهت إليه رياسة الصناعة الزجلية و التوشيحية.

## [ترجمة أبى بكر بن باجة آخر فلاسفة الإسلام ببلاد الأندلس (ابن الصائغ)]

و أبو بكر بن باجّة الذى أشار إليه ابن خلدون: هو أبو بكر بن الصائغ التّجيبى السّرقسطى، الذى قال فى حقّه لسان الدين فى «الإحاطة»: إنه آخر فلاسفة الإسلام بجزيرة الأندلس. و كان بينه و بين الفتح بن خاقان صاحب «القلائد» معاداة فلذلك هجاه فى القلائد، و جعله آخر ترجمة فيها إذ قال ما نصّه: الأديب أبو بكر بن الصائغ، هو رمد عين الدين، و كمد نفوس المهتدين، اشتهر سخفا و جنونا، و هجر مفروضا و مسنونا، فما يتشرّع، و لا يأخذ فى غير الأضاليل و لا يشرع، ناهيك من رجل ما تطهّر من جنابة، و لا أظهر مخيلة إنابة، و لا استنجى من حدث، و لا أشجى فؤاده بتوار فى جدث، و لا أقرّ بباريه و مصوّره، و لا قرّ بتباريه فى ميدان تهوّره، الإساءة إليه أجدى من الإحسان، و البهيم عنده أهدى من الإنسان، نظر فى تلك التعاليم، و فكّر فى أجرام الأفلاك و حدود الأقاليم، و رفض كتاب اللّه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۱۷

الحكيم العليم، و نبذه وراء ظهره ثانى عطفه، و أراد إبطال ما لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، و اقتصر على الهيئة، و أنكر أن تكون منه إلى اللّه تعالى فيئة، و حكم للكواكب بالتدبير؛ و اجترم على اللّه اللطيف الخبير، و اجترأ عند سماع النهى و الإيعاد، و استهزأ بقوله تعالى: إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ [سورة القصص، الآية: ۸۵] فهو يعتقد أنّ الزمان دور، و أنّ الإنسان نبات أو نور، حمامه تمامه، و اختطافه قطافه، قد محى الإيمان من قلبه فما له فيه رسم، و نسى الرحمن لسانه فما يمرّ له عليه اسم، و انتمت نفسه إلى الضلال و انتسبت، و نفت الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ [سورة غافر، الآية: ۱۷]، فقصر عمره على طرب و لهو، و استشعر كلّ كبر و زهو، و أقام سوق المويسيقى، و هام بحادى القطار و سقى، فهو يعكف على سماع التلاحين، و يقف عليه كلّ حين، و يعلن بذلك الاعتقاد، و لا يؤمن بشىء قادنا إلى اللّه تعالى فى أسلس مقاد، مع منشإ وخيم، و لؤم أصل وحيم و صورة شوّهها اللّه تعالى و قبّحها، و طلعة إذا أبصرها الكلب نبحها، و قدار يؤذى البلاد نفسها، و وضارة يحكى الحداد دنسها، و فند لا يعمر إلّا كنفه، و لدد لا يقيم إلّا الصّعاد جنفه، و له نظم أجاد فيه بعض إجاده، و شارف الإحسان أو كاده، فمن ذلك ما قاله فى عبد حبشى كان يهواه، فاشتمل عليه أسر سعى حشاه، و نقله إلى حيث لم يعلم مثواه، فقال: [البسيط]

يا شائقى حيث لا أسطيع أدركه و لا أقول غدا أغدو فألقاه

أمّا النهار فليلى ضمّ شملته على الصباح فأولاه كأخراه

أغرّ نفسى بآمال مزوّرة منها لقاؤك و الأيام تأباه

و له فيه حين بلغه موته، و تحقّق عنده فوته: [الوافر]

ألا يا رزق و الأقدار تجرى بما شاءت نشا أو لا نشاء

هل انت مطارحى شجوى فتدرى و أدرى كيف يحتمل القضاء

يقولون الأمور تكون دورا و هذا فقده فمتى اللقاء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۱۸

و له فى الأمير أبى بكر بن إبراهيم قدّس اللّه تعالى تربته، و آنس غربته، مدائح انتظمت بلبّات الأوان، و نظمت على كل شتيت من الإحسان، فمن ذلك قوله: [الوافر]

توضّح فى الدّجى طرف ضرير سنا بلوى الصريمة يستطير

فيا بأبى و لم أبذل يسيرا و إن لم يكفهم ذاك الكثير

بريق لا تقل هو ثغر سلمى فتأثم، إنه حوب وزور

فكيف و ما أطلّ الليل منه و لا عبقت بساحته الخمور

تراءى بالسدير فزاد قلبى من البرحاء ما شاء السدير

فلو لا أنّ يوم الحشر يقضى علىّ بحكم مولى لا يجور

دعوت على المشقّر أن يجازى بما تجزى به الدار الغرور

و منها:

لقد وسع الزمان عليه عدوى و ضرّ بشبله الليث الهصور

و قلّبنا الزمان فلا بطون تضمّنت الوفاء و لا ظهور

سوى ذكر أطارحه فلو لا أمير لقد عفا لو لا الأمير

همام جوده يصف السّوارى و سطوته يعيّرها البحير

و قلنا نحن كيف و راحتاه بحور يلتطى فيها سرور

فهل فيما سمعت به خصام يكون الخصم فيه هو العذير

و كان الأمير أبو بكر يعتقد له هذه المأتّة و يراها، و يجود أبدا ثراها، فلمّا ولى الثغر و الشرق لم يغفله من رعى، و لم يكله إلى شفاعة وسعى، و حمله على ما كان يعتقده فيه من المقت، و استعمله على ما كان يقتضيه خلق الوقت، من إقامة الوعد، و تسويغه كل نعيم رغد، و تغليب حجّة داحضة، و إنهاض عثرة غير ناهضة، فتقلّد وزارته و دولته تزهى منه بأندى من



الوسمىّ المبتكر، و أهدى من النجم فى الليل المعتكر، و ألويته تميس زهوا ميس الفتاة، و رعيّته تبتهج بملكه ابتهاج حيى بابن المومأة، و مذاهبه يبسطها الفضل و ينشرها، و كتائبه لا يكاد العدوّ يعشرها، فجاش إليه و انبرى، و راش فى تنكيلهم و برى، و أقطعهم ما شاء من مقابحته، و أسمعهم ما يصم بين ختمه و مفاتحته، فوغرت صدورهم السليمة، و اعتلّت صحّة ضمائرهم بنفوسهم الأليمة، و لم يزل يأخذ فى الإضرار بهم و لم يدع، و يعلن به و يصدع، حتى تفرّق ذلك الجمع، و ألقاه بين بصر السباب و السمع، و أفرد الدولة من ولاتها، و جرّدها من حماتها، فاستعجل العدوّ بذلك و استشرى، و زأر منه على سرقسطة ليث شرى، و لما رأى الشرّ قد ثار قتامه، و بدا من ليله إعتامه، ارتحل و احتمل، و قال «لا ناقة لى فى هذا و لا جمل»، و أقام ببلنسية يشفى نفسه، و يستوفى أنسه، و نجوم سعدها كلّ يوم غائرة، و العدو يتربّص بها أسوأ دائرة، و يروم منازلتها ثم يدع الاقتحام، و يريد التقدّم إليها فيؤثر الإحجام، تهيّبا لذلك الملك السرىّ، و الليث الجرىّ، و فى خلال هذه المحاولة، و أثناء تلك المطاولة، عاجل الأمير أبا بكر حمامه، و استسرّ فيها تمامه، و أجنّه الثرى، و حاز منه بدر دجنّة و ليث شرى، فعطلت الدنيا من علاء وجود، و أطلّت عليها بفقده حوادث أجدبت تهائمها و النجود، و فيه يقول يرثيه بما يسيل الفؤاد نجيعا، و يبيت به الأسى لسامعه ضجيعا: [الخفيف]

أيها الملك قد لعمرى نعى المج د نواعيك يوم قمن فنحنا

كم تقارعت و الخطوب إلى أن غادرتك الخطوب فى الترب رهنا

غير أنى إذا ذكرتك و الده ر إخال اليقين فى ذاك ظنّا

و سألنا متى اللّقاء فقيل ال حشر قلنا: صبرا إليه و حزنا

و كثيرا ما يغير هذا الرجل على معانى الشعراء، و ينبذ الاحتشام من ذلك بالعراء، و يأخذها من أربابها أخذ غاصب، و يعوضهم منها

كل همّ ناصب، فهذا ممّا أطال به كمد أبى العلاء و غمّه، فإنه أخذه من قوله يرثى أمّه: [الوافر]

فيا ركب المنون ألا رسول يبلّغ روحها أرج السلام

سألت متى اللقاء فقيل حتى يقوم الهامدون من الرجام

و لمّا فاتت سرقسطة من يد الإسلام، و باتت نفوس المسلمين فرقا منهم فى يد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٢٠

الاستسلام، ارتاب بقبح أفعاله، و برئ من احتذائه بتلك الآراء و انتعاله، و أخافه ذنبه، و نبا عن مضجع الأمن جنبه، فكرّ إلى الغرب ليتوارى فى نواحيه، و لا يتراءى لعين لائمه و لاحيه، فلمّا وصل شاطبة حضرة الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين وجد باب نفاذه و هو مبهم، و عاقه عنه مدلول عليه ملهم، فاعتقله اعتقالا شفى الدين من آلامه، و شهد له بعقيدة إسلامه، و فى ذلك يقول، و هو معقول، و يصرّح بمذهبه الفاسد، و غرضه المستأسد: [الكامل]

خفّض عليك فما الزمان و ريبه شىء يدوم، و لا الحياة تدوم

و اذهب بنفس لم تضع لتحلّها حيث احتللت بها و أنت عليم

يا صاحبى لفظا و معنى خلته من قبل حتى بيّن التقسيم

دع عنك من معنى الإخاء ثقيله و انبذ بذاك العبء و هو ذميم

و اسمح و طارحنى الحديث فإنه ليل كأحداث الزمان بهيم

خذنى على أثر الزمان فقد مضى بؤس على أبنائه و نعيم

فعسى أرى ذاك النعيم و ربّه مرح و ربّ البؤس و هو سقيم

هيهات ساوت بينهم أجداثهم و تشابه المحسود و المحروم

و لما خلص من تلك الحبالة و نجا، و أنار من سلامته ما كان دجا، احتال فى إخفاء ماله، و استيفاء آماله، فأظهر الوفاء للأمير أبى بكر بالرثاء له و التأبين، و تداهيه فى ذلك واضح مستبين، فإنه وصل بهذه النزعة من الحماية إلى حرم، و حصل فى ذمّة ذلك الكرم، و اشتمل بالرّعى، و أمن من كلّ سعى، فاقتنى قيانا، و لقّنهنّ أعاريض من القريض و ركّب عليها ألحانا أشجى من النّوح، و لطف بها إلى إشادة الإعلان باللوعة و البوح، فسلك بها أبدع مسلك، و أطلعها نيّرات ما لها غير القلوب من فلك، فمن ذلك قوله: [المنسرح]

إنّ غرابا جرى بينهم جاوبه بالثنيّة الصّرد

طاروا فها أنت بعدهم جسد قد فارق الروح ذلك الجسد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٢١

و اكتتموا صيحة بينهم أليس للّه بئس ما اعتمدوا

و كقوله: [الطويل]

سلام و إلمام و وسميّ مزنة على الجدث النائى الذى لا أزوره

أ حقّا أبو بكر تقضّى فلا يرى تردّ جماهير الوفود ستوره

لئن أنست تلك القبور بلحده لقد أوحشت أنصاره و قصوره

و من قلّة عقله و نزارته، أنه فى مدة وزارته، سفر بين الأمير أبى بكر رحمه اللّه تعالى و بين عماد الدولة بن هود رحمه اللّه تعالى بعد سعايات عليه أسلفها، و ذخائر كانت له على يديه أتلفها، فوافاه أوغر ما كان عليه صدرا، و أصغر ما كان لديه قدرا، فآل به ذلك الانتقال، إلى الاعتقال، فأقام فيه شهورا يغازله الحمام بمقلة شوهاء، و تنازله الأوهام بفطرته الورهاء، و فى ذلك يقول: [الوافر]

لعلّك يا يزيد علمت حالى فتعلم أىّ خطب قد لقيت

و إنى إن بقيت بمثل ما بى فمن عجب الليالى أن بقيت

يقول الشامتون شقاء بخت لعمر الشامتين لقد شقيت

أعندهم الأمان من الليالى و سالمهم بها الزمن المقيت

و ما يدرون أنهم سيسقوا على كره بكأس قد سقيت

و عزم عماد الدولة يوما على قتله، و ألزم المرقبين به التحيّل على ختله، فنمى إليه الأمر الوعر، و ارتمى به فى لجج اليأس الذعر، فقال: [الطويل]

أقول لنفسى حين قابلها الردى فراغت فرارا منه يسرى إلى يمنى

قرى تحمدى بعض الذى تكرهينه فقد طالما اعتدت الفرار إلى الأهنى

ثم قضى له قدر قضى بإنظاره، و ما أمضى من إباحته ما كان رهين انتظاره، و يمهل الفاجر حكمة من اللّه تعالى و علما و إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً [سورة آل عمران، الآية: ١٧٨] انتهى نص القلائد.

و اين هذا من تحليته له فى بعض كتبه بقوله فيه ما صورته: نور فهم ساطع، و برهان علم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٢٢

لكلّ حجّة قاطع، تتوّجت بعصره الأعصار، و تأرّجت من طيب ذكره الأمصار، و قام وزن المعارف و اعتدل، و مال للأفهام فننا و تهدّل، و عطّل بالبرهان التقليد، و حقّق بعد عدمه الاختراع و التوليد، إذا قدح زند فهمه أورى بشرر للجهل محرق، و إن طما بحر خاطره فهو لكل شىء مغرق، مع نزاهة النفس و صونها، و بعد الفساد من كونها، و التحقيق، الذى هو للإيمان شقيق، و الجد، الذى يخلق العمر و هو مستجد، و له أدب يودّ عطارد أن يلتحفه، و مذهب يتمنّى المشترى أن يعرفه، و نظم تعشقه اللبّات و النحور، و تدّعيه مع نفاسة جوهرها البحور، و قد أثبتّ منه ما تهوى الأعين النّجل أن يكون إثمدها، و يزيل من النفوس حزنها و كمدها، فمن ذلك قوله يتغزل: [الطويل]

أسكان نعمان الأراك تيقّنوا بأنكم فى ربع قلبى سكان

و دوموا على حفظ الوداد فطالما بلينا بأقوام إذا استحفظوا خانوا

سلوا الليل عنى إذ تناءت دياركم هل اكتحلت لى فيه بالنوم أجفان

و هل جرّدت أسياف برق سمائكم فكانت لها إلّا جفونى أجفان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج٨؛ ص٢٢٢

له: [الطويل]

أ تأذن لى آتى العقيق اليمانيا أسائله ما للمعالى و ما ليا

و هل داركم بالحزن قفراء؟ إننى تركت الهوى يقتاد فضل زماميا

فيا مكرع الوادى أما فيك شربة لقد سال فيك الماء أزرق صافيا

و يا شجرات الجزع هل فيك وقفة و قد فاء فيك الظّلّ أخضر ضافيا

و أورد له فى «المطمح» أنه استأذن على المستعين باللّه، فوجده محجوبا، فقال: [السريع]

من مبلغ خير إمام نشا ذا عزّة و ساميا قدرا

قول امرئ لو قاله للصفا أنبت فيه ورقا خضرا

عبدك بالباب له خجلة لو أنها بالنرجس أحمرّا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٢٣

و حكى غير واحد أنه مات له سكن كان يهواه، فبات مع بعض أصحابه عند ضريحه و مثواه، و كان قد عرف وقت كسوف البدر بصناعة التعديل، فزوّر فى نفسه بيتين فى خطاب القمر أتقنهما و لحّنهما، حتى إذا كان قبيل وقت الكسوف بقليل تغنّى فيهما بذلك الصوت المشجى، و اللحن يسوق الشوق و يزجى، و هما: [المتقارب]

شقيقك غيّب فى لحده و تشرق يا بدر من بعده

فهلا كسفت فكان الكسوف حدادا لبست على فقده

فكسف القمر فى الحال، و عدّت هذه من نوادره التى جيد الأخبار بفرائدها حال، سامحه اللّه تعالى!..

## [ترجمة أبى بكر بن باجة آخر فلاسفة الإسلام ببلاد الأندلس (ابن الصائغ)]

ثم رأيت فى «الإحاطة» نسبة ذلك لغيره و نصّه: محمد بن أحمد بن الحداد، الوادى آشى، يكنى أبا عبد اللّه.

حاله: شاعر مفلق، و أديب شهير، مشار إليه فى التعاليم، منقطع القرين منها فى الموسيقى، مضطلع بفكّ المعمّى، سكن المرية، و اشتهر بمدح رؤسائها من بنى صمادح.

و قال ابن بسّام: كان أبو عبد اللّه هذا شمس ظهيرة، و بحر خبر و سيرة، و ديوان تعاليم مشهورة، وضح فى طريق المعارف وضوح الصّبح المتهلّل، و ضرب فيها بقداح ابن مقبل، إلى جلالة مقطع، و أصالة منزع، ترى العلم ينمّ على أشعاره، و يبيّن فى منازعه و آثاره.

تأليفه: ديوان شعره كبير معروف، و له فى العروض تصنيف مشهور مزج فيه بين الألحان الموسيقية و الآراء الخليلية.

بعض أخباره- حدّث بعض المؤرخين ممّا يدلّ على ظرفه أنه فقد سكنا عزيزا عليه، و أحوجت الحاجة إلى تكلّف سلوة، فلمّا حضر الندماء، و كان قد رصد الخسوف القمرى، فلمّا حقّق أنه ابتدأ أخذ العود و غنّى «شقيقك غيّب- إلى آخره» و جعل يردّدها و يخاطب البدر، فلم يتمّ ذلك إلّا و اعترضه الخسوف، و عظم من الحاضرين التعجّب.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۲۴

ثم قال لسان الدين فى ترجمة شعره: و قال: [الكامل]

أقبلن فى الحبرات يقصرن الخطا و يرين فى حلل الوراشين القطا

سرب الجوى لا الجوّ، عوّد حسنه أن يرتعى حبّ القلوب و يلقطا

مالت معاطفهنّ من سكر الصّبا ميلا يخيف قدودها أن تسقطا

و بمسقط العلمين أوضح معلم لمهفهف سكن الحشا و المسقطا

ما أخجل البدر المنير إذا مشى يختال، و الغصن النضير إذا خطا!

و منها فى المدح:

يا وافدى شرق البلاد و غربها أكرمتما خيل الوفادة فاربطا

و رأيتما ملك البريّة فاهنا و وردتما أرض المريّة فاخططا

يدمى نحور الدّارعين إذا ارتأى و يذلّ عزّ العالمين إذا سطا

انتهى المقصود منه، و أورد له فى الإحاطة قصيدة ثائية أولها:

حديثك ما أحلى! فزيدى و حدّثى

و هى طويلة.

و كتب عليها ابن المؤلف ما صورته: سمعتها من لفظ شيخى أبى جعفر بن خاتمة بالمرية فى سنة خمس و ستين و سبعمائة، قاله على بن الخطيب؛ انتهى.

### [من نظم ابن باجة الصائغ الفيلسوف]

رجع إلى أخبار ابن الصائغ: و من نظمه قوله: [الكامل]

ضربوا القباب على أقاحى روضة خطر النسيم بها ففاح عبيرا

و تركت قلبى سار بين حمولهم دامى الكلوم يسوق تلك العيرا

هلّا سألت أميرهم هل عندهم عان يفكّ و لو سألت عبورا

لا و الذى جعل الغصون معاطفا لهم وصاغ الأقحوان ثغورا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٢٥

ما مرّ بى ريح الصّبا من بعدهم إلّا شهقت له فعاد سعيرا

و توفى ابن الصائغ فى شهر رمضان سنة ٥٢٣، و قيل: سنة خمس و عشرين، مسموما فى باذنجان بمدينة فاس، و هو تجيبى بضمّ التاء و فتحها، و باجّة: بالباء الموحدة، و بعد الألف جيم مشدّدة، ثم هاء ساكنة، و هى القصبة بلغة الفرنج. و سرقسطة- بفتح السين و الراء و ضمّ القاف و سكون السين الثانية و بعدها طاء مهملة- مدينة كبيرة بالأندلس، استولى عليها العدوّ سنة ٥١٢.

و قال الأمير ركن الدين بيبرس فى تأليفه «زبدة الفكرة، فى تاريخ الهجرة» إنّ ابن الصائغ كان عالما فاضلا، له تصانيف فى الرياضات و المنطق، و إنه وزر لأبى بكر الصحراوى صاحب سرقسطة، و وزر أيضا ليحيى بن يوسف بن تاشفين عشرين سنة بالمغرب، و إنّ سيرته كانت حسنة، فصلحت به الأحوال، و نجحت على يديه الآمال، فحسده الأطباء و الكتّاب و غيرهم، و كادوه، فقتلوه مسموما؛ انتهى.

و أنشد له بعضهم: [الطويل]

هم رحلوا يوم الخميس عشيّة فودّعتهم لما استقلّوا و ودعوا

و لمّا تولّوا ولّت النفس معهم فقلت ارجعى قالت إلى أين أرجع

إلى جسد ما فيه لحم و لا دم و ما هو إلّا أعظم تتقعقع

و عينين قد أعماهما كثرة البكا و أذن عصت عذّالها ليس تسمع

و قد قال بعضهم فى تعزيز بيتى الحريرى: إنه لابن الصائغ الأندلسى، و ليس هو بهذا فيما أعلم: [السريع]

انقدّ مهوى أزره فانثنى مه يا عذولى فى الذى انقدّ مه

مندمة قتل المعنّى فلا ترسل سهام اللحظ تأمن دمه

### [ترجمة الفتح بن خاقان و فيها ذكر سبب العداوة التى كانت بينه و بين ابن باجة]

رجع إلى ابن باجّه: و قد ذكر لسان الدين فى «الإحاطة» سبب العداوة بينه و بين الفتح فى ترجمة الفتح و لنذكرها بنصّه فنقول: قال رحمه اللّه تعالى: الفتح بن محمد بن عبيد اللّه،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٢۶

الكاتب، من قرية تعرف بقلعة الواد من قرى يحصب، يكنى أبا نصر، و يعرف بابن خاقان.

حاله: كان آية من آيات البلاغة لا يشقّ غباره، و لا يدرك شأوه، عذب الألفاظ ناصعها، أصيل المعانى وثيقها، لعوبا بأطراف الكلام، معجزا فى باب الحلى و الصفات، إلا أنه كان مجازفا مقدورا عليه، لا يملّ من المعاقرة و القصف، حتى هان قدره، و ابتذلت نفسه و ساء ذكره، و لم يدع بلدا من بلاد الأندلس إلّا دخله مسترفدا أميره واغلا فى عليته؛ قال الأستاذ فى «الصلة»: و كان معاصرا للكاتب أبى

عبد اللّه بن أبى الخصال، إلّا أنّ بطالته أخلدت به عن مرتبته. و قال ابن عبد الملك: قصد يوما إلى مجلس قضاء أبى الفضل عياض مخمرا، فتنسّم بعض حاضرى المجلس رائحة الخمر، فأعلم القاضى بذلك، فاستثبت، و حدّه حدّا تامّا، و بعث إليه بعد أن أقام عليه الحدّ بثمانية دنانير و عمامة، فقال الفتح حينئذ لبعض أصحابه:

عزمت على إسقاط اسم القاضى أبى الفضل من كتابى المرسوم ب «قلائد العقيان»، قال:

فقلت: لا تفعل، و هى نصيحة، فقال: و كيف ذلك؟ فقلت له: قصّتك معه من الجائز أن تنسى، و أنت تريد أن تتركها مؤرخة، إذ كلّ من ينظر فى كتابك يجدك قد ذكرت فيه من هو مثله و دونه فى العلم و الصيت، فيسأل عن ذلك، فيقال له، فيتوارث العلم عن الأكابر الأصاغر، قال: فتبين ذلك، و علم صحته و أقرّ اسمه.

و حدّثنى بعض الشيوخ أنّ سبب حقده على ابن باجه أبى بكر آخر فلاسفة الإسلام بجزيرة الأندلس ما كان من إزرائه به فى تكذيبه إياه فى مجلس إقرائه، إذ جعل يكثر ذكر ما وصله به أمراء الأندلس و وصف حليا، و كان يبدو من أنفه فضلة خضراء اللون، فقال له: فمن تلك الجواهر إذن الزمردة التى على شاربك؟ فثلبه فى كتابه بما هو معروف، و على ذلك فأبو نصر نسيج وحده، غفر اللّه تعالى له!.

مشيخته: روى عن أبوى بكر: بن سليمان بن القصيرة، و ابن عيسى بن اللبانة، و أبى جعفر بن سعدون الكاتب، و أبى الحسن بن سراج، و أبى خالد بن بشتغير، و أبى الطيب بن



زرقون، و أبى عبد اللّه بن خلصة الكاتب، و أبى عبد الرحمن بن طاهر، و أبى عامر بن سرور، و أبى محمد بن عبدون، و أبى الوليد بن حجاج، و ابن دريد الكاتب.

تواليفه: و مصنّفاته شهيرة: منها «قلائد العقيان» و «مطمح الأنفس» و المطمح أيضا، و ترسيله مدوّن، و شعره وسط، و كتابته فائقة.

شعره- من شعره قوله، و ثبت فى قلائده، يخاطب أبا يحيى بن الحاج: [الطويل]

أكعبة علياء و هضبة سؤدد و روضة مجد بالمفاخر تمطر

هنيأ لملك زار أفقك نوره و فى صفحتيه من مضائك أسطر

و إنى لخفّاق الجناحين كلّما سرى لك ذكر أو نسيم معطّر

و قد كان واش هاجنا لتهاجر فبتّ و أحشائى جوى تتفطّر

فهل لك فى ودّ ذوى لك ظاهرا و باطنه يندى صفاء و يقطر

و لست بعلق بيع بخسا و إننى لأرفع أعلاق الزمان و أخطر

فروجع عنه بما ثبت أيضا فى قلائده ممّا أوّله: [الطويل]

ثنيت أبا نصر عنانى، و ربما ثنت عزمة السّهم المصمّم أسطر

### [من نثر الفتح بن خاقان]

نثره: و نثره شهير، و نثبت له من غير المتعارف من السّلطانيات ظهيرا كتبه عن بعض الأمراء لصاحب الشّرطة، و لا خفاء بإدلاله براعته، [و هو هذا]: كتاب تأكيد اعتناء، و تقليد ذى منّة و غناء، أمر بإنفاذه فلان، أيّده اللّه تعالى! لفلان ابن فلان، صانه اللّه تعالى! ليتقدّم لولاية المدينة الفلانية و جهاتها، و يصوّح ما تكاثف من العدوان فى جنباتها، تنويها أحظاه بعلائه، و كساه رائق ملائه، لما علمه من سنائه، و توسّمه من غنائه، و رجاه من حسن منابه، و تحقّقه من طهارة ساحته و جنابه، و تيقّن- أيّده اللّه تعالى!- أنه مستحقّ لما ولاه، مستقلّ بما تولّاه، لا يعتريه الكسل، و لا تثنيه عن المضاء الصوارم و الأسل، و لم يكل الأمر منه إلى وكل، و لا ناطه بمناط عجز و

لا فشل، و أمره أن يراقب اللّه تعالى فى أوامره و نواهيه،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸ ص: ۲۲۸

و ليعلم أنه زاجره عن الجور و نـاهيه، و سائله عمّا حكم به و قضاه، و أنفـذه و أمضاه يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَـيْئاً وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِـذٍ لِلَّهِ [سورة الانفطار، الآية: ۱۹] فليتقـدم إلى ذلك بحزم لا يخمـد توقّـده، و عزم لا ينفـد تفقّـده، و نفس مع الخير ذاهبة و على متن البرّ و التقوى راكبـة، و يقـدّم للاحتراس من عرف اجتهـاده، و علم أرقه فى البحث و سـهاده، و حمـدت أعمـاله، و أمن تفريطه و إهماله، و يضمّ إليهم من يحـذو حـذوهم، و يقفو شأوهم، ممّن لا يستراب بمناحيه، و لا يصاب خلل فى ناحيـة من نواحيه، و أن يـذكى العيون على الجناة، و ينفى عنها لذيـذ السّـنات، و يفحص عن مكامنهم، حتى يغصّ بالريق نفس آمنهم، فلا يستقرّ بهم موضع، و لا يفر منهم خبّ و لا موضع، فإذا ظفر منهم بمن ظفر بحث عن باطنه، و بثّ السؤال فى مواضع تصـرفه و مواطنه، فإن لاحت شـبهة أبداها الكشف و الاسـتبراء، و تعدّاها البغى و الافتراء، نكّله بالعقوبة أشدّ نكال، و أوضح له منها ما كان ذا إشـكال، بعد أن يبلغ أناه، و يقف فى طرفه مـداه، و حـدّ له أن لا يكشف بشـرة إلّا فى حدّ يتعين، و إن جاءه فاسق أن يتبيّن، و أن لا يطمع فى صاحب مال موفور، و أن لا يسـمع من مكشوف فى مستور، و أن يسـلك السّـنن المحمود، و ينزّه عقوبته من الإفـراط و عفوه من تعطيـل الحـدود. و إذا انتهت إليه قصـة مشكلة أخّرها إلى غده، فهو على العقاب أقدر منه على ردّه، فقد يتبين فى وقت ما لا يتبيّن فى وقت، و المعاجلة بالعقوبة من المقت، و أن يتغمّد هفوات، ذوى الهيئات، و أن يستشـعر الإشفاق، و يخلع التكبّر فإنه من ملابس أهل النفاق، و ليحسن لعباد اللّه تعالى اعتقاده، و لا يرفض زمام العدل و لا مقاده، و أن يعاقب المجرم قدر زلّته، و لا يعتزّ عند ذلّته، و ليعلم أنّ الشيطان أغواه، و زيّن له مثواه، فيشفق من عثـاره، و سوء آثـاره، و ليشـكر اللّه تعـالى على مـا وهبه من العافيـة، و ألبسه من ملابسـها الضافيـة، و يـذكره جـلّ و علا فى جميع أحواله، و يفكّر فى الحشر و أهواله، و يتذكّر وعدا ينجز فيه و وعيدا يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَـداً بَعِيـداً [سورة آل عمران، الآية: ۳۰] و الأمير أيّـده اللّه تعالى ولى له ما عـدل و أقسط، و برىء منه إن جار و قسط، فمن قرأه فليقف عند حدّه و رسـمه، و ليعرف له حقّ قطع الشّرّ و حسـمه، و من وافقه من شـريف أو مشروف، و خالفه فى نهى عن منكر أو أمر بمعروف، فقد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸ ص: ۲۲۹

تعرّض من العقاب لما يذيقه و بال خبله، وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ [سورة فاطر، الآية: ۴۳] و كتب فى كذا.

وفاته- بمراكش ليلة الأحد لثمان بقين من محرم، من عام تسعة و عشرين و خمسمائة، ألفى قتيلا ببيت من بيوت فندق أحد فنادقها، و قد ذبح و عبث به، و ما شعر به إلّا بعد ثلاث ليال من قتله؛ انتهى نصّ الإحاطة.

### [ترجمة الفتح بن خاقان عن المغرب و من شعره]

و قـال فى «المغرب» مـا ملخصه: فخر أدبـاء إشبيليـة بـل الأنـدلس: أبو نصـر الفتـح بن محمـد بن عبيـد اللّه القيسـى، الإشبيلى، صاحب «القلائـد» و «المطمح»، ذكره الحجارى فى المسـهب، الدهر من رواة قلائده، و حملة فرائده، طلع من الأفق الإشبيلى شـمسا طبّق الآفاق ضياؤها، و عمّ الشـرق و الغرب سـناها و سـناؤها، و كان فى الأدب أرفع الأعلام، و حسنة الأيام، و له كتاب «قلائد العقيان» و من وقف عليه لا يحتاج فى التنبيه على قـدره إلى زيادة بيان، و هو و أبو الحسن بن بسّام الشـنتمرى مؤلّف الـذخيرة فارسا هـذا الأوان، و كلاهما قسّ و سـحبان، و التفضـيل بينهما عسير، إلّا أن ابن بسام أكثر تقييدا، و علما مفيدا، و إطنابا فى الأخبار، و إمتاعا للأسماع و الأبصار، و الفتح أقدر على البلاغة من غير تكلّف، و كلامه أكثر تعلّقا و تعشّـقا بالأنفس، و لو لا ما اتّسم به ممّا عرف من أجله بابن خاقان، لكان أحـد كتـاب الحضـرة المرابطيـة بـل مجليهـا المسـتولى على الرهـان، و إنما أخلّ به ما ذكرناه، مع كونه اشـتهر بـذمّ أولى الأحساب، و

التمرين بالطعن على الأدباء و الكتّاب، و قد رماه اللّه تعالى بما رمى به إمام علماء الأندلس أبا بكر بن باجّة، فوجد فى فندق بحضرة مراكش قد ذبحه عبد أسود خلا معه بما اشتهر عنه، و تركه مقتولا، و فى دبره وتد، و اللّه سبحانه يتغمّده برحمته.

و من شعره قوله من أبيات فى المدح: [الطويل]

إلى أين ترقى قد علوت على البدر و قد نلت غايات السيادة و القدر

وجدت إلى أن ليس يذكر حاتم و أغنيت أهل الجدب عن سبل القطر

و كم رام أهل اللوم باللوم وقفة و بحرك مدّ لا يؤول إلى جزر

و لو لم يكن فيك السماح جبلّة لأثّر ذاك اللوم فيك مع الدهر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٣٠

و ذكره ابن الإمام فى «سمط الجمان» و أنشد له: [الكامل]

ظبى من جنابك زارنى يختال زهوا فى ملاء مراح

ولى التماسك فى هواه كأنه مروان خاف كتائب السفّاح

فخلعت صبرى بالعرا و نبذته و ركبت وجدى فى عنان جماح

أهدى لى الورد المضعّف خدّه فقطفته باللحظ دون جناح

و أردت صبرا عن هواه فلم أطق و أريت جدّا فى خلال مزاح

و تركت قلبى للصبابة طائرا تهفو به الأشواق دون جناح

و ذكره ابن دحية فى «المطرب» و نعته بابن خاقان؛ قال: و الشيخ أبو الحجاج البياسى ينكر هذا، و قيل: إنما قيل له ابن خاقان لما تقدّم ذكره فى كلام الحجارى، و قال ابن دحية:

إنه قتل ذبحا بمسكنه فى فندق ببيت من حضرة مراكش صدر سنة تسع و عشرين و خمسمائة، أشار بقتله على بن يوسف بن تاشفين.

و قال أبو الحسن بن سعيد: رأيت فضلاء الأندلس ينتقدون على الفتح أول افتتاحه فى خطبة قلائده «الحمد للّه الذى راض لنا البيان حتى انقاد فى أعنّتنا، و شاد مثواه فى أجنّتنا» لكون ما تضمّنته الفقرة الأولى أصوب ممّا تضمّنته الفقرة الثانية، و الصواب ضدّ ذلك؛ انتهى.

و قال ابن الأبار فى «معجم أصحاب الصدفى»: إنه لم يكن مرضيا، و حذفه أولى من إثباته؛ انتهى.

و لذا لم يذكره فى التكملة.

و قال ابن خاتمة: إنه لم يعرف من المعارف بغير الكتابة و الشعر و الآداب.

و ما حكاه فى «الإحاطة» من تاريخ وفاته مخالف لما حكاه ابن الأبار أنه ليلة عيد الفطر من سنة ثمان و عشرين و خمسمائة، قال: و قرأت ذلك بخطّ من يوثق به.

و حكى ابن خلكان قولا آخر أنه توفى سنة خمس و ثلاثين و خمسمائة، قيل: و هو خطأ، على أنه حكى القول الآخر أيضا.

و دفن بباب الدباغين، رحمه اللّه تعالى!.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٣١

و قد قيل: إنّ قتله كان بإشارة أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين أخى إبراهيم الذى ألّف برسمه «قلائد العقيان».

و قد ذكر ابن خلكان أنّ المطمح ثلاث نسخ: صغرى، و وسطى، و كبرى، و الذى قاله ابن الخطيب و ابن خاتمة، و غير واحد من المغاربة أنه نسختان فقط: صغرى، و كبرى، و لعلّه الصواب، إذ صاحب البيت أدرى بما فيه.

و من تأليف الفتح «بداية المحاسن، و غاية المحاسن» و مجموع فى ترسيله، و تأليف صغير فى ترجمة ابن السّيد البطليوسى نحو الثلاثة

كراريس على منهاج القلائد.

### [من بديع إنشاء ابن خاقان]

و من بـديع إنشاء الفتـح المذكور سامحه اللّه تعالى قوله: أطال اللّه تعالى بقاء الوزير الأجلّ، عتادى الأسـرى، و زنادى الأورى، و أيامه أعيـاد، و للسـعد فى زمانه انقياد، أمّا أنا- أدام اللّه تعالى عزّه!- فجوّى عاتم، و أعيادى مآتم، و صـبحى عشاء، و ما لى إلّا من الخطوب انتشـاء، أبيت بين فؤاد خـافق و طرف مسـهّد، نـائى المحلّـة من مزار العوّد، حين لاـ أرى الروض المنوّر، و لا أحسّ سـهيلا إذا لاح ثم تهوّر، و قـد بعـدت دار إلىّ حبيبـة، و دنت منى حوادث بأدناها تؤذى الشبيبة، و أى عيش لمن لزم المفاوز لا يريمها، حتى ألفه ريمها، قـد رمته النوائب فما اتّقى، و ارتقت له الجوائـح فى وعور المرتقى، يواصل النوى و لا يهجر سـيرا، و لم يزجر فى الإراحة طيرا، قد هام بالوطن، هيام ابن طالب بالحوض و العطن، و حنّ إلى تلك البقاع، حنينه إلى أثلاث القاع، و لا سبيل أن يشـعب صـدر بينه شاعب، أو تكلّمه أحجار للدار و ملاعب، و ليس له إلى أن يجنح، و لا يرى أمله يسـنح، قد طوى البلاد و بسـطها، و تطرّف الأرض و توسّـطها، و لم يلف مقيلا، و لا وجد مقيلا، إلى اللّه أشـكو ما أقاسـى و أقاصـى، و بيده الأقدام و النواصـى، و لقاؤه موعد لكل موعد، و كل معمر سيدركه يوما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۳۲

حمام الموعد، و أنفذته و قد صدرت عن فلانة بعد أهوال لقيتها، و أنكال سـقيتها، و سفر لقيت منه نصبا، و كدر أعقبنى وصبا، و إلى متى يعتزلنى السعد؟ و للّه الأمر من قبل و من بعد؛ انتهى.

و كتب رحمه اللّه تعالى من رسالـة: سـيدى لا عدمت ارتفاقا، و لا حرمت تكيفا من السـعد و اتفاقا، أنا الآن مشـتغل البال، لا أفرّق بين الإـعراض و الإقبـال، و عنـد توجهى أفرغ لـك مـا حضـر، و مثلـك أرجـأ الأمر و أنظر، و فى علم اللّه تعالى لو أمكننى لحملتك على كاهل، و أوردتك منه أعذب المناهل، و أبحت لك السعد ثغرا ترتشفه، و خلعته بردا عليك تلتحفه، لكن الزمان لا يجد، و صروفه لا تنجد، و على أى حال فلا بدّ أن تجد قراك، و تحمد سراك، إن شاء اللّه تعالى.

و كتب إلى أبى بكر بن على عنـد ولايته إشبيلية: أطال اللّه تعالى بقاء الأمير الأجلّ أبى بكر للأرض يتملكها! و يسـتدير بسـعده فلكها! استبشـر الملك و حقّ له الاسـتبشار، و أومأ إليه السـعد فى ذلك و أشار، بما اتّفق له من توليتك، و خفق عليه من ألويتك، فلقد حبى منك بملك أمضـى من السـهم المسـدّد: طويل نجاد السـيف رحب المقلّد يقدم حيث يتأخر الذابل، و يكرم إذا بخل الوابل، و يحمى الحمى كربيعـة بن مكدّم، و يسـقى الظّبا نجيعا كلون العندم، فهنيئا للأندلس! لقد استردت عهد خلفائها، و استمدّت تلك الإمامة بعد إغفائها، حتى كأن لم تمرّ أعاصـرها، و لم يمت حكمها و لا ناصـرها، اللـذان عمرا الرصافـة و الزّهرا، و نكحا عقائل الروم و ما بذلا إلّا المشـرفية مهرا، و اللّه تعالى أسأله انتصار أيامك، و به أرجو انتشار أعلامك، حتى يكون عصرك أعجب من عصرهم، و نصرك أعزّ من نصرهم، و السلام؛ انتهى.

و قال بعضهم: من أحسن ما رأيت له قوله: معاليك أشهر رسوما، و أعطر نسيما، من أن يغرب شهاب مسعاها، أو يجدب لرائد مرعاها، فإن نبهتك فإنما نبهت عمرا، و إن استنرتك

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۳۳

فإنما أستنير قمرا، و الأمير أيّده اللّه تعالى أجلّ من أعتصم فى ملكه، و أنتظم فى سلكه، فإنه حسام بيد الملك، طلاقته فرنده، و شهامته حدّه، و قضـيب، فى دوحة الشـرف رطيب، بشـره زهره، و برّه ثمره، و قد توسّـمت ناركَ لعلّى أفوز منها بقبس، أو تكون كنار موسى بـالوادى المقـدّس، و عسـى الأمـل أن تعلو بكم قـداحه، و يشف من أفقكم مصـباحه، فجرّد- أيّـدك اللّه تعـالى!- صـارم عزم لا يفلّ غروبه، و أطلع كوكب سعد لا يخاف غروبه؛ انتهى.

و لنذكر بعض كلامه فى «المطمح» لغرابته فى هذه البلاد المشرقية بخلاف «القلائد» فإنها موجودة بأيدى الناس فيه.

## [من ترجمة أبى بكر الزبيدى اللغوى]

قال رحمه اللّه تعالى فى ترجمة أبى بكر محمد بن الحسن الزبيدى:

إمام اللغة و الإعراب، و كعبة الآداب، أوضح منها كلّ إبهام، و فضح دون الجهل بها محلّ الأوهام، و كان أحد ذوى الإعجاز، و أسعد أهل الاختصار و الإيجاز، نجم و الأندلس فى إقبالها، و الأنفس أول تهمّمها بالعلم و اهتبالها، فنفقت له عندهم البضاعة، و اتّفقت على تفضيله الجماعة، و أشاد الحكم بذكره، فأورى بذلك زناد فكره، و له اختصار «العين» للخليل، و هو معدوم النظير و المثيل، و «لحن العامة» و «طبقات النحويين» و كتاب «الواضح» و سواها من كلّ تأليف مخجل لمن أتى بعده فاضح، و له شعر مصنوع و مطبوع، كأنما يتفجّر من خاطره ينبوع، و قد أثبت له منه ما يقترح، و لا يطرح، فمن ذلك قوله: [مجزوء الرمل]

كيف بالدّين القديم لك من أمّ تميم

و لقد كان شفاء من جوى القلب السقيم

يشرق الحسن عليها فى دجى الليل البهيم

و كتب مراجعا: [مخلع البسيط]

أغرقتنى فى بحور فكر فكدت منها أموت لمّا

كلّفتنى غامضا عويصا أرجم فيه الظنون رجما

ما زلت أسرو السجوف عنه كأننى كاشف لظلما

أقرب من ليله، و أنأى مستبصرا تارة و أعمى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۳۴

حتى بدا مشرق المحيّا لمّا اعتلى طالعا و تمّا

للّه من منطق و جيز قد جلّ قدرا و جلّ فهما

أخلصت للّه فيه قولا سلّمت للّه فيه حكما

إذ قلت قول امرئ حكيم مراقب للإله علما

اللّه ربّى ولىّ نفسى فى كل بوس و كلّ نعمى

و كتب إلى أبى مسلم بن فهد و كان كثير التكبر، عظيم التجبّر، متغيّرا لسانه، مقفرا من المعالم جنانه: [الطويل]

أبا مسلم، إنّ الفتى بفؤاده و مقوله لا، بالمراكب و اللّبس

و ليس رواء المرء يغنى قلامة إذا كان مقصورا على قصر النفس

و ليس يفيد الحلم و العلم و الحجا أبا مسلم طول القعود على الكرسى

و استدعاه الحكم المستنصر باللّه أمير المؤمنين فعجل إليه و أسرع، فأمرع من آماله ما أمرع، فلمّا طالت نواه، و استطالت عليه لوعته و جواه، و حنّ إلى مستكنّه بإشبيلية و مثواه، استأذنه فى اللحوق بها فلوّمه و لواه، فكتب إلى من كان يألفه و يهواه: [مخلع البسيط]

و يحك يا سلم لا تراعى لا بدّ للبين من مساع

لا تحسبينى صبرت إلّا كصبر ميت على النزاع

ما خلق اللّه من عذاب أشدّ من وقفة الوداع

ما بينها و الحمام فرق إلّا المناحات فى النواعى

إن يفترق شملنا و شيكا من بعد ما كان فى اجتماع

فكلّ شمل إلى افتراق و كلّ شعب إلى انصداع

و كلّ قرب إلى بعاد و كلّ وصل إلى انقطاع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۳۵

## [من ترجمة أبى مروان عبد اللّه بن المعتصم بن صمادح]

و قال- سامحه اللّه تعالى!- بعد ترجمة السلطان بالمرية المعتصم بن صمادح ما نصّه:

ابنه عزّ الدولة أبو مروان عبد اللّه، فتى الراح المعاقر لدنانها، المهتصر لأغصان الفتوة و أفنانها، المهجّر لفلاة الظّباء و الآرام، المشتهر فى باب الصّبابة و الغرام، نشأ فى حجر أبيه نديم قهوه، و مديم صبوه، و خديم شهوه، لا يريم كاسا، و لا يروم إلّا اقتضاء و انتكاسا، ما شهد قتلا و لا قتالا، و لا تقلّد صارما إلّا مختالا، قد أمن منه جنان الجبان، و عدّت له غصون البان، و ما زال مرتضعا لأخلاف البطالة، مقتطعا ما شاء من إطاله، متوغّلا فى شعاب الفتّاك، متغلغلا فى طريق الانتهاك، إلى أن وجّهه أبوه إلى أمير المسلمين سفيرا عندما بدت له وجوه الفتنة تسفر، و معاهد الهدنة تقفر، مع أكامل أصحبهم نقصانه، و ذوى أديان جعلهم خلصانه، يسمعون بوادر بذاذته، و ينظرون مناكر لذاذاته، فآلت سفرته إلى الاعتقال، و قصرت نخوته ما بين قيد و عقال، فجاء كالمهر لا يعرف لجاما، و صار حبيس قوم لا يألونه استعجاما، و حين شالت نعامته، و سالت عليه ظلامته، كتب إلى أبيه: [المتقارب]

أبعد السنا و المعالى خمول و بعد ركوب المذاكى كبول

و من بعد ما كنت حرّا عزيزا أنا اليوم عبد أسير ذليل

حللت رسولا بغرناطة فحلّ بها فىّ خطب جليل

وثقّفت إذ جئتها مرسلا و قبلى كان يعزّ الرسول

فقدت المرية أكرم بها فما للوصول إليها سبيل

فراجعه أبوه بقطعة منها: [المتقارب]

عزيز علىّ و نوحى دليل على ما أقاسى و دمعى يسيل

و قطّعت البيض أغمادها و شقّت بنود و ناحت طبول

لئن كنت يعقوب فى حزنه و يوسف أنت فصبر جميل

و لم يزل يتحيّل فى تخلّصه، و أخذه من يد مقتنصه، فسرق و حرّاسه منه بمكان السلك من النحر، و طرق به على ثبج البحر، فوافى المريّة، و قد أخذ البحث عليه آفاق البريّة، فهنىء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۳۶

المعتصم بخلاصه، و بقى مستقرّا بعراصه، إلى أن أخلوها و مضوا لطلبة ما نووها، فنجا أخوه إلى حيث ذكرنا من بلاد الناصر و لجأ هو إلى أحد المرابطين لأذمّة كانت بينهما و أواصر، و أقام معه سمير لهوه، و أمير سهوه، إلى أن انقرض أمده، وطواه سروره لا كمده، فلم ير إلّا خالعا لعذاره، طالعا فى ثنيّات اغتراره، غير مكترث باتّضاعه، و لا منحرف عن ارتشاف الغىّ و ارتضاعه، و بدا منه فى هذه الحال ندى كاثر به السحاب، و ظاهر بسببه الصّحاب، و تخدّم الأوطار، و تقدم لذوى الرتب فيها و الأخطار، حسنا من ذكره، و أولع الألسن بشكره، فارتفع عنه الكدح، و شفع له فى الذمّ ذلك المدح، و كان نظمه بديع الوصف، رفيع الرّصف، و قد أثبتّ له ما يشهد بإجادته و إحسانه، شهادة الروض بجود نيسانه.

أخبرنى ابن القطان أنه ساير الأمير يحيى بن أبى بكر إلى طليطلة فى جيوش فاضت سيلا، و خاضت المطايا قتامها ليلا، و كان ملكا لم

يعقد على مثله لواء، و لم يحتو على شبه حواء، جمال محيّا، و كمال عليا، و حسن شيم، و بعد همم، أغنى العفاة، و أحيا الرفات، و ألغى الأجواد، و أنسى كعب بن مامة و ابن أبى دواد، فلمّا شارف طليطلة و كشفها، و اشتفّ بلالتها و ارتشفها، و ضرب بكنفها مضاربه، و أجال بساحتها زنجه و أعاربه، سقط أحد ألويته عن يد حامله، و انكسر عند عامله، فطائفة تفاءلت، و طائفة تطيّرت، و فرقة ابتهجت، و أخرى تغيّرت، فقال: [الكامل]

لم ينكسر عود اللّواء لطيرة يخشى عليك بها و أن تتأوّلا

لكن تحقّق أنه يندقّ فى نحر العدا ولدى الوغى فتعجّلا

و أخبرنى أخوه رفيع الدولة أنّ ابن اللبانة كتب إليه و الخلع قد نضا لبوسه، و قصر بوسه، و كدر صفاءه، و عذر وفاءه، و طوى ميدان جوده، و أذوى أفنان وجوده، قوله: [البسيط]

يا ذا الذى هزّ أمداحى بحليته و عزّه أن يهزّ المجد و الكرما

واديك لا زرع فيه اليوم تبذله فخذ عليه لأيام المنى سلما



فدعته دواعى الندى، و أولعته بالجدا فى ذلك المدى، فتحيّل فى برّ طبعه، و كتب معه:

[البسيط]

المجد يخجل من نقديك فى زمن ثناه عن واجب البرّ الذى علما

فدونك النّزر من مصف مودّته حتى يوفّيك أيام المنى سلما

## [من ترجمة أبى يحيى بن المعتصم، رفيع الدولة ابن صمادح]

ابنه الثانى: رفيع الدولة أبو يحيى بن المعتصم:

من بيت إماره، و إلى السعد طوافه بها و اعتماره، عمرت أنديته، و نشرت به رايات العزّ و ألويته، إلى أن خوى كوكبهم، و هوى مرقبهم، فتفرّقوا أيادى سبا، و فرقوا من وقع الأسنّة و الظّبا، و فارقوا أرضا كأرض غسّان، و وافقوا أياما كيوم أهل اليمامة مع حسّان، بعد ما خامرت النفوس مكارمهم مخامرة الرحيق، و أمّهم الناس من كلّ مكان سحيق، و انتجعوا انتجاع الأنواء، و استطعموا فى المحل و اللأواء، و صالوا بالدهر وسطوا، و بين النهى و الأمر فيه خطوا، و رفيع الدولة هذا فجر ذاك الصباح، وضوء ذلك المصباح، و غصن تلك الدّوحة، و عرف تلك النفحة، لم يمتهن و الدهر قد بذله، و لا ترك الانتصار و الأمر قد خذله، فالتحف بالصّون و ارتدى، وراح على الانقباض و اغتدى، فما تلقاه إلّا سالكا جددا، و لا تراه إلّا لابسا سؤدا، و له أدب كالروض المجود إذا زهّر، و نظم كزهر التهائم و النجود بل كالصبح إذا أسفر و اشتهر، أوقفه على النسيب، و صرفه إلى المحبوبة و الحبيب، فمن ذلك قوله: [البسيط]

ما لى و للبدر لم يسمح بزورته لعلّه ترك الإجمال أو هجرا

إن كان ذاك لذنب ما شعرت به فأكرم الناس من يعفو إذا قدرا

و له أيضا: [السريع]

يا عابد الرحمن كم ليلة أرّقتنى وجدا و لم تشعر

إذ كنت كالغصن ثنته الصّبا و صحن ذاك الخدّ لم يشعر

و له أيضا: [الطويل]

و أهيف لا يلوى على عتب عاتب و يقضى علينا بالظنون الكواذب

يحكّم فينا أمره فنطيعه و نحسب منه الحكم ضربة لازب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٣٨

و له أيضا رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

و علقته حلو الشمائل ماجنا خنث الكلام مرنّح الأعطاف

ما زلت أنصفه و أوجب حقّه لكنه يأبى من الإنصاف

و له أيضا: [الطويل]

حبيب متى ينأى عن العين شخصه يكاد فؤادى أن يطير من البين

و يسكن ما بين الضلوع إذا بدا كأنّ على قلبى تمائم من عين

و له أيضا: [الطويل]

أفدّى أبا عمرو و إن كان جانيا علىّ ذنوبا لا تعدّد بالعتب

فما كان ذك الودّ إلّا كبارق أضاء لعينى ثم أظلم للقلب

و له و قد بلغه موتى، و تحقق عنده فوتى:

مثنى الوزارة قد أودى فما فعلت تلك المحابر و الأقلام و الطّرس

ما كنت أحسب يوما قبل ميتته أنّ البلاغة و الآداب تختلس

و استأذن ليلة على أحد الأمراء و أنا عنده فى أسنى موضع، و أبهى مطلع، و جوانب حفده بين يدىّ محتلّة، و سحائب رفده علىّ منهلّة، و كان أجمل من مقل، و أكمل من من المهد إلى سرير الملك قد نقل، و كتب إلىّ يهنينى بقدوم من سفر: [الطويل]

قدمت أبا بكر على حال وحشة فجاءت بك الآمال و اتّصل الأنس

و قرّت بك العينان و اتّصل المنى و فازت على يأس ببغيتها النفس

فأهلا و سهلا بالوزارة كلّها و من رأيه فى كلّ مظلمة شمس

## [من ترجمة الوزير أبى الوليد بن حزم]

و قال فى المطمح فى ترجمة الوزير أبى الوليد بن حزم:

واحد دونه الجمع، و هو للجلالة بصر و سمع، روضة علاه رائقة السنا، و دوحة بهاه طيّبة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٣٩

الجنى، لم يتّزر بغير الصّون، و لم يشتهر بفساد بعد الكون، مع نفس برئت من الكبر، و خلصت خلوص التبر، و عفاف التحف به برودا، و ما ارتشف به ثغرا برودا، فعفت مواطنه، و ما استرابت ظواهره، و لا بواطنه، و أمّا شعره ففى قالب الإحسان أفرغ، و على وجه الاستحسان يلقى و يبلغ، و كتب إليه ابن زهر: [الكامل]

أ أبا الوليد و أنت سيد مذحج هلّا فككت أسير قبضة وعده

و حياة من أمد الحياة بوصله و ذهابها حتما بأيسر صدّه

لأقاتلنّك إن قطعت بمرهف من جفنه و بصعدة من قدّه

فراجعه أبو الوليد: [الكامل]

لبّيك يا أسد البريّة كلّها من صادق عبث المطال بوعده

يمضى بأمرك سار أو سد الفضا و يفلّ حدّ النائبات بحدّه

إيه و وافقت الصبا فى معرض ذهب المشيب بهزله و بجدّه

## [من ترجمة أبي بكر الغساني و أبي عامر بن عقال]

و قال في المطمح في ترجمة أبي بكر الغساني، ما صورته:

صليب العود، مهيب الوعود، لو دعي له الأسد الورد لأجاب، و لو رمي بذكره الليل البهيم لانجاب، و لو قعدت بين يديه الأطواد لتحرّك سكونها، و لو عصته الطيور ما آوتها و كونها، مع وقار تخاله يذبلا، و فخار يفضح بلبلا، و شيم لو كانت بالروض ما ذوى، أو تقاسمت في الخلق ما رمد أحد بعد ما شوى، و سجايا تنجلي عنها الظلماء، كأنّ مزاجها عسل و ماء؛ انتهى.

و هذا الغساني هو صاحب تفسير القرآن و قد عرّف به في «الإحاطة» فليراجع ثمة.

و قال أيضا في المطمح ما صورته: أبو عامر بن عقال.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۴۰

كان له ببني قاسم تعلق، و في سماء دولتهم تألّق، فلمّا خوت نجومهم، و عفت رسومهم، انحطّ عن ذلك الخصوص، و سقط سقوط الطائر المقصوص، و تصرّف بين وجود و عدم، و تحرّف قاعدا حينا و حينا على قدم، و في خلال حاليه، و أثناء انتحاله، لم يدع حظه من الحبيب، و لا ثنى لحظه عن الغزال الربيب، و لم يزل يطير و يقع، و الدهر يخرق حاله و يرقع، إلى أن أرقاه الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين رحمه اللّه تعالى أعلى ربوة، و أراه أبهى حظوة، فأدرك عنده رتبة أعلام التحبير و الإنشاء، و ترك الدهر قلق الحشا، و تسنّم منزلة لا يتسنّمها إلّا من تطهّر من درنه، و جمح إحسانه في ميدان حرنه، و الحظوظ أقسام لا تسام، و الدنيا إنارة و إعتام: [الوافر]

و لو لم يعل إلّا ذو محلّ تعالى الجيش و انحطّ القتام

و قد أثبتّ عنه بعض ما انتقيته، و الذي أخذته مباين لما أبقيته، فمن ذلك قوله: [مجزوء الكامل]

يا ويح أجسام الأنا م فما تطيق من الأذى

خلقت لتقوى بالغذا ء و سقمها ذاك الغذا

و تنال أيام السلا مة بالحياة تلذّذا

فإذا انقضى زمن الصّبا و رمى المشيب فأنفذا

وجد السقام إلى المفا صل و الجوانح منفذا

و يقول مهما يعط شي ئا ناولوني غير ذا

و حذا في هذه القصيدة حذو الصابي في قوله: [مجزوء الكامل]

وجع المفاصل و هو أي سر ما لقيت من الأذى

ردّ الذي استحسنته و الناس من حظّي كذا

و العمر مثل الكاس ير سب في أواخره القذى

و له يعتذر عن زيارة اعتمدها، و مواصلة اعتقدها، فعاقته عنها حوادث لوته، و عدته عن ذلك وثنته: [الخفيف]

بينما كنت راجيا للقائه و التشفّي بالبشر من تلقائه

و ترقبت من سماء نزاعي قمر الأنس طالعا من سمائه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۴۱

إذ دهاني اعتراض خطب ثناني عن غمام يشفي الغليل بمائه

فتدلّهت و انزويت حياء منه و العذر واضح لسنائه

و له فصل كتب به عن الأمير إبراهيم يصف إجازة أمير المسلمين البحر سنة خمس عشرة و خمسمائة: و فى الساعة الثانية من يوم الجمعة كان جوازه- أيّده اللّه تعالى!- من مرسى جزيرة طريف على بحر ساكن قد ذلّ بعد استصعابه، و سهل بعد أن أرى الشامخ من هضابه، و صار حيّه ميتا، و هذره صمتا، و جباله لا ترى فيها عوجا و لا أمتا، و ضعف تعاطيه، و عقد السلم بين موجه و شاطيه، فعبر آمنا من لهواته، متملّكا لصهواته، على جواد يقطع الجوّ سبحا، و يكاد يسبق البرق لمحا، لم يحمل لجاما و لا سرجا، و لا عهد غير اللجّة الخضراء مرجا، عنانه فى رجله، و هدب العين يحكى بعض شكله، فللّه هو من جواد، له جسم و ليس له فؤاد، يخرق الهوى و لا يرهبه، و يركض الماء و لا يشربه.

## [من ترجمة أبى مروان الطبنى]

و قال فى ترجمة الفقيه أبى مروان عبد الملك بن زيادة اللّه الطبنى، ما نصّه:

«من ثنيّة شرف و حسب، و من أهل حديث و أدب، إمام فى اللغة متقدّم، فارع لرتب الشّعر متسنّم، له رواية بالأندلس و رحلة إلى المشرق، ثم عاد و قد توّج بالمعارف المفرق، و أقام بقرطبة علما من أعلامها، و متسنّما لترفّعها و إعظامها، تؤثره الدّول، و تصطفيه أملاكها الأول، ما زال فيها مقيما، و لا برح عن طريق أحانيها مستقيما، إلى أن أغتيل فى إحدى الليالى بقضية يطول شرحها فأصبح مقتولا فى فراشه، مذهولا كلّ أحد من انبساط الضرب إليه على انكماشه، و قد أثبتّ من محاسنه ما يعجب السامع، و تصغى إليه المسامع، فمن ذلك قوله: [الطويل]

و ضاعف ما بالقلب يوم رحيلهم على ما به منهم حنين الأباعر

و أصبر عن أحباب قلب ترحّلوا ألا إنّ قلبى سائر غير صابر

و لمّا رجع إلى قرطبة و جلس ليرى ما احتقبه من العلوم، اجتمع إليه فى المجلس خلق عظيم، فلمّا رأى تلك الكثرة، و ماله عندهم من الأثرة، قال: [البسيط]



إنى إذا حضرتنى ألف محبرة يكتبن حدّثنى طورا و أخبرنى

نادت بمفخرى الأقلام معلنة هذى المفاخر لا قعبان من لبن

و كتب إلى ذى الوزارتين أبى الوليد بن زيدون: [البسيط]

أبا الوليد و ما شطّت بنا الدار و قلّ منّا و منك اليوم زوّار

و بيننا كلّ ما تدريه من ذمم و للصّبا ورق خضر و أنوار

و كلّ عتب و إعتاب جرى فله بدائع حلوة عندى و آثار

فاذكر أخاك بخير كلّما لعبت به الليالى فإنّ الدهر دوّار

## [من ترجمة الفقيه أبى عمر أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد]

و قال فى ترجمة صاحب العقد الفقيه العالم أبى عمر أحمد بن عبد ربه:

عالم ساد بالعلم و رأس، و اقتبس به من الحظوة ما اقتبس، و شهر بالأندلس حتى سار إلى المشرق ذكره، و استطار شرر الذكاء فكره، و كانت له عناية بالعلم و ثقة، و رواية له متّسقة، و أمّا الأدب فهو- كان- حجّته، و به غمرت الأفهام لجّته، مع صيانة و ورع، و ديانة ورد ماءها فكرع، و له التأليف المشهور الذى سماه ب «العقد»، و حماه عن عثرات النقد؛ لأنه أبرزه مثقّف القناة، مرهف الشّباة، تقصر عنه ثواقب الألباب، و تبصر السحر منه فى كل باب، و له شعر انتهى منتهاه، و تجاوز سماك الإحسان و سماه.

أخبرنى ابن حزم أنه مرّ بقصر من قصور قرطبة لبعض الرؤساء فسمع منه غناء أذهب لبّه، و ألهب قلبه، فبينما هو واقف تحت القصر إذ رشّ بماء من أعاليه، فاستدعى رقعة، و كتب إلى صاحب القصر بهذه القطعة: [البسيط]

يا من يضنّ بصوت الطائر الغرد ما كنت أحسب هذا الضّنّ فى أحد

لو أن أسماع أهل الأرض قاطبة أصغت إلى الصوت لم ينقص و لم يزد

فلا تضنّ على سمعى و منّ به صوتا يجول مجال الروح فى الجسد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٤٣

أمّا النبيذ فإنى لست أشربه و لا أحبّل إلّا نسوتى بيدى

و عزم فتى كان يتألّفه، و خامره كلفه، على الرحيل فى غده، فأذهبت عزمته قوى جلده، فلمّا أصبح عاقته السماء بالأنواء، و ساقته مكرها إلى الثّواء، فاستراح أبو عمر من كمده، و انفسح له من التواصل ضائق أمده، فكتب إلى المذكور، العازم على البكور: [البسيط]

هلّا ابتكرت لبين أنت مبتكر هيهات يأبى عليك اللّه و القدر

ما زلت أبكى حذار البين ملتهبا حتى رثى لى فيك الريح و المطر

يا برده من حيا مزن على كبد نيرانها بغليل الشوق تستعر

آليت أن لا أرى شمسا و لا قمرا حتى أراك فأنت الشمس و القمر

و من شعره الذى صرّح به تصريح الصّبّ، و برّح به وقائع اسم الحبّ، قوله: [البسيط]

الجسم فى بلد و الروح فى بلد يا وحشة الروح بل يا غربة الجسد

إن تبك عيناك لى يا من كلفت به من رحمة فهما سهماك فى كبدى

و منه قوله: [الخفيف]

ودّعتنى بزفرة و اعتناق ثم نادت متى يكون التلاقى

و بدت لى فأشرق الصبح منها بين تلك الجيوب و الأطواق

يا سقيم الجفون من غير سقم بين عينيك مصرع العشّاق

إنّ يوم الفراق أفظع يوم ليتنى متّ قبل يوم الفراق

و له أيضا: [الكامل]

يا ذا الذى خطّ الجمال بخدّه خطّين هاجا لوعة و بلابلا

ما صحّ عندى أنّ لحظك صارم حتى لبست بعارضيك حمائلا

و أخبرنى بعضهم أنّ الخطيب أبا الوليد بن عيال حجّ، فلمّا انصرف، تطلّع إلى لقاء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٤٤

المتنبى و استشرف، و رأى أنّ لقياه فائدة يكتسبها، و حلّة فخر لا يحتسبها، فصار إليه فوجده فى مسجد عمرو بن العاص، ففاوضه قليلا، ثم قال: أنشدنى لمليح الأندلس، يعنى ابن عبد ربه، فأنشده: [الكامل]

يا لؤلؤا يسبى العقول أنيقا ورشا بتقطيع القلوب رفيقا

ما إن رأيت و لا سمعت بمثله درّا يعود من الحياء عقيقا

و إذا نظرت إلى محاسن وجهه أبصرت وجهك فى سناه غريقا

يا من تقطّع خصره من رقّة ما بال قلبك لا يكون رقيقا

فلمّا أكمل إنشادها استعادها منه، و قال: يا ابن عبد ربه، لقد تأتيك العراق حبوا.

و له أيضا: [الكامل]

و معذّر نقش الجمال بخطّه خدّا له بدم القلوب مضرّجا

لمّا تيقّن أنّ سيف جفونه من نرجس جعل النّجاد بنفسجا

و له أيضا: [الطويل]

و ساحبة فضل الذّيول كأنها قضيب من الريحان فوق كثيب

إذا ما بدت من ثغرها قال صاحبى أطعنى و خذ من وصلها بنصيب

و له أيضا: [الرمل]

هيّج الشوق دواعى سقمى و كسا الجسم ثياب الألم

أيها البين أقلنى مرّة فإذا عدت فقد حلّ دمى

يا خليّ الروع نم فى غبطة إنّ من فارقته لم ينم

و لقد هاج بجسمى سقما حبّ من لو شاء داوى سقمى

و بلغ سنّ عوف بن محلّم، و اعترف بذلك اعتراف متألّم، عند ما وهت شدّته، و بليت جدّته، و هو آخر شعر قال، ثم عثر فى أذيال الردى و ما استقال: [الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۴۵

كلانى لما بى عاذلىّ كفانى طويت زمانى برهة و طوانى

بليت و أبليت الليالى مكرها و صرفان للأيام معتوران

و ما لى لا أبلى لسبعين حجّة و عشر أتت من بعدها سنتان

فلا تسألانى عن تباريح علّتى و دونكما منى الذى تريان

و إنى بحول اللّه راج لفضله ولى من ضمان اللّه خير ضمان

و لست أبالى من تباريح علّتى إذا كان عقلى باقيا و لسانى

و فى أيام إقلاعه عن صبوته، و ارتجاعه عن تلك الغفلة و أوبته، و انثنائه عن مجون المجون إلى صفاء توبته، محّص أشعاره فى الغزل بما ينافيها، و نصل من قوادمها و خوافيها، بأشعار فى الزهد على أعاريضها و قوافيها، منها القطعة التى أوّلها: [البسيط]

هلّا ابتكرت لبين أنت مبتكر

محّصها بقوله: [البسيط]

يا راقدا ليس يعفو حين يقتدر ما ذا الذى بعد شيب الرأس ينتظر

عاين بقلبك إنّ العين غافلة عن الحقيقة و اعلم أنها سقر

سوداء تزفر من غيظ إذا سفرت للظالمين فلا تبقى و لا تذر

لو لم يكن لك غير الموت موعظة لكان فيه عن اللّذّات مزدجر

أنت المقول له ما قلت مبتدئا: «هلّا ابتكرت لبين أنت مبتكر»

## [من ترجمة أبى القاسم المنيشى]

و قال فى ترجمة أبى القاسم المنيشى، ما صورته:

أبو القاسم المنيشى، أحد أبناء حضرة إشبيلية المقلّين، الناهضين بأعباء الضرائر المستقلّين، لم يزل يعشو لكلّ ضوء، و ينتجع مصاب كل نوء، فيوما يخصب، و يوما يجدب، و آونة يفرح و أخرى ينتدب، إلى أن صدقت مخايله، فرمقت بخوته و تحايله، و أتى من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٤٦

العجب، بمنسدل الحجب، و من الأشر، ما لم يأت من بشر، و ما تصرف إلّا فى أنزل الأعمال، و لا تعرّف إلّا بأخون العمال، لم يفرع ربوة ظهور، و لم يقرع باب رجل مشهور، و له أدب و لسن، و مذهب فيهما يستحسن، لكنه نكب عن المقطع الجزل، و ذهب مذهب الهزل، إلّا فى النادر فربما جدّ، ثم أخلق منه ما استجدّ، و عاد إلى ديدنه، عودة أبى عباد إلى واواته و مدنه، و أخذ فى ذلك الغرض، و ليس شرط كتابى بذاه، و لا أن يقف حذاه، و قد أثبتّ له ما هو عندى نافق، و لغرض كتابى موافق، فمن ذلك قوله: [البسيط]

يا روضة باتت الأنداء تخدمها أتى النسيم و هذا أوّل السّحر

إن كان قدّك غصنا فالثراء به مثل الكمائم قد زرّت على الزّهر

اربأ بخدّيك عن ورد و عن زهر و اغن بقرطيك عن شمس و عن قمر

يا قاتل اللّه لحظى كم شقيت به من حيث كان نعيم الناس بالنظر

و له من رثاء فى والدتى رحمة اللّه عليها: [البسيط]

يا ناصحى غير مفتات و لا شجن على النصائح و النّصّاح مفتات

لا أستجيب و لو ناديت من كثب و قد قذتنى تعلّات و علّات

إن كان رأيك فى برّى و تكرمتى بحيث قد ظهرت منه علامات

لا ترض لى غير شجو لا أفارقه فذاك أختاره و الناس أشتات

و منها:

يا ذا الوزارات من مثنى و واحدة للّه ما اصطنعت منك الوزارات

للّه منك أبا نصر أخو جلد إذا ألمّت ملمّات مهمّات

أستودع اللّه نورا ضمّه كفن كما توارى بدور التمّ هالات

قضت و ليت شبابى كان موضعها هيهات! لو قضيت تلك اللّبانات

مضت و لمّا يقم من دونها أحد هلّا و قد أعذرت فيها المروءات

و له يصف زرزورا: [مخلع البسيط]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٤٧

أمنبر ذاك أم قضيب يفرعه مصقع خطيب

يختال فى بردتى شباب لم يتوضّح بها مشيب

كأنما ضمّخت عليه أبراده مسكة و طيب

أخرس لكنه فصيح أبله لكنه لبيب

جهم على أنه وسيم صعب على أنه أريب

## [من ترجمة أبى الحسن البرقى]

أبو الحسن البرقى:

بلنسى الدار، نفيسىّ المقدار، ما سمعت له بشرف، و لا علمت له بسلف، و لا اطّلعت منه على غير سرف، ورد إشبيلية سنة تسع و

تسعين و أربعمائة، و اتّصل بابن زهر، فناهيك من حظّ فى أكنافه جال، و من لحظ فيما أراده أجال، و من أمل استوفر، و حظّ مسك أذفر، و من وجه جاه له أسفر، سلك به ساحة الرغائب، و تملك بسببه إباحة الحاضر و الغائب، و قال فما نبذت مقالته، و أقال فما قيّدت إقالته، و كان حلو المجالسة، مجلوّ المؤانسة، ذا نشب وافر، و مذهب فى المساهمة سافر، إلّا أنه كان كلفا بالفتيان، معنّى بهم فى كل الأحيان، و نيّف على السبعين و هو برداء الصبوة مرتدّ، و بعترها معتدّ، مع أدب زهرته ترفّ، و كأنه بحر و الألباب منه تغترف، و قد أثبتّ له بعض ما وجدت له فى الغلمان، و أنشدت له فى تلك الأزمان، فمن ذلك قوله رحمه اللّه تعالى: [الخفيف]

إن ذكرت العقيق هاجك شوق ربّ شوق يهيجه الاذّكار

يا خليليّ حدثانى عن الرك ب سحيرا أ أنجدوا أم أغاروا

شغلونا عن الوداع و ولّوا ما عليهم لو ودّعوا ثم ساروا

أنا أهواهم على كلّ حال عدلوا فى هواهم أم جاروا

و علق بإشبيلية فتى يعرف بابن المكر، و بات من حبّه طريحا بين أيدى الوساوس و الفكر، لا يمشى إلّا صبّا، و لا يفشى إلّا غراما و حبّا، و ما زال يقاسى لوعته، مقاساة يناجى بها صرعته، و يكابد جواه، و يلازم هواه، حتى اكتسى خدّه بالعذار، و انمحت عنه بهجة آذار،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۴۸

فسلا من كلفه، و تصدّى ذلك لمواصلته بصلته، فقال: [الكامل]

الآن لمّا صوّحت و جناته شوكا و أضحت سلوة العشاق

و استوحشت منه المحاسن و اكتست أنوار وجهك واهن الأخلاق

أمسيت تبذل لى الوصال تصنّعا خلق اللئيم و شيمة المذّاق

هلّا وصلت إذ الشمائل قهوة و إذ المحيّا روضة الأحداق

يا كم أطلت غرام قلب موجع كم قد ألبّ إليك بالأشواق

ما كنت إلّا البدر ليلة تمّه حتى قضت لك ليلة بمحاق

لاح العذار فقلت وجد نازح إنّ ابن دايه مؤذن بفراق

و له فيه مناقضا لذلك الغرض، معارضا للوعة سلوه الذى كان عرض: [الطويل]

يلومون فى ظبى تزايد حسنه بخطّين خطّا لوعتى و غراميا

و قد كنت أهوى خدّه و هو عاطل فكيف و قد أضحى لعينى حاليا

و له أيضا فى مثله: [الوافر]

أجيل الطّرف فى خدّ نضير يردّد ناظرى نظرى إليه

إذا رمدت بحمرته جفونى شفاها منه إثمد عارضيه

## [من ترجمة أبى الحسن على بن جودى]

أبو الحسن على بن جودى:

برّز فى الفهم، و أحرز منه أوفر سهم، و عانى العلوم بقريحة ذكيّة، و واخى بنفس فى المعارف زكيّة، و له أدب واسع مداه، يانع كالروض بلّله نداه، و نظم أرقّ من دمع العانى، و لطيف المعانى، و أعبق من نفس الخمائل، فى أكفّ الصّبا و الشمائل، و نثر كالزهر المطلول أو السلك المحلول، إلّا أنه سها فأسرف، وزها بما لا يعرف، و تصدى إلى الدين بالافتراء، و لم يراقب اللّه تعالى فى ذلك

الاجتراء، و اشتهرت عنه فى ذلك أقوال سدّد إلى الملّة نصالها،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۴۹

و أبدى بها ضلالها، فعظمت به المحنة، و كمنت له فى كل نفس إحنه، و ما زال يتدرّج فيها و ينتقل، حتى عثر و ما كاد يستقل، فمرّ لا يلوى على تلك النواحى، و فرّ لا ينثنى إلى لوائم و لواحى، و ما زال يركب الأهواء و يخوضها، و يذلّل النفس بها و يروضها، حتى أسمحت ببعض الإسماح، و كفّت عن ذلك الجماح، و استقرّ عند أبى مالك فآواه، و مهّد له مثواه، و جعله فى جملة من اختصّ من المبطلين، و استخلص من المعطلين، فكثيرا ما يصطفيهم، و لا يدرى أ يدّخرهم أم يقتنيهم، و قد أثبتّ له ما يبهر سامعا، و يظهر برقا لامعا، فمن ذلك قوله: [الطويل]

أحنّ إلى ريح الشمال فإنها تذكرنا نجدا و ما ذكرنا نجدا

تمرّ على ربع أقام به الهوى و بدّل من أهليه جاثمة ربدا

فيا ليت شعرى هل تقضّى لبانة فأرتشف اللّميا و أعتنق القدّا

خليلىّ، لا و اللّه ما أحمل الهوى و إن كنت فى غير الهوى رجلا جلدا

و قوله أيضا: [الطويل]

سل الركب عن نجد فإنّ تحيّة لساكن نجد قد تحمّلها الركب

و إلّا فما بال المطىّ على الوجى خفافا و ما للريح مرجعها رطب

و قوله أيضا: [الطويل]

إذا ارتحلت غربيّة فاعرضا لها فبالغرب من نهوى له البلد الغربا

لقد ساءنا أنّا بعيد و أننا بأرضين شتّى لا مزارا و لا قربا

يفجّعنا إمّا بعاد مبرّح و إمّا أمور باعثات لنا كربا

ظعنّا على حكم الليالى و خطبها فيا ليت لم ندر الليالى و لا الخطبا

و كنت أرجّى الدهر بعد الذى مضى ديارا و قربا و الأصادق و الصحبا

أ حقّا يسير الركب لم ترتحل بنا إليك و لم تحد الحداة لنا ركبا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۸؛ ص۲۴۹

قوله أيضا: [الطويل]

لقد هيّج النيران يا أمّ مالك بتدمير ذكرى ساعدتها المدامع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۵۰

عشيّة لا أرجو لقاءك عندها و لا أنا أن يدنو مع الليل طامع

و قوله أيضا: [الطويل]

حننت إلى البرق اليمانى، و إنما نعالج شوقا ما هنالك هانيا

فيا راكبا يطوى البلاد تحمّلن تحيّتنا إن كنت تلجأ لاقيا

ليالينا بالجزع جزع محجّر سقى اللّه يا فيحاء تلك الليالیا

و ما ضرّ صحبى وقفة بمحجّر أحيّى بها تلك الرسوم البواليا

و له أيضا: [الطويل]

خليلىّ من نجد فإنّ بنجدهم مصيفا لبيت العامرىّ و مربعا

ألا رجّعا عنها الحديث فإننى لأغبط من ليلى الحديث المرجّعا

عزيز علينا يا ابنة القوم أننا غريبان شتّى لا نطيق التجمّعا

فريق هوى منّا يمان و مشئم يحاول يأسا أو يحاول مطمعا

كأنّا خلقنا للنوى، و كأنما حرام على الأيام أن نتجمّعا

## [نماذج من شعر الفتح بن خاقان]

و وجدت له فى بعض نسخ «المطمح» قوله أيضا: [الطويل]

سقى دارك اللائى ببطن محصّب مثاكيل من وفد الغمام المرنّح

أ لم تعلمى يا فتنة القلب أننى تطارحت من حبى لكم كلّ مطرح

إذا نعبت غربان دار وجدتنى و شوقى مقيم بين ناء و نزّح

و له أيضا: [الوافر]

ألا خبر و للبلوى ضروب و فيك لكلّ مشتاق حبيب

حباك اللّه بالنعمى فنونا و جرّ لكم مع النعمى خطوب

متى تقضى بخسفتك الليالى و تعصف فيكم ريح هبوب

فإنكم تجرّون المنايا و تعمر من مجانيكم قلوب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۵۱

و قد ذكر فى «المطمح» له تخميسا جاريا على ألسنة الناس إلى الآن، و هو: [المتقارب]

أيا ساكنين بأرض اللوى وصالكم لسقامى دوا

و عافاكم اللّه من ذا الجوى ملكتم فؤادى فصار الهوى

علىّ رقيب رقيب رقيب

و لمّا تبدّت لهم حالتى و ما حرّك الهجر من زفرتى

بكوا رحمة لى من ساعتى فقلت متى الوصل يا سادتى

فقالوا قريب قريب قريب

و هو و إن لم يكن فى ذروة البلاغة فقد ذكرته؛ لأنه مطروق بالمغرب عند أهل التلاحين و غيرهم.

## [نماذج من نثر الفتح بن خاقان]

و لنذكر بعض نصّ خطبة المطمح، قال رحمه اللّه تعالى فيه: أمّا بعد حمد اللّه الذى أشعرنا إيمانا و إلهاما، و صيّر لنا أفهاما، و يسّر لنا برود آداب، و نشرت للانبعات لإثباتها و الانتداب، و صلّى اللّه على سيدنا محمد الذى بعثه رحمة، و نبّأه منّة منه و نعم، و سلّم تسليما، فإنه كان بالأندلس أعلام، فتنوا بسحر الكلام، و لقوا منه كلّ تحيّة و سلام، فشعشعوا البدائع و روّقوها، و قلّدوها بمحاسنهم و طوّقوها، ثم هووا فى مهاوى المنايا، و انطووا بأيدى الرزايا، و بقيت مآثرهم الحسان، غير مثبتة فى ديوان، و لا مجملة فى تصنيف تجتلى فيه العيون، و تجتنى منه زهر الفنون، إلى أن أراد اللّه تعالى إظهار إعجازها، و اتّصال صدورها بأعجازها، فحللت من الوزير أبى العاصى حكم بن الوليد عند من رحّب و أهّل، و أعلّ بمكارمه و أنهل، و ندبنى إلى أن أجمعها فى كتاب، و أدركنى من التنشّط إلى إقبال ما ندب إليه، و كتابة ما حثّ عليه، فأجبت رغبته، وحليت بالإسعاف لبّته، و ذهبت إلى إبدائها، و تخليد عليائها، و أمليت منها فى بعض

أيام، ثلاثة أقسام: القسم الأول يشتمل على سرد غرر الوزراء، و تناسق درر الكتّاب و البلغاء. القسم الثانى: يشتمل على محاسن أعلام العلماء، و أعيان القضاء و الحكماء. القسم الثالث: يشتمل على ذكر محاسن الأدباء، النوابغ النجباء؛ انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۵۲

و هذه خطبة «المطمح الصغير»، و أمّا الكبير و الأوسط فضمنهما ذكر الملوك و السلاطين حسبما نقلنا بعضه فيما مرّ من هذا الكتاب، على أننا نقلنا بعضا من الصغير أيضا، فليعلم ذلك من يقف على هذا الكتاب، و من له أدنى ممارسة، و ليراجع من الترجمة الفرق بين كلامه فى الصغير و غيره، و بالجملة فما رأيت و لا سمعت أحلى من عبارة الفتح رحمه اللّه تعالى فى تحلية الناس، و وصف أيام الأنس، و ليس الخبر كالعيان، و قد سردنا بعض كلامه فى «القلائد» و فى «المطمح».

## [نماذج من نثر الفتح بن خاقان]

و لنرجع الآن إلى ما كنّا بصدده من أمر التوشيح فنقول: و تمام موشحة ابن سهل التى عارضها لسان الدين هو قوله:

هل درى ظبى الحمى أن قد حمى قلب صبّ حلّه عن مكنس

فهو فى حرّ و خفق مثل ما لعبت ريح الصّبا بالقبس

يا بدورا أطلعت يوم النّوى غررا تسلك فى نهج الغرر

ما لقلبى فى الهوى ذنب سوى منكم الحسن و من عينى النظر

أجتنى اللذات مكلوم الجوى و التذاذى من حبيبى بالفكر

كلّما أشكوه وجدا بسما كالرّبا بالعارض المنبجس

إذ يقيم القطر فيها مأتما و هى من بهجتها فى عرس

غالب لى غالب بالنّؤده بأبى أفديه من جاف رقيق

ما رأينا مثل ثغر نضّده أقحوانا عصرت منه رحيق

أخذت عيناه منه العربده و فؤادى سكره ما إن يفيق

فاحم الجمّة معسول اللمى أكحل اللحظ شهىّ اللّعس

وجهه يتلو «الضحى» مبتسما و هو من إعراضه فى «عبس»

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۵۳

أيها السائل عن ذلّى لديه لى يجنى الذنب و هو المذنب

أخذت شمس الضّحى من وجنتيه مشرقا للصبّ فيه مغرب

ذهبت أدمع أجفانى عليه و له خدّ بلحظى مذهب

يطلع البدر عليه كلّما لاحظته مقلتى فى الخلس

ليت شعرى أىّ شىء حرّما ذلك الورد على المغترس

كلّما أشكو إليه حرقى غادرتنى مقلتاه دنفا

تركت ألحاظه من رمقى أثر النمل على صمّ الصفا

و أنا أشكره فيما بقى لست ألحاه على ما أتلفا

فهو عندى عادل إن ظلما و عذولى نطقه كالخرس

ليس لى فى الحبّ حكم بعد ما حلّ من نفسى محلّ النّفس

منه للنار بأحشائى اضطرام يلتظى فى كلّ حين ما يشا

و هى فى خدّيه برد و سلام و هى ضرّ و حريق فى الحشا

أتّقى منه على حكم الغرام أسد الغاب و أهواه رشا

قلت لمّا أن تبدّى معلما و هو من ألحاظه فى حرس

أيها الآخذ قلبى مغنما اجشاء الوصل مكان الخمس

### [بعض أهل المغرب يعارض موشحة ابن سهل]

و قد عارض هذا الموشح أيضا بعض متأخرى المغاربة فقال:

يا عريب الحىّ من حىّ الحمى أنتم عيدى و أنتم عرسى

لم يحل عنكم ودادى بعد ما حلتم لا و حياة الأنفس

من عذيرى فى الذى أحببته مالك قلبى شديد البرحا

بدر تمّ أرسلت مقلته سهم لحظ لفؤادى جرحا

إن تبدّى أو تثنّى خلته غصن بان فوقه شمس ضحى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٥٤

تطلع الشمس عشاء عند ما تنجلى منه بأبهى ملبس

و ترى الليل أضا منهزما و ترى الصبح أضا فى الغلس

يا حياة النفس صل بعد النوى و الها مضنى شديد الشغف

قد براه السقم حتى ذا الهوى كاد أن يفضى به للتلف

آه من ذكر حبيب باللوى و زمان بالمنى لم يسعف

كنت أرجو الطيف يأتى حلما عائدا يا نفس من ذا فايأسى

هل يعود الطيف صبّا مغرما ساهرا أجفانه لم تنعس

همت فى أطلال ليلى و أنا ليس فى الأطلال لى من أرب

ما مرادى رامة و المنحنى لا و لا ليلى و سعدى مطلبى

إنما سؤلى و قصدى و المنى سيّد العجم و تاج العرب

أحمد المختار طه من سما ألشريف ابن الشريف الكيّس

خاتم الرسل الكريم المنتمى طاهر الأصل زكىّ النّفس

و قال فى مباراة هذه الموشحات السابقة:

لا تلمنى يا عذولى تأثما ما ترى جسمى بسقم قد كسى

مثل ما شرح غرامى علما حيث أشكو وحشة من مؤنس

ظبى أنس عن فؤادى نفرا و فؤادى مكتو من صدّه

و عذولى فى هوى الحبّ فرى بملام مذ نهى عن ودّه

أنت أعمى يا عذولى ما ترى يانع الورد بدا من خدّه

و له ثغر إذا ما ابتسما كبروق أومضت فى الغلس

و ثناياه كدرّ نظما فضياها فى الدّجى كالقبس

كم ترى سحرا بجفنيه بدا لفؤاد فى الهوى أضحى كليم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۵۵

ليس سحر مقلتى هذا سدى يا فؤادى إن شفى السحر السقيم

خيفة أوجس قلبى و غدا راحلا صبرى وها شوقى مقيم

يا إله العرش يا ربّ السما يا عليما بضمير الأنفس

قلبى الولهان يشكو ألما من جفا ظبى أغنّ أكيس

أغيد يسبى البرايا بالمقل أدعج الجفن بعينيه حور

لو رأته الشمس أضحت فى خجل و هو للبدر بوجه قد قمر

من معانى حسنه رقّ الغزل فى غزال قد غزانى بالنظر

آخذ بالروح منى كلّما رمق الصبّ بطرف أنعس

يقنص الأسد بلحظ قد رمى أسهما تفتك من غير قسى

يا رعى اللّه زمانا سلفا بلويلات تقضّت بانشراح

مثل دينار و هاقد صرفا فى ألذّ العيش مع حبّ وراح

فاعذروا القلب الذى قد شغفا بحبيب ما له عنه براح

بدر تمّ أهيف حلو اللمى ريقه شهد شهىّ اللّعس

كسلاف عهدها قد قدما تنجلى فى كأسها كالعرس

قهوة بكر عجوز عتّقت زمنا فى دنّها من قبل نوح

هى لمّا فى زجاج أشرقت شمس راح غربت فى كل روح

جددت بسطا و كم قد مزّقت قلب صبّ فى غبوق و صبوح

حلف الخمّار عنها قسما أنها بالمكث كادت تنتسى

فاسقنى صرفا و لا تمزج بما راحة كم أذهبت من عبس

فى رياض قد شدا شحروره عاطنيها بين أكناف الشجر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۵۶

و انظم الشمل ودع منثوره حول ورد و أقاح و زهر

و إذا الطلّ بدا شبّوره كلّل الأوراق منه بالدرر

ما ترى الريحان عبدا خدما حيث أضحى واقفا فى المجلس

جلس النسرين لكن ربّما استحت منه عيون النرجس

فتنزّه فى رياض خضر و غصون غرّدت فيها هزار

و انتشق عرف زهور عطر ياسمين زيّنته الجلّنار

و شذا الزهر كمسك أذفر و اقبل العذر لابن البزددار

طامع فى رحمة اللّه و ما خاب عبد طامع لم ييأس

يا إلهى جد علينا كرما يا كريما قبل أخذ الأنفس

## [موشحة للسان الدين بن الخطيب]

رجع إلى موشّحات ابن الخطيب:

قال لسان الدين بن الخطيب رحمه اللّه تعالى: و ممّا قلته من الموشحات التى انفرد باختراعها الأندلسيون و طمس الآن رسمها:

ربّ ليل ظفرت بالبدر و نجوم السماء لم تدر

حفظ اللّه ليلنا و رعى أىّ شمل من الهوى جمعا

غفل الدهر و الرقيب معا ليت نهر النهار لم يجر

حكم اللّه لى على الفجر

علّل النّفس يا أخا العرب بحديث أحلى من الضّرب

فى هوى من وصاله أربى كلّما مرّ ذكر من تدرى

قلت يا برده على صدرى

صاح لا تهتمم بأمر غد و أجز صرفها يدا بيد

بين نهر و بلبل غرد و غصون تميل من سكر

أعلنت يا غمام بالشّكر

يا مرادى و منتهى أملى هاتها عسجديّة الحلل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۵۷

حلّت الشمس منزل الحمل و برود الربيع فى نشر

و الصّبا عنبرية النّشر

غرّة الصبح هذه وضحت و قيان الغصون قد صدحت

و كأنّ الصّبا إذا نفحت و هفا طيبها عن النّصر

مدحة فى علا بنى نصر

هم ملوك الورى بلا ثنيا مهّدوا الدين زينوا الدنيا

و حمى اللّه منهم العليا بالإمام المرفّع الخطر

و الغمام المبارك القطر

إنما يوسف إمام هدى حاز فى المعلوات كلّ مدى

قل لدهر بملكه سعدا افتخر جملة على الدهر

كافتخار الربيع بالزهر

يا عماد العلاء و المجد أطلع العيد طالع السعد

و وفى الفتح فيه بالوعد و تجلّت فيه على القصر

غرر من طلائع النّصر

فتهنّأ من حسنه البهج بحياة النفوس و المهج

و استمعها ودع مقال شجى قسما بالهوى لذى حجر

ما لليل المشوق من فجر

و من بديع موشحات لسان الدين رحمه اللّه تعالى قوله:

كم ليوم الفراق من غصّه فى فؤاد العميد

نرفع الأمر فيه و القصّه للوليّ الحميد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۵۸

رحل الرّكب يقطع البيدا بسفين النّياق

كلّ وجنا تتلع الجيدا و تبذّ الرفاق

حسبت ليلة اللّقا عيدا فهى ذات اشتياق

صائمات لا تقبل الرّخصه قبل فطر وعيد

فهى مذ أمّلته مختصّه بجهاد جهيد

و منه فى آخره:

يا إمام العلاء و الفخر ذا السّنا المبهج

هاكها لا عدمت فى الدهر آملا يرتجى

عارضت قول بايع التمر بمقال شجى

غرّبوك الجمال يا حفصه من مكان بعيد

من سجلماسة و من قفصه و بلاد الجريد

## [لسان الدين يؤلف كتاب: جيش التوشيح، ثم يذيل عليه وزير القلم بالمغرب عبد العزيز القشتالى و موشحة أبى العقاد]

و قد ألّف- رحمه اللّه تعالى!- فى هذا الفن كتابه المسمى ب «جيش التوشيح»، و أتى فيه بالغرائب، و ذيّل عليه صاحبنا وزير القلم بالمغرب العلم الشهير المنفرد فى عصره بحيازة قصب السبق فى البلاغة سيدى عبد العزيز بن محمد القشتالى- رحمه اللّه تعالى!- بكتاب سماه «مدد الجيش» و استهلّه بقوله: حمدا لمن أمدّ جيش محمد بعترته. و أتى فيه بكثير من موشحات أهل عصرنا من المغاربة، و ضمّنه من كلام أمير المؤمنين مولانا المنصور أبى العباس أحمد الشريف الحسنى- رحمة اللّه تعالى و رضوانه عليه!- ما زاده زينا، و أخبرنى- رحمه اللّه تعالى!- أنه ذكر فيه لأهل العصر فى أمير المؤمنين و لأمير المؤمنين المذكور أزيد من ثلاثمائة موشّح، و لا حرج فى إيراد بعضها هنا، فمنها قول أحد الوافدين من أهل مكة على عتبة السلطان مولانا المنصور، و هو رجل يقال له «أبو الفضل بن محمد العقاد» و قد عارض بها موشّحتى لسان الدين و ابن سهل السابقتين:

ليت شعرى هل أروّى ذا الظما من لمى ذاك الثّغير الألعس

و ترى عيناى ربّات الحمى باهيات بقدود ميّس

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۵۹

يدخلون السّقم من دار اللّوى كلم الهجر فؤادى و أسر

هدّ من ركن اصطبارى و القوى مبدلا أجفان نومى بالسّهر

حين عزّ الوصل عن وادى طوى هملت أعين دمعى كالمطر

فعساكم أن تجودوا كرما بلقاكم فى سواد الحندس

و تداووا قلب صبّ مغرما من جراحات العيون النّعّس

كلّما جنّ ظلام الغسق هزّنى الشوق إليكم شغفا

و اعترانى من جفاكم قلقى مذ تذكرت جيادا و الصفا

و تناهت لوعتى من حرقى ثم زاد الوجد فىّ التلفا

فانعموا لى ثم جودوا لى بما يطف نيران الجوى ذى القبس

ساعة لى من رضاكم مغنما و تداوى جثتى مع نفسى

كنت قبل اليوم فى زهو وتيه مع أحبابى بسلع ألعب

و معى ظبى بإحدى و جنتيه مشرق الشمس و أخرى مغرب

فرمانى بسهام من يديه ضارب البين فقلبى متعب

لست أرجو للقاهم سلّما غير مدحى للإمام الأرأس

أحمد المحمود حقّا من سما الشريف ابن الشريف الكيّس

## [موشحة لبعض أهل مراكش]

و منها قول بعض المراكشيين:

و اخجلتا للصّباح و الشمس إذ لاح جؤذر

ساق يدير الكؤوسا تضيء خمرا و تزهر

تقادمت فى الدنان من عهد نوح تروّق

فى لونها البهرمانى تدار فينا و تعبق

قد أطلعت من عنان من عن صبوح يرقّق

يسعى بها من ملاح من كان باللحظ يسكر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٦٠

بالحسن يصبى الجليسا و يستخفّ الموقّر

يثير كامن وجد فى قلب كلّ سقيم

يسطو علينا بقدّ يزرى بغصن قويم

أشقى بعشقى و ودّى فى جنّة و نعيم

من ذى الوجوه الصّباح يا شادنا غنّ و اذكر

و هات لحنا نفيسا نرويه عنك و نأثر

فى مدح من ساد طفلا هذى البرايا وفاقا

من حاز مجدا و فضلا بين الأنام وفاقا

فى عدله قال قولا يسرى فيعدو العراقا

فى أحمد ذى السماح فى الشرق و الغرب ينصر

أحيا الهدى و النفوسا و ذلّ ملّة قيصر

تراه سلما و حربا من رأيه فى جنود

يختال لم يبغ عجبا من عزّه فى برود

يهوى المعالى كسبا و يقتنيها بجود

فخار أهل البطاح و عزّ من قدّ تمصّر

ثناه يملا الطروسا عن صورة المجد عبّر

ملك بنى فى البديع منازلا كالدرارى

فيا له من صنيع الروض و الماء جارى

و قل بصوت رفيع إذ بان فجر النهار

أهدى نسيم الصباح مسكا شميما و عنبر

و جيء بها خندريسا من خدّ ساقيه تعصر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٦١

### [موشحة للسلطان منصور و مقطوعات أخرى من نظمه]

و من موشحات السلطان المنصور المذكور:

ريّان من ماء الصّبا أهيف و ممتلى البرد

كالغصن هزّته الصّبا فوق الرّبا الشّهب

قد قلت لمّا أن سبى بحسنه يسبى

من عينه سلّ ظبا و غمدها قلبى

أسرنى ماضى الشّبا أوطف مرنّح القدّ

يا فاضح الروض سنا و مخجل البدر

و قاطعى ظلما عنا و من مقرّه صدرى

أ لم تكن شمس دنا فإنها تجرى

علّقته من الظّبا أسجف يسطو على الأسد

قلت له و قد نهد و جدّ فى حربى

و غلب الظبى الأسد و فاز بالغلب

الشمس برجها الأسد فاسعى إلى قلبى

و لم يحضرنى الآن تمامها.

و منها قوله يعارض لسان الدين و ابن الصابونى:

و ليالى الشعور إذ تسرى ما لنهر النهار من فجر

حبّذا الليل طال لى وحدى لو ترانى جعلته بردى

فاطميّا فى خلعة الجعدى هى ليلى أخت بنى بشر

فأين أنت يا أبا بدر

كم سقطنا ألطف من طلّ و اجتمعنا و ما در ظلّى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٦٢

و استرحنا من كاشح نذل ربّ ليل ظفرت بالبدر

و نجوم السماء لم تدر

و بنفسى مهفهف ألمى و مطيع قد غرّنى لمّا

سألته و قانعى ممّا فى رباط قسمتنى صدرى

لحنين و ناظرى بدر

و هلال فى حسنه اكتملا هو شمس و أضلعى الحملا

قام يشدو ينثنى فى ملا قسما بالهوى لذى حجر

ما لليل المشوق من فجر

ثم عنّ لنا أن نورد هنا جملة من مقطوعات مولانا السلطان المنصور ممّا تلقّيناه عنه أيام كوننا فى إيالته الشريفة؛ فمن ذلك قوله رادّا على من قال فى ابن أبى الحديد: [مخلع البسيط]

لقد أتى باردا ثقيلا و لم يرث ذاك من بعيد

فهو كما قد علمت شىء أشهر ما كان فى الحديد

ما صورته: [مخلع البسيط]

لقد أتى صارما صقيلا و لم يرث ذاك من بعيد

شديد بأس متى يعادى و شدّة البأس فى الحديد

و من نظمه قوله: [مجزوء الرجز]

للّه تمر طيّب وافى على البشرى انطوى

يا حسنه مجتمعا يحلو لنا بلا نوى

و قوله معمّيا فى «قمر» على طريقة الاكتفاء: [السريع]

معذّبى أعجزنى نيله من لى بمن مسكنه فى السما

لم أنس إذ قال ألا تكتفى؟ قلت بمن بالطرف قلبى رمى

و قوله: [الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٦٣

تبدّى و زند الشوق تقدحه النوى فتوقد أنفاسى لظاه و تضرم

و هشّ لتوديعى فأعرضت مشفقا على كبد حرّى و قلب يقسم

و لو لا ثواه بالحشا لأهنتها و لكنها تعزى إليه فتكرم

فأعجب لآساد الشرى كيف أحجمت على أنه ظبى الكناس و يقدم

و قال قدّس اللّه تعالى روحه مورّيا: [الخفيف]

إنّ يوما لناظرى قد تبدّى فتملّى من حسنه تكحيلا

قال جفنى لصنوه لا تلاقى إنّ بينى و بين لقياك ميلا

و قد تبارى خدّام حضرة هذا السلطان فى تخميس هذين البيتين، و من أشهر ذلك قول الأستاذ الحافظ سيدى أحمد الزمورى رحمه اللّه تعالى، و كان يصلّى بالسلطان التراويح:

[الخفيف]

و رقيب يردّد اللحظ ردّا ليس يرضى سوى ازديادى بعدا

ساه الطرف مذجنى الخدّ وردا إنّ يوما لناظرى قد تبدّى

فتملّى من حسنه تكحيلا

و تصدّى من فحشه فى استباق يمنع اللحظ من جنّى و اعتناق

أيأس العين من لحاظ ائتلاق قال جفنى لصنوه لا تلاقى

إنّ بينى و بين لقياك ميلا

و من نظم السلطان المذكور، و هو من أوّليات شعره قوله فى وردة مقلوبة بين يدى محبوبه: [البسيط]

و وردة شفعت لى عند مرتهنى راقت و قد سجدت لفاتر الحدق

كأنّ خضرتها من فوق حمرتها خال على خدّه من عنبر عبق

و قال أيضا من أوّلياته: [الرمل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۶۴

شادن نمّ عليه عرفه من خلاصى من سهام كامنه

أحلال فيه أنى خائف و حلالى بعد خوفى آمنه

و قال فى وصف رقيب ملازم: [الطويل]

رقيبى كأنّ الأرض مرآة شخصه فأين تولّى الطرف منى يراه

مقيم بوجه الوصل حتى كأنما وصالى هلال و السواد صداه

و قال: [الطويل]

أيا روضة ضنّت علىّ بزهرها و لم يتلقّ ناظراى سواك

أبيحى لنفسى من شذاك بقاءها إذا فتّ طرفى علّ الانف يراك

و قال أيضا: [الطويل]

على جدول غطّت عليه بشعرها لئلا يرى الشمس الرقيبة لى طرف

فبتّ أرى فى جدول بدر وجهها غريقا و نقطات العبير به كلف

و قال: [الطويل]

طرقت حماه و الأسود خوادر به فتولّى بالظّبا و هو يبعد

فعلّمت آساد الشرى كيف تقدم و علّم غزلان النقا كيف تشرد

و قال: [الكامل]

لمّا نأى المحبوب رقّ لى الدّجى و أتى يعلّلنى برعى كواكبه

أولى غراب البين ردك يا حشا و البين مزنىّ الصباح كواك به

و قال معمّيا باسم حظيّته الشهيرة الحسن و الإحسان «نسيم»: [الخفيف]

يا هلالا طلوعه بين جفنى و غزالا كناسه بين جنبى

إنّ سهما رميت غادر همّا لو تناهى ما شكّ آخر قلبى

و رأيت بخطّه على هذا المحلّ ما صورته: قولى «إنّ سهما» تنصيص، و «غادر همّا»

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۶۵

إسقاط، و هو إشارة لإسقاط «هما» من هذا الاسم، و قولى «لو تناهى» انتقاد، و الانتقاد:

الإشارة إلى بعض أجزاء الكلمة ليؤخذ جزء الاسم المطلوب، كأن يذكر الوجه أو الصدر أو التاج أو الرأس، و يعنى به الحرف الأول

من الكلمة، و القلب و الجوف و الحشا و الخصر، و يراد به الوسط، و الآخر و المنتهى و الختام، و يقصد به آخر الكلمة، فقولى «لو تناهى» معناه أنه أخذ لفظة هم غير متناه، فبقيت الميم من «هما»، و قولى «ما شكّ آخر قلبى» انتقاد أيضا، و أردت بآخر قلبى الياء، و يسمّى أيضا التسمية، و هو: أن تذكر الاسم و تريد المسمّى، أو تذكر المسمّى و تريد الاسم، و قد تمّ الاسم.

و اعلم أنهم لم يشترطوا فى استخراج الاسم بطريق التعمية حصولها بحركاتها و سكناتها، بل اكتفوا بحصول الكلمة من غير ملاحظة لهيئاتها الخاصة فإذا وقع ذلك فمن المحسنات، و يسمى العمل «التذييلى». انتهى كلامه على البيتين فى اسم نسيم.

و قال فى اسم «غزال» و قد جمع تعميتين و لغزا: [الطويل]

و أملد مطوىّ الحشا زال ردفه فلا خصر إلّا أن ذا لم يكن وصما

بنصف اسمه يرمى القلوب و عكس ما بقى أبدا أذن المحبّ به أصمى

و كتب عليه ما صورته: قولى «أملد» أردت به بعمل الترادف غصن، و «مطوى الحشا» انتقاد، و «زال ردفه» قضيت به غرضين، أزلت به النون بعمل الإسقاط الباقى بعد طىّ الصاد التى بوسطه، و أثبته- أعنى «زال» - فى موضعها: أى النون من غصن، و الحال أنّ الصاد محذوفة، و ذلك بعمل الانتقاد، و أوضحت ذلك بقولى «فلا خصر» و إن كنت لا أحتاج إليه، لئلّا يكون فى البيت شىء خارج عن التعمية؛ انتهى تفسيره، رحمه اللّه تعالى!.

و يعنى بقوله «بنصف اسمه يرمى القلوب» غز؛ لأنه نصف غزال، و يعنى بقوله «و عكس ما بقى إلى آخره» لفظة «لا» لأنها مقلوب ما بقى و هو «أل».

و قال فى اسم «سلاف» على منهاج ما تقدّم: [الطويل]

و أحور و سنان الجفون كأنما سقى لحظه من ريق فيه بقرقف

نضا صارما لا فلّ صارم لحظه تزايد فيه منذ سلّ تلاه فى



و فسّره بقوله: قولى «تلاه فى» من طريق التسمية، و «فى» من العمل التذييلى و هو أن يأتى بالكلمة بحركاتها أو سكناتها، و هى من المحسّنات كما سبق.

و قال فى اسم «آمنة» من التعمية أيضا: [الخفيف]

من شقائى قنصته و هو خشف فى رضاه عن الملوك ابتدلت

أملد منه مذ تحلّل خصر و تثنّى عن حبّه ما عدلت

و كتب عليه ما صورته: قولى «أملد» أردت الألف بعمل التشبيه، و «خصر منه» انتقاد، و أردت بالخصر وسط لفظة «منه» و تحلّله: أن ينحلّ منه السكون الذى على النون، و قولى «و تثنّى» أى الألف من التثنية، لا التثنى، فتمّ الاسم بحركاته و عدده؛ انتهى تفسيره.

و قال و قد لبس منصورية من النوع الذى يقال له «قلب حجر» و المنصورية: نوع لبس معروف بالمغرب استخرجه السلطان المذكور و أضافه إلى اسمه: [الكامل]

وصفوا اشتياقى للحبيب و سرّهم قول الحبيب أنا أنا فيه

قلبى له حجر، فقلت مغالطا للعاذل المؤذى أنا فيه

قال: و فى هذين البيتين عدّة من المحسّنات غير التعمية: منها جناس التركيب المسمّى بالملفق، و حدّوه: بأن يكون كل من الركنين مركّبا من كلمتين، و هذا هو الفرق بينه و بين المركب، و قلّ من فرّق بينهما، و منها الانسجام، و منها الاستخدام.

و عهدى بالفقيه على بن منصور الشيظمى تعرض إلى شرحهما فى كراسة.

و التعمية فى هذين البيتين بالعمل الحسابى و هو كثير، إلّا أنّ هذا العمل أحسبنى أبا عذرته إذ لم أره لغيرى، و مادة التعمية فيه «أنا أنا

فيه، قلبى له حجر» فقولى «أنا أنا فيه» معناه أن تضرب «أنا» فى ه، و قولى «فى ه» نصّ فى الضرب، و يخرج من هذا مائتان و ستون عدد حروف هيمانى و حقّك ى، و قولى «قلبى له حجر» بعمل القلب يصير «رجح» فصار المجموع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٦٧

«هيمانى و حقّك يرجح»، و فيه التورية، و «هيمانى و حقّك» الخارج من هذا الضرب فيه تهكّم بالواشى، فهو من المحسّنات أيضا، أعنى قوله «و حقّك» و يصلح أن تسمّى هذه التعمية بالافتتان؛ لأنّ الافتتان عندهم: أن يفتن الشاعر فيأتى بفنّين متضادّين من فنون الشعر فى بيت واحد، و هذا وقع التضادّ فيه فى كلمة واحدة، فظاهر «أنا أنا فيه» يضاد «هيمانى و حقّك يرجح» الذى يخرج بطريق الحساب، فافهمه، و يمكن استخراج تعمية أخرى من قولى للعاذل المؤذى «أنا فيه»؛ انتهى.

و الاستخدام الذى أشار إليه هو فى قوله «أنا فيه» أى فى هذا الثوب المسمّى بقلب حجر، كما دلّت عليه الحكاية، و أمّا المعنى الثانى لقوله «أنا فيه» فظاهر.

و قال و قد قطف وردة من روض المسرّة فى زمن النرجس: [الكامل]

وافى بها البستان صنوك وردة يقضى بها لمّا مطلت وعودا

أهدى البهار محاجرا و أتى بها فى وقته كيما تكون خدودا

فبعثتها مرتادة بنسيمها تثنى من الروض النضير قدودا

و قال: [الخفيف]

لى حبيب يأتى بكلّ غريب هو عندى منكّر و معرّف

لست أشكو لصيرفىّ و نحوى إنه بى نحا و فىّ تصرّف

فعله فىّ لازم متعد و مزيد مجرّد و مضعّف

و قال: [الرمل]

لا وطيف علّم السيف فقد فى قوام كقنا الخطّ نهد

و وميض لاح لمّا بسمت فأرتنا منه درّا أو برد

ما هلال الأفق إلّا حاسد منه حسنا و علاء وغيد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٦٨

و لذا عاش قليلا ناحلا كيف لا يفنى نحولا من حسد

و قد ضمّن قوله «ما هلال الأفق» أديب زمانه الشيخ إمام الدين الخليلى الوافد على حضرته من بيت المقدس فقال: [الرمل]

قسما بالبيت و الركن الذى طاب حجّا و استلاما للأبد

«ما هلال الأفق إلّا حاسد منه حسنا و علاء و غيد»

و قد اتّفق لإمام الدين هذا أنه اجتمع بالحضرة المنصورية، هو و العقاد المكى السابق و الشريف المدنى، و هو رجل وافد من أهل المدينة انتمى إلى الشرف، فقال إمام الدين: يا أمير المؤمنين، إنّ المساجد الثلاثة التى تشدّ إليها الرحال شدّ أهلها إليك الرحال: هذا مكىّ، و ذاك مدنىّ، و أنا مقدسىّ، ثم أنشد: [الرجز]

إنّ أمير المؤمنين أحمد بحر الندى و فضله لا يجحد

فطيبة و مكة أهلهما و المسجد الأقصى بذاك شهدوا

رجع إلى نظم المنصور، و قال: [الطويل]

و كيف بقلب فى هواه مقلّب و أنّى له بين الضلوع مقام

فيا شادنا يرعى الحشا أنت بالحشا أما لمحلّ أنت فيه ذمام

و قال يخاطب رئيس كتّابه صاحبنا سيدى عبد العزيز القشتالى السابق الذكر: [مجزوء الرجز]

يا كاتبا ألفاظه تغرس روضا ذا فنن

إنّ جوابى للذى يشكو دناه اردد حزن

و قال مورّيا بمصانعه الثلاثة: البديع، و المسرّة، و المشتهى: [الكامل]

بستان حسنك أبدعت زهراته و لكم نهيت القلب عنه فما انتهى

و قوام غصنك بالمسرّة ينثنى يا حسنه رمّانة للمشتهى

و لو لا خوف الإطالة المملّة لذكرت من محاسن مولانا أمير المؤمنين المنصور- رحمه اللّه تعالى!- بعض ما أؤدى به حقّه، سقى اللّه تعالى عهاده! و قد بسطت الكلام على السلطان المذكور فى كتابى «روضة الآس، العاطرة الأنفاس، فى ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس»

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٦٩

و أطال الكلام على ترجمته صاحبنا الوزير الكبير الشهيد سيدى عبد العزيز بن محمد القشتالى فى كتابه المسمّى ب «مناهل الصفا، فى فضائل الشّرفا» و عهدى به أكمل منه ثمانى مجلدات، و هو مقصور على دولة السلطان المذكور و ذويه، و ألف كاتب أسراره الرئيس أبو عبد اللّه محمد بن عيسى فيه كتابا سماه «الممدود و المقصور، من سنا السلطان المنصور» و هذه التسمية وحدها مطربة، رحم اللّه تعالى الجميع!

## [موشحة بعض أذكياء الأصحاب فى مديح المقرى]

رجع إلى التوشيح:

كتب إلىّ بعض أذكياء الأصحاب الأعيان موشّحا يمدحنى به فى آخره عارض به موشّح لسان الدين السابق الذى أوله:

جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس

و نصّه:

عطّر الأرجاء لمّا نسما شمأل للصبح عند الغلس

و أتت شمس الضّحى تنسخ ما يقرأ الليل لنا من عبس

طاف بالكأس من الزهر فتى مولع بالصّدّ عنّى مذفتى

فتن الألباب لمّا التفتا و احتسى منه ببعض الشّفة

و أنا ما بين حتّى و متى صدّه تيه الهوى عن ألفتى

و كؤوس الراح بين النّدما أرّجت بالعرف أفق المجلس

خمرة صفراء فى البلور ما أشبه الحان بروض النرجس

بادر اللّذّة و اجمع شملها بمدام و غلام مطرب

ذى عيون ناعسات كم لها من فنون السّحر ما يلعب بى

وافر الأرداف عانى حملها ناحل الخصر، و ذا من عجب

كلّما أترع كأسا قال ما أنت بالشارى حياة الأنفس

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٧٠

فابذل الجهد و كن مغتنما لنفيس النفس طيب الأنفس

فرص الأيام كن منتهزا مبتداها قبل حذف الخبر

و رحاب الأنس لج منتجزا قبل أن تمضى كلمح البصر

و اجن من زهر الهوى محترزا من جنايات هجوم الكبر

لا تخف لوما و يمّم حيثما لاحت اللّذّات كالمختلس

ما مضى أنس و وافى مثلما كان ذا الدهر لنا بالحرس

للرياض اذهب ترى بلبلها لاشتياق الورد مثل الثّكل

و خدود الورد قد كلّلها دمع طلّ لاشتياق البلبل

و قدود البان قد قام لها مانع الوصل بحدّ الأسل

و الرّبا فاحت تحاكى خدما و عليهنّ ثياب السندس

جيبها زرّر بالزهر كما زرّ بالفضّة ثوب الأطلس

وجلا الروض لنا أشجاره مائسات فى قباء أخضر

و ترى فى جيدها نوّاره يتلالا كعقود الجوهر

خلع الليل به أطماره فغدا كالصبح باهى المنظر

و بقاياه زهت فيه أما فى شفاه الغيد حسن اللّعس

كعذار فى محيّا علّما فبدا للغير لا الملتمس

حبّذا الصبوة أيام الصّبا و عيون الشّيب فى سهو الوسن

فإذا أيقظها دهر صبا لصروف حدّ شفريها وسن

جرّد الشيب لنا بيض الشّبا و اقتفى شرخ شباب و ظعن

و غدا الإنسان شيخا هرما و اعتراه لاعج من وجس

فات إذ مات فيقضى ندما و اغتنام الوقت شغل الكيّس

لا تدع عمرك يمضى هدرا أنت إذ ذاك جبان غافل

و ارق بالجهد من السؤل الذرا و اجتهد و الضرع ضخم حافل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٧١

إنما الأيام أمثال السّرى و الجرىء الشهم ليث باسل

و وحوش الإنس تسعى مغنما باردا للأسد المفترس

ترك الوهم و خاض الظّلما و له العزم أضا كالقبس

ليس يحظى بالمنى إلّا الذى كابد الأهوال حتى ظفرا

كان للراحة كالمنتبذ من وراء الظهر أنّى ظهرا

مثلما قد بات ذا طرف قذى يقطع الليل جميعا سهرا

فى طلاب العلم حتى علما أنه يملا بروح القدس

أحمد الناصب فينا علما للتقى فاز به من يأتسى

حلّ فى مصر و إن كان العلا قد عفت لما اعتراها فى خلل

و رياض الفضل لمّا أن علا نقع جهل جفّ منهنّ البلل

ازدرت أغصانها حتى خلا قاعها من عذب ما يشفى العلل

نفرت إذ حلّ فيها كالسما و هو بدر بكمال مكتس

حوله الطلاب كالشّهب سما قدرها من نوره المقتبس

أيها الطالب للعلم اتئد ليس إلّا بابه ينفعكا

إن ترم نيل المرجّى فاجتهد فى اتّباع للذى يرفعكا

علم من يعمل إكسير فزد منه و اترك حاسدا يدفعكا

و الزم الأعتاب و انزل بالحمى خالع الربقة من قول المسى

باعتقاد فاز من قد لثما نعله و الكبر شأن المبلس

مذ خبرت الناس طرّا نظرا لمناط الأمر فى هذا الزمان

لم أحد إلّا مقالا صدرا عن دعاو أخلفت عند العيان

غير ما يمليه فانظر لترى درر الألفاظ فى سمط البيان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج٨؛ ص ٢٧١

ببديع النّطق لمّا نظما بهت المنطيق مثل الأخرس

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٧٢

و أتى يخضع جمع العلما نحو ذا المفرد فى الملتمس

إنما المجد الرفيع الممتطى أرؤس الآساد قسرا مثل ذا

يدع المرفوع كالمنهبط ثم للنازل يعلى منفذا

ناظرا فى أمره بالأحوط خافض الطرف على حرّ القذى

كلّ من أمّ حماه قد حمى بحسام العزم هشّ الملمس

فإذا جرّد منه انفصما جلمد الصخر بذاك الميس

حبّذا المغرب قطرا بالسنا فضله يبهر بدر الأفق

قطره الشامخ قد أهدى لنا سيّدا قد فاق شمس المشرق

كلّ من فاتته أسباب المنى بعلاه للثّريّا يرتقى

قل لمن يرجو سوى المذكور ما ينبت الزهر بأرض اليبس

لا، و لا الناس سواء إنما رأى من سوّاهم فى هوس

لذ بشهم فاز من أمّله بنوال فاق سحّ الهامل

أثقل السؤدد إذ حمّله وقر فضل مستبين شامل

و حماه الأمن، من أمّله بلغ القصد، فبشرى الآمل

بحره الوافر بالعلم طما كامل الأمداد لم يحتبس

نال منه الناس حتى عمّما مشرقا و الغرب للأندلس

### [من موشحات لسان الدين]

رجع إلى موشّحات لسان الدين بن الخطيب، رحمه اللّه تعالى!

فمن المنسوب إلى محاسنه قوله:

قد حرّك الجلجل بازى الصباح و الفجر لاح

فيا غراب الليل حثّ الجناح

و هـذا مطلع موشّح بـديع له لم يحضـرنى الآن تمامه؛ لكونى تركته و جملة من كلام لسان الدين فى كتبى بالمغرب جبرها اللّه تعالى عليّ، و هو معارض للموشّح الشهير الذى أوله:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۷۳

بنفسج الليل تذكّى وفاح بين البطاح

كأنه يسقى بمسك وراح

و هذا المنحى هو الذى سلكه الجمال ابن نباتة إذ قال مادحا لجلال الدين الخطيب رحم اللّه تعالى الجميع:

ما سحّ محمرّ دموعى و ساح على الملاح

إلّا و فى قلبى المعنّى جراح

بى من بنى الأتراك حلو الشباب مرّ السّطا

عشقته حين عدمت الصّواب من الخطا

تشكو حشا الغزلان منه التهاب إذا عطا

و ربّما تشكو الغصون اكتئاب إذا خطا

ما ماس ذاك الغصن بين الوشاح إلّا وراح

قول عذولى كلّه فى الرياح

آها لصب دمعه حيث كان دمع أريق

هذا أسير فى وجوه الحسان و ذا طليق

أرّق جسمى بالضّنا يوم بان بدر الفريق

فها أنا اليوم له يا فلان عبد رقيق

يزيد أجفانى ندى و ارتياح نهى اللّواح

مثل جلال الدين يوم السّماح

حبر له فى الخلق ذكر جميل لا يفترى

ماح على غيظ الغمام البخيل محل الثرى

ما رأت العين له من مثيل و لا ترى

يوقد فى أوطانه للنزيل نار القرى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۷۴

شرارها فى الكيس حمر صحاح لها اقتداح

لكنها فى القلب عذب قراح

يا مالك العلم و فيض النّدى جزت المدى

فابق و كلّ العالمين الفدا دع العدا

أنت الذى أصبح غيث الجدا صبح الهدى

كم يقفى منك و كم يقتدى و يجتدى

علم جلىّ و نوال صراح صفو مباح

يروى به راوى الرّجا عن رباح

و مغرم لا يختشى من رقيب و لا عذول

معلّق القلب بشجو عجيب و لا وصول

يسكر لكن بصفات الحبيب لا بالشّمول

لمّا رنا الظبى و ماس القضيب أضحى يقول

كم ينتضى جفنك و عطفك صفاح على رماح

ما ذى محاسن ذى خزائن سلاح

## [موشحة لعثمان الملطى فى مدح القاضى الفاضل]

و من الموشحات الصادرة من المشارقة المعارضة للمغاربة قول عثمان الملطى يمدح القاضى الفاضل:

و يلاه من روّاغ بجوره يقضى

ظبى له إغذاذ منه الجفا حظّى

و لم أقف على تمامها، و قد بارى بها التوشيح المشهور للمغاربة، و هو:

عقارب الأصداغ فى السوسن الغضّ

تسبى تقى من لاذ بالنسك و الوعظ

من قبل أن يعدو علىّ لم أحسب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۷۵

أن تخضع الأسد لجؤذر الربرب

ظبى له خدّ مفضّض مذهب

و شادن يبدو فى صدغه عقرب

رقّة زهر الباغ فى جسمه الفضّى

و قسوة الأفلاذ فى قلبه الفظ

مهفهف بدع أصبحت مغرّى به

قلبى له ربع لو كنت فى قلبه

أصابنى صدع مذلجّ فى عتبه

السّهد و الدمع حظّى من قربه

و العين لا ينساغ لها جنى الغمض

و الدمع ذو إغذاذ ناهيك من حظّ

## [موشحة للشهاب العزازى]

و من أحسن ما للمشارقة من التوشيح قول الشهاب العزازى يعارض أحمد بن حسن الموصلى:

يا ليلة الوصل و كأس العقار دون استتار

علّمتمانى كيف خلع العذار

اغتنم اللّذّات قبل الذهاب و اشرب فقد طابت كؤوس الشراب

تحكى ثغورها الثنايا العذاب

على خدود تنبت الجلّنار ذات احمرار

طرّزها الحسن بآس العذار

الراح لا شكّ حياة النفوس فحلّ منها عاطلات الكؤوس

و استجلها بين الندامى عروس

تجلى على خطّابها فى إزار من النّضار

حبابها قام مقام النّثار

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٧٦

أما ترى وجه الهنا قد بدا و طائر الأشجار قد غرّدا

و الروض قد وشّاه قطر الندى

فكمّل اللهو بكأس تدار على افترار

مباسم النّوّار غبّ القطار

إجن من الوصل ثمار المنى و أوصل الكأس بما أمكنا

مع طيّب الريقة حلو الجنى

بمقلة أفتك من ذى الفقار ذات احورار

منصورة الأجفان بالانكسار

زار و قد حلّ عقود الجفا و افترّ عن ثغر الرضى و الوفا

فقلت و الوقت لنا قد صفا

يا ليلة أنعم فيها و زار شمس النهار

حيّيت من بين الليالى القصار

و يعجبنى من موشحات العزازى المذكور قوله:

ما على من هام وجدا بذوات العلا

مبتلى بالحدق السّود و بيض الطلا

باللّوى ملىّ حسن لديونى لوى

كم نوى قتلى و كم عذّبنى بالنّوى

قد هوى فى حبّه قلبى بحكم الهوى

و اصطلى نار تجنّيه و نار القلى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٧٧

كيف لا يذوب من هام بريم الفلا

هل ترى يجمعنا الدهر و لو فى الكرى

أم ترى عينى محيّا من لجسمى برى

بالسّرى يا حادیى ركب منى بليلى سرى

علّلا قلبى بتذكار اللّقا علّلا

و انزلا دون الحمى، حيّ الحمى منزلا

بى رشا دمعى جرى فى هواه فشا

لو يشا برّد منى جمرات الحشا

ما مشى إلّا انثنى فى سكره و انتشى

عطّلا من الحميّا يا مدير الطّلا

ما حلا إذا أدار الناظر الأكحلا

هل يلام من غلب الحبّ عليه فهام

مستهام بفاتر اللّحظ رشيق القوام

ذى ابتسام أحسن نظما من حباب المدام

لو حلا من ريقه كأسا لأحيا الملا

أو جلا وجها رأيت القمر المجتلى

لو عفا قلبك عمّن زلّ أو من هفا

أو صفا ما كان كالجلمد أو كالصّفا

بالوفا سل عن فتى عذّبته بالجفا

هل خلا فؤاده من خطرات الولا

أو سلا أو خان ذاك الموثق الأوّلا

و قوله أيضا يعارض الموصلى:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۷۸

ما سلّت الأعين الفواتر من غمد أجفانها الصفاح

إلّا أسالت دم الحناجر من غير حرب و لا كفاح

تاللّه ما حرّك السواكن غير الظّباء الجآذر

لمّا استجاشت بكلّ طاعن من القدود النواضر

و فوّقت أسهم الكنائن من كلّ جفن و ناظر

عرب إذا صحن يا لعامر بين سرايا من الملاح

طلّت علينا من المحاجر طلائع تحمل السلاح

أحبب بما تطلع الجيوب منها و ما تبرز الكلل

من أقمر ما لها مغيب و أغصن زانها الميل

هيهات أن تعدل القلوب عنها و لو جارت المقل

لمّا توشّحن بالغدائر سفرن عن أوجه صباح

فانهزم الليل و هو عاثر بذيله و اختفى الصباح

و أهيف ناعم الشمائل تهزّه نسمة الشمال

فينثنى كالقضيب مائل كما انثنى شارب و مال

له عذار كالنّدّ سائل للّه كم من دم أسال

شقّت على نبته المرائر من داخل الأنفس الصحاح

تكلّ فى وصفه الخواطر و تخرس الألسن الفصاح

ظبى إلى الأنس لا يميل الشمس و البدر من حلاه

الحسن قالوا و لم يقولوا مبداه منه و منتهاه

و طرفه الناعس الكحيل هيهات من سيفه النّجاه

أذلّ بالسحر كلّ ساحر فهو له خافض الجناح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۷۹

يجول فى باطن الضمائر كما يجول القضا المتاح

أما ترى الصبح قد تطلّع مذ غمضت أعين الغسق

و البدر نحو الغروب أسرع كهارب ناله فرق

و البرق بين السحاب يلمع كصارم حين يمتشق

و تحسب الأنجم الزواهر أسنّة ألقت الرماح

فانهزم النهر و هو سائر فدرّعته يد الرياح

## [موشحة الموصلى التى عارضها الشهاب العزازى]

و موشحة الموصلى التى عارضها العزازى هى قوله:

رنا بأجفانه الفواتر لمّا انثنى واحد الملاح

فسلّ من طرفه بواتر و هزّ من عطفه رماح

ناظره جرّد المهنّد و غمده منّى الحشا

و عامل القدّ فهو أملد يطعن للقلب إن مشى

و العارض القائم المزرد لفتنة الناس قد نشا

و الحاجب القوس بالفواتر لنبله فى الحشا جراح

و مشرف الصدغ فهو جائر سلطانه للدما أباح

فجفنه الفاتك الكنانى من ثعل راش لى نبال

و هو الخفاجىّ قد غزانى و وجهه من بنى هلال

عبسىّ لحظ له سبانى جسم زبيدىّ بالدلال

و الردف يدعى من آل عامر و أوضح الصّلت من صباح

و خصره من هشيم ضامر يدور من حوله و شاح

فوجهه جنّة و كوثر رضابه العذب لى حلا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٨٠

و النار فى وجنتيه تسعر و الخال خيالها اصطلى

عجبت من خاله المعنبر إذ يعبد النار كيف لا

يحرق بالنار و هو كافر و ما سقى ريقه القراح

كامل حسن معناه وافر بسيط وصف كالمسك فاح

ما اخضرّ نبت العذار إلّا بآسه سيّج الشقيق

و هو كنمل سعى و ولّى و لم يجد للجنى طريق

من ربقة البدر إذ تجلّى فى هالة العارض الأنيق

لمّا تبدّى بالوجه دائر و حيّر العقل حين لاح

شقّ على خدّه المرائر و قطّع الأنفس الصّحاح

و ربّ يوم أتى و حيّا كالشمس و النجم و القمر

بالكأس و الراح و المحيّا ثلاثة تفتن البشر

و قال قم يا نديم هيّا اقض بنا لذّة الوطر

فالخمر تجلى على المزاهر من اغتباق إلى اصطباح

و طافت الراح بالمجامر من عنبر الزهر فى البطاح

و ممّا يطربنى من الموشحات قول بعضهم:

ما لى شمول إلّا شجون مزاجها فى الكاس دمع هتون

للّه ما بذر من الدموع صبّ قد استعبر من الولوع

أودى به جؤذر يوم الطلوع

فهو قتيل بلا طعين بين الرجا و الياس له منون

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٨١

جرحت للحين كفّى بكفّى و حيل ما بينى و بين إلفى

لا شكّ بالبين يكون حتفى

حال الرحيل ولى ديون إن ردّها العباس فهو الأمين

أما ترى البدرا بدر السعود قد اكتسى خضرا من البرود

إذا انثنى نضرا من القدود

أضحى يقول مت يا حزين قد اكتسى بالآس الياسمين

قلت و قد شرّد النوم عنّى و أيأس العوّد السّقم منّى

صدّ فلما صدّ قرعت سنّى

جسمى نحيل لا يستبين يطلبه الجلّاس حيث الأنين

تجاوز الحدّ قلبى اشتياقا و كلف السّهد من لا أطاقا

قلت و قد مدّ ليلى رواقا ليلى طويل و لا معين

يا قلب بعض الناس أما تلين

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۸۲

## [الباب السادس من القسم الثانى من الكتاب فى مصنفات لسان الدين]

الباب السادس فى مصنّفاته فى الفنون، و مؤلّفاته المحقّقة للواقف عليها الآمال و الظنون، و ما كمل منها أو اخترمته دون إتمامه المنون.

اعلم أنّ تصانيف لسان الدين التى علمت نحو الستين، و كلّها فى غاية البراعة، بحيث إنه لم يأت أحد من أهل عصره بمثل ما جاء به، بل و كثير من غير أهل عصره رحمه اللّه تعالى، و قد وقفت بالمغرب على كثير منها، و فيها أقول مضمّنا ببعض تغيير: [الوافر]

تصانيف الوزير ابن الخطيب ألذّ من الصّبا الغضّ الرّطيب

فأيّة راحة و نعيم عيش توازى كتبه أم أىّ طيب

## [لسان الدين يذكر مؤلفاته فى الترجمة التى عقدها لنفسه فى الإحاطة]

قال رحمه اللّه تعالى فى تعريفه بنفسه آخر «الإحاطة» ما صورته:

التواليف: «التاج المحلّى، فى مساجلة القدح المعلّى»، و «الكتيبة الكامنة، فى أدباء المائة الثامنة». و «الإكليل الزاهر، فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر» ثم «النقاية، بعد الكفاية» هذا فى نحو «القلائد» و «المطمحين» لأبى نصر الفتح بن محمد، و «طرفة العصر، فى دولة بنى نصر» فى أسفار ثلاثة، و «بستان الدول» موضوع غريب ما سمع بمثله، قلّ أن شذّ عنه فنّ من الفنون، يشتمل على شجرات عشر: أولها شجرة السلطان، ثم شجرة الوزارة، ثم شجرة الكتابة، ثم شجرة القضاء و الصلاة، ثم شجرة الشرطة و الحسبة، ثم شجرة العمل، ثم شجرة الجهاد و هى فرعان: أسطول، و خيول، ثم شجرة ما يضطر باب الملك إليه من الأطباء و المنجّمين و البيازرة و البياطرة و الفلاحين و الندماء و الشطرنجيين و الشعراء و المغنّين، ثم شجرة الرعايا، و تقسيم هذا كلّه غريب يرجع إلى شعب، و أصول، و جراثيم، و عمد، و قشر، و لحاء، و غصون، و أوراق، و زهرات مثمرة، و غير مثمرة، مكتوب على كلّ جزء من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۸۳

هذه الأجزاء بالصبغ اسم الفن المراد به، و برنامجه صورة بستان، كمل منه نحو من ثلاثين سفرا، ثم قطع عنه الحادث على الدولة، و ديوان شعرى فى سفرين سميته «الصّيّب و الجهام، و الماضى و الكهام» و النثر فى غرض السلطانيات كثير، و الكتاب المسمى ب «اليوسفى فى صناعة الطب» فى سفرين كبيرين، كتاب ممتع، و «عائد الصلة» وصلت به صلة الأستاذ أبى جعفر بن الزبير، فى سفرين، و كتاب «الإحاطة، بما تيسّر من تاريخ غرناطة» كتاب كبير فى أسفار تسعة، هذا متّصل بآخرها، و «تخليص الذهب، فى اختيار عيون الكتب الأدبيات الثلاثة»، و «جيش التوشيح» فى سفرين. و من بعد الانتقال من الأندلس و ما وقع من كياد الدولة: «نفاضة الجراب، فى علالة الاغتراب» موضوع جليل فى أربعة أسفار، و كتاب «عمل من طبّ لمن حبّ» و منزلته فى الصناعة الطبية بمنزلة كتاب أبى عمرو بن الحاجب المختصر فى الطريقة الفقهية، لا نظير له، و من الأراجيز، المسماة «برقم الحلل، فى نظم الدول» و الأرجوزة المسمّاة ب «الحلل المرقومة، فى اللمع المنظومة» ألفية من ألف بيت فى أصول الفقه، و الأرجوزة المسمّاة ب «المعلومة» معارضة للمقدمة المسمّاة بالمجهولة فى العلاج من الرأس إلى القدم إذا أضيفت إلى رجز الرئيس أبى على كملت بها الصناعة كمالا- لا- يشينه نقص، و الأرجوزة المسماة ب «المعتمدة، فى الأغذية المفردة» و الأرجوزة «فى السياسة المدنية»، إلى ما يشذّ عن الوصف كالرجز «فى عمل الترياق الفاروقى»، و «الكلام على الطاعون المعاصر»، و «الإشارة»، و «قطع السلوك»، و «مثلى الطريقة، فى ذمّ الوثيقة» حتى فى الموسيقى، و البيطرة و البيزرة، هذر كثف به الحجاب، و لعب بالنفس الإيجاب، وضاع الزمان و لا تسل بين الردّ و القبول و النفى و الإيجاب، و للّه درّ القائل: [السريع]

و الكون أشراك نفوس الورى طوبى لنفس حرّة فازت

إن لم تحز معرفة اللّه قد أورطها الشيء الذى حازت

و كلّ ميسر لما خلق له، و لا حول و لا قوة إلّا بالله العلى العظيم؛ انتهى ما له فى آخر «الإحاطة» بحروفه.

## [استدراک للمؤلف بذكر مؤلفات لسان الدين بعد كتابته ترجمته و ابن الأحمر يتحدث عن مصنفات لسان الدين]

قلت: و لنذكر ما تأخّر تأريخه عن «الإحاطة» أو أشير إليه فيها مجملا فنقول:

من أشهر تواليفه رحمه اللّه تعالى كتاب «ريحانة الكتّاب، و نجعة المنتاب» فى عدة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۸۴

مجلّدات، و هو داخل فى قوله السابق فى «الإحاطة»: و النثر فى غرض السلطانيات كثير، و هذا الكتاب قد اشتمل من الإنشاء على كثير فى أغراض شتّى من مخاطبات الملوك على اختلاف أجناسهم و صدقاتهم و غير ذلك من أحوالهم و أحوال الكبراء و مخاطباتهم حتى ملوك النصارى، و ذكر فى صدره خطب بعض كتبه، و فى آخره بعض مقاماته و تحليته لأهل عصره، و غير ذلك، و بالجملة فهو كتاب مفرد فى بابه.

و قال الأمير الشهير العلامة أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر رحمه اللّه تعالى فى كتابه «نثير فرائد الجمان، فيمن يضمّنى و إياه الزمان» ما صورته: لابن الخطيب الأوضاع المصنّفات، التى آذان إحسانها هى المقرّطات المشنّفات، منها فى التصوف، الذى أكثر أهل الحقائق إليه نظر التشوّف «روضة التعريف، بالحبّ الشريف»؛ انتهى، و سرد غير هذا الكتاب ممّا قدّمنا ذكره و غيره.

## [حديث عن روضة التعريف، أحد مؤلفات لسان الدين و بقية مؤلفاته]

و هذا الكتاب- أعنى «روضة التعريف» - غريب المنزع، و عارض به «ديوان الصبابة» لابن أبى حجلة صاحب «السكردان»، و ضمّنه من التصوف و عبارات أهله العجب العجاب، و تكلّم فيه على طريقة أهل الوحدة المطلقة، و بذلك سجّل عليه أعداؤه فى نكبته الآخرة التى ذهبت فيها نفسه، و نسبوه إلى مذهب الحلول و غيره، ممّا ذكره يطول حسبما ألمعنا بذلك، و قد جعل هذا الكتاب شجرة ذات أفنان و عمود، مشتمل على القشر و العود، و أوراق، و صورة طائر فوقها، و لم أر فى فنّه مثله، جازاه اللّه تعالى عن نيّته! فإنه فى الحب الشريف الربانى، مبلغ الناظر فيه غاية أمنيته.

و من تواليفه رحمه اللّه تعالى غير ما سبق «اللمحة البدرية، فى الدولة النصرية» و كتاب «السحر و الشعر» و «معيار الأخبار» و «مفاضلة مالقة و سلا» و «خطرة الطيف، و رحلة الشتاء و الصيف» و قد ذكرهما فى الريحانة بنصّيهما، و جعلهما من جملة ما اشتملت عليه، و «المسائل الطبية» فى مجلّد، و «الكتيبة الكامنة، فى شعراء المائة الثامنة» و رسالة «تكوّن الجنين»، و «الوصول، لحفظ الصحة فى الفصول» و كتاب «الوزارة» و «مقامة السياسة» و «الغيرة، على

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۸۵

أهل الحيرة» و «حمل الجمهور، على السّنن المشهور» و «الزبدة الممخوضة» و «الردّ على أهل الإباحة» و «سدّ الذريعة، فى تفضيل الشريعة» و «تقرير الشبه، و تحرير الشبه» و «استنزال اللطف الموجود، فى سرّ الوجود» و «أبيات الأبيات» فيما اختاره رحمه اللّه تعالى من مطالع ما له من الشعر، و «فتات الخوان، و لقط الصوان» فى سفر يتضمّن المقطوعات فقط، و «كناسة الدكان، بعد انتقال السكان» و «الدرر الفاخرة، و اللجج الزاخرة» جمع فيه نظم ابن صفوان، و «أعمال الأعلام، فيمن بويع قبل الاحتلام، من ملوك الإسلام، و ما يجرّ ذلك من شجون الكلام» و «و المباخر الطيبة، فى المفاخر الخطيبة» و «خلع الرسن، فى أمر القاضى ابن الحسن» و تدوين شعر شيخه ابن الجياب، و جمع نثر المذكور و سمّاه «تافه من جمّ، و نقطة من يمّ» و شرحه لكتاب نفسه «رقم الحلل فى نظم الدول»؛ فهذا ما

حضرنى علمه من تواليف لسان الدين رحمه اللّه تعالى، فأمّا «البيزرة» ففى مجلد، و أما «البيطرة» فكذلك فى مجلد جامع لما يرجع إليه من محاسن الخيل و غير ذلك، و أمّا «رجز الأصول» فقد شرحه قاضى القضاة ولى الدين أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون صاحب التاريخ المشهور، و أمّا «رقم الحلل، فى نظم الدول» فهو فى غاية الحلاوة و العذوبة و الجزالة، و قد كنت بالمغرب أحفظ أكثره، فنسيته الآن، و ابتدأه بقوله: [الرجز]

الحمد للّه الذى لا ينكره من سرحت فى الكائنات فكره

و علق بحفظى الآن منه قوله فى الوليد بن يزيد: [الرجز]

ثمّ الوليد بن يزيد العائث قد نقلت من فعله خبائث

و فى آخر دولة بنى أمية قوله: [الرجز]

و صار قصر الملك من أميّه أقفر ربعا من ديار ميّه

و فى الأمين: [الرجز]

باع العلا بشادن و كاس و صحبة الشيخ أبى نواس

و فى المعتصم: [الرجز]

و هو الذى تألّف الأتراكا فنصبوا لقومه الأشراكا

و من أبيات هذا الكتاب قوله: [الرجز]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۸۶

و يفسد الملك بالاحتجاب كذاك بالزّهو و بالإعجاب

و ما أحسن قوله فيه عند ذكر موت بعض الملوك: [الرجز]

و أقفرت من ملكه أوطانه سبحان من لا ينقضى سلطانه

### [حديث عن كتاب الإحاطة أحد تآليفه، و مختصره: مركز الإحاطة فى أدباء غرناطة، للبدر البشتكى]

و أمّا كتاب «الإحاطة» فهو الطائر الصيت بالمشرق و المغرب، و المشارقة أشدّ إعجابا به من المغاربة، و أكثر لهجا بذكره، مع قلّته فى هذه البلاد المشرقية، و قد اعتنى باختصاره الأديب الشهير البدر البشتكى، و سمّاه «مركز الإحاطة، فى أدباء غرناطة» و هو فى مجلّدين بخطّه، رأيت الأخير منهما بمصر، و قال فى آخره ما نصّه: هذا آخر ما أردت إيراده، و فوّقت أبراده، من كلّ طرفة و تحفة و فائدة أدبية، و نادرة تاريخية، فى كتاب «الإحاطة، بتاريخ غرناطة» و لما كان المعول عليه، و الباعث الداعى إليه، ذكر أدبائه، و مآثر علمائه، سمّيته «مركز الإحاطة، بأدباء غرناطة» و الحمد للّه أولا و آخرا، و باطنا و ظاهرا، علقه لنفسه ثم لمن شاء اللّه تعالى من بعده الفقير إلى عفو ربّه محمد بن إبراهيم بن محمد البدر البشتكى، لطف اللّه تعالى به بمنّه و كرمه! مستهل صفر سنة ثلاث و تسعين و سبعمائة، و حسبنا اللّه و نعم الوكيل؛ انتهى.

و قد جعل كلّ أربعة أجزاء من الأصل فى مجلّد، إذ هو فى مجلّدين كما سبق، و نسخة الأصل فى ثمان مجلّدات، فنقص من الأصل ثلاثة أرباع أو نحوها.

### [حجة سلطانية بوقف كتاب الإحاطة]

و لمّا وقف سلطان الأندلس من كتاب «الإحاطة» نسخة على بعض مدارس غرناطة كتب ابن عاصم حجة الوقفية بخطّه، و لنثبتها لما فيها من الفوائد، قال الأديب الفقيه أبو عبد اللّه محمد بن الحداد الشهير بالوادى آشى نزيل تلمسان المحروسة: كان على ظهر النسخة

الرائقة الجمال، و الفائقة الكمال، من «الإحاطة» بتاريخ غرناطة» المحبّسة على المدرسة اليوسفية، من الحضرة العلية، بخطّ قاضى الجماعة، و منفذ او حكام الشرعيّة المطاعة، صدر البلغاء، و علم العلماء، و وحيد الكبراء، و أصيل الحسباء، الوزير الرئيس المعظّم أبى يحيى بن عاصم- رحمة اللّه تعالى عليه!- ما نصّه: الحمد للّه الجاعل الاستدلال بالأثر على المؤثر ممّا سلمه الأعلام، و شهدت به العقول الراجحة و الأحلام، و هو الحجّة المعتمدة حين تتفاضل الألباب و تتقاصر الأفهام، و به الاستمساك إن طرقت الشكوك أو عرضت الأوهام، و حسبك بما يسلم فى هذا المقام العالى من الأدلّة، و ما يعتمد فى هذا المجال المتضايق من البراهين المستقلّة، فحقيق أن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٨٧

يتلقّى هذا النوع من الاستدلال فيما دون الفنّ المشار إليه بالقبول، و يستنبل المهتدى لاستنباطه لما فيه من التبادر للأفهام و التسابق للعقول، و إذا ثبت أنّ المستدلّ بهذه الأدلّة سالك على سواء سبيل، و منتم من صحة النظر إلى أكرم قبيل، فلا خفاء أنّ كتاب «الإحاطة» للشيخ الرئيس ذى الوزارتين أبى عبد اللّه بن الخطيب- رحمه اللّه تعالى!- من أثر هذه الدولة النّصرية أدامها اللّه تعالى بكل اعتبار، و مآثرها التى هى عبرة لأولى الألباب و ذكرى لذوى الأبصار، أما الأول فلأنّ الأنباء التى أظهرت بهجتها، و أوضحت حجّتها، و شرفت مقصدها، و كرمت مصعدها، إنما هى مناقب ملوكها الكرام، و مكارم خلفائها الأعلام، أو أخبار من اشتملت عليه دولتهم الشريفة من صدور حملة السيوف و الأقلام، و أفذاذ حفظة الدّين و الدنيا، و الشرف و العليا، و الملك و الإسلام، أو ما يرجع إلى مفاخر حضرة الملك، و ينتظم نظم الجمان فى ذلك السلك، من حصانة قلعتها، و أصالة منعتها، و قديم اختطاطها، و كريم جهادها و رباطها و حسن ترتيبها و وضعها، و ما اشتمل عليه من مقاصد الأنس آهل ربعها، و ما سوى هذه الأقسام الثلاثة فمن قبيل القليل، و ممّا يرجع إلى شرف الحضرة ممّن انتابها من أهل الفضل الواضح و المجد الأثيل، و أمّا ثانيا فإن راسم آياتها المتلوّة، و مبدع محاسنها المجلوّة، و ناقل صورتها من الفعل إلى القوّة، إنما هو حسنة من حسنات هذه الدولة النّصرية الكريمة، و نشأة من نشآت جودها الشامل النعمة الهامل الدّيمة، فما ظهر عليه من كمالات الأوصاف، على الإنصاف، فأخلاف هذه المكارم النصرية أرضعته، و عناياتها الجميلة أسمته فوق الكواكب و رفعته، و إليها ينسب إحسانه إن انتسب، و من كريم تشريفها اكتسب، و الحضرة هى منشؤه الذى عظم فيه قدره، بل أفقه الذى أشرق فيه بدره، و التشريفات السلطانية التى فتقت اللّها باللّها، و احتلّت من مراقى العزّ فوق السها، و أمكنت الأيدى من الذخائر و الأعلاق، و طوّقت المنن كالقلائد فى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٨٨

الأعناق، و قلّدت الرياسة و الأقلام أقلام، و ثنت الوزارة و الأعلام أعلام، فبهرت أنواع المحاسن، و ورد معين البلاغة غير المطروق و لا الآسن، و برعت التواليف فى الفنون المتعدّدة، و اشتهرت التصانيف و منها هذا التصنيف المشار إليه لما له من الأذمة المتأكّدة، إذ أظهر هذا الاستدلال، و أوضح البيان ما كتمه الإجمال، فلنفصح الآن بما قصد، و لنحقّق من أنجم السعادة ما رصد، و ذلك أنّ لمولانا أمير المسلمين، المجاهد فى سبيل ربّ العالمين، الغالب بالله المؤيّد بنصره أبى عبد اللّه محمد ابن الخلفاء النصريين، أيّده اللّه و نصره! و سنّى له الفتح المبين و يسّره! مآثر لم يسبق إليها، و مكارم لم يجر أحد ممّن وسم بالكرم عليها، لجلالة قدرها، و ضخامة أمرها، من ذلك هذا المقصد الذى أثر لها كالكتاب المذكور و سواه، ممّا هو واحد فى فنّه و فذّ فى معناه، عقد فى جميعها التحبيس على أهل العلم و الطلبة بحضرته العليا هنالك ليشمل به الإمتاع، و يعمّ به الانتفاع، و اللّه تعالى ينفع بهذا القصد الكريم، و يتولّى المثوبة على هذا العقد الجسيم، و هذه النسخة فى اثنى عشر سفرا متّفقة الخطّ و العمل، اكتتب هذا على ظهر الأول منها، و بتاريخ رجب الفرد من عام تسعة و عشرين و ثمانمائة، عرّف اللّه تعالى بركته بمنّه! انتهى.

### [لسان الدين يقف نسخة من كتاب الإحاطة بخانقاه سعيد السعداء بمصر]

و كان لسان الدين بن الخطيب- رحمه اللّه تعالى!- أرسل فى حياته نسخة من «الإحاطة» إلى مصر، و وقفها على أهل العلم، و جعل مقرّها بخانقاه سعيد السعداء، و قد رأيت منها المجلّد الرابع، و هذا نصّ وقفيته: الحمد للّه وحده، وقف الفقير إلى رحمة اللّه تعالى الشيخ أبو عمرو بن عبد اللّه بن الحاج الأندلسى- نفع اللّه تعالى به!- عن موكّله مصنّفه الشيخ الإمام العلّامة بركة الأندلس لسان الدين أبى عبد اللّه محمد ابن الشيخ أبى محمد عبد اللّه بن الخطيب الأندلسى السّلمانى- فسح اللّه تعالى فى مدّته! و فتح لنا و له أبواب رحمته! و منحنا و إياه من رفده و عطيّته! و أسكننا و إياه أعالى جنّته!- جميع هذا الكتاب «تاريخ غرناطة»، و هو ثمانية أجزاء، هذا رابعها، عن مصنّفه المذكور بمقتضى التفويض الذى أحضره، و هو أنه فوّض إليه النيابة عنه فى جميع أموره المالية كلّها، و شؤونه أجمعها، و النظر فى أحواله على اختلافها و تباين أجناسها، تفويضا تامّا على العموم و الإطلاق، و الشمول و الاستغراق، لم يستثن شيئا ممّا تجوز النيابة فيه إلّا أسنده إليه، و هو ثابت على سيّدنا و مولانا قاضى القضاة يومئذ بثغر الإسكندرية المحروس- أدام اللّه تعالى أيامه!- كمال الدين خالصة أمير المؤمنين أبى عبد اللّه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۸۹

اللّه محمد بن الربعى المالكى ثبوته مؤرخ بثالث ذى الحجّة عام سبعة و ستين و سبعمائة، وقفا شرعيّا على جميع المسلمين ينتفعون به قراءة و نسخا و مطالعة، و جعل مقرّه بالخانقاه الصالحية سعيد السعداء، رحم اللّه تعالى واقفها! و جعل النظر فى ذلك للشيخ العلامة شهاب الدين أبى العباس أحمد بن حجلة، حرسه اللّه تعالى! ثم من بعده لناظر أوقاف الخانقاه المذكورة، فلا يحلّ لأحد، يؤمن باللّه العظيم، و يعلم أنه صائر إلى ربّه الكريم، أن يبطله و لا شيئا منه، و لا يبدله و لا شيئا منه، فمن فعل ذلك أو أعان عليه فإنما إثمه على الذين يبدلونه، إنّ اللّه سميع عليم، و من أعان على إبقائه على حكم الوقف المذكور جعله اللّه تعالى من الفائزين المطمئنين الذين لا خوف عليهم و لا هم يحزنون، و أشهد الواقف الوكيل عليه فى ذلك فى الثانى و العشرين لشهر اللّه تعالى المحرم عام ثمانية و ستين و سبعمائة؛ انتهى.

### [المؤلف يرى خطوط جماعة من العلماء على نسخة الإحاطة بمصر]

و قد رأيت بظهر أول ورقة من هذه النسخة خطوط جماعة من العلماء، فمن ذلك ما كتبه الحافظ المقريزى المؤرخ، و نصّه: انتقى منه داعيا لمؤلّفه أحمد بن على المقريزى فى شهر ربيع سنة ثمان و ثمانمائة.

و ما رقمه الحافظ السيوطى و نصّه: الحمد للّه وحده، طالعته على طبقات النحاة و اللغويين، و كتبه عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى سنة ثمان و ستين و ثمانمائة؛ انتهى.

و بعد هذين ما صورته: انتقى منه داعيا لمؤلّفه محمد بن محمد القوصونى سنة أربع و خمسين و تسعمائة.

و بعده ما صورته: أنهاه نظرا و انتقاء على الحموى الحنفى، لطف اللّه به.

و بخطّ مولانا العارف الربانى علّامة الزمان و بركة الأوان الشيخ محمد البكرى الصديقى ما نصّه: طالعته مبتهجا برياضه المونقة، و أزهار معانيه المشرقة، مرتقيا فى درج كلماته العذاب سماء الاقتباس، مقتنيا من لطائفه دررا و جواهر بل أحاشيها بذلك القياس، كتبه محمد الصديقى غفر اللّه له! انتهى.

و رأيت بهامش هذه النسخة كتابة جماعة من أهل المشرق و المغرب كابن دقماق و الحافظ ابن حجر و غيرهما من أهل مصر، و من المغاربة ابن المؤلف أبى الحسن على الخطيب، و الخطيب الكبير سيدى أبى عبد اللّه بن مرزوق، و العلّامة أبى الفضل ابن الإمام التلمسانى،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۹۰

و النحوى الراعى، و الشيخ الفهامة الشهير يحيى العجيسى شارح الألفيّة و صاحب التآليف، و غير هؤلاء ممّن يطول تعدادهم، رحم اللّه

تعالى جميعهم!

### [ابن الأحمر يبين أصول ابن الخطيب فى كتابه الإحاطة]

و قد أشار ابن الأحمر حفيد الغنى بالله تعالى الذى كان ابن الخطيب وزيرا له ثم انفصل عنه حسبما تقدّم إلى ما يتعلّق بكتاب «الإحاطة» فى جملة كلام نصّه: و تلقينا ممّن نثق به أنّ الكاتب المجيد الأصيل حسبا، البارع أدبا، أبا عبد اللّه بن جزى وفد على السلطان أبى عنان صاحب المغرب فى حدود عام ثلاثة و خمسين و سبعمائة، فأكرم جنابه، و كمل من تقريبه و اصطناعه آرابه، فانتدب إلى ذكر وطنه الأندلسى، و صاح بمن عذله: [الوافر]

أيا ويح الشجى من الخلى

و برع غاية البراعة فى التاريخ الذى جمعه، و رفع راية البلاغة لما كلف به و وضعه، فلم يكن شىء من الكلام إلّا قال الإحسان و أنا معه، استوعب ما شاء، و أبدع فى كلّ ما نقل سواء كان شعرا أو إنشاء، لكنّ سابق أجله منع من الإمتاع بمجمله و مفصّله، و جاءت الحادثة العظمى من وفاة مولانا والد جدّنا أمير المسلمين أبى الحجاج فى غرّة شوّال من عام خمسة و خمسين و سبعمائة فعيّن لتعريف صاحب المغرب بالكائنة خاصّ الدولة و رئيس الجملة أبا عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن الخطيب، فوقف من تاريخ ابن جزى على شاطىء نهر فيّاض، و انتشق من ورقاته أزاهر رياض، و حمله النظر فى بدائعه على أن يأخذ فى جمع كتابه المسمى ب «الإحاطة فيما تيسّر من تاريخ غرناطة»، و وجد لذلك موجبا أغراه بجمعه، و هو أنّ الشيخ الحجّة الشاعر المفلق أبا إسحاق بن الحاج وفد على الأندلس بعد جوبه الآفاق، و ترحّله إلى ما وراء الشام و العراق، و إعلامه أنه يذهب فى بدأة تاريخ مذهب ابن جزى و غيره، و كان وحيدا فى فنون الآداب، و المساجلة لأعلام الكتّاب، و بحكم الاتّفاق على أثر وصول ابن الخطيب من الرسالة للسلطان أبى عنان وجد الحاجب الخطير أبا النعيم رضوان قد استولى على وظيفة الحجابة و الرياسة و أقنعه بالاسم من ذلك المسمّى، و بأن وقفه دون طموحه إلى عادته من المرقب الأسمى، فأنتج الانتباذ من تلك الرياسة الخطيبية أن ألفى الخطبة على جلالة مقدارها، و توضّح أنوارها، فى مرتقى إجلالها و إكبارها، و أخذ فى تأليف «الإحاطة» مستدعيا تصحيح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٩١

الموالد و الوفيات، و الأسماء و المسمّيات، و مستكثرا من طرف المصنّفات، ليتمّ قصده من الإطناب، و نقله العيون الرائقة من كلّ كتاب، و ألقى جميع مقاصده، و المعظم من تنظيم فرائده، بيد الشيخ العمدة معلم الجملة منّا كتاب اللّه و سنّة رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أبى عبد اللّه الشريشى، قدّس اللّه تعالى ضريحه! و هذا الشيخ الذى لم يجاوز سنّ الكهولة فى ذلك الوقت هو الذى تولّى من المبيضات نقله، و أحكم جنسه و فصله، و انختم على مجلّدات ستة. و لمّا عاد ابن الخطيب إلى الأندلس بعودة جدّنا الغنى بالله تعالى إلى ملكه عام ثلاثة و ستين و سبعمائة تلاحقت الفروع من كتاب «الإحاطة» بالأصول، و أنجز من التبحّر فيه الوعد الممطول، و وضعت بخانقاه سعيد السعداء النسخة المتمّمة من اثنى عشر سفرا؛ انتهى كلامه.

و قد علمت أن المكتوب فى الوقفيّة كما مرّ ثمانية مجلّدات، لا اثنا عشر، فلعلّ ذلك الاختلاف بسبب الكبر و الصغر، و اللّه سبحانه و تعالى أعلم.

و الكاتب أبو عبد اللّه بن جزى الذى أشار إليه قد عرّفنا به فيما سبق فليراجع.

### [ترجمة أبى إسحاق إبراهيم بن عبد اللّه بن الحاج الغرناطى (عن الإحاطة)]

و أمّا العلّامة ابن الحاج، فهو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد اللّه بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن إبراهيم بن عبد العزيز بن إسحاق بن أحمد بن أسد بن قاسم الكاتب القاضى النميرى، و يعرف بابن الحاج الغرناطى؛ قال فى الإحاطة: نشأ على عفاف و طهارة،

و برّ و صيانة، و بلغ الغاية فى جودة الخطّ، و ارتسم فى كتاب الإنشاء عام أربعة و ثلاثين و سبعمائة، مع حسن صمت، و جودة أدب و خطّ، و ظهور كفاية، يقيد و لا يفتر، و يروى الحديث مع الطهارة و النزاهة، مليح الدعابة، طيّب الفكاهة، شرّق و حجّ و تطوّف و قيّد و استكثر و دوّن رحلة سفره، و ناهيك بها طرفة، و قفل لإفريقية، و خدم بعض ملوكها، و كتب ببجاية، ثم خدم سلطان المغرب أبا الحسن، ثم كتب عن صاحب بجاية، ثم تنزّه عن الخدمة، و انقطع بتربة الشيخ أبى مدين مؤثر الخمول، ذاهبا مذهب العكوف بباب اللّه تعالى، حجّة على أهل الحرص و التهافت، ثم جبر على الخدمة عند أبى عنان، ثم أفلت عند موته فلحق بالأندلس، و ألقى ببرّ و تنويه و عناية، و ولى القضاء بقرب الحضرة، و هو الآن من صدور القطر و أعيانه،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸ ص: ۲۹۲

متوسّط الاكتهال، روى عن مشيخة بلده و استكثر، و أخذ فى رحلته عن ناس شتّى، و ألّف تواليف منها «إيقاظ الكرام، بأخبار المنام» و جزء فى بيان الاسم الأعظم كثير الفائدة، و «نزهة الحدق، فى ذكر الفرق» و كتاب «اللّباس و الصحبة»، فى جمع طرق المتصوّفة، المدعى أنه لم يجمع مثله، و جزء فى الفرائض على الطريقة البديعة التى ظهرت بالمشرق، و جزء فى الأحكام الشرعية سمّاه ب «الفصول المقتضبة، فى الأحكام المنتخبة» و رجز فى الجدل، و رجز صغير فى الحجب و السلاح، و رجز صغير سماه ب «مثالب القوانين، فى التورية و الاستخدام و التضمين».

مولده بغرناطة سنة ثلاث عشرة و سبعمائة، و امتحن بالأسر مع جماعة بعد قتال عام ثمانية و ستين، ثم فكّه اللّه تعالى؛ انتهى ملخّصا.

و أخذ عنه جماعة كالقاضى أبى بكر بن عاصم صاحب «التحفة» و غيره، و هو من الأدباء المكثرين، و كان عندى بالمغرب مجلّد من رحلته التى بخطّه، و قد أتى فيه بالعجب العجاب، و تمهّر فى الحديث على طريقة أهل المشرق؛ لأنه لقى جماعة من الحفّاظ كالذهبى و البرزالى و المزى، و ناهيك بالثلاثة، و غيرهم ممّن يطول تعداده، و له النظم الرائق، العذب الجامع بين جزالة المغاربة و رقّة المشارقة، كما ستراه، فمن نظمه يمدح الحافظ جمال الدين يوسف بن الزكى عبد الرحمن المزى، و قد أبصره على أسرّة دار الحديث الأشرفية بدمشق: [الوافر]

جمال الدين للإقراء يعلو أسرّته إذا اصطفّ الرجال

فمذ جليت محاسنه بدا لى محيّا فى أسرّته الجمال

ضمّن قول المعرّى: [الوافر]

أهلّ فبشّر الأهلين منه محيّا فى أسرّته الجمال

و قوله فى الحافظ علم الدين أبى القاسم محمد بن يوسف البرزالى: [البسيط]

نوى النّوى علم الدين الرضا فأنا من بعد فرقته بالشام ذو ألم

فلا تلمنى على حبى دمشق فقد أصبحت فيها زمانا صاحب العلم

و قال فيه أيضا: [البسيط]

نوى النوى علم الدين الرضا فذكت نار اشتياقى حتى استعظموا ألمى

فقلت: إنى من قوم شعارهم جود، فلا تنكروا نارى على علم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸ ص: ۲۹۳

و قال فى الحافظ شمس الدين الذهبى: [البسيط]

رحلت نحو دمشق الشام مبتغيا رواية عن ذوى الأحلام و الأدب

ففزت فى كتب الآثار حين غدت تروى بسلسلة عظمى من الذهب

و قال فى الحافظ المزى أيضا: [الوافر]

جمال الدين أضحى فى دمشق إماما نحوه طال الذميل

فلم أعدم بمنزله جميلا فحيث هو الجمال هو الجميل

و قال حين بـدوره على الأمير الصالح المحدّث الجليل قطب الدين أبى إسـحاق إبراهيم ابن الملك المجاهد سـيف الدين إسـحاق بن السلطان الملك الرحيم بدر الدين بن لؤلؤ بن عبد اللّه النورى صاحب الموصل ليروى عنه: [الطويل]

إلى قصد قطب الدين وافيت عندما أقمت على الترحال فى الشرق و الغرب

و أصبحت كالأفلاك فى السير و السّرى فها أنا فى مصر أدور على القطب

و قال فى قاضى القضاة العالم الشهير صاحب التفسير عماد الدين الكندى، و هو ممّن أخذ عنه بثغر الإسكندرية: [المتقارب]

و لمّا اختبرت ذوات الورى تعجّبت من حسن ذات العماد

فتلك التى لم أكن مبصرا مدى عمرنا مثلها فى البلاد

و قال فى القاضى وجيه الدين يحيى بن محمد الصنهاجى: [الكامل]

أضحى وجيه الدين أسبق سابق فى العلم و العلياء و الخلق النبيه

عجب الورى من سبقه و تعجّبوا فأجبتهم لا تنكروا سبق الوجيه

و من بديع نظمه رحمه اللّه تعالى قوله: [الكامل]

قد قارب العشرين ظبى لم يكن ليرى الورى عن حبّه السلوانا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٩٤

و بدا الربيع بخدّه فكأنما وافى الربيع ينادم النّعمانا

و قوله: [الرجز]

و عارض فى خدّه نباته بحسنه بين الورى يسحرنا

أجرى دموعى إذ جرى شوقا له فقلت هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا

[سورة الأحقاف: الآية: ٢٤]

و قال و قد توفى أبو يحيى أبو بكر صاحب تونس و ولى ابنه أبو حفص عمر بعد قتله لإخوته: [الطويل]

و قالوا أبو حفص حوى الملك غاصبا و إخوته أولى و قد جاء بالنّكر

فقلت لهم كفّوا فما رضى الورى سوى عمر من بعد موت أبى بكر

و قال: [الطويل]

أتونى فعابوا من أحبّ جماله و ذاك على سمع المحبّ خفيف

فما فيه عيب غير أنّ جفونه مراض، و أنّ الخصر منه ضعيف

و قال: [المتقارب]

أيا عجبا كيف تهوى الملوك محلّى و موطن أهلى و ناسى

و تحسدنى و هى مخدومة و ما أنا إلّا خديم بفاس

و قال: [الطويل]

لى المدح يروى منذ كنت كأنما تصوّرت مدحا للورى و ثناء

و ما لى هجاء فاعجبنّ لشاعر و كاتب سرّ لا يقيم هجاء

و قال فى حقّه القاضـى أبو البقاء خالد البلوى: نقلت من خطّ سـيدى و رفيقى و صديقى إمام المسلمين، برهان الدين، أبى إسحاق بن

إبراهيم بن عبد اللّه بن الحاج، و أكثره ممّا كان أنشدنيه قديما من نظمه فى التورية قوله: [الخفيف]

و مهاة تقول إن هى كلّت و دعا للمزاح خلّ ممازج

وازر الردف إنّ فى الأزر منى رمل يبرين يا طبيب و عالج

و قوله: [الوافر]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۹۵

و روض ممحل جدب المراعى سريع القيظ وقدا و التهابا

حكى ابن أبى ربيعة لا شجونا و لكن كونه يهوى الربابا

و قوله: [الوافر]

و ظبى طرّ عارضه و أعفى عذارا بعد يزهو باخضرار

رأى سقما بمقلته فوافى بآس عاد لكن من عذار

و قوله: [الطويل]

أتونى بنمّام من الروض يانع سقته الغوادى كلّ أسجم مدرار

فلا غرو إن أصليته نار زفرتى و حكم على النمّام الالقاء فى النار

و قوله: [الخفيف]

هذه الشمس بالحجاب توارت بعد نور لها و رحب و بشر

و أتى الليل بالنسيم عليلا فهو يمشى من أفقه لابن زهر

يعنى بذلك الوزير الكبير الشهير الطبيب ابن زهر الإشبيلى الأندلسى، فإنه كان وحيد دهره فى الطب، فجاءت التورية بسبب ذلك محكمة إلى الغاية.

و قال أبو إسحاق النميرى المذكور: [الوافر]

أيا ضوء الصباح ارفق بصبّ تسيل دموعه فى الخدّ سيلا

و كنت بليلة ليلاء طالت فها أنا فى الورى مجنون ليلى

و قال يخاطب شيخه سيف الدين: [الطويل]

لمولاى سيف الدين فى الفقه بيننا مقام اجتهاد ليس يلحقه الحيف

فتقليده فرض على أهل عصرنا و لا عجب عندى إذا قلّد السيف

و قال: [الطويل]

رعى اللّه معطار النسيم فإنه رأى من غصون البان ما شاء من عطف

و أبدى حديث الغيث و هو مسلسل لذاك لعمرى ليس يخلو من الضعف

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۲۹۶

و ترشحت التورية بكون المحدثين يقولون «الحديث المسلسل لا يخلو من الضعف، و لو فى التزام التسلسل، مع كون متن الحديث صحيحا» كما قرّر فى محلّه.

و قال رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

نظرت إلى روض الجمال بوجهه و سقّيته دمعا به العين تكلف

فصحّ حديث الحسن عن ورد خدّها و إن كان أضحى و هو راو مضعف

و قال رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

بدا عارض المحبوب فاحمرّ خجلة و أهدى لنا وردا به الحسن ناهض

فقلت له لا تنكر الورد ناضرا فقد سال فى خدّيك من قبل عارض

و قال: [الكامل]

النوم عن إنسان عينى نافر كالوحش ليس يقارب الإنسانا

و الدمع منها فاض طوفانا فلا عجب إذا ما غرّق الأجفانا

و قال رحمه اللّه تعالى: [الوافر]

بكت شجنا ففاض الدمع يحكى يتامى الدّرّ إذ يهوى تؤاما

و سلّت من محاجرها سيوفا فحقت على المحاجر و اليتامى

و قال القاضى خالد البلوى رحمه اللّه تعالى: من نظم صاحبنا أبى إسحاق بن الحاج النميرى يخاطب شيخه و شيخنا أيضا صاحب ديوان الإنشاء الإمام جمال الدين إبراهيم بن الإمام العلّامة صاحب ديوان الإنشاء ملك الكلام قسّ الفصاحة شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبى، و قد تقرّب إليه فى قصد الرواية عنه: [الطويل]

إلى ابن شهاب الدين طال تغرّبى فلمّا سرت عيسى له و ركابى

رويت حديث الفضل عنه فصحّ لى كما شئت مرويّا عن ابن شهاب

و قوله يخاطب كمال الدين بن جمال الدين المذكور: [الكامل]

أشبهت والدك الرضا فى فضله و أخذته عنه بخير مناب



و ملكتنى فحديث فضلك فى الورى عن مالك يروى عن ابن شهاب

و قال رحمه اللّه تعالى: [المتقارب]

لعمرك ما ثغره باسم و لكنه حبب لاعب

و لو لم يكن ريقه مسكرا لما دار من حوله الشارب

و قال رحمه اللّه تعالى ملغزا فى القلم: [الطويل]

سألتك ما واش يراد حديثه و يهوى الغريب النازح الدار إفصاحه

تراه مدى الأيام أصفر ناحلا كمثل عليل و هو قد لازم الراحه

و قال و قد وقف حاجب السلطان على عين ماء ببعض الثغور و شرب منها: [المتقارب]

تعجّبت من ثغر هذى البلاد و مولاى من عينها شارب

فللّه ثغر أرى شاربا و عين بدا فوقها حاجب

و قال: [المتقارب]

و حمراء فى الكأس مشمولة تحثّ على العود فى كلّ بيت

فلا غرو أن جاءنى سابقا إلى الأنس خلّ يحثّ الكميت

و قال: [الطويل]

بروضتنا الظّمياء طال اكتئابنا فللّه غيث ميت آمالنا أحيا

و أشبه مهيارا فها تلك عينه تفيض إذا شام البروق على ظميا

و قال: [البسيط]

اثنان عزّا فلم يظفر بنيلها و أعوزا من هما فى الدهر مطلبه

أخ مودّته فى اللّه صادقة و درهم من حلال طاب مكسبه

و قال مورّيا بالقائد نافع على ما اختاره البخارى و جماعة أنّ أصحّ الأسانيد مالك عن نافع: [الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٩٨

عن نافع أسند حديث أحبّتى يا مالكا رقّى بحسن صنائع

فأجلّ إسناد و خير رواية عندى رواية مالك عن نافع

و قال: [الكامل]

إنى لأعجب من فعالك فى الهوى لمّا حللت بحسن ذاتك ذاتى

و نفيت نومى ثم أثبتّ الأسى فجمعت بين النفى و الإثبات

و قال: [الطويل]

ألا معصم للصّبّ من وشى معصم أطلّت إليه نظرة المتوسّم

فأبقت به عينى حلى من سوادها و بعض سواد وسط قلبى المتيّم

و ليس خضابا ما علاه، و إنما جرى فيه بعد الدمع ما عزّ من دمى

و لم يعدمنى اللون لون سواده خلا أننى أشقى و قيل له انعم

و قال و قد جاء الشاعر المفلق أبو العباس أحمد بن عبد المنّان بيت الكتاب و فى عينه خضرة: [المتقارب]

أيا أحمد المرتضى للعلا و من حاز فى صنعه كلّ زين

تراءيت فى العلم روضا نضيرا فلا تنكرن خضرة حول عين

و له فيه: [الطويل]

لك الخير عدم السبك أبدل ناظرى زمردة مخضرّة من لجينه

فلا تنكروا ما راع من ذاك إننى لصائغ تبر القول ناقد شينه

و لا عجب إن أعوز السبك صائغا فأوجب عدم السبك خضرة عينه

و قال فيمن يعرف بالصّهّال: [الطويل]

ألا ربّ فرسان توافوا فأدركوا مع الليل أوتارا لهم دون إمهال

و أجروا بصهّال كميتا كما ابتغوا فلا تنكروا الإجراء منهم بصهّال

و لما كتب الرئيس الكاتب الجليل أبو عبد اللّه العزفى مداعبا: [الرجز]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٢٩٩

يا عصبة كلّ فتى منهم علم فرغتم من كتبكم ردّوا القلم

أجابه ابن الحاج المذكور بقوله: [الطويل]

ألا احتسبوا ما قد أعرتم لفتية تكرّمكم بالصفح عن فعلهم قاضى

و لا تطمعوا فى الرّدّ فالناس كلّهم رأوا أنّ مولانا له القلم الماضى

و قال الوادى آشى: مما نقلت من خطّ الكاتب العلّامة الصدر البارع الحاج القاضى الناظم الناثر الجامع للمحاسن و المفاخر أبى إسحاق إبراهيم بن الحاج النميرى ما نصّه: كتب إلىّ الفاضل النخبة أبو الفضل بن رضوان متمثّلا بقول المأمون: [الكامل]

ملك الثلاث الآنسات عنانى

فكتبت إليه فى التورية: [الطويل]

هنيئا لكك البشرى بهنّ فدم كما تريد بنعمى للسعادة جامعه

و إن كنت من أهل الصلاح فلا تكن بمائل قلب منك عن حبّ رابعه

فأجابنى بقوله: [الرجز]

يا سيدى ذكّرتنى بالرابعه لعلّها لكلّ خير جامعه

إنى أخاف أن تكون باقعه فتفرك المغازل المطاوعه

و لابن الحاج المذكور من قصيدة طويلة: [الكامل]

لمن الخيام سطت ببيض صفاح وارت سوادا غال كلّ صباح

إن مزّقت رقعت بنقع كتائب أو قوّضت عمدت بسمر رماح

و له فى رثاء الطبيب ابن عمار، و اقترح عليه ذلك ابن جزى: [الطويل]

ألا أسعدا عينى على السّهد و البكا فقد واصل السهد المبرّح تذكارى

و أبدى الردى فتك ابن عباد إذ سطا فلا غرو أن أبكى لفقد ابن عمار

و قال ممّا يكتب فى الترس: [الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۳۰۰

أنا الترس قد أنشأت بالأمر عدّة ليوم جهاد مطلع غرّة النّصر

فلاقوا بى الأعداء فى زحفهم و لا تبالوا بقرع الزّرق و البيض و السّمر

و لا تنكروا سترى لمقتل حاملى ففى اسمى كما شاهدتم أحرف الستر

و له يهنى السلطان أبا عنان أمير المؤمنين المرينى بالإبلال من المرض: [الطويل]

مطالب إلّا أنهنّ مواهب قضى اللّه أن تقضى، فنعم المطالب

شفاء أمير المؤمنين و إنه لأكرم من تحدى إليه الركائب

و كم قلت غاب البدر و الشمس ضلة و رانت على قلبى الهموم النواصب

و لم يغبا لكن شكا الضرّ فارس و أوحش منه مجلس الملك غائب

لكك اللّه يا خير الملوك و خير من تحنّ له حتى العتاق الشوازب

و قلّ لمن وافى بشيرا نفوسنا فما هى إلّا بعض ما أنت واهب

أقول لجرد الخيل قبّا بطونها معقدة منها لحرب سباسب

طوالع من تحت العجاج كأنها نعام بكثبان الصّريم خواصب

محجّلة غرّا كأنّ رعالها بحار جرت فيها الصّبا و الجنائب

من الأعوجيّات الصّوافن ترتمى إذا رجفت يوم القراع مقانب

هنيئا فقد صحّ الإمام الذى به تفلّ السيوف المرهفات القواضب

و مستأصل الفل المغذّ جياده لضرب كما ترغو القحول الضوارب

و من حطّم السّمر الطوال كعوبها بطعن كما امتاح الركيّة شارب

و كرّ على أرض العدا بفوارس كأنهم فى الحرب أشد غوالب

كأنّ ظباهم فى الهياج أكفّهم تجود و أرواح العداة مواهب

كأنّ رماح الخطّ أحسابهم، و ما حوت من نفوس المعتدين مناقب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٣٠١

هم ما هم، حدّث عن البحر أو بنى مرين فنهج القول أبلج لاحب

من البيت شادت قيس عيلان فخره فطالت معاليه و طابت مناسب

و أحيا له ملك الخليقة فارس مآثر غالتها الليالى الذواهب

كريم فلا الحادى النجائب مخفق لديه، و لا المضنى الركائب خائب

أرى بذله النعمى ففضّت مكاسب أرى بأسه الأنضى ففضّت كتائب

أنامله يروى الورى صوب جودها فلو لا دوام الرأى قلت السحائب

و كم خلت برقا فى الدّجى نور بشره تشيم سناه الناجيات النجائب

فأخجلنى أنى أرى البرق خلّبا فلا الصوب هام لا و لا الجود ساكب

أعرنى أمير المؤمنين بلاغة فإنى عن عجز لمدحك هائب

و أنطق لسانى بالبيان معلّما فإنى فى التعليم للجود راغب

و كيف ترى لى بعد فى الجود رغبة وجودك لى فوق الذى أنا طالب

و قد شبّت الآمال إذ شبت ثم إذ تفقدتها لم يدر ما شبّ شائب

بلغت بك الآمال حتى كأنها و قد صدقت ما شئت صدقا كواذب

عجبت و ما تولى، و أوليت معجبا فلا برحت تنمو لديك العجائب

و حسبى دعاء لو سكتّ كفيته كما قيل لكن فى الدعاء مذاهب

و ما أنا إلّا عبدك المخلص الذى يراقب فى إخلاصه ما يراقب

فخذها تبتّ العذر لا المدح؛ إنه هو البحر قل هل يجمع البحر شاجب

بقيت بقاء الدهر ملككك قاهر و سيبك فيّاض، و سيفك غالب

و عوفيت من ضرّ و أعطيت أجره و لا روّعت إلّا عداك النوائب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٣٠٢

و قال رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

و لو لا ثلاث جاء جبريل سائل لخير الورى عنها لآثرت فقدانى

مقامات إسلام أزيد لفعله ثوابا و إيمان أديم و إحسانى

و قال رحمه اللّه تعالى: أنشدنى السلطان أمير المؤمنين أبو عنان فارس ابن أمير المسلمين أبى الحسن المرينى رحمهما اللّه تعالى لنفسه: [الخفيف]

يا ملمّا بأرض تلك البلاد حيّ فاسا و حيّ أهل الوداد

إن تناءت بشخصها عن عيانى فحماها مصوّر فى فؤادى

## [قصيدة لمحمد بن الثغرى يمدح فيها أبا حمو سلطان تلمسان]

قلت: تذكّرت بهذا البحر و الروى و الغرض قول الفقيه الكاتب العلامة الناظم الناثر أبى عبد اللّه محمد بن يوسف الثغرى كاتب

سلطان تلمسان أمير المسلمين أبى حمّو موسى بن يوسف الزيانى يمدحه و يذكر تلمسان المحروسة: [الخفيف]

أيها الحافظون عهد الوداد جدّدوا أنسنا بباب الجياد

وصلوها أصائلا بليال كلآل نظمن فى الأجياد

فى رياض منضّدات المجانى بين تلك الرّبا و تلك الوهاد

و بروج مشيّدات المبانى باديات السنا كشهب بواد

رقّ فيها النسيب مثل نسيبى وصفا النهر مثل صفو ودادى

و زها الزهر و الغصون تثنّت و تغنّت عليه ورق شواد

و انبرى كلّ جدول كحسام عارى الغمد سندسىّ النجاد

و ظلال الغصون تكتب فيه أحرفا سطّرت بغير مداد

تذكر الوشم فى معاصم خود نصبت فوقه ذوات امتداد



و كؤوس المنى تدار علينا بجنى عفّة و نقل اعتقاد

و اصفرار الأصيل فيها مدام و صفير الطيور نغمة شاد

كم غدونا بها لأنس و رحنا جادها رائح من المزن غاد

و لكم روحة على الدوح كادت أن تريح الصّبا لنا و هو غاد

رقّت الشمس فى عشاياه حتى أحدثت منه رقّة فى الجماد

جدّدت بالغروب شجو غريب هاجه الشوق بعد طول البعاد

يا حيا المزن حيّها من بلاد غرس الحبّ غرسها فى فؤادى

و تعاهد معاهد الأنس منها و عهود الصبا بصوب العهاد

حيث مغنى الهوى، و ملهى الغوانى و مراد المنى، و نيل المراد

و مقرّ العلا و مرقى الأمانى و مجرّ القنا، و مجرى الجياد

كلّ حسن على تلمسان وقف و خصوصا على ربى العبّاد

ضحك النّور فى رباها و أربى كهف ضحّاكها على كلّ ناد

و سما تاجها على كلّ تاج و نما وهدها على كلّ واد

يدّعى غيرها الجمال فيقضى حسنها أنّ تلك دعوى زياد

و بشعرى فهمت معنى علاها من حلالها فهمت فى كلّ وادى

حضرة زانها الخليفة موسى زينة الحلى عاطل الأجياد

و حباها بكلّ بذل و عدل و حماها من كلّ باغ و عاد

ملك جاوز المدى فى المعالى فالنهايات عنده كالمبادى

معقل للهدى منيع النواحى مظهر للعلا رفيع العماد

قاتل المحل و الأعادى جميعا بغرار الظّبا و غرّ الأيادى

كلّما ضنّت السحائب أغنت راحتاه عن السحاب الغوادى

كم هبات له و كم صدقات عائدات على العفاة بواد

فأيادى خليفة اللّه موسى أبحر عذبة على الورّاد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٣٠٤

ركّب الجود فى بسيط يديه فتلافى به تلاف العباد

جلّ باريه ملجأ للبرايا كالحيا ضامنا حياة البلاد

جلّ من خصّه بتلك المزايا باهرات من طارف و تلاد

شيم حلوة الجنى و سجايا شهد المجد أنها كالشّهاد

يا إمام الهدى و شمس المعالى و غمام الندى و بدر النادى

لك بين الملوك سرّ خفىّ ليس معناه للعقول بباد

فكأنّ البلاد كفّك مهما كان فيها من ينتمى لعناد

قبضت كفّك البنان عليه فأتى بالإذعان حلف انقياد

بكم تصلح البلاد جميعا إنّ آراءكم صلاح البلاد

لم تزل دائما تحنّ إليكم كحنين السقيم للعوّاد

لو أعينت بمنطق شكرتكم مثل شكر العفاة للأجواد

قد أطاعتكم البلاد جميعا طاعة أرغمت أنوف الأعادى

فأريحوا الجياد أتعبتموها و أقرّوا السيوف فى الأغماد

و اهنؤوا خالدين فى عزّ ملك قائم السعد دائم الإسعاد

و إليكم من مذهبات القوافى حكما سهّلت ليان المقاد

كلّ بيت من النظام مشيد عطّر الأفق بالثناء المجاد

ذو ابتسام كزهر روض مجود و انتظام كسلك درّ مجاد

## [قصيدة أبى المكارم قنديل ابن صاحب المقدمة الآجرومية فى فاس]

و لأبى المكارم منديل ابن الإمام الشهير صاحب «المقدمة الآجرومية» قصيدة فى المنحى وافقت قصيدة الثغرى فى البحر و بعض المطلع، فلا ندرى أيهما نسج على منوال الآخر؛ إذ هما متعاصران، إلّا أنّ ذاك قالها فى تلمسان، و هذا فى مدينة فاس، و هى: [الخفيف]

أيها العارفون قدر الصّبوح جدّدوا أنسنا بباب الفتوح

يعنى بباب الفتوح أحد أبواب فاس، كما أنّ باب الجياد فى كلام الثغرى أحد أبواب تلمسان.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٣٠٥

ثم قال ابن آجروم بعد المطلع:

جدّدوا ثمّ أنسنا ثمّ جدّوا يسرح الطرف فى مجال فسيح

حيث شابت مفارق اللوز نورا و تساقطن كاللّجين الصريح

و بدا منه كلّما احمرّ يحكى شفقا مزّقته أيدى الريح

و كأنّ الذى تساقط منه نقط لحن من دم مسفوح

و إذا ما وصلتم للمصلّى فلتحلّوا بموضع التسبيح

و بطيفورها فطوفوا لكيما تبصروا من ذراه كل سطوح
و لتقيموا هناك لمحة طرف لتردّوا به ذماء الروح
ثم حطّوا رحالكم فوق نهر كلّ فى وصفه لسان المديح
فوق حافاته حدائق خضر ليس عنها لعاشق من نزوح
و كأنّ الطيور فيها قيان هتفت بين أعجم و فصيح
و هى تدعوكم إلى قبّة الجو زهلمّوا إلى مكان مليح
فيه ما تشتهون من كلّ لون مغلق فى الكمام أو مفتوح
و غصون تهيج رقصا إذا ما سمعت صوت كلّ طير صدوح
فأجيبوا دعاءها أيّها السر ب و خلّوا مقال كلّ نصيح
و اجنحوا للمجون فهو جدير و خليق من مثلكم بالجنوح
و اخلعوا ثمّ للتصابى عذارا إنّ خلع العذار غير قبيح
و إذا شئتم مكانا سواه هو أجلى من ذلكم فى الوضوح
فاجمعوا أمركم لنحو خليج جاء كالصّلّ من قفار فسيح
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٣٠٦
عطرت جانبيه كفّ الغوادى بشذا عرف زهرها الممنوح
قل لمهيار إن شممت شذاها قول مستخبر أخى تجريح
أين هذا الشّذا الذكىّ من القى صوم و الرند و الغضا و الشّيح
حبّذا ذلك المهاد مهادا بين دان من الرّبا و نزوح
ثم من ذلك المهاد أفيضوا نحو هضب من الهموم مريح
فيه للحسن دوحة و روايا و انشراح لذى فؤاد قريح
و حجار تدعى حجار طبول غير أنّ التطبيل غير صحيح
تنثر الشمس نمّ كلّ غدير زعفرانا مبلّلا بنضوح
و سوى من هناك يسبى عقولا و يجلّى لحاظ طرف طموح
و عيون بها تقرّ عيون و كلاها يأسو كلوم الجريح
فرشت فوقها طنافس زهر ليس كالعهن نسجها و المسوح
كلّما مرّ فوقهنّ طليح عاد من حسنهنّ غير طليح
فانهضوا أيها المحبّون مثلى لنرى ذات حسنها الملموح
هكذا يربح الزمان و إلّا كلّ عيش سواه غير ربيح

### [قصيدة أخرى للثغرى يمدح تلمسان و سلطانها]

و ما أحسن قول الكاتب الثغرى يمدح تلمسان و سلطانها المذكور آنفا: [الكامل]
تاهت تلمسان بحسن شبابها و بدا طراز الحسن فى جلبابها
فالبشر يبدو من حباب ثغورها متبسّما أو من ثغور حبابها

قد قابلت زهر النجوم بزهرها و بروجها ببروجها و قبابها

حسنت بحسن مليكها المولى أبى حمّو الذى يحمى حمى أربابها

ملك شمائله كزهر رياضها و نداه فاض بها كفيض عبابها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۳۰۷

أعلى الملوك الصّيد من أعلامها و أجلّها من صفوها و لبابها

غارت بغرّة وجهه شمس الضحى و تنقّبت خجلا بثوب ضبابها

و البدر حين بدت أشعّتها له حسنا تضاءل نوره و خبابها

للّه حضرته التى قد شرّفت خدّامها فسموا بخدمة بابها

فاللثم فى يمناه يبلغها المنى و المدح فى علياه من أسبابها

و للثغرى المذكور قصيدة لامية بديعة فى مدح السلطان أبى حمّو، و وصف بلاد تلمسان، و أجاد فيها إلى الغاية، و هى: [الكامل]

قم مبصرا زمن الربيع المقبل تر ما يسرّ المجتنى و المجتلى

و انشق نسيم الروض مطلولا و ما أهداك من عرف و عرف فاقبل

و انظر إلى زهر الرياض كأنه درّ على لبّات ربّات الحلى

فى دولة فاضت يداها بالندى و قضت بكلّ منى لكلّ مؤمل

بسطت بأرجاء البسيطة عدلها وسطت بكلّ معاند لم يعدل

سلطانها المولى أبو حمو الرضا ذو المنصب السامى الرفيع المعتلى

تاهت تلمسان بدولته على كلّ البلاد بحسن منظرها الجلى

راقت محاسنها و رقّ نسيمها فحلا بها شعرى و طاب تغزّلى

عرّج بمنعرجات باب جيادها و افتح بها باب الرجاء المقفل

و لتغد للعبّاد منها غدوة تصبح هموم النفس عنك بمعزل

و ضريح تاج العارفين شعيبها زره هناك فحبّذا ذاك الولى

فمزاره للدين و الدّنيا معا تمحى ذنوبك أو كروبك تنجلى

و بكهفها الضحّاك قف متنزّها تسرح نفوسك فى الجمال الأجمل

و تمشّ فى جناتها و رياضها و اجنح إلى ذاك الجناح المخضل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۳۰۸

تسليك فى دوحاتها و تلاعها نغم البلابل و اطّراد الجدول

و بربوة العشّاق سلوة عاشق فتنت و ألحاظ الغزال الأكحل

بنواسم و بواسم من زهرها تهديك أنفاسا كعرف المندل

فلو امرؤ القيس بن حجر راءها قدما تسلّى عن معاهد مأسل

لو حام حول فنائها و ظبائها ما كان محتفلا بحومة حومل

فاذكر لها كلفى بسقط لوائها فهواى عنها الدهر ليس بمنسل

كم جاد لى فيها الزمان بمطلب جادته أخلاق الغمام المسبل

و اعمد إلى الصفصيف يوما ثانيا و به تسلّ و عنه دأبا فاسأل

واد تراه من الأزاهر خاليا أحسن به عطلا و غير معطل

ينساب كالأيم انسيابا دائما أو كالحسام جلاه كفّ الصّيقل

فزلاله فى كلّ قلب قد حلا و جماله فى كلّ عين قد حلى

و اقصد بيوم ثالث فوّارة و بعذب منهلها المبارك فانهل

تجرى على درّ لجينا سائلا أحلى و أعذب من رحيق سلسل

و اشرف على الشّرف الذى بإزائها لترى تلمسان العليّة من عل

تاج عليه من المحاسن بهجة أحسن بتاج بالبهاء مكلّل

و إذا العشيّة شمسها مالت فمل نحو المصلّى ميلة المتمهّل

و بملعب الخيل الفسيح مجاله أجل النواظر فى العتاق الحفّل

فلحلبة الأشراف كلّ عشية لعب بذاك الملعب المتسهّل

فترى المجلّى و المصلّى خلفه و كلاهما فى جريه لا يألو



هذا يكرّ و ذا يفرّ فينثنى عطفا على الثانى عنان الأول

من كلّ طرف كلّ طرف يستبى قيد النواظر فتنة المتأمّل

ورد كأنّ أديمه شفق الدّجى أو أشهب كشهاب رجم مرسل

أو من كميت لا نظير لحسنه سام معمّ فى السوابق مخول

أو أحمر قانى الأديم كمسجد أو أشقر يزهو بعرف أشعل

أو أدهم كالليل إلّا غرّة كالصبح، بورك من أغرّ محجّل

جمع المحاسن فى بديع شياته مهما ترقّ العين فيه تسهل

عقبان خيل فوقها فرسانها كالأسد تنقضّ انقضاض الأجدل

فرسان عبد الواد آساد الوغى حامو الذمار أولو الفخار الأطول

فإذا دنت شمس الأصيل لغربها فإلى تلمسان الأصيلة فادخل

من باب ملعبها لباب حديدها متنزّها فى كلّ ناد أحفل

و تأنّ من بعد الدخول هنيهة و اعدل إلى قصر الإمام الأعدل

فهو المؤمّل و الديار كناية و السّرّ فى السكان لا فى المنزل

فإذا أمير المؤمنين رأيته فالثم ثرى ذاك البساط و قبّل

فالحمد لفظ فى الحقيقة مجمل و حلاه تفصيل لذاك المجمل

بشرى لعبد الواد بالملك الذى خلصوا به من كلّ خطب معضل

بأعزّهم جارا، و أمنعهم حمى و أجلّهم مولى، و أعظم موئل

بالعادل المستنصر المنصور و ال مأمون و المهدىّ و المتوكّل

و كفاهم سعدا أبو حمو الذى يحمى حماهم بالحسام الفيصل

و بحسن نيّته لهم و بجدّه و بسعده و بسعيه المتقبّل

ذو الهمّة العليا التى آثارها حلّت به فوق السّماك الأعزل

بحر الندى الأحلى و فخر المنتدى و سنا الدّجى الأجلى وزين المحفل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٣١٠

ينهلّ منه لنا الجدا و به الدّجى تجلى بمشرق وجهه المتهلّل

هنىء به زمن الربيع و قل له بشرى بأملح من حلاك و أجمل

و على علاه من صنيعة فضله ترداد نافحة السلام الأكمل

## [القاضى المزدغى يمدح فاس، و لسان الدين يمدح تلمسان]

و كأنه عارض بهذه القصيدة قطعة فى بحرها و رويّها فى مدح مدينة فاس لبعض العلماء، و أظنّه القاضى المزدغى، و هى: [الكامل]

يا فاس، حيّا اللّه أرضك من ثرى و سقاك من صوب الغمام المسبل

يا جنّة الدنيا التى أربت على حمص بمنظرها البهىّ الأجمل

غرف على غرف و يجرى تحتها ماء ألذّ من الرحيق السلسل

و بساتن من سندس قد زخرفت بجداول كالأيم أو كالفيصل

و بجامع القرويين شرّف ذكره أنس بذكراه يهيج تململى

و بصحنه زمن المصيف عجائب فمع العشىّ الغرب فيه استقبل

و اشرب بتلك البيلة الحسنا به و اكرع بها عنى فديتك و انهل

و قد تمثّل لسان الدين رحمه اللّه تعالى فى مدينة فاس بقول القائل: [الكامل]

بلد أعارته الحمامة طوقها و كساه ريش جناحه الطاووس

فكأنّما الأنهار فيه مدامة و كأنّ ساحات الديار كؤوس

و ما أحسن قوله- أعنى لسان الدين- فى مدح تلمسان: [الكامل]

حيّا تلمسان الحيا فربوعها صدف يجود بدرها المكنون

ما شئت من فضل عميم إن سقى أروى و منّ ليس بالممنون

أو شئت من دين إذا قدح الهدى أورى و دنيا لم تكن بالدون

ورد النسيم لها بنشر حديقة قد أزهرت أفنانها بفنون

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٣١١

و إذا حبيبة أمّ يحيى أنجبت فلها الشفوف على عيون العين

يعنى بحبيبة أم يحيى عين ماء بتلمسان من أعذب المياه و أخفّها، و كانت جارية بالقصور السلطانية، و لم تزل إلى الآن منها بقية آثار و رسوم، و البقاء للّه تعالى وحده.

## [لأبى عبد اللّه التلاليسى فى تلمسان]

و ممّن مدح تلمسان الحاجّ الطبيب أبو عبد اللّه محمد بن أبى جمعة الشهير بالتلاليسى رحمه اللّه تعالى، إذ قال: [الطويل]

سقى اللّه من صوب الحيا هاطلا وبلا ربوع تلمسان التى قدرها استعلى

ربوع بها كان الشباب مصاحبى جررت إلى اللّذّات فى دارها الذيلا

فكم نلت فيها من أمان قصيّة و كم منح الدهر الضنين بها النيلا

و كم غازلتنى الغيد فيها تلاعبا و كل عذول لا أطيع له قولا

و كم ليلة بتنا على رغم حاسد نذير كؤوس الوصل إذ بالصفا تملا

و كم ليلة بتنا بصفصيفها الذى تسامى على الأنهار إذ عدم المثلا

و كدية عشّاق لها الحسن ينتهى يعود المسنّ الشيخ من حسنها طفلا

نعم، و غدير الجوزة السالب الحجا نعمت بها طفلا و همت بها كهلا

و منه و من عين امّ يحيى شرابنا لأنهما فى الطيب كالنيل بل أحلى

و عبّادها ما القلب ناس ذمامه به روضة للخير قد جعلت حلّا

به شيخنا المذكور فى الأرض ذكره أبو مدين أهلا به دائما أهلا

لها بهجة تزرى على كلّ بلدة بتاج عليها كالعروس إذا تجلى

فيا جنّة الدنيا التى راق حسنها فحازت على كلّ البلاد به الفضلا

و لا عجب أن كنت فى الحسن هكذا و موسى الإمام المرتضى فيك قد حلّا

و لاحت لدينا فيك منه محاسن كأنّ سناها حاجب الشمس إذ جلّى

مطاع شجاع فى الوغى ذو مهابة حسام على الباغين فى الأرض قد سلّا

كريم حليم حاتمىّ نواله سعيد حميد يصدق القول و الفعلا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٣١٢

له راحة كالغيث ينهلّ ودقها و صارم نصر مرهف الحدّ لا فلّا

هو الملك الأرقى هو الملك الرضا هو الملك الأسنى هو الملك الأعلى

و من هذه الأوصاف فيه تجمّعت حقيقا على كلّ المعالى قد استولى

إمام حباه اللّه ملكا مؤزّرا فلا ملك إلّا لعزّته ذلّا

من الزاب وافانا عزيزا مظفّرا يجرّ من النصر المنوط به ذيلا

بدت لمليك الغرب شدّة بأسه و إنعامه للمعتفين و ما أولى

فبادره بالصلح خوف فواته و سالمه إذ كان ذاك به أولى

فكان بحمد اللّه صلحا مهنّأ به طابت الدنيا و جزنا به السّبلا

له فى المعالى رتبة لا ينالها سواه و كتب فى فضائله تتلى

لطاعته كلّ الأنام تبادرت فيا سعد من وافى و يا ويح من ولّى

أ حسّاده موتوا فإنّ قلوبكم بجمر الغضا ممّا بها أبدا تصلى

لقد جبر اللّه البلاد بملكه به ملئت أمنا، به ملئت عدلا

فلا زال هذا الملك فيه مخلّدا و صارمه الأمضى و خادمه الأعلى

### [قصيدة ابن خميس فى مدح تلمسان]

و ممّا مدحت به تلمسان قول الإمام الصوفى أبى عبد اللّه محمد بن خميس الذى قدمنا ذكره فى هذا الكتاب و بعض ما يتعلّق به، و ذكرنا أيضا فيما مرّ بعض أمداحه لها: [الطويل]

تلمسان جادتك السّحاب الروائح و أرست بواديك الرياح اللواقح

و سحّ على ساحات باب جيادها ملثّ يصافى تربها و يصافح

يطير فؤادى كلّما لاح لامع و ينهلّ دمعى كلّما ناح صادح

ففى كلّ شفر من جفونى مائح و فى كلّ شطر من فؤادى قادح

فما الماء إلّا ما تسحّ مدامعى و لا النار إلّا ما تجنّ الجوانح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۳۱۳

خليلىّ، لا طيف لعلوة طارق بليل و لا وجه لصبحى لائح

نظرت فلا ضوء من الصبح ظاهر لعينى و لا نجم إلى الغرب جانح

بحقّكما كفّا الملام و سامحا فما الخلّ كلّ الخلّ إلّا المسامح

و لا تعذلانى و اعذرانى فقلّما يردّ عنانى عن عليّة ناصح

كتمت هواها ثم برّح بى الأسى و كيف أطيق الكتم و الدمع فاضح

لساقية الرومىّ عندى مزيّة و إن رغمت تلك الرواسى الرواشح

فكم لى عليها من غدوّ و روحة تساعدنى فيها المنى و المنائح

فطرف على تلك البساتين سارح و طرف إلى تلك الميادين جامح

تحار بها الأذهان و هى ثواقب و تهفو بها الأحلام و هى بوارح

ظباء مغانيها عواط عواطف و طير مجانيها شواد صوادح

تقتّلهم فيها عيون نواظر و تبكيهم منهم عيون نواضح

على قرية العبّاد منّى تحيّة كما فاح من مسك اللطيمة فائح

و جاد ثرى تاج المعارف ديمة تغصّ بها تلك الرّبا و الأباطح

إليك شعيب بن الحسين قلوبنا نوازع لكنّ الجسوم نوازح

سعيت فما قصّرت عن نيل غاية فسعيك مشكور و تجرك رابح

نسيت و ما أنسى الوريط و وقفة أنافح فيها روضه و أفاوح

مطلّا على ذاك الغدير و قد بدت لإنسان عينى من صفاه صفائح

أماؤك أم دمعى عشية صدّقت عليّة فينا ما يقول المكاشح

لئن كنت ملآنا بدمعى طافحا فإنى سكران بحبّك طافح

و إن كان مهرى فى تلاعك سائحا فذاك غزالى فى عبابك سابح

قراح أتى ينصبّ من رأس شاهق بمثل حلاه تستحثّ القرائح

أرقّ من الشوق الذى أنا كاتم و أصفى من الدمع الذى أنا سافح

أما و هوى من لا أسمّيه إننى لعرضى كما قال النصيح لناصح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۳۱۴

أبعد صيامى و اعتكافى و خلوتى يقال فلان ضيّق الصدر بائح

لبعت رشادى فيه بالغىّ ضلّة و كم صالح مثلى غدا و هو طالح

و أىّ مقام ليس لى فيه حاسد و أىّ مقال ليس فيه مادح

ألا قل لفرسان البلاغة أسرجوا فقد جاءكم منّى المكافى المكافح

أ يخمل ذكرى عندهم و هو نابه و يغمط شجوى عندهم و هو شائح
بدور إذا جنّ الظلام كوامل و أشد إذا لاح الصباح كوالح
تركتك سوق البزّ لا عن تهاون و كيف و ظبى سانح فيك بارح
و إنى و قلبى فى ولائك طامع و ناظر و همى فى سماطك طامح
أيا أهل ودّى و العشير مؤمّن أ تقضى ديونى أم غريمى فالح
و هل ذلك الظبى النصاحىّ للذى يقطّع من قلبى بعينيه ناصح
كنيت بها عنه حياء و حشمة و وجه اعتذارى فى القضيّة واضح

و تلمسان هذه هى مدينتنا التى علّقت بها التمائم، و قد نزلها من سلفنا عبد الرحمن بن أبى بكر المقرى بن على صاحب الشيخ أبى مدين، الذى دعا له و لذرّيته بما ظهر فيهم قبوله و تبين، و هو الأب الخامس كما سبق فى ترجمة أخبارهم، و هى من أحسن مدائن المغرب ماء و هواء حسبما قال ابن مرزوق: [الكامل]

يكفيك منها ماؤها و هواؤها

## [حديث عن تلمسان لأبى زكريا يحيى بن خلدون فى كتابه: بغية الرواد فى أخبار بنى عبد الواد، و أيام أبى حمو الشامخة الأطواد]

و قال الكاتب أبو زكريا يحيى بن خلدون فى كتابه «بغية الرواد، فى أخبار بنى عبد الواد، و أيام أبى حمّو الشامخة الأطواد» بعد كلام فى شأن البربر، ما صورته: و دار ملكهم وسط بين الصحراء و التلّ تسمى بلغة البربر تلمسن، كلمة مركبة من «تلم» و معناه تجمع، و «سن» و معناه اثنان: أى الصحراء و التلّ فيما ذكره شيخنا العلّامة أبو عبد اللّه الأبلى، رحمه اللّه تعالى! و كان حافظا بلسان القوم، و يقال «تلمشان» و هو أيضا مركب من «تلم» و معناه لها، و «شان» أى لها شأن، و هى مدينة عريقة فى التمدّن، لدنة الهواء، عذبة الماء، كريمة المنبت، اقتعدت بسفح جبل، و دوين رأسه بسيط أطول من شرق إلى غرب، عروسا فوق منصّة، و الشماريخ مشرفة عليها إشراف التاج على الجبين، و يطلّ منها على فحص أفيح معدّ للفلاحة تشقّ ظهوره

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٣١٥

الأسلحة عن مثل أسنمة المهارى، و تبقر فى بطونه عند تدميث الغمائم عن مثل بطون العذارى، و بها للملك قصور زاهرات اشتملت على المصانع الفائقة، و الصروح الشاهقة، و البساتين الرائقة، ممّا زخرفت عروشه، و نمقت غروسه، و نوسبت أطواله و عروضه، فأزرى بالخورنق، و أخجل الرصافة، و عبث بالسّدير. و تنصبّ إليها من عل أنهار من ماء غير آسن، تتجاذبه أيدى المذانب و الأسراب المكفورة خلالها، ثم ترسله بالمساجد و المدارس و السقايات بالقصور و علية الدور و الحمامات، فيفعم الصهاريج، و يفهق الحياض، و يسقى ريعه خارجها مغارس الشجر و منابت الحبّ، فهى التى سحرت الألباب رواء، و أصبت النّهى جمالا، و وجد المادحون فيها المقال فأطالوا و أطابوا، إلى أن قال: فأنا أنشد ساكنها قول ابن خفاجة لاستحقاقها إياها عندى: [البسيط]

ما جنّة الخلد إلّا فى منازلكم و هذه كنت لو خيّرت أختار
لا تتّقوا بعدها أن تدخلوا سقرا فليس تدخل بعد الجنّة النار

و توسّطت قطرا ذاكور عديدة تعمرها أمشاج البربر و العرب مريعة الجنبات، منجبة للحيوان و النبات، كريمة الفلاحة، زاكية الإصابة، فربما انتهت فى الروح الواحد منها إلى أربعمائة مدّ كبير، ثم أطال فى ذلك ابن خلدون المذكور بما يوقف عليه فى الكتاب المذكور.

## [وصف لسان الدين لمدينة تلمسان]

و ممّا ينسب للسان الدين بن الخطيب رحمه اللّه تعالى فى وصفها ما صورته: تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء و الريف، و وضعت فى موضع شريف، كأنها ملك على رأسه تاجه، و حواليه من الدوحات حشمه و أعلاجه، عبّادها يدها و كهفها كفّها، و زينتها زيانها، و عينها أعيانها، هواها المقصور بها فريد، و هواؤها الممدود صحيح عتيد، و ماؤها برود صريد، حجبتها أيدى القدرة عن الجنوب، فلا نحول فيها و لا شحوب، خزانة زرع، و مسرح ضرع، فواكهها عديدة الأنواع، و متاجرها فريدة الانتفاع، و برانسها رقاق رفاع، إلّا أنها بسبب حبّ الملوك، مطمعة للملوك، و من أجل جمعها الصّيد فى جوف الفرا، مغلوبة للأمرا، أهلها ليست عندهم الراحة، إلّا فيما قبضت عليه الراحة، و لا فلاحة، إلّا لمن أقام رسم الفلاحة، ليس بها لسع العقارب، إلّا فيما بين الأقارب، و لا شطارة، إلّا فيمن ارتكب الخطارة؛ انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۳۱۶

و قد كنت بالمغرب نويت أن أجمع فى شأنها كتابا ممتعا أسمّيه ب «أنواء نيسان، فى أنباء تلمسان» و كتبت بعضه، ثم حالت بينى و بين ذلك العزم الأقدار، و ارتحلت منها إلى حضرة فاس حيث ملك الأشراف ممتدّ الرّواق، فشغلت بأمور الإمامة و الفتوى و الخطابة و غيرها، ثم ارتحلت بنيّة الحجاز، و جعلت إلى الحقيقة المجاز، وها أنا ذا إلى الآن فى البلاد المصرية، و فى علم اللّه تعالى ما لا نعلم، و التسليم لأحكام الأقدار أسلم، و اللّه تعالى يختم لنا بالحسنى بجاه نبيّه و مصطفاه صلّى اللّه عليه و سلم.

و بها ولدت أنا و أبى وجدّى و جدّ جدّى، و قرأت بها و نشأت إلى أن ارتحلت عنها فى زمن الشبيبة إلى مدينة فاس سنة تسع و ألف، ثم رجعت إليها آخر عام عشرة و ألف، ثم عاودت الرجوع إلى فاس سنة ثلاث عشرة و ألف، إلى أن ارتحلت عنها للمشرق أواخر رمضان سنة سبع و عشرين و ألف، و دخلت مصر برجب من عام ثمانية و عشرين و ألف، و الشام بشعبان عام سبعة و ثلاثين و ألف، و أبت منها إلى مصر أواخر شوّال من العام، و شرعت فى هذا المؤلّف بالقعدة من العام.

### [المقرى مؤلف الكتاب يتحدث عن تقلباته فى البلاد و تواريخها و ترجمة أبى مدين]

و قد تخرّج بتلمسان من العلماء و الصلحاء ما لا ينضبط، و يكفيها افتخارا دفن وليّ اللّه سيدى أبى مدين بها، و هو شعيب بن الحسين الأندلسى، شيخ المشايخ، و سيّد العارفين، و قدوة السالكين؛ قال الشيخ أبو عبد اللّه محمد بن التلمسانى فى كتابه «النجم الثاقب، فيما لأولياء اللّه تعالى من المناقب»: كان الشيخ سيدى أبو مدين فردا من أفراد الرجال، و صدرا من صدور الأولياء الأبدال، جمع اللّه له علم الشريعة و الحقيقة، و أقامه ركن الوجود هاديا و داعيا للحقّ، فقصد بالزيارة من جميع الأقطار، و اشتهر بشيخ المشايخ، و ذكر التادلى و غيره أنه خرج على يده ألف شيخ من الأولياء أولى الكرامات، و قال أبو الصبر كبير مشايخ وقته: كان أبو مدين زاهدا فاضلا عارفا باللّه تعالى، خاض بحار الأحوال، و نال أسرار المعارف، خصوصا مقام التوكّل، لا يشق غباره، و لا تجهل آثاره، قال التادلى: كان مبسوطا بالعلم، مقبوضا بالمراقبة، كثير الالتفات بقلبه إلى اللّه تعالى حتى ختم له بذلك، أخبرنى من شهد وفاته أنه رآه فى آخر الرمق يقول: اللّه الحق. و كان من أعلام العلماء، و حفّاظ الحديث، خصوصا جامع الترمذى، و كان يقوم عليه، و رواه عن شيوخه عن أبى ذرّ، و كان يلازم كتاب «الإحياء» و يعكف عليه، و ترد عليه الفتاوى فى مذهب مالك فيجيب عنها فى الوقت، و له مجلس وعظ يتكلّم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۳۱۷

فيه، فتجتمع عليه الناس من كل جهة، و تمرّ به الطيور و هو يتكلّم فتقف تسمع، و ربما مات بعضها، و كثيرا ما يموت بمجلسه أصحاب الحب، تخرّج عليه جماعة كثيرة من العلماء و المحدثين و أرباب الأحوال، و كان شيخه أبو يعزى يثنى عليه جميلا و يخصّه بين أصحابه بالتعظيم و التبجيل، قرأ بفاس بعد قدومه من الأندلس على الشيخ الحافظ أبى الحسن بن حرزهم، و على الفقيه الحافظ العلامة أبى الحسن بن غالب. و ذكر عنه أنه قال: كنت فى أوّل أمرى و قراءتى على الشيوخ إذا سمعت تفسير آية أو معنى حديث قنعت به و

انصرفت لموضع خال خارج فاس أتّخذه مأوى للعمل بما فتح به علىّ، فإذا خلوت به تأتينى غزالة تأوى إلىّ و تؤنسنى، و كنت أمرّ فى طريقى بكلاب القرى المتّصلة بفاس، فيدورون حولى، و يبصبصون لى، فبينا أنا يوما بفاس إذا برجل من معارفى بالأندلس سلّم علىّ، فقلت: وجبت ضيافته، فبعت ثوبا بعشرة دراهم، فطلبت الرجل لأدفعها له، فلم أجده هنالك، فخلّيتها معى، و خرجت لخلوتى على عادتى، فمررت بقريتى، فتعرّض لى الكلاب، و منعونى الجواز، حتى خرج من القرية من حال بينى و بينهم، و لمّا وصلت لخلوتى جاءتنى الغزالة على عادتها، فلمّا شمّتنى نفرت عنى، و أنكرت علىّ، فقلت: ما أتى علىّ إلّا من أجل هذه الدراهم التى معى، فرميتها، فسكنت الغزال، و عادت لحالها معى، و لمّا رجعت لفاس جعلت الدراهم معى، و لقيت الأندلسى، فدفعتها إليه، ثم مررت بالقرية فى خروجى للخلوة، فدار بى كلابها و بصبصوا على عادتهم، و جاءتنى الغزالة فشمّتنى من مفرقى لقدمى، و أنست بى كعادتها، و بقيت كذلك مدّة، و أخبار سيدى أبى يعزى ترد علىّ، و كراماته يتداولها الناس و تنقل إلىّ، فملأ قلبى حبّه؛ فقصدته مع جماعة الفقراء، فلمّا وصلنا إليه أقبل على الجماعة دونى، و إذا حضر الطعام منعنى من الأكل معهم، و بقيت كذلك ثلاثة أيام، فأجهدنى الجوع، و تحيّرت من خواطر ترد علىّ، ثم قلت فى نفسى: إذا قام الشيخ من مكانه أمرغ وجهى فى المكان، فقام، و مرغت وجهى فقمت و أنا لا أبصر شيئا، و بقيت طول ليلتى باكيا، فلمّا أصبح دعانى و قرّبنى، فقلت له: يا سيدى، قد عميت و لا أبصر شيئا، فمسح بيده على عينى، فعاد بصرى، ثم مسح على صدرى، فزالت عنى تلك الخواطر، و فقدت ألم الجوع، و شاهدت فى الوقت عجائب من بركاته، ثم استأذنته فى الانصراف بنيّة أداء الفريضة، فأذن لى، و قال: ستلقى فى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٣١٨

طريقك الأسد فلا يرعك فإن غلب خوفه عليك فقل له: بحرمة يد نور إلّا انصرفت عنى، فكان الأمر كما قال، فتوجّه الشيخ أبو مدين للشرق و أنوار الولاية عليه ظاهرة، فأخذ عن العلماء، و استفاد من الزهاد و الأولياء، و تعرّف فى عرفة بالشيخ سيدى عبد القادر الكيلانى، فقرأ عليه فى الحرم الشريف كثيرا من الحديث، و ألبسه خرقة الصوفية، و أودعه كثيرا من أسراره، و حلاه بملابس أنواره، فكان أبو مدين يفتخر بصحبته، و يعدّه أفضل مشايخه الأكابر.

و عن بعض الأولياء قال: رأيت فى النوم قائلا يقول: قل لأبى مدين: بثّ العلم و لا تبال، ترتع غدا مع العوالى، فإنك فى مقام آدم أبى الذرارى، فقصصتها عليه فقال لى: عزمت على الخروج للجبال و الفيافى حتى أبعد عن العمران، و رؤياك هذه تعدل بى عن هذا العزم، و تأمرنى بالجلوس، فقولك «ترتع غدا مع العوالى» إشارة لحديث «حلق الذكر مراتع أهل الجنّة»، و العوالى: أصحاب عليين، و معنى قوله «أبى الذرارى» أنّ آدم أعطى قوّة على النكاح و أمر به، و لم يجعل له قوّة على كون ذرّيّته مطيعين مؤمنين، و كذا نحن أعطانا اللّه العلم و أمرنا ببثّه و تعليمه، و لا قدرة لنا على كون أتباعنا موفّقين.

و كان يقول: كرامات الأولياء نتائج معجزات نبيّنا صلّى اللّه عليه و سلم، و طريقتنا هذه أخذناها عن أبى يعزى بسنده عن الجنيد عن سرى السقطى عن حبيب العجمى بالسند إلى ربّ العزّة جلّ جلاله.

و عن العارف عبد الرحيم المغربى قال: سمعت سيدى أبا مدين يقول: أوقفنى ربى عزّ و جلّ بين يديه و قال لى: يا شعيب، ما ذا عن يمينك؟ قلت: يا ربّ عطاؤك، قال: و عن شمالك؟ قلت: يا ربّ قضاؤك، فقال: يا شعيب، قد ضاعفت لك هذا، و غفرت لك هذا، فطوبى لمن رآك أو رأى من رآك.

و عن سيدى أبى العباس المرسى: جلت فى ملكوت اللّه تعالى، فرأيت سيدى أبا مدين متعلّقا بساق العرش و هو يومئذ أشقر أزرق، فقلت له: و ما علومك؟ و ما مقامك؟ فقال:

علومى أحد و سبعون علما، و أما مقامى فرابع الخلفاء، و رأس السبعة الأبدال.

و سئل، رضى اللّه عنه، عمّا خصّه اللّه تعالى به، فقال: مقامى العبودية، و علومى الألوهية، و صفاتى مستمدّة من الصفات الربّانيّة، ملأت علومه سرّى و جهرى، و أضاء بنوره

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۳۱۹

برّى و بحرى، فالمقرب من كان به عليما، و لا يسمو إلّا من أوتى قلبا سليما، الذى يسلم ممّا سواه، و لا يكون فى الوعاء إلّا ما جعل فيه مولاه، فقلب العارف يسرح فى الملكوت بلا شك وَ تَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ [سورة النمل، الآية: ۸۸].

و سئل عن الحياء، فقال: أوّله دوام الذكر، و أوسطه الأنس بالمذكور، و أعلاه أن لا ترى شيئا سواه.

و اختلف أهل مجلسه: هل الخضر وليّ أم نبيّ؟ فرأى رجل صالح منهم معروف بالولاية النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم تلك الليلة فقال صلّى اللّه عليه و سلم: الخضر نبى، و أبو مدين ولى.

و ذكر التادلى و غيره أنّ رجلا جاءه ليعترض عليه، فجلس فى الحلقة، فأخذ صاحب الدولة فى القراءة، فقال له أبو مدين: أمهل قليلا، ثم التفت للرجل، و قال له: لم جئت؟

فقال: لأقتبس من نورك، فقال له: ما الذى فى كمك؟ قال له: مصحف، فقال له: افتحه و اقرأ فى أوّل سطر يخرج لك، ففتحه و قرأ أوّل سطر فإذا فيه الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ [سورة الأعراف، الآية: ۹۲] فقال له أبو مدين: أما يكفيك هذا؟ فاعترف الرجل، و تاب، و صلح حاله.

و ذكر صاحب «الروض» عن الشيخ الزاهد أبى محمد عبد الرزاق أحد خواصّ أصحابه قال: مرّ شيخنا أبو مدين فى بعض بلاد المغرب، فرأى أسدا افترس حمارا و هو يأكله، و صاحبه جالس بالبعد على غاية الحاجة و الفاقة، فجاء أبو مدين و أخذ بناصيه الأسد، و قال لصاحب الحمار: أمسك الأسد [و اذهب به] و استعمله فى الخدمة موضع حمارك، فقال له: يا سيدى أخاف منه، فقال: لا تخف، لا يستطيع أن يؤذيك، فمرّ الرجل يقوده و الناس ينظرون إليه، فلمّا كان آخر النهار جاء الرجل و معه الأسد للشيخ و قال له: يا سيدى، هذا الأسد يتبعنى حيث ذهبت، و أنا شديد الخوف منه، لا طاقة لى بعشرته، فقال الشيخ للأسد: اذهب و لا تعد، و متى آذيتم بنى آدم سلطتهم عليكم.

و من مشهور كراماته أنه كان ماشيا يوما على ساحل، فأسره العدوّ، و جعلوه فى سفينة فيها جماع من أسرى المسلمين، فلمّا استقرّ فى السفينة توقّفت عن السير، و لم تتحرّك من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۳۲۰

مكانها، مع قوّة الريح و مساعدتها، و أيقن الروم أنهم لا يقدرون على السير، فقال بعضهم:

أنزلوا هذا المسلم فإنه قسيس، و لعلّه من أصحاب السرائر عند اللّه تعالى، و أشاروا له بالنزول، فقال: لا أفعل إلّا إن أطلقتم جميع من فى السفينة من الأسارى، فعلموا أن لا بدّ لهم من ذلك، فأنزلوهم كلّهم، و سارت السفينة فى الحال.

و من كراماته أنه لمّا اختلف طلبة بجاية فى حديث «إذا مات المؤمن أعطى نصف الجنّة» و أشكل عليهم ظاهره: أ بموت مؤمنين يستحقّان كلّ الجنّة، فجاؤوا إليه و هو يتكلّم على رسالة القشيرى، فكاشفهم فى الحال بلا سؤال، و قال لهم: المراد أنه يعطى نصف جنّته هو، فيكشف له عن مقعده ليتنعّم به، و تقرّ عينه، ثم النصف الآخر يوم القيامة.

و كان أولياء وقته يأتونه من البلدان للاستفتاء فيما يعرض لهم من المسائل.

و ذكر تلميذه الصالح سيدى عبد الخالق التونسى عنه أنه قال: سمعت برجل يسمّى موسى الطيار يطير فى الهواء و يمشى على الماء، و كان رجل يأتينى عند صدع الفجر فيسألنى عن مسائل لا يفهمها الناس، فوقع ليلة فى نفسى أنه موسى الطيار الذى سمعت به، و طال علىّ الليل فى انتظاره، فلمّا طلع الفجر نقر الباب رجل، فإذا هو الذى يسألنى، فقلت له: أنت موسى الطيار؟ فقال: نعم، ثم سألنى و انصرف، ثم جاءنى مع رجل آخر فقال لى: صلّينا الصبح ببغداد، و قدمنا مكة فوجدناهم فى صلاة الصبح، فأعدنا معهم، و جلسنا حتى صلينا الظهر، و أتينا القدس فوجدناهم فى الظهر، فقال لى صاحبى هذا: نعيد معهم، فقلت: لا، فقال لى: و لم أعدنا الصبح بمكة؟ فقلت له: كذلك كان شيخى يفعل، و به أمرنا، فاختلفنا و أتيناك للجواب، فقال أبو مدين: فقلت لهم: أمّا إعادة الصبح بمكة فلأنها بها عين

اليقين، و ببغداد علم اليقين، و عين اليقين أولى من علم اليقين، و صلاتكم الظهر بمكة- و هى أم القرى- فلذلك لا تعاد فى غيرها، قال: فقنعا به و انصرفا.

و كان استوطن بجاية و يقول: إنها معينة على طلب الحلال، و لم يزل بها يزداد حاله على مرّ الليالى رفعة، ترد عليه الوفود و ذوو الحاجات من الآفاق، و يخبر بالوقائع و الغيوب، إلى أن وشى به بعض علماء الظاهر عند يعقوب المنصور، و قال له: إنّا نخاف منه على دولتكم، فإن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۳۲۱

له شبها بالإمام المهدى، و أتباعه كثيرون بكلّ بلد، فوقع فى قلبه، و أهمّه شأنه، فبعث إليه فى القدوم عليه ليختبره، و كتب لصاحب بجاية بالوصيّة به و الاعتناء، و أن يحمل خير محمل، فلمّا أخذ فى السفر شقّ على أصحابه، و تغيّروا، و تكلّموا، فسكتهم و قال لهم: إن متيّتى قربت، و لغير هذا المكان قدرت، و لا بدّ لى منه، و أنا شيخ كبير ضعيف، لا قدرة لى على الحركة، فبعث اللّه تعالى من يحملنى إليه برفق، و يسوقنى إليه أحسن سوق، و أنا لا أرى السلطان و لا يرانى، فطابت نفوسهم، و ذهب بؤسهم، و علموا أنه من كراماته، فارتحلوا به على أحسن حال، حتى وطئوا به حوز تلمسان، فبدت له رابطة العباد، فقال لأصحابه: ما أصلحه للرقاد، فمرض مرض موته، فلمّا وصل وادى يسر اشتدّ به المرض، و نزلوا به هناك، فكان آخر كلامه: اللّه الحقّ.

و توفى رحمه اللّه تعالى سنة أربع و تسعين و خمسمائة، فحمل إلى العباد، مدفن الأولياء الأوتاد، و سمع أهل تلمسان بجنازته، فكانت من المشاهد العظيمة، و المحافل الكريمة، و فى ذلك اليوم تاب الشيخ أبو على عمر الحباك، و عاقب اللّه تعالى السلطان، فمات بعده بسنة أو أقل.

و نقل المعتنون بأخباره أنّ الدعاء عند قبره مستجاب، و جرّ به جماعة، و قد زرته مئين من المرّات، و دعوت اللّه تعالى عنده بما أرجو قبوله.

و قد أطال فى ترجمته التادلى فى كتابه «التشوّف، لرجال التصوّف» و قد أفردها ابن الخطيب القسمطينى بتأليف سمّاه «أنس الفقير».

و من كلامه: من رزق حلاوة المناجاة زال عنه النوم، و من اشتغل بطلب الدنيا ابتلى فيها بالذلّ، و من لم يجد من قلبه زاجرا فهو خراب.

و قوله: بفساد العامّة تظهر ولاة الجور، و بفساد الخاصّة تظهر دجاجلة الدين المفتاتون.

و قوله: من عرف نفسه لم يغترّ بثناء الناس عليه، و من خدم الصالحين ارتفع، و من حرمه اللّه تعالى احترامهم ابتلاه اللّه بالمقت من خلقه، و انكسار العاصى خير من صولة المطيع.

و قوله: من علامة الإخلاص أن يغيب عنك الخلق فى مشاهدة الحقّ.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۳۲۲

و سئل عن المحو و الشيخ، فقال: المحو من شهدت له ذاتك بالتقديم، و سرك بالاحترام و التعظيم، و الشيخ من هداك بأخلاقه، و أيّدك بإطراقه، و أنار باطنك بإشراقه، إلى غير ذلك من كلامه النّيّر، و هو بحر لا ساحل له.

و له نظم كثير مشهور بأيدى الناس، و ممّا ينسب له قوله: [الكامل]

بكت السحاب فأضحكت لبكائها زهر الرياض و فاضت الأنهار

و قد أقبلت شمس النهار بحلّة خضرا، و فى أسرارها أسرار

و أتى الربيع بخيله و جنوده فتمتّعت فى حسنه الأبصار

و الورد نادى بالورود إلى الجنى فتسابق الأطيار و الأشجار

و الكأس ترقص و العقار تشعشعت و الجوّ يضحك و الحبيب يزار

و العود للغيد الحسان مجاوب و الطار أخفى صوته المزمار

لا تحسبوا الزمر الحرام مرادنا مزمارنا التسبيح و الأذكار

و شرابنا من لطفه، و غناؤنا نعم الحبيب الواحد القهّار

و العود عادات الجميل، و كأسنا كأس الكياسة، و العقار وقار

فتألّفوا و تطيّبوا و استغنموا قبل الممات فدهركم غدّار

و اللّه أرحم بالفقير إذا أتى من والديه فإنه غفّار

ثم الصلاة على الشفيع المصطفى ما رنّمت بلغاتها الأطيار

و إنما ذكرت ترجمة سيدى الشيخ أبى مدين للتبرّك به، و لكونه شيخ جدّى، فأنا فى بركته لقول جدّى: إنه دعا له و لذرّيّته بما ظهر قبوله، و لأنّا ذكرنا فى هذا التأليف كثيرا من أنباء أبناء الدنيا، فأردنا كفّارة ذلك بذكر الصالحين، و اللّه الموفّق بمنّه و كرمه، آمين.

انتهى الجزء الثامن من كتاب نفح الطيب و يليه الجزء التاسع مبتدئا بالباب السابع من القسم الثانى من الكتاب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۸، ص: ۳۲۳

## فهرس الرسائل و الخطب و الظهائر للجزء الثامن من كتاب نفح الطيب

* ابن عقال: وصف إجازة إبراهيم اللمتونى البحر ۲۴۱

* الفتح بن خاقان: ظهير من إنشائه ۲۲۶

قطعة من رسالة له ۲۲۷

رسالته إلى أبى بكر بن على بن يوسف ۲۳۲

من رسالة أخرى له ۲۳۲

* لسان الدين بن الخطيب رسال على لسان السلطان إلى ابن تفراجين ۴۹

رسالة على لسان الغنى بالله ۵۴

رسالة على لسان الغنى بالله إلى سلطان فاس ۵۴

رسالة على لسان الأمير سعد بن الغنى بالله ۵۷

رسالة على لسان ولد السلطان من مالقة ۵۸

ظهير بتولية يوسف مشيخة الغزاة ۵۹

ظهير بتقليد الأمير سعد مشيخة الغزاة ۶۲

رسالة إلى الغنى بالله من سلا ۶۴

رسالة إلى أبى عبد اللّه بن عمر التونسى ۶۵

رسالة على لسان أبى عبد اللّه بن عمر التونسى ۶۶

رسالة على لسان أبى الحجاج إلى الرسول صلّى اللّه عليه و سلم ۶۶

رسالة على لسان الغنى بالله إلى الرسول صلّى اللّه عليه و سلم ۷۲

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۸؛ ص۳۲۳

عة من رسالة فى العزاء ۸۷

رسالة إلى أبى زيان سلطان المغرب ۸۹

رسالة أخرى إلى أبى زيان ٩٢

رسالة إلى يحيى بن رحو ٩٣

رسالة إلى ابن مرزوق الخطيب فى شفاعة ٩٤

رسالة أخرى إليه فى الشفاعة أيضا ٩٥

رسالة إلى أبى زيد بن خلدون ٩٥

رسالة إلى أبى زكريا بن خلدون ١٠٠

رسالة إلى أبى القاسم بن رضوان ١٠٣

* لسان الدين بن الخطيب رسالة إلى شيخ العرب مبارك بن إبراهيم ١٠٤

رسالة إلى ابن مرزوق الخطيب ١٠٦

ظهير سلطانى ١٠٩

رسالة للوزير عمر وزير بلاد المغرب ١١٢

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٣٢٤

رسالة أخرى للوزير عمر على أثر فتح ١١٣

رسالة ثالثة للوزير عمر من سلا ١١٤

رسالة إلى عامر الهنتاتى ١١٦

رسالة أخرى إلى عامر الهنتاتى ١١٨

رسالة إلى شيخ الدولة ١١٩

رسالة إلى ابن مرزوق الخطيب ١٢٠

رسالة إلى ابن مرزوق الخطيب أيضا ١٢٤

جواب عن كتاب وصل من سلطان تلمسان ١٢٧

حديث له فى السياسة ١٣١

رسالة إلى السلطان على لسان جدته ١٤٤

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٣٢٥

## فهرس موضوعات الجزء الثامن من كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى

### صلة الباب الخامس من القسم الثانى

فى إيراد جملة من نثر لسان الدين ٣

خطبة كتاب فى المحبة للسان الدين ٣

خاتمة خطبة كتاب المحبة ٢٠

من كلام لسان الدين فى عدد فرق الاعتزال ٢٧

موعظة من إنشاء لسان الدين ٣٤

من إنشاء لسان الدين يخاطب طالب موعظة ٤١

رسالة منه إلى شيخ الموحدين بتونس ۴۹

خطبة له يبشر فيها بالفتح ۵۳

خطابه إلى سلطان فاس ۵۴

من إنشائه على لسان ابن سلطانه ۵۷

ظهير من إنشائه بتولية ابن سلطانه مشيخة الغزاة ۵۹

ظهير من إنشائه فى تقليد الأمير سعد ۶۲

من إنشائه إلى سلطانه و قد عاد لملكه ۶۴

و من إنشائه ما خاطب به عبد اللّه التونسى ۶۵

من إنشائه على لسان سلطانه إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ۶۶

خطبة للمقرى على منوال لسان الدين ۸۸

من كلام لسان الدين يخاطب السلطان أبا زيان ۸۹

من كلامه يخاطب شيخ الدولة يحيى بن رحو ۹۳

من كلامه يخاطب شيخه ابن مرزوق فى شفاعة ۹۳

من كلامه يخاطب أبا زيد بن خلدون الرئيس ۹۵

من رسالة له كتب بها إلى الفقيه أبى زكريا بن خلدون لما ولى الكتابة عند أبى حمو سلطان تلمسان ۱۰۰

من مخاطباته ما كتب به إلى صاحبه العلامة أبى القاسم بن رضوان ۱۰۳

من كلامه يخاطب شيخ العرب المبارك بن إبراهيم ۱۰۴

من كلامه يخاطب شيخه أبا عبد اللّه بن مرزوق ۱۰۶

من إنشائه ظهير كتابه على لسان سلطانه لأحد الفقهاء و قد ولاه استكشاف أحوال الرعية ۱۰۹

من إنشائه عند قبر السلطان أبى الحسن المدينى و قد لجأ إلى ولده ۱۱۰

من إنشائه يخاطب الوزير المتغلب على بلاد المغرب ۱۱۲

من إنشائه أيضا إلى وزير المغرب على أثر الفتح الذى تكيف له ۱۱۳

من إنشائه إلى وزير المغرب بسلا ۱۱۴

من إنشائه معزيا الرئيس عامر بن محمد الهنتانى ۱۱۶

من إنشائه يخاطب الرئيس عامر بن محمد الهنتانى ۱۱۸

من إنشائه يخاطب شيخ الدولة و قد أبل من مرضه ۱۱۹

من إنشائه يخاطب شيخه ابن مرزوق جوابا عن كتاب منه ۱۲۰

من إنشائه جواب عن كتاب ورد إليه من الفقيه الكاتب ابن الثغرى على لسان سلطان تلمسان ۱۲۷

من إنشائه فى السياسة، قصة عن الرشيد ۱۳۱

نماذج قصار من نثر لسان الدين فى علية أهل زمانه و فى وصف بعض البلدان ۱۴۳

وصف بسطة للقلصادى و لابن مرزوق ۱۴۳

من إنشاء لسان الدين ما خاطب به السلطان على لسان جدته ۱۴۴

من شعر لسان الدين فى مدح الرسول صلّى اللّه عليه و سلم ۱۴۵

قصيدة له فى يوم ميلاد الرسول صلّى اللّه عليه و سلم عام ٧٦٢ ١۴٨

من نظم لسان الدين يخاطب السلطان أبا عنان على أثر انصرافه من بابه ١٥٢

قصيدة له يهنئ بها السلطان و قد أعذر أولاده ١٥٧

من نظمه عن كتاب أبيات الأبيات و الكتاب المسمى: الصيب و الجهام ١۶٠

من شعره يتشوق إلى قصر باديس ١٧١

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٣٢۶

من لاميته المسماة، المنح الغريب فى الفتح القريب، التى خاطب بها سلطانه حين عاد لملكه من المغرب ١٧٣

من نظمه يخاطب عبد الواحد بن زكريا ابن سلطان إفريقية ١٧٥

من نظمه ما كتب على مدرسة بناها السلطان أبو الحجاج و إجازة بينه و بين ابن الحجاج و قد مرا ببعض مسالك غرناطة ١٧۶

من نظمه فى تورية طبية، و يخاطب ابن مرزوق، و يخاطب أحد الشرفاء ١٧٧

من نظمه: و قد مر بدار أحد الأغنياء، و فى الشيخ ابن بطان ١٧٨

و من نظمه عند ما انتابه برغوث و يخاطب ابن حسون فى صدر رسالة ١٧٩

من نظمه فى عثمان بن يحيى و من نظمه و قد وقف على مراكش من نظمه يخاطب أحمد بن يوسف ١٨٠

و من نظمه نماذج صغار شتى ١٨١

ترجمة العارف باللّه أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر، الأندلسى، نزيل سلا ١٨٥

رجع إلى نظم لسان الدين: مداعباته و من شعره عند ما وقف على قبر المعتمد باللّه فى مدينة أغمات ١٨٧

من نظمه: يخاطب ضريح السلطان أبا الحسن بشالة لاستنهاض عزيمته فى قضاء غرضه ١٨٩

من نظمه: يخاطب السلطان أبى الحجاج و فى التورية ١٩٠

من نظمه فى التورية و التجنيس ١٩٠

من نظمه: يهنئ سلطان تلمسان أبا حم ١٩٢

بين أبى عبد اللّه بن جزى و بعض أهل فاس ١٩٣

قصيدة لأبى زكريا يحيى بن خلدون يحذو فيها حذو لسان الدين ٢٠٠

حديث عن احتفال السلطان أبى حمو بالمولد النبوى الشريف ٢٠٣

مقطوعات لأبى زكريا يحيى بن خلدون ٢٠۵

حديث عن الموشحات و الأزجال: نشأتها، تدرجها، أنواعها ٢٠۶

مقدم بن معافى القبرى، مبدع الموشح ٢٠٧

من اشتهر من الوشاحين ٢٠٨

موشحة ابن سهل التى عارضها لسان الدين ٢١١

موشحة لسان الدين التى يعارض بها ابن سهل ٢١٢

استحداث العامة فن الزجل ٢١۴

ترجمة أبى بكر بن باجة آخر فلاسفة الإسلام ببلاد الأندلس (ابن الصائغ) ٢١۶

ترجمة محمد بن أحمد الوادى آشى ٢٢٣

من نظم ابن باجة الصائغ الفيلسوف ٢٢۴

ترجمة الفتح بن خاقان و فيها ذكر سبب العداوة التى كانت بينه و بين ابن باجة ٢٢٥

من نثر الفتح بن خاقان ٢٢٧

ترجمة الفتح بن خاقان عن المغرب و من شعره ٢٢٩

من بديع إنشاء ابن خاقان ٢٣١

من ترجمة أبى بكر الزبيدى اللغوى ٢٣٣

من ترجمة أبى مروان عبد اللّه بن المعتصم بن صمادح ٢٣٥

من ترجمة أبى يحيى بن المعتصم، رفيع الدولة ابن صمادح ٢٣٧

من ترجمة الوزير أبى الوليد بن حزم ٢٣٨

من ترجمة أبى بكر الغسانى و أبى عامر بن عقال ٢٣٩

من ترجمة أبى مروان الطبنى ٢٤١

من ترجمة الفقيه أبى عمر أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد ٢٤٢

من ترجمة أبى القاسم المنيشى ٢٤٥

من ترجمة أبى الحسن البرقى ٢٤٧

من ترجمة أبى الحسن على بن جودى ٢٤٨

نماذج من شعر الفتح بن خاقان ٢٥٠

نماذج من نثر الفتح بن خاقان ٢٥١

موشحة ابن سهل التى عارضها لسان الدين ٢٥٢

بعض أهل المغرب يعارض موشحة ابن سهل ٢٥٣

موشحة للسان الدين بن الخطيب ٢٥٦

لسان الدين يؤلف كتاب: جيش التوشيح، ثم يذيل عليه وزير القلم بالمغرب عبد العزيز القشتالى ٢٥٨

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٨، ص: ٣٢٧

موشحة أبى العقاد ٢٥٨

موشحة لبعض أهل مراكش ٢٥٩

موشحة للسلطان منصور و مقطوعات أخرى من نظمه ٢٦١

موشحة بعض أذكياء الأصحاب فى مديح المقرى ٢٦٩

من موشحات لسان الدين ٢٧٢

موشحة لعثمان الملطى فى مدح القاضى الفاضل ٢٧٤

موشحة للشهاب العزازى ٢٧٥

موشحة الموصلى التى عارضها الشهاب العزازى ٢٧٩

## الباب السادس من القسم الثانى من الكتاب

: فى مصنفات لسان الدين ٢٨٢

لسان الدين يذكر مؤلفاته فى الترجمة التى عقدها لنفسه فى الإحاطة ٢٨٢

استدراك للمؤلف بذكر مؤلفات لسان الدين بعد كتابته ترجمته و ابن الأحمر يتحدث عن مصنفات لسان الدين ۲۸۳
حديث عن روضة التعريف، أحد مؤلفات لسان الدين و بقية مؤلفاته ۲۸۴
حديث عن كتاب الإحاطة أحد تآليفه، و مختصره: مركز الإحاطة فى أدباء غرناطة، للبدر اليشتكى ۲۸۶
حجة سلطانية بوقف كتاب الإحاطة ۲۸۶
لسان الدين يقف نسخة من كتاب الإحاطة بخانقاه سعيد السعداء بمصر ۲۸۸
المؤلف يرى خطوط جماعة من العلماء على نسخة الإحاطة بمصر ۲۸۹
ابن الأحمر يبين أصول ابن الخطيب فى كتابه الإحاطة ۲۹۰
ترجمة أبى إسحاق إبراهيم بن عبد اللّه بن الحاج الغرناطى (عن الإحاطة) ۲۹۱
قصيدة لمحمد بن الثغرى يمدح فيها أبا حمو سلطان تلمسان ۳۰۲
قصيدة أبى المكارم قنديل ابن صاحب المقدمة الآجرومية فى فاس ۳۰۴
قصيدة أخرى للثغرى يمدح تلمسان و سلطانها ۳۰۶
القاضى المزدغى يمدح فاس، و لسان الدين يمدح تلمسان ۳۱۰
لأبى عبد اللّه التلاليسى فى تلمسان ۳۱۱
قصيدة ابن خميس فى مدح تلمسان ۳۱۲
حديث عن تلمسان لأبى زكريا يحيى بن خلدون فى كتابه: بغية الرواد فى أخبار بنى عبد الواد، و أيام أبى حمو الشامخة الأطواد ۳۱۴
وصف لسان الدين لمدينة تلمسان ۳۱۵
المقرى مؤلف الكتاب يتحدث عن تقلباته فى البلاد و تواريخها و ترجمة أبى مدين ۳۱۶

## تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).
قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).
مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبيّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.
مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبيّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإماميّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...
الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت

–عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵–۲۳۵۷۰۲۳– (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِى الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹